فن الحدائق

ونصوص في التراث العربي

يا نسيماً هب مسكا عبقا هذه أنفاس ريّا جلقا

« أبو فراس السّلمي »

د. عبدالكريم اليافي

الحديقة **جزء من الطبيعة هيأه الانسان لمباهجه وأعد فيه خلاصة ما وجده فيها من نبات جميل اختاره ومياه عذبة أجراها وطير جمعه وحيوان حشره أو دجّنه، مع طرق أحسن رصفها ومقاصير أجاد بناءها ودكّات رتبها للتامل ومجالس نظّمها للتملي • هذا الى اتساع رقعة الجو ومعايشة الأشعة والظلال ومغاداة النسيم ومراوحته ومفاتن الفصول الأربعة ونصوع أناء النهار كل وقت له جماله وطلاوته كالشروق والبكور والغدوة والضحى والظهيرة والعصر والأصيل والغروب ، وسحر آناء الليل وغموضها كاختلاط النور والظلام والشفق والغسق والعتمة والسدفة والموهن والسحر والفجر والصبح ثم مع ذلك مرافق مساعدة ومنافع مسعدة • فالحديقة بهذا الشكل وعلى هذا الطراز مختصر الطبيعة المختار بل هي تنظيم لبعض أجزاء الطبيعة كما ترغب الارادة الانسانية المتحلية بالحس الفني والمتجلية بالرهافة الجمالية • فهي تعمد الى تشكيل أجزاء الطبيعة الحية التي هي رهن التكامل والنمو والتفتح والربوّ والازدهار والازدهاء ولكنها ايضاً رهن العسوّ والذبول والجفاء والفناء •**

هذا التناقض في الصفات والخصائص يبرز الفرق بين فن الحدائق وبقية الفنون المتعارفة • ذلك أن طائفة من هذه الفنون الجميلة تعالج مواد هامدة وتؤلف بينها لتهب لها وجوداً فنياً ممتعاً من نوع روحي خاص كما يفعل التصوير بالألوان والخطوط والأشكال وكما يصنع النحت بالمرمر والصفر والخشب وأمثالها فهي تفرض على هذه المواد أشكالا ونسباً ثابتة ونهائية • ولكن فن الحدائق يعالج مادة حية لها قوانينها ونظامها في النمو والتكامل أو النكوص والتراجع • فهي

ان استجابت لرغبات الانسان وما يريده من تشكيل وتأليف فلا بد من أن تخرج عن ارادته ورغباته بالعفوية التي تملكها والخصائص التي تتميز بها · هذا نوع من التناقض والانسجام في وقت واحد بين المادة الحية والأشكال التنظيمية المفروضة · وليس فن الحدائق الا تعهد ذلك الانسجام والتناقض والاختلاف والائتلاف والنجاح في الملاءمة بين هذه الأضداد · قد تطغى المادة الطبيعية الحية في الأسلوب فيقترب فن الحدائق من عفوية المناظر الطبيعية أو يوحي بها دون أن يلتزم بها تماماً · وقد يغلب التنظيم في الحديقة فيحد القوى الطبيعية ويضيّق عليها ويجعلها قريبة من موادفن العمارة وذلك بتقليم الورود والأشجار وترتيب المروج والأزهار وتنسيق الفسقيات والجداول واعطاء الجميع أشكالا هندسية ونسباً متسقة متصلة ومنفصلة ·

هذان الحدان المتقابلان الطبيعي والهندسي يترجح بينهما تاريخ فن الحدائق كله منذ القديم الى العصر الحاضر · فن الحدائق الصيني والياباني ثم الانكليزي مثال على النوع الأول ، وفن الحدائق البابلي ثم الفرنسي مثال على النوع الثاني. والجامع للنوعين هو الفن العربي الاسلامي ·

ان موضوع الحدائق مادة الحياة ومافيها من عناصر · ولما كان الكائن الحي رهن التبدل والتغير احتاج هذا الموضوع الى التعهد الدائم والصيانة الدائبة ، والا سرعان ما ينتهي الى التصوّح والاضمحلال ويفضي الى الذُوِيّ واليبس والانقراض ·

يُلحق الفيلسوف الألماني « كانت » فن الحدائق بفن الرسم والتصوير · ويضع مواطنه وتلميذه « شوبنهور » فن الحدائق وتصوير المناظر ورسم الطبيعة الميتة في مرتبة واحدة من تصنيفه للفنون، اذ تشف جميعها عن تصورات الطبيعة النباتية من نموّ وتشكل الى جانب سيولة الماء الجاري والظل والنور والحرور وهي كلها نغمات الطبيعة الصم العميقة كالجاذبية والثقل والمقاومة وغيرها مما يؤلف تصورات فن العمارة وينم عن درجة من درجات تحقق الارادة التي هي عند فيلسوفنا المتشائم جوهر الرغبة في الاستمرار والبقاء ·

ولقد كان الفلاسفة الحديثون الذين عالجوا الفنون متفاوتين في النظر الى قيم الجمال في الطبيعة والى تقدير يد الانسان الصنّاع في تنسيقها · ولا شك

أن الأدباء والفلاسفة الرومنسيين أعلوا شأن حب الطبيعة وعكفوا على التعاطف معها حتى ان المشاعر العميقة تلقاءها تؤلف عنصراً مهماً من عناصر الأدب الرومنسي الأوربي في القرن التاسع عشر ·

ولكن لا بد من التنويه بالفيلسوف الانكليزي « جون رسكين » الذي أعلى شأن الطبيعة وجعل كل مجلى من مجاليها جميلا وزعم مناظرها كلما خلصت من أثر الانسان كان جمالها أوفر · ألا ترى الى السحاب حين تنظر اليه في السماء تجتذبك أشكاله المتغيرة المتبدلة وكل هذه الأشكال تتفق مع قوانين الجمال · ويرى رسكين أن الطبيعة هي معلمة الفن الأولى والوحيدة وأنها الرمز الذي يشير الى بارئها جلّ وعلا ، كما يرى أن الفن غذاؤه حبّ الطبيعة وتأملها ، وقوته في تواضع الفنان واقتدائه بها ·

وينطوي التراث الحضاري العربي على صور فكرية وفنية وأدبية بديعة في حب الطبيعة وتصوير مفاتنها · وقد عقدنا في كتابنا « دراسات فنية في الأدب العربي » فصلا عرضنا فيه صوراً بليغة في هذا الشأن · فلا حاجة للافاضة هنا فيه ·

على أن الحديقة باختصارها للطبيعة واعتبارها معرضاً لبعض مجاليها وصورها تضم ما في الطبيعة من قيم جمالية · فلا شك أن الورد والنرجس والبنفسج والريحان والأقاحي ينظر اليها الفن بمنظاره ويصنف قيمتها الجمالية في مرتبة الرقة واللطف والحلاوة والرهافة ، كما ينظر الى الدوحة الباسقة والأرزة الشامخة الباذخة فيشعر تجاهها بعاطفة السمو والروعة ، وينظر الى البركة المتسعة التي يسبح في سطحها البط فيشعر بالحسن والرشاقة والانسياب والسهولة ، وكلما أنعم المرء النظر في الطبيعة وتأمل محاسنها في مختلف الآناء والفصول استخفته مجاليها الممتعة وأنس بعناصرها البديعة وأخلد الى ما فيها من الائتلاف والاختلاف وتعدد الألوان والأصباغ والى قوة الحياة المنبثة في غضارة نباتها والى ما ينبعث في مجاليها من رأم وحنان · وقد يتمثل بقول الشاعر أبي نصر المنازي أو الشاعرة حمدة بنت زياد :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحة فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامة للنديم

تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

ثم ان انشاء الحدائق وتعهدها يقتضيان تقدم الفلاحة ووجود زرّاع وأكّارين يستصلحون الأرض ويجعلونها مخصاباً ان لم يكن الخصب من صفاتها ويعرفون أنواع النبات وخصائصه وحاجاته وما يزكو ويربو به من تراب وسماد وسقاية ويدركون أشكال نموه وتفرعاته وأغراسه ومزاياه .

وأقدم ما يعرفه المؤرخون عن تقدم الفلاحة يرجع الى عهود ما بين النهرين أحد مهود الحضارة الانسانية . يقول المؤرخ المسعودي في كتابه «مروج الذهب» عند بحث ملوك بابل : « فهؤلاء الذين أتينا على أسمائهم وذكرنا مدة ملكهم هم الذين شيّدوا البنيان ومدنوا المدن وكوّروا الكُور وحفروا الأنهار وغرسوا الأشجار واستنبطوا المياه وأثاروا الأرض واستخرجوا المعادن من الحديد والنحاس والرصاص وغير ذلك . »

وأكثر ما اعتمد البابليون والآشوريون في الفلاحة أشجار النخيل الباسقة . وكانت تؤلف غالبية الأشجار والدوح في البساتين . ويصعب معرفة المكان الأصلي الذي دخلت منه النخلة الأولى الى العراق . ويظن أنه شبه جزيرة العرب . وكثرت زراعتها في الجنوب . وقد عرفوا فوائد هذه الشجرة فأكلوا ثمرها واستخرجوا منه أصنافاً من الأشربة والخمور ثم صنعوا منه الدبس ثم الخل ، واستعملوا النوى وقوداً أو سحقوا النوى وقدموها علفاً للحيوان كما استعملوا السعف والجريد في صنع البيوت ، واصطنعوا الألياف في عمل الحبال . ثم انهم عمدوا الى تكثير النخيل بالفسيل وباستنبات النوى وان كان الاستنبات بالنوى أبطأ جداً منه بالفسيل . وكانوا يتركون مسافات كافية بين النخلة والنخلة . ويستفيدون من هذه المسافات حيث يضؤل البخر في زراعة النباتات الظلّية اذ كانت تتيح تلك الفُرَج رطوبة تكاد تكون دائمة فيساعد ذلك على انبات ما هو غض لطيف لا يحتمل لفح القيظ الشديد ولا نفح البرد القارس . ومن غرائب مساعي الانسان أن البساتين والحدائق لم تنشأ أول ما أنشئت لزيادة المحصول الغذائي بل للمتاع والبهجة ولزراعة الأزهار والزينة . كانت تتجلى فيها شدة الخصب وتتبدى قوة الحياة وتباركها الآلهة التي تشرف على الحياة

وعلى الاخصاب • ولا غـرو أن تكـون عشتار هنالك عندهم وفي أوهامهم راضية عن اقامة تلك الحدائق والبساتين •

أقام الملك الآشوري سرغون (الذي حكم بين ٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق•م) في عاصمته دور شروكين على مقربة من نينوى حديقة واسعة جلب اليها من جبال الأمانوس في جنوبي الأناضول أنواعاً من الأشجار كالصنوبر والسرو كمـا جلب من شمالي سـورية التين والعنب والغـار والآس وأصناف الورود • وكأن حديقته تلك كانت تختصر نبات البلاد التي دوّخها • وربماكان قد جلب اليهـا أيضاً بعض أنـواع الطيور والطرائد والسباع • وأربى خلفه سـنحاريب عليـه اهتمامـاً بالزراعـة وتعهـداً لهـا •

وبعد أكثر من قرن جاء ملك بابـل بختنصر(*) (حكم بين ٦٠٥ـ٥٢٦) فأنشأ الحدائق المعلقة الذائعة الصيت في قاعدة ملكه بجانب قصره الفسيح • كانت هذه الحدائق سـطوحاً ومستويات مستطيلـة مُمهّد بعضها فـوق بعض ، تتألف مـن تراب خصيب هو طمي الفرات • وكـل سطح يتجاوز ما هو أعلى منه • ويزرع على جوانب السطوح وممراتها النخيـل وبينه النباتات الظلّية البديعة العطرة • وقد جُرّ الماء من الفرات بأقنية وبآلات مائية يتناوب في ادارتها طوائف من الرقيق حتـى يصـل الى أعلى طبقـة من تلـك السطوح ثم يتسبب الماء من سطح الى آخر دونـه • وتقـوم في الساحة العليـا مقاصير لسكنى الملك وأسرته • ومن تلك المقاصير تلوح الأشجار والأزهار نزهـةً للأبصار كما تهب النسمات تحمل الشذا المعطار • وانما ابتنى الملك تلك الحدائق كُرْمى لزوجته الأميرة الميدية ورفقاً بها من قيظ العراق • وقد نسبت تلك الحدائق خطأً الى الملكة سمير اميس • وكانت الحدائق احدى عجائب الدنيا لهج بجمالها وعظمة بنائها وطاقة تكوينهـا السياح اذ ذاك من كل صوب •

الى الجنوب والغرب من بلاد ما بين النهرين اتسق فن الحدائق قديماً في مصر . ولما كانت مصر « هبة النيل » كانت الحدائق والبساتين فيها قائمة على وجه الأرض وقريبة من هذا النهر العظيم أو من أحد فروعه لتمتاح منه ما تحتاجـه من ميـاه

★ يقال له ايضا نبوخذ نصر ، ونبوكد نصر •

للسقاية والري . وكانت مزروعاتها الأشجار المثمرة من نخيل وجمّيز (تين فرعون) وغيرهما . وكان الزرّاع يشقون من النهر اليها جداول تلتقي في وسط البستان لتؤلف حوضاً واسعاً ينمو فيه النيلوفر الأبيض المصري (اللوتس) والنيلوفر البنفسجي وجنبات البردي كما تلعب في مياهه الأسماك وتتعايش معها الطيور المائية . وكل بستان مسوّر يضم في داخل أسواره أطايب العيش ونِعم السعادة ومفاتن الحياة .

ذانكم أسلوبان من فن الحدائق . أما الأول فمعلق قائم على طبقات بعضها فوق بعض ، يدل على براعة وقوة فائقتين في التنظيم وجر المياه . وأما الآخر فمستلق في السهل يفيد من انبساط الأرض ومن خصبها واتساعها ومن تدفق النيل وفروعه .

ولكن تاريخ هذا الفن يبرز أسلوباً ثالثاً وهو فارسي يختلف عن الأسلوبين السالفين . انه يعتمد على سعة الأرض وتضاريسها معاً . فهو حديقة لنباتات الزينة وهو بستان تنصب فيه الأشجار والدوح في صفوف من كل نوع ، ووراءها أجمات وغياض أشبه ما تكون بالغابة يعيش فيها طرائد للصيد وحيوانات مختلفة . وربما أخذ الفرس عن البابليين ادخال الطيور والحيوان الى تلك الحدائق. وفي الموضع تلو الموضع من أرجائها سرادق أو صيوان أو جناح للاستجمام والشراب. بل توجد في بعض الأشجار الضخمة قُتَر" أو نواميس أقيم كل منها لتربص الصائد فريسته . وفي التراث العربي أوصاف لبعض تلك الحدائق الغناء الفيح التي يسمونها الفراديس وهذا لفظ فارسي دخل العربية كما دخل اللغات الأجنبية . ونحب أن نكون أوفياء لعنوان هذا البحث فنتوارى في الحين بعد الحين وراء النصوص نُطْرف بها القارىء الكريم بأقلام مؤلفيها ونكفيه مؤونة التنقيب عنها ونيسّر له لقاءها . نترك الحديث لياقوت الحموي يتكلم على « قصر شيرين » في معجمه :

« **قصر شيرين** : بكسر الشين المعجمة ، والياء المثناه من تحت الساكنة ، وراء مهملة، وياء أخرى ، ونون ، وشيرين بالفارسية الحلو ، وهو اسم حظية كسرى أبرويز وكانت من أجمل خلق الله ، والفرس يقولون : كان لكسرى أبرويز ثلاثة أشياء لم يكن لملك قبله ولا بعده مثلها : فرسه شبديز وجاريته شيرين ومغنيه وعوّاده بلهبذ . وقصر شيرين موضع قريب من قرميسين بين همذان وحلوان في طريق بغداد الى همذان وفيه أبنية عظيمة

شاهقة يكل الطرف عن تحديدها ويضيق الفكر عن الاحاطة بها ، وهي ايوانات كثيرة متصلة وخلوات وخزائن وقصور وعقود ومتنزهات ومستشرفات وأروقة وميادين ومصايد وحجرات تدل على طَوْلٍ وقوة. قال محمد بن أحمد الهمذاني : كان السبب في بناء قصر شيرين، وهو احدى عجائب الدنيا ، أن أبرويز الملك وكان مقامه بقرميسين أمر أن يبنى له باغ يكون فرسخين في فرسخين وأن يحصَّل فيه من كل صيد حتى يتناسل جميعه ووكل بذلك ألف رجل وأجرى على كل رجل في كل يوم خمسة أرغفة من الخبز ورطلين لحماً ودورق خمر ، فأقاموا في عمله وتحصيل صيوده سبع سنين حتى فرغوا من جميع ذلك، فلما تم واستحكم صاروا الى البلهبذ المغني وسألوه أن يخبر الملك بفراغهم مما أمروا به، فقال : أفعل ، فعمل صوتاً وغناه به وسماه باغ نخجيران أي بستان الصيد ، فطرب الملك عليه وأمر للصناع بمال ، فلما سكر قال لشيرين : سليني حاجة ، فقالت : حاجتي أن تصيّر في هذا البستان نهرين من حجارة تجري فيهما الخمور وتبني لي بينهما قصراً لم يُبن في مملكتك مثله ، فأجابها الى ذلك وكان السكر قد غلب عليه فانسي ما سالته ولم تجسر أن تذكره به فقالت لبلهبذ : ذكِّره حاجتي ولك علي أن أهب لك ضيعتي باصبهان، فأجابها الى ذلك وعمل صوتاً ذكّره فيه ما وعد به شيرين وغنّاه اياه ، فقال : أذكرتني ما كنت قد أنسيته ، وأمر بعمل النهرين وبناء القصر بينهما فبني على أحسن ما يكون وأحكمه ، ووفت لبلهبذ بضمانها فنقل عياله الى هناك ، فلذلك صار من ينتمي اليه باصبهان ، وقال بعض شعراء العجم يذكر ذلك :

يا طالبي غُرر الأماكن … حيّوا الديار ببرزماهن
وسلوا السحاب تجودها … وتسحّ في تلك الأماكن
وتزور شبديز الملوك … وتنثني نحو المساكن
واهاً لشيرين التي … قرعت فؤادك بالمحاسن
تمضي على غلوائها … لا تستكين ولا تداهن
واهاً لمعصمها المليح … وللسوالف والمغابن
في كفها الورق المسـ … ـك والمطيب والمداهن
وزجاجة تدع الحكيـ … ـم ، اذا انتشى ، في زي ماجن
أنعظت حين رأيتها … واهتاج مني كل ساكن
فسقى رباع الكسرويـ … ـة بالجبال وبالمدائن
دانٍ يسف ربابه … وتناله أيدي الحواصن

انما قاله لأن صورتها مصورة في قصرها، كما ذكرناه في شبديز ، وللشعراء فيها وفي صورتها التي هناك أشعار قد ذكرت بعضها في شبديز » .

كانت البلاد العربية قبل الاسلام كثيرة الاهتمام بتعاهد المياه والري والفلاحة والشجر والنبات . وذلك بحفر الآبار وبناء السدود (كسد مأرب) وشق الأفلاج أي القنوات الباطنة والمكشوفة والكظائم أي القنوات بين آبار متقاربة كما في أطراف شبه الجزيرة العربية وأرجائها وباعتماد السواقي والنواعير وغيرها فنشأت فيها واحات خضراء طبيعية وصنعية متعددة بقيت حتى عهود الاسلام . ولما بزغ هذا الدين واهتدى الناس نهدوا الى العلوم بشتى أنواعها ونهضوا لاستجلاء غوامض الطبيعة لأن كل كشف عن سر من أسرارها وسنة من السنن التي أودعها ربها فيها يقرب من الله عز وجل فبرعوا في مختلف المعارف وزادوا على ما حصله متقدموهم من العرب الأوائل والأنباط والأكاديين والبابليين واليونان والفرس والهنود وغيرهم . ومن العلوم التي أتقنوها اتقاناً بالغاً علوم النبات والفلاحة ومعالجة الأرض واستصلاحها فلم يتركوا جانباً من جوانب النبات من فصيلة ونوع وجنس ورتبة الا درسوه ولا حالا من أحواله من شطء ونمو واخضرار وايراق وازهار واثمار وكذلك من هيج واصفرار وذبول ويبس وتهشم وتحطم الا وصفوها وسموها .

وقد نوه القرآن الكريم بقيمة الماء : « **وجعلنا من الماء كل شيء حي** » (٢١/٣٠) ووصف اهتزاز الأرض وربوها وإنباتها غب المطر : « **وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** » (٢٢/ ٥) واسترعى أنظار الناس نحو بهجة النبات والأشجار والدوح والاثمار : « **وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** » (٦/٩٩) كما أكد عجائب الطبيعة التي برأها والتي هي مواطن اعتبار الخلق : « **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » (٣٦/٣٣ـ٣٦) كذلك وصف للمؤمنين ما أعد لهم من نعيم الجنان وحثهم على عمارة الأرض والاستفادة من خيراتها والتمتع الحلال بزينتها : « **قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** » (٧/٣٢) .

ولذلك كله لا غرو أن يقبل المسلمون الذين فهموا كنه الرسالة وفحواها الى العمل المخلص المؤدي الى الخير في كل سبيل . والذي يهمنا هنا هو سبيل الفلاحة والزراعة فترجموا وألفوا كتباً متعددة في هذا الميدان . وكثر بين العلماء لغويون أحصوا الألفاظ الدالة على ما يتعلق بالنبات والشجر ، وعلماء نباتيون وصفوا ما تدارسوه من النبات والشجر ، وعشابون أبانوا خصائص كل عشب ، وأطباء وصيدلانيون أبرزوا الأدوية المفردة لكل عشب والأدوية المركبة من مختلف العقاقير .

وغـدت الفلاحة علماً · جـاء في كتاب« مفتـاح السعادة ومصباح السيادة » لطاش كبرى زاده أنهـا « علم يتعرّف منه تدبـير النبات مـن أول نشوئه الـى منتهى كمـاله باصلاح الأرض إما بالماء أو بما يخلخلهـا ويحميها مـن المعفنات كالسماد ونحـوه أو يَحْمُتُها في أوقات البرد مع مراعاة الأهوية ·فيختلف باختـلاف الأماكـن ، ولذلك تختلف قوانـين الفلاحة باختلاف الأقاليم · ومنفعتهزكـاة(*) الحبوب والثمار ونحوهما · وهـو ضروري للانسان في معاشه، ولذلك أشتق اسمه من الفلاح وهو البقاء · ومن لطائفه ايجـاد بعض نتائجه في غـير أوانـه واستخراج بعضمباديه من غير أصله وتركيب الأشجار بعضها ببعض الى غير ذلك » · ثم يورد المؤلف مثلاًعلى آثر النبات في النفس فيقول : « ذكـر أبو بكر بن وحشية في كتابه المسمى بالفلاحة عـن النبط أن مـن دار حول شجرة الخطمي وتطلـع بالنظر الى وردها وأدام ذلك فانهـاتحدث فرحاً في النفس وتزيل عنه الهم والحزن والغـم » ·

والى جانب ذلك كله عمد الأثرياء والأمراء والملوك الى تزيـين ساحات قصـورهم بحدائـق بديعـة وبساتين أنيقـة زيادة علىالحقول المزروعة للغـلال والثمار · وذلك في أطوال البلاد العربية والاسلامية وعروضها منالأندلس الى مشارف الصين ·

ولا بد من التنويه بالديارات التي انتشرت في البلاد العربية انتشار الزهر في المروج وهي جمع دير(*)، أي بيت يتعبد فيه الرهبانولا تكاد تكون في المدن الكبيرة وانما تكون في الأرياف والبراري وفي الجبال أو على ضفافالأنهار ، وكل دير يشتمل على بيعة أو كنيسة وعلى صوامع يقيم بها الرهبان وعلى أخرىتقيم بهـا الراهبات ولا يخلو من دور ضيافة ينزلها زوار الدير او المجتازون به· وتتفاوتالديارات في الفخامـة واتساع الرقعة وطيب المرافق والبساتين والمزارع الملحقة بها · وهيمنتجعات يؤمهـا الناس مسيحيين ومسلمين في أعياد القديسين والمناسبات الدينية ولا سيمافي أوقات الربيع أو في أثناء الرحلات · واذا رجـع المرء الى كتاب الديارات لأبي الحسنعلي بن محمد المعروف بالشابشتي (توفي سنة ٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) وطالع فيه الأديرة التيتنيف على الخمسين ، آنس متاعاً محبباً وبهجة تنبعث من وصف كل دير ومن الشعر الرقيق الذي قيـل فيـه ومن تلك الحدائق والكروم والنخيل والرياحين التي تحدق به ومن الالفةالعميقة بـين الدينين المستندين الى المحبة والأخوة وخدمـة الانسان والمجتمع والمتجهين نحو صفاء الروح وتزكية النفس والعبادة ، على أن بعض المُجّان كانوا يغتنمون ذلـكللفسحة والنزهة والشراب واللهو ·

★ الزكاة هنا بمعنى النماء والخصب ·

★ تذكر غالبية معجمات اللغة للدير جمعا واحدا وهو أديار · ولكن ياقوتا في مادة الدير من معجم البلدان يورد نقلا عن الفراء « ويقال دَيْر ودِيَرَة وأديار وديـران ودارةودارات وأديرة ودِيَر ودور ودوران وأدوار ودِوار وأدورة » ، ولكن أكثر هذه الجموع ذكرها علماء اللغة جمعا للدار· وسبب هذا الاشتراك هو أن الدير من اللغات في الدار · ويقول ياقوت : ولعله بعد تسمية الدار به خصص الموضع الذي تسكنه الرهبان به وصار علما له ·
ثم يذكر في مادة ديارات الأساقف : « الديارات جمـعدير · »
أو هو جمع الجمع لان الدير يضم عدة دور ·

كل قطر من أقطار الوطن العربي يمكن آن يكتب سفر خاص في حدائقه السابقة وبساتينه السالفة ومنازهه الوارفة ومواطنها في الأزمنة الخالية وآثارها في الأزمنة الحاضرة. ولكنا هنا نقتصر على بعض النصوص لنستبين من ورائها ملامح تلك الحدائق وخصائصها وتركيبها وما فيها من أنواع النبات والطير والحيوان والمرافق والسلوك والاستعمال ونقتفي لأجل ذلك سبيل السير الشعبية وأهمها عندنا هنا كتاب ألف ليلة وليلة ، ثم الشعر العربي الذي هو ديوان العرب والذي يلم الماماً ببعض تلك الحدائق والقصور، ويشير اشارات تحتاج الى توقف وتأمل لادراك مضامين تلك الاشارات .

لقد كثرت الحدائق والفراديس والبساتين في الحضارة العربية الاسلامية اذ ورثت هذه الحضارات مكاسب الحضارات السالفة وزادت عليها وتفننت تفنناً جعل أنظار العالم كله تشخص اليها والى منجزاتها في كل ميدان. في ليلة ٨٢٦ من ألف ليلة وليلة نجد وصفاً لبستان « مشيد الأركان رفيع البنيان له باب مقنطر كأنه ايوان » ، كما نجد وصفاً لأنواع الفاكهة والأشجار فيه ولصنوف الطيور والى لواوين فيه ، وما في هذه اللواوين من أثاث بديع ، وللحفلات والولائم ومجالس اللهو التي تنعقد في أبهائها وزواياها وأجنحتها . ونحن نكفي القارىء الكريم الرجوع الى هذا الكتاب فنورد ما تتحدث به شهر زاد في ليالي ٨٢٦ و٨٢٧ و٨٢٨ و٨٢٩ و٨٣٠ و٨٣١ (المطبعة العثمانية المصرية) . ان هذا الحديث يشف عما شاهده الشعب ويتصوره أو يتخيله بالاستناد الى ما يراه والى ما يزاوله من أمور ومرافق .

حكاية علي نور الدين مع مريم الزنارية*

(وفي ليلة ٨٢٦) قالت : ومما يحكى أيها الملك السعيد أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان رجل تاجر بالديار المصرية يسمى تاج الدين وكان من أكابر التجار ومن الأمناء الأحرار ، الا أنه كان مولعاً بالسفر الى جميع الأقطار ويحب السير في البراري والقفار والسهول والأوعار وجزائر البحار في طلب الدرهم والدينار ، وكان له عبيد ومماليك وخدم وجوار وطالما ركب الأخطار وقاسى في السفر ما يشيب الأطفال الصغار ، وكان أكثر التجار في ذلك الزمان مالاً وأحسنهم مقالاً صاحب خيول وبغال وبخاتي وغرائر وأعدال وبضائع وأموال وأقمشة عديمة المثال ، من شدود حمصية وثياب بعلبكية ومقاطع سندسية وثياب مرزوية وتفاصيل هندية وأزرار بغدادية وبرانس مغربية، ومماليك تركية وخدم حبشية وجوار رومية وغلمان مصرية ، وكانت غرائر أحماله من الحرير لأنه كان كثير الأموال بديع الجمال مائس الأعطاف شهي الانعطاف ،وكان لذلك التاجر ولد ذكر يسمى علياً نورالدين كأنه البدر اذا بدر ليلة أربعة عشر بديع الحسن والجمال ظريف القد والاعتدال ، فجلس ذلك الصبي يوماً من الأيام في دكان والده على جري عادته للبيع والشراء والأخذ والعطاء وقد دارت حوله أولاد التجار ،فصار

★ حافظنا ما استطعنا على الأصل .

هو بينهم كأنه القمر بين النجوم بجبين أزهروخد أحمر وعذار أخضر وجسم كالمرمر كما قال فيه الشاعر :

ومليـــح قال صفنـــي أنـت في الوصـف فصيـح
قلـت قـولا باختصـــار كـل مـا فيـك مليـح

فعزمه أولاد التجار وقالوا له يا أخانا نور الدين اننا نشتهي في هذا اليوم أن نتفرج نحن وأنت في البستان الفلاني ، فقال لهـمحتى أشاور والدي فاني لا أقدر أن أروح الا باجازته ، فبينما هم في الكلام واذا بوالدهتاج الدين قد أتى فنظر اليه وقال يا أبي ان أولاد التجار قد عزموني لأجل أن أتفرج أناواياهم في البستان الفلاني ، فهل تأذن لي في ذلك ؟ فقال نعم يا ولدي ، ثم انه أعطاه شيئامن المال وقال له توجـه معهم ، فركب أولاد التجار حميراً وبغالا وركب نـور الدين بغلةوسار معهم الى بستان فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وهو مشيـد الأركان رفيـعالبنيـان له باب مقنطر كأنـه ايوان وبـاب سماوي يشبه أبواب الجنان وبوابـه اسمـهرضوان ، وفوقه مائة مكعب عنب من سائر الألوان ، الأحمر كأنه مرجان والأسود كأنهأنوف السودان والأبيض كأنه بيض الحمام ، وفيـه الخوخ والرمان والكمثرى والبرقوقوالتفاح كل الأنواع مختلفة الألوان صنوان وغير صنوان، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتتعن الكلام المباح .

(وفي ليلة ٨٢٧) قالت : بلغني أيها الملك السعيد أن أولاد التجار لما دخلوا البستان رأوا فيه كل ما تشتهي الشفة واللسان ، ووجدوا العنب مختلف الألوان صنواناً وغـير صنوان ، كما قال فيه الشاعر :

عنب طعمـه كطعـم الشـراب حالك لونــه كلون الغـراب
بـين أوراقــه زهـا فتراه كبنـان النساء بعـد الغضاب

ثم انتهوا الى عريشة البستان فرأوا رضوان بواب البستان جالساً في تلك العريشة كأنـه رضوان خازن الجنان ، ورأوا مكتوباعلى باب العريشة هذين البيتين :

سقى الله بستانا تدلت قطوفـه فمالت بها الأغصانمن شدة الشرب
اذا رقصت أغصانه بيد الصبـا تنقطهـا الأنـواء باللؤلؤ الرطب

وفي ذلك البستان فواكه ذات أفنان ، وأطيار مـن جميع الأصناف والألوان ، مثل فاخت وبلبـل وكروان وقمري وحمام يغرد على الأغصان ، وأنهار بها الماء جار ، وقد راقت تلك المجاري بأزهار وأثمار ذاتلذات،كما قال فيها الشاعر هذه الأبيات :

سرت النسيم على الغصون فشابهت حسنـاء تعثـر في جميـل ثيابهـا
وحكت جداولها السيوف اذا انتضت أيـدي الفوارس من غلاف قرابهـا

وفي ذلك البستان تفاح سكري ومسكي يدهش الناظر ، كما قال فيه الشاعر :

تفاحة جمعت لونين قد حكيا ... خدي حبيب ومحبوب قد اجتمعا

لا حا على الغصن كالضدين منعجب ... فذاك أسود والثاني بـه لمعا

تعانقا فبدا واشٍ فراعهما ... فاحمر ذا خجلا واصفر ذا ولعا

وفي ذلك البستان مشمشلوزي وكافوري وجيلاني وعنتابي كما قال فيه الشاعر :

والمشمش اللوزي يحكي عاشقا ... جاء الحبيب لـه فحير لبه

وكفاه من صفة المتيم ما بـه ... يصفر ظاهره ويكسر قلبه

وفي ذلك البستان برقوق وقراصيا وعناب ، تشفي السقيم من الأوصاب ، والتين فوق أغصانه أحمر وأخضر ، يحير المعقول والنواظر كما قال فيه الشاعر :

كأنما التين يبدو منه أبيضه ... مع أخضر بين أوراق من الشجر

أبناء روم على أعلى القصور وقد ... جن الظلام بهم باتوا على حذر

وفي ذلك البستان من الكمثرى الطوري والحلبي والرومي ماهو مختلف الألوان صنوان وغير صنوان، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

(وفي ليلة ٨٢٨) قالت : بلغني أيها الملك السعيد أن أولاد التجار لما نزلوا البستان رأوا فيه من الفواكه ما ذكرناه ووجدوا صنوانا وغير صنوان ما بين أصفر وأخضر يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر :

يهنيك كمثرى غدا لونها ... لون محب زائد الصفرة

شبيهة بالبكر في خدرها ... والوجه منها مسبل السترة

وفي ذلك البستان من الخوخ السلطاني ما هو مختلف الألوان من أصفر وأحمر كما قال فيه الشاعر :

كأنما الخوخ لدى روضه ... وقد كُسي من حمرة العندم

بنادق من ذهب أصفر ... قد خضبت في وجهها بالدم

وفي ذلك البستان من اللوز الأخضر ماهو شديد الحلاوة يشبه الجمار ، ولبه من داخل ثلاثة أثواب من صنعة الملك الوهاب ،كما قال فيه الشاعر :

ثلاثة أثواب على جسد رطب ... مخالفة الأشكال من صنعة الرب

تريه الردى في ليله ونهاره ... وان يكن المسجون فيها بلا ذنب

وفي ذلك البستان النارنج كأنه خولنجان كما قال فيها الشاعر الولهان :

وحمراء ملء الكف تزهو بحسنها فظاهرها نار وباطنها ثلج
فمن عجب ثلج من النار لم يذب ومن عجب نار وليس لها وهج

وفي ذلك البستان الكباد متدلياً في أغصانه كنهود أبكار تشبه الغزلان وهو على غاية المراد كما قال فيه الشاعر وأجاد :

وكبادة بين الرياض نظرتها على غصن رطب كقامة أغيد
اذا ميلتها الريح مالت كاكرة بدت ذهباً في صولجان زبرجد

وفي ذلك البستان الليمون زكي الرائحة يشبه بيض الدجاج، ولكن صفرته زينة مجانيه وريحه يزهو لجانيه كما قال بعض واصفيه :

أما ترى الليمون لما بدا يأخذ من اشراقه بالعيان
كأنه بيض دجاج وقد لطخه الخمسة بالزعفران

وفي ذلك البستان من سائر الفواكه والرياحين والخضراوات والمشمومات من الياسمين والفاغية والفلفل والسنبل العنبري والوردبسائر أنواعه ، ولسان الحمل والآس وكامل الرياحين من جميع الأجناس ، وذلك البستان من غير تشبيه كأنه قطعة من الجنان لرائيه ، اذا دخله العليل خرج منه كالأسد الغضبان ولايقدر على وصفه اللسان لما فيه من العجائب والغرائب التي لا توجد الا في الجنان ، كيف لا واسم بوابه رضوان؟ لكن بين المقامين شتان!! فلما تفرج أولاد التجار في ذلك البستان جلسوا بعد التفرج والتنزه على ليوان (تحريف ايوان) من لواوينه وأجلسوا نورالدين في وسط الليوان ، وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

(وفي ليلة ٨٢٩) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن أولاد التجار لما جلسوا في الليوان وأجلسوا نورالدين في وسط الليوان على نطع من الأديم المزركش ، متكئاً على مخدة محشوة بريش النعام وظهارتها مدورة سنجابية ثم ناولوه مروحة من ريش النعام مكتوباً عليها هذان البيتان :

ومروحة معطرة النسيم تذكر طيب أوقات النعيم
وتهدي طيبها في كل وقت الى وجه الفتى الحر الكريم

ثم ان هؤلاء الشبان خلعوا ما كان عليهم من العمائم والثياب وجلسوا يتحدثون ويتنادمون ويتجاذبون أطراف الكلام بينهم ، وكل منهم يتأمل في نورالدين وينظر الى حسن صورته ، وبعد أن اطمأن بهم الجلوس ساعة من الزمان أقبل عليهم عبد وعلى رأسه سفرة طعام فيها أواني من الصيني والبلور ، لأن بعض أولاد التجار كان قد وصى أهل بيته بها قبل خروجه الى البستان ، وكان في تلك السفرة كثير مما درج وطار وسبح في البحار

كالقطا والسمان وأفراخ الحمام وشياه الضأن وألطف السمك ، فلما وضعت تلك السفرة بينهم تقدموا وأكلوا بحسب الكفاية ، ولما فرغوا من الأكل قاموا عن الطعام وغسلوا أيديهم بالماء الصافي والصابون الممسك ، وبعدذلك نشفوا أيديهم بالمناديل المنسوجة بالحرير والقصب وقدموا لنورالدين منديلا مطرزاً بالذهب الأحمر فمسح به يديه وجاءت القهوة فشرب كل منهم حسب مطلوبه ، ثم جلسوا للحديث واذا بخولي البستان جاء ومعه سفرة المدام فوضع بينهم صينية مزركشة بالذهب الأحمر وأنشد يقول هذين البيتين :

هتف الفجر بالسنا فاسق خمراً ... عانساً تجعل الحليم سفيها

لست أدري من لطفها وصفاها ... أبكأس ترى أم الكأس فيها

ثم ان خولي البستان ملأ وشرب ودار الدور الى أن وصل الى نورالدين ابن التاجر تاج الدين ، فملأ خولي البستان كأساً وناوله اياه ، فقال له نورالدين أنت تعرف أن هذا شيء لا أعرفه ولا شربته قط لأن فيه إثماً كبيراً وقد حرّمه في كتابه الرب القدير ، فقال البستاني يا سيدي نورالدين وان كنت ما تركت شربه الا من أجل الاثم فان الله سبحانه وتعالى كريم حليم غفور رحيم يغفر الذنب العظيم ، ورحمته وسعت كل شيء ، ورحمة الله على بعض الشعراء حيث قال :

كن كيف شئت فان الله ذو كرم ... وما عليك اذا أذنبت من باس

الا اثنتين فلا تقربهما أبداً ... الشرك بالله والاضرار بالناس

ثم قال واحد من أولاد التجار بحياتي عليك يا سيدي نورالدين أن تشرب هذا القدح، وتقدم شاب آخر وحلف عليه بالطلاق ، وآخر وقف بين يديه على أقدامه، فاستحى نورالدين وأخذ القدح من خولي البستان وشرب منه جرعة ثم بصقها وقال هذا مرّ !! فقال له خولي البستان يا سيدي نورالدين لولا أنه مرّ ما كانت فيه هذه المنافع ، ألم تعلم أن كل حلو اذا أكل على سبيل التداوي يجده الآكل مراً ؟وأن هذه الخمر منافعها كثيرة ، فمن جملة منافعها أنها تهضم الطعام، وتصرف الهم والغم،وتزيل الأرياح ، وتروق الدم، وتصفي اللون، وتنعش البدن ، وتشجع الجبان ، ولو ذكرنا منافعها كلها لطال علينا شرح ذلك ، وقد قال بعض الشعراء :

شربنا وعفو الله من كل جانب ... وداويت أسقامي بمرتشف الكاس

وما غرّني فيها وأعرف اثمها ... سوى قوله فيها منافع للناس

ثم أن خولي البستان نهض قائماً على أقدامه من وقته وساعته وفتح مخدعاً من مخادع ذلك الايوان وأخرج منه قمع سكر مكرر وكسر منه قطعة كبيرة ووضعها لنورالدين في القدح وقال يا سيدي ان كنت تهيبت شرب الخمر من مرارته فاشرب الآن فقد حلا، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح(*) .

★ هذا النص يدل على أثر أصدقاء السوء وينبه عليه .

(وفي ليلة ٨٣٠) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الخولي قال لنورالدين ان كنت تهيبت شرب الخمر من مرارته فاشرب الآن فقد حلا ، فعند ذلك آخذ نورالدين القدح وشربه ، ثم ملأ الكأس واحد من أولاد التجار وقال يا سيدي نورالدين أنا عبدك ، وكذا الآخر قال انا خدامك ، وقام الآخر وقال من أجل خاطري ، وقام الآخر وقال بالله عليك يا سيدي نور لدين اجبر بخاطري ، ولم يزل العشرة من أولاد التجار بنورالدين الى أن أسقوه عشرة أقداح كل واحد قدحاً ، وكان نورالدين باطنه بكر عمره ما شرب خمراً قط الا في تلك الساعة ، فدار الخمر في دماغه وقوي عليه السكر فوقف على حيله وقد ثقل لسانه واستعجم كلامه وقال يا جماعة والله أنتم ملاح وكلامكم مليح ومكانكم مليح الا أنه يحتاج الى سماع طيب، فان الشراب بلا سماع عدمه أولى من وجوده ، كما قال فيه الشاعر هذين البيتين :

أدرها بالكبير وبالصغير وخذها من يد القمر المنير
ولا تشرب بلا طرب فاني رأيت الخيل تشرب بالصفير

فعند ذلك نهض الشاب صاحب البستان وركب بغلة من بغال أولاد التجار وغاب ثم عاد ومعه صبية مصرية كأنها ليَّة طرية أو فضة نقية أو دينار في صينية أو غزال في برية !! بوجه يخجل الشمس المضيئة وعيون بابلية ، وحواجب كأنها قسي محنية وخدود وردية وأسنان لؤلؤية ومراشف سكرية ، وعيون مرخية ونهود عاجية وبطن خماصية(*) وأعكان مطوية وأرداف كأنهن مخدات محشية، وفخذين كالجداول الشامية وبينهما شيء كأنه صرة في بقجة مطوية ، كما قيلت فيه هذه الأبيات :

ولو أنها للمشركين تعرضت رأوا وجهها من دون أصنامهم ربا
ولو أنها في الغرب لاحت لراهب لخلى سبيل الشرق واتبع الغربا
ولو تفلت في البحر والبحر مالح لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

وتلك الصبية كأنها البدر اذا بدر في ليلة أربعة عشر ، وعليها بدلة زرقاء بقناع أخضر فوق جبين أزهر تدهش العقول وتحير أرباب المعقول ، وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح ٠

(وفي ليلة ٨٣١) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن خولي البستان جاءهم بالصبية التي ذكرنا أنها في غاية الحسن والجمال ورشاقة القدّ والاعتدال ، كأنها المرأة المعنية بقول الشاعر :

أقبلت في غلالة زرقاء لازوردية كلون السماء
فتحققت في الغلالة منها قمر الصيف في ليالي الشتاء

★ البطن مذكر وتانيثه لغة ٠ وخماصية نسبة الى جمع الصفة ٠ وفي الأصل خماسية ٠

ثم ان الشاب خولي البستان قال لتلك الصبية اعلمي يا سيدة الملاح وكل كوكب لاح ، اننا ما قصدنا بحضورك في هذا المكان الا أن تنادمي هذا الشاب المليح الشمائل سيدي نور الدين فانه لم يأت محلنا الا في هذا اليوم ، فقالت له الصبية ليتك كنت أخبرتني لأجل أن أجيء بالذي كان معي ، فقال لها سيدتي أنا أروح وأجيء به اليك ، فقالت افعل ما بدا لك ، فقال لها اعطيني أمارة فاعطته منديلا ، فعند ذلك خرج سريعاً وغاب ساعة زمانية ثم عاد ومعه كيس أخضر من حرير أطلس بشنكلين من الذهب ، فأخذته منه الصبية وحلته ونفضته فنزل منه اثنتان وثلاثون قطعة خشب ، ثم ركَّبت الخشب في بعضه على صورة ذكر في أنثى وأنثى في ذكر وكشفت عن معاصمها واقامته فصار عوداً محكوكاً مجروداً صنعة الهنود ، ثم انحنت عليه تلك الصبية انحناءة الوالدة على ولدها وزغزغته بأنامل يدها فعند ذلك أن العود ورن ولأماكنه القديمة حن ، وقد تذكر المياه التي قد سقته والأرض التي نبت منها وتربى فيها ،وتذكر النجارين الذين قطعوه والدهانين الذين دهنوه والتجار الذين جلبوه والمراكب التي حملته ،فصرخ وصاح وعدّد وناح ، وكأنها سألته عن ذلك كله فأجابها بلسان الحال ٠

* * *

هذا والخليفة الذي بذل كثيراً في عمارة القصور واحداق الحدائق واقامة المنازه ومواطن الاستجمام جعفر المتوكل العباسي ٠ وقد تغنى شاعره ونديمه الوليد بن عبادة البحتري الشامي الأصل في جملة أشعاره بتلك المنازه والحدائق والقصور في مدينة سامراء(*) ٠ ونجد أوصافاً لها في كُتُب التاريخ ومعجم البلدان وغيره من الأسفار ٠ ولكننا نؤثر أن نتصفح طائفة من تلك الأشعار تتضمن تلميحات مفيدة واشارات معبرة عن تكوين تلك المواطن وما فيها من مرافق ومفاتن ٠

من تلك الحدائق الواسعة حير الحيوان يقع خارج مدينة سر من رأى على شكل مستطيل تقريبي طول محيطه نحو ثلاثين كيلو متراً ومساحته تناهز ثلاثة وخمسين كم٢ وفي هذا الحير من الحيوان ما يقرب عدده من ألفين ٠

أشار الى ذلك أبو عبادة في قصيدة يمدح بها المتوكل غير قصيدة البركة المشهورة ولكنها على الوزن والقافية أنفسهما يشبه ملكه بملك سليمان الذي خضع له الوحش والناس :

ملك كملك سليمان الذي خضعت	له البرية قاصيها ودانيها
وطاعة الوحش اذ جاءتك منخَرِقٍ	أحوى وأدمانة كُحْلٍ مآقيها
كالكاعب الرود يخفى في ترائبها	رَدْعُ العبير ويبدو في تراقيها

* في معجم البلدان « مادة سامراء » يذكر ياقوت أعمال المتوكل العمرانية في هذه المدينة ونفقاتها ٠

ألفان جاءت على قدر مسارعة   الى قبول الذي حاولته فيها
ان سرت سارت وان وقفتها وقفت   صوراً اليك بالحاظ تواليها
يسرعن منك الى وجه يرين له   جلالة يكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول وافترقت   بالحير في عرصة فيح نواحيها
فنهر نيزك ورد من مواردها   وساحة التل مغنى من مغانيها
لولا الذي عرفته فيك يومئذ   لما أطاعك وسط البيد عاصيها

هذا ونهر نيزك الذي ذكره الشاعر حفره المتوكل ليروي الحير(*) .

وقد أشار البحتري الى وحش القصر فيقصيدته التي رثى بها المتوكل :

ولمأنس وحش القصر اذ ريع سربه   وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره

ويبدو من أشعار البحتري أن تلك الحيوانات كانت تعيش في الحير عيشة قريبة من حياتها في مواطنها الأصلية . وكان مع تلك الحيوانات ليوث ضارية . وقد وصف الشاعر الغابة المرتفعة المشتبكة التي تعيش فيها الليوث وتقوم على نهر نيزك نفسه وذلك حين مدح الفتح بن خاقان وزير المتوكل ونديمه فنوه بمنازلته لأحد تلك السباع وبجمال تلك الغابة .

غداة لقيت الليث والليث مخدر   يحدد نابا للقاء ومخلبا
يحصنه من نهر نيزك معقل   منيع تسامى غابه وتأشبا
يرود مغاراً بالظواهر مكثبا   ويحتل روضاً بالأباطح معشبا
يلاعب فيه أقحواناً مفضضاً   يبص وحوذاناً على الماء مذهبا
اذا شاء غادى عانة أو عدا على   عقائل سرب أو تقنص ربربا
يجر الى أشباله كل شارق   عبيطاً مدمى أو رميلاً مخضبا
شهدت لقد أنصفته يوم تنبري   له مصلتاً عضباً من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما   عراكاً اذا الهيابة النكس كذبا
هزبر مشى يبغي هزبراً وأغلب   من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة   رآك لها أمضى جناناً وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً   وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا   ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى   ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

★ الحير هو البستان . هذا وقصر الحير في سورية تاريخيمشهور كانت له حديقة حيوان من نوع حير المتوكل أنشاهما الخليفة هشام الأموي ويبلغ طول الحديقة زهاء تسعةكيلو مترات وعرضها نحو الكيلو متر محصنة بسور على أطرافها .

لم يكن الحير مجرد حديقة حيوان ولا مكان للصيد والقنص وانما كـان متنزهـا للخليفه وموطن لهـو واستجمام ٠

وكان ثمة قصر للمتوكل في جنوبي الحيركشفت آثاره ولعـل هـذا القصر قد أنشيء جريا علـى عادة الفرس القدماء اذ كانـوايجعلون حير الوحوش متصلا بالقصر الملكي ، والفتح بن خاقـان فارسي الأصل مـن أبناءالملوك ، وهو اديب وشاعر ومؤلف ٠ وقدقتل مع المتوكل عند نكبته واستطاع البحتري أنيفلت اذ ذاك ٠

أما بركة البحتري التي اشتهرت بوصفهالها فكانت أمـام القصر الملكي في جانب مـن جوانب الحير ٠ وشعره فيها من القصيدةالتييمدح بها المتوكل وأولها :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييِّهـا نعم ونسألهـا عن بعض أهليهـا

وقد وصفها بالحسناء ٠ وكانت تقوم حولها مغاني الجواري :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسـات اذا لاحت مغانيهـا

وهي في الزينة والبهاء تفوق جمـال البحر وروعته :

بحسبهـا أنها في فضل رتبتهـا تعـد واحـدة والبحر ثانيهـا

ولم تكن بعيدة عن دجلة ٠ فهي ودجلةتتنافسان في الحسن والبهاء :

مـا بال دجلة كالغيرى تنافسهـا في الحسن طوراً وأطواراً تباهيهـا

ولكن الفوز في المنافسة كان من نصيبهااذ لا عيب فيها ولا في بنائها لأن يد الخليفـة تتعاهدها :

أما رأت كالىء الاسلام يكلؤهـا من أن تعـاب وباني المجد يبنيها

ولما كان العرب ينسبون الى الجن نفائسالصنائع كان الناظر اليها يحسب أن الجـن هم الذين تولوا ابداعها :

كان جـن سليمـان الذين ولـوا ابداعهـا فادقوا في معانيهـا

حتى ان الملكة بلقيس لو مرت بهـا لتوهمت أنها صرحها لتمام اتقانها :

فلو تمر بها بلقيس عـن عُرُض قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها

تندفع فيها المياه من عـلٍ عجلى كما تتسابق الخيل حين يبدأ رهان الحلبة :

تنصب فيهـا وفـود المـاء معجلة كالخيل خارجة عـن حبل مُجريها

وكأن تلك الأمواه النقية سبائك سائلةمن اللجـين :

كأنما الفضـة البيضـاء سائلـةً مـن السبائك تجري في مجاريهـا

واذا هبت نسمات الصبا أبرزت فوق سطح الماء طرائق مجعدة تحكي حواشي الدروع المعدنية المصقولة :

اذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكا … مثل الجواشن مصقولاً حواشيها

تبتسم مع شعاع الشمس وتبكي مع بكاء المطر :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها … وريّق الغيث أحياناً يباكيها

وفي الليل تتلامح في جوانبها النجوم فكأنها سماء تحت سماء :

اذا النجوم تراءت في جوانبها … ليلاً حسبْتَ سماء ركبت فيها

وكما تحلّق الطيور وتنقض في السماء كذلك تعوم الأسماك بأوساطها المجنحة ولا تكاد تبلغ غايتها مع أنها محصورة فيها لتباعد الحوض الواسع في أدناها والبهو المرتفع في أعلاها :

لا يبلغ السمك المحصور غايتها … لبعد ما بين قاصيها ودانيها
يعمن فيها بأوساط مجنَّحةٍ … كالطير تنقضّ في جوّ خوافيها
لهن صحن رحيب في أسافلها … اذا انحططن وبهو في أعاليها

وثمة تمثال للدلفين منصوب على أحد جوانبها • وكأن الأسماك تنظر الى صورته تستأنس بها فتحسب أنها في البحر وهو كأنما يرنو اليها من لحاظيْه :

صورٌ الى صورة الدلفين يؤنسها … منه انزواء بعينيه يوازيها

تخرج مياهها المتدفقة منها فتسقى البساتين البعيدة وتنوب عن انبجاس الغيث من كفاف الديم • وكأنها في هذه السقاية كرم الخليفة الذي يصل الى الأباعد • كيف لا وقد تسمت بالجعفرية نسبة الى اسمه ، وازدادت جمالا بهذه النسبة :

تغنى بساتينها القصوى برؤيتها … عن السحائب منحلاً عزاليها
كأنها حين لَجّتْ في تدفقها … يد الخليفة لما سال واديها
وزادها زينة من بعد زينتها … أنَّ اسمه حين يدعى من أساميها

تحف الرياض البديعة جوانب البركة أمام البساتين القصوى • وفي مروج الأزهار وعلى أغصان الأشجار طواويس تحكي الأزهار ألوان ريشها كما يحكي ريشها ألوان الأزهار :

محفوفة برياض لا تزال ترى … ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

ولما أشبهت البركة السماء في جمالها ونجومها المتلاحمة فيها فقد نصبت حولها دَكّتان (مصطبتان للجلوس) احداهما ازاء الأخرى كأنهما الشعرى العبور والشعرى الغميصاء في برج الجوزاء أجمل نجوم السماء:

ودكّتَين كمثل الشعريين غدت … احداهما بِإزا الأخرى تساميها

هاتان الدكتان وصفهما أبو عبادة في قصيدة أخرى يمدح المتوكل بها :

قد تمادى الوليّ في هطلانه ... وأتانا الوسميّ في إبّانه
وأرى الدكّتين بينهما أف ... واف روض كالوشي في ألوانه
في ضروب من حسن نرجسه الغضّ ... ومن آسه ومن زعفرانه
ذاك قصر مبارك تقصر الأعـ ... ـين دون الرفيع من بنيانه

وبنى المتوكل قصراً دعاه بالصبيح ازاء قصر آخر هو المليح قريبين من البركة ومن القصر الملكي . ووصف الوليد هذه القصور مع البركة والجدول الذي يجتاز البركة والنعام التي كانت تدير دواليب تنضح الماء الى الأعلى في قصيدة ثالثة :

قد صفا جانب الهواء ولذّت ... رقة الماء في مزاج المدام
واستتمّ الصبيح في خير وقت ... فهو مغنى أنس ودار مُقام
ناظر وِجْهَة المليح فلو ينـ ... ـطق حياه معلناً بالسلام
البسا بهجة وقابل ذا ذا ... ك فمن ضاحك ومن بسّام
كالمحبّيْن لو أطاقا التقاء ... أفرطا في العناق والالتزام
تنْفذ الريح جريها بين قطريـ ... ـه فتكبو من ونية وسآم
مستمد بجدول من عباب الـ ... ـماء كالأبيض الصقيل الحسام
فاذا ما توسط البركة الغضـ ... ـراء ألقت عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماء بحر ... يخدع العين وهو ماء غمام
والدواليب اذ يدرن ولا نا ... ضح يسقي بهن غير النعام
بدع أنشئت لأولى عباد الـلـ ... ـه بالركن والصفا والمقام
ان خير القصور أصبح موهو ... باً بكره العدى لخير الأنام
جاور الجعفري وانحاز شيْدا ... ز اليه كالراغب المعتام
حِلَل من منازل الملك كالأنـ ... ـجم يلمعن في سواد الظلام
مُفْخِمات تعيي الصفات فما تُد ... رك الا بالظن والابهام
فكأنّا نحسها في الأماني ... أو نراها في طارق الأحلام
شوقتنا الى الجنان فزدنا ... في اجتناب الذنوب والآثام

وليس ما ذكرناه الا بعضاً من قصور المتوكل المتعددة ، وقد اتسع هو والذين أتوا بعده من الخلفاء في الزينة والترف وانفاق الأموال دون النظر في مصالح العباد فكان ذلك اشارة الى بداية تدهور الخلافة حين يَتَتَرَّف فريق من الشعب ويبئس آخرون .

ولا بد لنا هنا من التنويه بدار الشجرة من أبنية المقتدر بالله ببغداد نجد وصفاً موجزاً لها في معجم ياقوت : « كانت داراً فسيحة ذات بساتين مونقة . وانما سُمِّيت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدورة أمام ايوانها وبين شجر بستانها . ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً . لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار . وعلى أغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة . اذا مرَّ الهواء عليها أبانت عن عجائب من أنواع الصفير والهدير . وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً . ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع المَطارِد يتحركون على خط واحد فيُظَنّ أن كل واحد منهم الى صاحبه قاصد » .

هذا من الترف الذي يخرج عن كنه الحضارة العربية الاسلامية وعن مقاصدها الانسانية والاجتماعية .

ولسنا هنا في سبيل تقصي القصور والحدائق في غمار تلك الحضارة . ولكن لا بد من الاشارة الى ظلالها الوارفة في الاندلس والى القصر الكبير الذي شرع في بنائه عبدالرحمن الداخل والى قصر الزهراء الذي بدأ بانشائه الخليفة الناصر والى قصر الحمراء الذي بناه ابن الأحمر والى الحدائق والجنات التي تحف تلك القصور . وكذلك الأمر في أرجاء المغرب العربي . فكتب التاريخ شاهدة على ذلك .

ولكنا في ختام هذا الحديث يطيب لنا أن ننوه بالحديقة الفيحاء الغناء . ألا وهي دمشق . نورد هنا وصف ابن جبير لها حين قدمها : « جنة المشرق ، ومطلع حسنه المونق ، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها . قد تحلَّت بأزاهير الرياحين ، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين ، وحلَّت من موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزيّنت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه (صلى الله عليهما) منها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم هلموا الى معرّس للحسن ومقيل . قد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت الى الظماء ، فتكاد تناديك الصم الصلاب **[اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب]**(٣٨-٤٢) . قد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر . وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر . فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر . ولله صدق القائلين عنها : ان كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها ، وان كانت في السماء فهي حيث تسامتها وتحاذيها » .

ونكتفي من كتاب « نزهة الأنام في محاسن الشام » بهذه الصورة البيانية :

يحكى عن ابن الصائغ الحنفي أنه لما قدم من القاهرة الى دمشق المحروسة نزل في (الجسر الأبيض) عند الأمير مجيرالدين بن تميم ونهر ثورا يمر بداره المانوسة فاجلسه على جانب النهر لاجل برد الهواء ، فرأى شمس الدين ابن الصائغ ما يمرّ من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول وياكل ما استطاب ويضع قدامه منه ما أعجبه ثم التفت لابن تميم وقال له : انت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة بفيض فضله العميم • وأنشده في الحال ارتجالاً :

يقول وقد رأى ثورا خليلي ... يفيض بسائر الثمرات فيضا

أيكفيكم فلا تشرون شيئاً ... فقلت له نعم ونبيع أيضا

فقال ابن الصائغ : وهذه الفاكهة أليس يرميها في النهر أرباب الغيطان؟ قال له ابن تميم انما هذه من اشتباك الأشجار وانحنائها عليه فيلقيها النسيم عندما تشتمل الأغصان ، وأما البساتنة فانهم يضعون فواكه مجموعة على أبواب البساتين كالزكاة لمن يمرّ بها ويحتاج الى شيء فياخذه من الفقراء والمساكين •

وأخبرت في القديم أن بعض الفقراء يضع مكتله على راسه ويسرح في طرق البساتين فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الاثمار من غير ان يتناول بيده شيئاً •

(والمكْتَل زبيل من الخوص تحمل فيه الفاكهة يسع خمسة عشر صاعاً أي نحو ثلاثة وعشرين كَغ على أقل تقدير) •

وفي البساتين من يزرع أشجاراً للفقراء يعرفونها بالتكرار ، وغالب ما يزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها •

وغالب أهل الصالحية يهادون سكان المدينة بالبلح والأترج والكباد ، لنمو حسنه عندهم ونضارته التي هي في ازدياد » •

من غوطة دمشق التي أجمع القدماء على أنها أنزه(*) بلاد العالم وأبدعها ، ومن وادي بردى وضفاف الأردن والشاطىء السوري خرجت وفود الرياحين والورود وأغراس الأزهار تتفتح كمائمها وتتأرج نفحاتها وترنو ألحاظها لتحيي شعوب العالم وتبث نور المودة والمعرفة والتآخي • وليست الأزهار والورود والرياحين الأنيقة التي تشاهد في الغرب الا حفيدات لما سبق • فليكن رونقها وبهاؤها ورياها ونفحاتها عربون صداقة باقية وادئمة بين الناس مهما تقلبت الصروف واضطربت الأحداث •

وكأنما سمعت طيف الغوطة ماثلاً بقربي ينشدني في أوائل آذار هذه الأبيات بين الحلم واليقظة وأنا مستند الى شجرة سنديان أرنو ذاهلاً الى مشهد آلاف آلاف

★ جاء في معجم البلدان « وهي بالاجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظرا وهي احدى جنات الأرض الأربع وهي الصغد والأبلة وشعب بوان والغوطة وهي أجلها » •

العرائس البيض عشية زفافهن في هذه البقعة الطيبة وأنتشي بعبق نسيمهن المسكي المتضوع :

فـن الحدائق واحـات منضَّـرة
فيهـنَّ للنـاس اسـعاد وسلوان
تلك الخمائل كـم لاحت مواسية
ان مسَّـهم لاعـج مؤذٍ وطغيـان
تلقـاك كالأم في رفـق وتكرمـة
وانَّ أحلـى خصـال الأم تحنـان
يسري اليهم من الدوح المطيف بهم
نسـغ الحياة رشيقاً وهو ريَّـان
النـور والظـل والأنسام سانحة
والعطر والطـير والأسجاع صنوان
والمـاء يجري لجينـاً في خمائلـه
كمـا جرى بحيـاة الجسم شريان
يا حسنها حـين يجلو حسنها قمر
زاهٍ ويغمـرهـا نـور واحسـان
والزهر والورد والنسرين باسمة
ثغورها والندى والنـدُّ والبـان
نُـور تَجَسَّمَ في نَوْرٍ تزيِّنـه
بريشـة اللطف أشـذاء وألـوان
تكاد في الروض تلقى كلُّ جارحة
ملذوذها فهي نشوى وهو نشوان
في كل غيثٍ قـوى تنبثُّ مسعدة
فالتـرب درٌّ وفـيروز وعقيـان

★ ★ ★

وفي النفـوس رياض لا يماثلهـا
روض على الأرض مهما يحلُ فينان
فازرع بنفسـك أغراساً يباكرها
مـن البشاشـة والاحسانِ هتَّـان

★ ★ ★

وان تعـذّر بستان أطـوف بـه
وأنتشي فحبيب القلـب بسـتان
لي فيه من زاهرات الروض أجملها
ومـن أطايب هـذا الكون أفنـان

★ ★ ★

بوركت يا شام كم قدَّمت من زهرٍ
ومـن ورود تلقَّتهـنَّ بلـدان
رجالك الصيـد أعـلام غطارفـة
وغيـدك البيـض آرام وغـزلان
يمضي الزمان وما نابتـك نائبـة
الاّ وأنت وأهـل العزم أخـدان
طوى الزمان مزايانا وقد سعدت
بالعُرْب من قبلُ أزمان وأزمان
أفٍّ لعصـر تمادى المبطلون بـه
سـفاهـة وكبـا بالسبق فرسـان
كيف التصبّر والقدس الشريف لقىً
يحتلـه واغـل بـاغٍ وخـوّان
لا بـد للنـاس مـن يوم يظللهـم
عـدل وينفعهـم سـعي واتقـان
الأرض روضتنا والسِّلْم ملّتنـا
والعـدل رايتنـا والحبُّ عنـوان
كاننـا نحـن كـلُّ الناس يحفزنا
الى العـلا وطـن سـامٍ وايمـان

□ بعض المصادر والمراجع :

ـ ألف ليلة وليلة		المطبعة العثمانية المصرية
ـ تاج العروس	محمد مرتضى الحسيني الزبيدي	
ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار (أو رحلة ابن جبير)	أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير	مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٠٨ مطبعة بريل ليدن ١٩٠٧
ـ تطور الري في العراق	د. أحمد سوسة	مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٤٦
ـ تنسيق الحدائق	د. لؤي اهدلي	المطبعة التعاونية ـ دمشق
ـ دراسات فنية في الأدب العربي	د. عبد الكريم اليافي	طبعة ثانية ١٩٧٢
ـ الديارات	أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي	تحقيق كوركيس عواد طبعة ثانية ـ بغداد ١٩٦٦
ـ ديوان البحتري	تحقيق حسن كامل الصيرفي	دار المعارف
ـ ري سامراء في عهد الخلافة العباسية	د. أحمد سوسة	مطبعة المعارف ـ ١٩٤٨
ـ غوطة دمشق	محمد كردعلي	طبعة ثانية ـ دار الفكر ـ دمشق١٩٨٤
ـ مروج الذهب	أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي	
ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي	دار صادر بيروت
ـ المعجم الطبي النباتي	د. العماد مصطفى طلاس	دمشق ـ ١٩٨٩
ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة	أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبري زاده	حيدر آباد
ـ نزهة الأنام في محاسن الشام	أبو البقاء عبدالله بن محمد البدري المصري الدمشقي	المطبعة السلفية ـ ١٣٤١ هـ
ـ نهاية الأرب في فنون الأدب	شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري	
ـ ورد الشام	د. العماد مصطفى طلاس	اصدار المشاريع الانتاجية ـ ١٩٨٣

— L'Art des Jardins, Pierre Grimal Que Sais-je, P.U.F. 1964.

— L'Esthétique de Shopenhauer, André Fauconnet Felix Alcan, 1913.

— Encyclopedia Universalis.

علم الفلاحة في بلاد الشام

د. محمد زهير البابا

مقدمة تاريخية :

كنت نشرت في مجلة التراث العربي مقالا عنوانه « المؤلفات العربية في علمي الفلاحة والنبات » ، وذلك في العدد (٢٩) من عام ١٩٨٧ م . وقد تكلمت في ذلك البحث على الحفريات الأثرية التي قام بها العالم الألماني الفرد روست A - Rust في وادي سكفتا بالقرب من يبرود ، حيث اكتشف في كهوف ذلك الوادي أدوات وأسلحة صوانية تعود الى العصر الحجري الأدنى والحجري الأوسط ، وذلك بين عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣ م . هذا وفي أوائل الستينات اكتشف العالم الهولندي Van Lierre ، في حوض نهر العاصي ، وفي موقع اللطامنة والقرماشي شمال الرستن ، منطقة سكنية تعود بقدمها الى أكثر من نصف مليون عام .

استمرت الحفريات الأثرية في بلاد الشام خلال السبعينات ، فاكتشفت بعثات التنقيب أكثر من ثلاثمائة موقع ، متوزعة بين وسط البادية وأطراف نهر العاصي والفرات وشرق الليطاني ، ويتراوح قدم تلك المواقع المسكونة بين مليون عام والمائة ألف عام ق.م .

ويرجح علماء الأنتروبولوجيا أن الانسان الأولي الذي سكن بلاد الشام قد جاءها من افريقيا ، واتخذ طريقه الى شمالي البلاد عن طريق ساحل البحر الأبيض المتوسط ، أو عن طريق الوديان الداخلية التي تمر منها الأنهار والسيول .

لقد عاش الانسان في تلك الحقبة من الزمن على شكل جماعات صغيرة ، متنقلاً ، باحثاً عن الصيد في المناطق التي توافرت فيها وسائل عيشه ، من ماء ونبات وحيوان وأحجار صوان . وكان عدد أفراد تلك الجماعات قليلا بدليل ضآلة عدد الأدوات الحجرية التي اكتشفت في كل موقع من تلك المواقع المسكونة . فمثلاً لم يجدوا في موقع ست مرخو ، شمال

اللاذقية ، أكثر من عشرين أداة ، أما في موقعي اللطامنـة والقرماشي فقـد وجدوا حوالي أربعمائة أداة • لم يكن سكان تلك المواقـع معزولين عـن بعضهم البعض ، فهنالك عـدة مؤشرات تـدل على تواصلهم وتشـابه نمط معيشتهم ونظام حياتهم • وكان على رأس كل جماعة أب او قائد يأتمرون بأمره ، فيقودهم الى الأماكن الصالحة عند حصول اضطراب في مسيرة حياتهم اليومية • وقـد عرفوا اشعال النار للتدفئـة والطبخ منذ نصف مليون عام تقريبـاً •

كان الجليد يغطي النصف الشمالي من الكرة الأرضية • وفي نهـاية العصر الجليدي الوسيط تراجع الجليـد ، وبـدأ الدفء يعم أرجـاء القسم الجنوبي مـن أوربا وأواسط وجنوبي آسيا • ومنذ حوالي (١٢) ألف عام ق.م ، أخذ سكان الهلال الخصيب يخرجون من كهوفهم الجبلية ويتجهون نحو المناطق الساحلية ، فأنشأوا بيوتاً صغيرة محفورة في سفوح الجبال ، وهكـذا بدأت بعض القرى تظهر للوجـود •

وفي أوائـل العصـر الحجري الحـديث Néolithique (أي بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد) أخذ الانسان في بلاد الشام يتحول من الصيد والقنص الى التقاط الحبوب والثمار وزراعة الأرض ببعض المحاصيـل • ويعتبر موقع أريحا جنوب البحر الميت ، وتل أسود في غوطـة دمشق ، وتـل شيخ حسن في حـوض الفرات ، من أقدم المستوطنات التي نشأت فيها قرى زراعية وبيـوت سكنيـة تكسوها قطع القرميد • وقد وجد فيها مجموعة كبيرة من الأدوات الزراعية كالأجران ورحى الطاحـون الى جانب بعض الأواني والفؤوس الحجرية •

ويقول الدكتور سلطان محيسن : « اذا كـان الألف الثامن ق.م هو عصـر ابتكـار الزراعة ، فان الألف السابع ق.م ، كان عصر ترسيخ هذا الابتكار من جهة ، واضافة ابتكار جديـد آخر هو تدجـين الحيوانات ، تلـك الحيوانات التي كـان يسعى لصيدها ، مثـل الغنم والماعز والبقر » •

وفي بداية الألف السادس ق.م توصـل انسان العصر الحجري ، في بلاد الهلال الخصيب ، الى اكتشاف صنع الأواني الفخارية من الطين الناعم ، فجففها تحت أشعة الشمس • وقـد أصبحت تلك الأواني ، مـن صحون وقـدور وجرار من الأمور الضرورية في حياة الانسان المزارع لحفظ غـذائه وماء شـربه ، وبعض المحاصيل التي يدخرها •

وفي منتصف هـذا القرن ظهر في منطقة الجزيرة ، شمال بلاد الشام ، حضارة متقدمة عرفت باسم حضارة تـل حلف ، بالقرب مـن رأس العـين ، حيث عرف النحاس فيها لأول مرة ، واسـتخدم في صنـع بعـض الأدوات المطروقة • كمـا وجـد فيهـا بعض الأدوات الفخارية المصقولة والمزينة ببعض الرسوم ، والى جانبها قطع من النسيج •

☐ انتشار ممالك المدن في بلاد الشام :

كانت بلاد الشام منذ فجر التاريخ خاضعة لنظام ممالك المدن • والسبب في ذلك يعود الى طبيعـة أراضيها المجزأة الى مناطق بعضهـا زراعيـة مأهولة بالسكان ، وبعضها مناطـق جرداء خالية من الماء والزرع • وكانت تنشب بـين سكان تلك الممالك العامرة منـازعات

وحروب سببها التناحر للسيطرة على المراعي والأراضي الخصبة ، الى جانب محاولات السطو على الثروة الحيوانية والمحاصيل النباتية . وقد أضعفت تلك الغزوات الكيان الدفاعي والحضاري لتلك الممالك ، وجعلتها تخضع لكل فاتح .

لم تظهر في تلك الممالك القديمة مشاريع للري المنظم ، بل اقتصرت الزراعة فيها على مناطق محدودة تقع على أطراف الأنهار والسيول ، او تعتمد على مياه الأمطار .

لقد استطاعت بعض القبائل العمورية ، الآتية من جزيرة العرب ، أن تنشىء في أواخر القرن الثالث ق.م ، عدة ممالك في أرض الرافدين وفي بلاد الشام ، وأصبحت تلك الممالك همزة الوصل بين حضارتي تلك البلاد .

وتعتبر يمحاض ، وعاصمتها حلبا ، من أهم تلك الممالك ، ويليها مملكة ماري (في تل الحريري) قرب البوكمال ، ومملكة قطنة (في تل المشرفة) شمال حمص ، ومملكة ايبلا (في تل مرديخ) جنوب حلب ، ومملكة آلالاخ (في تل عطشانة) قرب أنطاكية .

وفي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ازدهرت على سواحل بلاد الشام حضارة ذات أصل كنعاني (فلسطيني) هي حضارة الفينيقيين ، الذي أنشأوا أسطولا بحرياً وبنوا عدة مرافىء كان لها تأثير كبير في نشر التجارة وصناعة السفن والتعدين بين أقطار البحر الأبيض المتوسط . الا أن ظهور اليونانيين كقوة عسكرية بحرية نافست الفينيقيين وأجبرت بعضهم على النزوح ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، الى سواحل افريقيا الشمالية ، حيث أسسوا دولة قرطاجة .

لقد أخذ الفينيقيون معهم الى المستعمرات الجديدة خلاصة ما توصلوا اليه من خبرة في علوم الملاحة والتجارة والتعدين ، بالاضافة لعلم الفلاحة . واشتهر منهم ماجو القرطاجي ، الذي ألّف أول موسوعة في علم الفلاحة ، ترجمت الى اللغة اللاتينية عقب سقوط قرطاجة بيد الرومان عام ٨٨ م . وفي بلاد سومر ظهرت المبادىء الأولية لعلم الفلاحة مدونة على الواح طينية بالخط المسماري . ويعود تاريخ تلك الألواح الى القرن السابع عشر قبل الميلاد . ومما يلفت النظر أن كاتب تلك الوثيقة ، المؤلفة من نصائح يقدمها فلاح لابنه ، وتتعلق بحرث الأرض وسقيها وحمايتها ... قال في آخرها : « ان المبادىء الزراعية الواردة فيها ليست من ابتكاره ، وانما هي مبادىء وضعها الاله نيمورتا ، الفلاح الحقيقي ، وهو ابن كبير الآلهة السومرية أنليل » .

لقد شاركت الشعوب التي أقامت في بلاد الرافدين ، وكان أكثرها من جزيرة العرب ، بانتشار وازدهار الزراعة ، فالآكاديون والعموريون والآراميون والأنباط شعوب عربية كانت على خبرة جيدة بشؤون الزراعة .

☐ علم الفلاحة في بلاد الشام قبل الاسلام :

لقد كانت حوران والبلقاء منذ عهد الرومان تعتبر أنبار بلاد الشام ، وقد اشتهرت بجودة محاصيلها الزراعية وخاصة الحنطة والشعير وغيرهما من أنواع الحبوب . ونظراً لوجود اعتداءات دائمة من قبل رجال القبائل على المراعي والحقول ، وأحياناً على القرى

والمدن ، المنتشرة في أطراف بلاد الشام لذلك آقام الرومان ، ومن بعدهم البيزنطيون والفرس مخافر دائمة لحراستها • واتخذوا من الغساسنة والمناذرة عمالاً يقومون بمنع سكان البادية من التسلل الى المناطق المعمورة بالزرع والسكان •

ان القسم الأعظم من الاراضي الزراعية في بلاد الشام كانت تسقيها الأمطار والينابيع• أما مياه الأنهار فكان يستفاد منها على أطرافها وبعد فيضانها • والسبب في ذلك هو انخفاض مجرى الأنهار بصورة عامة عن مستوى الأراضي الزراعية • لهذا أنشأ الرومان أقنية وأحواضاً لجمع مياه الأنهار والأمطار لسقي الحقول •

لقد اشتهر الأنباط بحفرهم الآبار ، ولكن مياه الآبار كانت تكاد تكفي لشرب البشر وسقي المواشي • وهذا ما دعا لاقامة بعض السدود الصغيرة على مجرى السيول والأنهار وانشاء الأقنية والنواعير فيما بعد •

☐ علم الفلاحة في صدر الاسلام وفي العصر الأموي :

حينما استولى العرب في عصر الخلفاء الراشدين على بلاد الشام تركوا زراعة الحقول والعناية بتربية الأشجار لأصحاب البلاد ، واكتفوا بجباية الخراج ، وذلك خوفاً من انصراف المجاهدين الى العمل في الأرض وترك الجهاد •

كان ملاك الأراضي والفلاحون في بلاد الشام على درجة جيدة من الخبرة ، فيما يتعلق باستنباط الماء وزرع الحبوب والبقول وغرس الأشجار ووقايتها من الآفات ، الى جانب خزن المحاصيل لاستعمالها كغذاء أو بذار •

وحينما تولى بنو أمية الحكم أخذ أمراؤهم وأغنياؤهم يتنافسون على اقتناء المزارع، وعنوا بعمران القرى ، وبنوا في الريف قصوراً لهم ، أحاطوها بالحدائق والبساتين ، وغرسوا فيها مختلف أنواع النباتات المثمرة والمزهرة• وكانوا يقصدونها في فصل الصيف ليتمتعوا بالراحة وبالهواء الطلق، وليجنوا ثمار وغلات الحقول المجاورة •

لقد اهتم الأمويون بتنظيم سقاية الأرض فأصدر يزيد بن معاوية أمراً بشق قناة تصل نهر بردى بالأراضي العالية الواقعة شمال وشرق مدينة دمشق • كما أن هشام بن عبدالملك كان أول من اتخذ الضياع لنفسه وشق أنهاراً وترعاً قرب الرقة والجزيرة ، حيث أنشأ مزارع كثيرة ، فبلغت غلته أكثر من خراج مملكته •

لم يترك الأمويون أرضاً قابلة للزرع الا استغلوها • وقد استفادوا من خبرة اليد العاملة المحلية ، كما استقدموا عمالاً من البلاد المجاورة ، وذلك كما فعل الخليفة معاوية ، الذي أنزل قوما من الفرس في أطراف مدينة طرابلس للعمل في اعمار أراضيها •

ومن الأمور الهامة التي تمت خلال الحكم الأموي انشاء طواحين الهواء ونواعير الماء ، ونشر عدد كبير من المحاصيل الزراعية الجديدة، وخاصة الحمضيات وقصب السكر والقطن والذرة البيضاء ، وأنواع الحبوب والبقول والأشجار المثمرة • كما نشروا زراعة الكرمة

والتين في أواسط البلاد ، وغرسوا أشجار الزيتون والفستق في الشمال ، واشتهر سهل بيسان بالنخيل ، وسواحل لبنان وفلسطين وغور الأردن بقصب السكر والموز والخرنوب.

☐ علم الفلاحة والنبات في العصر العباسي :

ولما انتقل الحكم من بلاد الشام الى العراق ، واستتب الأمر لبني العباس أنشأ الخليفة المنصور مدينة بغداد . وكانت أكثر العلوم والصناعات المختلفة ، بما فيها علوم الطب والفلاحة ، وغيرها من المهن الدقيقة ، محتكرة من قبل الاقوام التي كانت تقطن بلاد الرافدين وبلاد الشام ، من كلدان وفرس وآراميين وأنباط . وبما أن العلوم اليونانية والهندية كانت هي المعين الذي استقت منه تلك الشعوب حضاراتها في ذلك الوقت ، لذلك سعى الخليفة المنصور (ت ـ ١٥٨ هـ) الى ترجمة مؤلفات أرسطو واقليدس ، في علوم الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب ، وترجمة كتاب السندهستا وكتاب المجسطي في علوم النجوم والهيئة أو الفلك والجغرافيا .

كان الخليفة المأمون (ت ـ ٢١٩ هـ) شبيهاً بجده المنصور من ناحية اهتمامه بعلمي الفلك والنجوم ، وبما أن كتاب المجسطي يضم وصفاً دقيقاً لآلات الرصد التي استعملها بطليموس في حساباته وزيجه ، لذلك جمع المأمون علماء عصره وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الأدوات . كما أمر المأمون ببناء مرصدين الأول على قمة جبل قاسيون في دمشق ، والآخر في حي الشماسية في بغداد .

لم يعرف العرب شيئاً يذكر عن الفلك قبل الاسلام ، الا فيما يتعلق بحركة بعض الكواكب وأمكنة بعض النجوم الساطعة ، وتجمعاتها على شكل ابراج تجتازها الكواكب السيارة . وكانوا يربطون بين حركات الأجرام السماوية وبين السعد والنحس . وينبؤون بواسطتها بالأحداث المقبلة من هطول أمطار وحصول الكوارث وغيرها من الأمور الطبيعية . ومع أن الدين الاسلامي قد بيَّن فساد الاعتقاد بالتنجيم ، الا أن ذلك لم يمنع بعض الخلفاء العباسيين ، وخاصة المنصور ، من أن يستشير المنجمين في كثير من الأحوال السياسية والادارية . كما أن كثيراً من أطباء ذلك العهد كانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك ، وكذلك كان يفعل المزارعون لمعرفة الأوقات المناسبة للقيام بزرع البذور أو غرس الأشجار أو تركيبها أو معالجة أمراضها وآفاتها . ولهذا السبب نجد أن أكثر كتب الفلاحة التي ظهرت في العصر العباسي وما بعده ، قد خصصت أحد أبوابها للكلام على تأثير الكواكب في حياة النباتات ونموها وموتها .

لقد قام المترجمون في صدر الدولة العباسية بنقل بعض مؤلفات أرسطو الى اللغة العربية ، وكان لبعضها تأثير كبير في النواحي النظرية والعملية من علم الفلاحة ، ومن أشهر تلك المؤلفات كتاب الآثار العلوية وكتاب الطبيعة وكتب الحيوان ...

ـ يقول أرسطو في كتاب الآثار العلوية ان فلك القمر يقسم الكون الى قسمين غير متساويين ولا متشابهين ، فما فوق فلك القمر (السماء) هو فضاء غير متناه ، وهو عالم الكمال ، لا كون فيه ولا فساد .

وأما ما دون فلك القمر فهو الأرض التي نعيش عليها ، وكل ما فيها خاضع للكون (أي التخلق) والفساد والتبدل ٠ ويقول أرسطوان الكون مؤلف من خمس عناصر ، أولها الأثير ومنه تتألف النجوم وكل ما في السماء من أجرام ٠ أما العناصر الأربعة فتتكون منها جميع الأجسام الموجودة على سطح الأرض ،والتي تتغير طبائعها بتغيير طبائع العناصر التي تتألف منها ٠

ـ وفي كتاب تاريخ الحيوان يقول أرسطوان الطبيعة تتدرج شيئاً فشيئاً مما لا حياة فيه (الجماد) الى النبات فالحيوان ٠ وتختلف النباتات تبعاً لنصيبها من الحياة الظاهرة ، وفي البحر مخلوقات يجد الانسان نفسه في حيرة حيالها ، فهو لا يدري هل هي من الحيوان أم من النبات ٠

لقد وجد أرسطو أن صفة التكاثر والنمو مشتركة بين النبات والحيوان ، أما الحس فيظهر أكثر وضوحاً في الحيوان منه في النبات ٠ وقد غالى من بعده بعض الفلاسفة فقالوا بأن الجماد أيضاً ينمو وان النبات بصورة عامة يشعر ويحس ٠

ـ لقد أعجب العلماء المسلمون ، في القرون الوسطى ، بأفكار أرسطو والمتعلقة بسلّم الترقي الطبيعي ، وخاصة أصحاب النزعة الصوفية ، وقالوا بسلسلة الوجود التي ترتقي فيها المواليد من المعدن الى النبات ،ومن النبات الى الحيوان ، ومن الحيوان الى الانسان ، ثم من الانسان الى الله عزّ وجلّ ٠ وكانت تلك الفكرة من خير الوسائل التي اعتمدوها في ايضاح واثبات ما بنيت عليه الطبيعة من وحدة وترتيب بمشيئة الخالق المبدع لهذا الكون ٠

لقد أجال بعض علماء المسلمين النظر في فكرة الخلق والتكوين ، فذكروا مختلف الأفكار التي جاءت في الكتب السماوية وفي مؤلفات أصحاب الأخبار والمفسرين ، فأدرجها بعضهم في رسائل متفرقة ، وضمها بعضهم الى مؤلفات علم الفلاحة والنبات ٠ وسنذكر فيما يلي أسماء بعض العلماء الذين ظهروا بين القرنين الثاني والثالث للهجرة ، مع أشهر مؤلفاتهم بهذا الخصوص :

١ ـ النضر بن شميل (ت ـ ٢٠٤ هـ) :

له كتاب الصفات ، يتألف من خمسة أجزاء ، تكلم فيها على خلق الانسان وصفاته، ومساكنه وحيواناته وطيوره المدجنة ، وغذائه وما زرعه من كرم وبقل وشجر ، كما تكلم على الشمس والقمر والليل والنهار، والرياح والسحاب والأمطار ٠٠٠

٢ ـ عبدالملك بن قُريب الأصمعي (ت ـ ٢١٧ هـ) :

له كتاب خلق الانسان ـ كتاب الأجناس ـ كتاب النبات والشجر ، كتاب الخيل والابل والشاء والوحوش ٠٠٠ ويعد كتابه في النبات من خير ما ألّف في هذا العلم، وهو يضم حوالي (٢٨٠) نوعاً من النبات ٠

٣ ــ **أبو زيد سعيد بن أوس الانصاري** (ت ٢١٥ هـ) :

له كتاب في خلق الانسان ــ النبات والشجر ــ المطر ــ المياه ...

٤ ــ **أبو حنيفة أحمد بن داود الملقب بالدينوري** (ت ــ ٢٨٢ هـ) :

له كتاب في الأنواء وآخر في علم النبات. قال عنه أبو حيان التوحيدي : « انه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، وكلامه في الأنواء يدل على حظ وافر من علم النجوم وأسرار الفلك ، أما كتابه في النبات فلم يصنف في معناه مثله » .

لقد اهتم مؤلفو هذه الكتب بالأسماء المترادفة للنباتات وأسماء مختلف أقسامها ، وصفاتها الخارجية ، والبيئة التي تعيش فيها ، وتصنيفها وطرق الاستفادة منها . لكنهم لم يتعرضوا غالباً لطرق تكاثرها ولم يتعمقوا بذكر أوصاف أزهارها ، وهذا ما جعل من المتعذر أحياناً معرفة الاسم العلمي الصحيح لها . ومع هذا فان كثيراً من المعلومات النباتية التي وردت فيها أدمجت في كتب الفلاحة التي ظهرت فيما بعد .

□ كتب الفلاحة والنبات المترجمة للغة العربية :

ظهر في البلاد العربية خلال الحكم العباسي كتابان في علم الفلاحة ، كان لهما كبير الأثر في ظهور مؤلفات عربية متطورة أدت الى حصول ثورة زراعية في شرق العالم العربي الاسلامي وفي غربه . وقد ترجمت بعض تلك المؤلفات في اسبانيا الى اللغة اللاتينية وكانت سبباً من أسباب ظهور النهضة الزراعية فيها في نهاية العصر الوسيط . وسنتكلم بصورة موجزة فيما يلي عن كل من هذين المؤلفين :

أ ــ كتاب الفلاحة النبطية :

وهو كتاب ضخم تتجاوز عدد صفحاته السبعمائة صفحة من القطع الكبير . قام بتأليفه عالم يدعى توثامي الكوكاني ، خلال القرن الأول للميلاد ، كما يقول العالم رينان Ernest Renan . ولكن العالم شولسون Chwolson ، الذي قام بدراسة متعمقة له عام ١٨٥٩ م أثبت أن أصوله تعود الى القرن الثامن ق.م .

لقد قام بنقل هذا الكتاب من اللغة السريانية القديمة (الآرامية) الى اللغة العربية ، أبو بكر احمد بن علي بن المختار الكلداني الصوفي ، المعروف بابن وحشية . وذلك زمن الخليفة المكتفي بالله العباسي ــ وقد أملاه على تلميذه أبي طالب علي بن محمد الزيات عام (٣١٨ هـ ــ ٩٣٠ م) . واذا رجعنا الى كتاب الفهرست نجد هذا الكتاب مصنفاً في جملة المؤلفات المتعلقة بالسحر والشعوذة والصنعة (السيمياء) . ولم يصنفه النديم في باب المؤلفات العلمية ، نظراً لما فيه من أمور تتعارض مع مبادىء الدين الاسلامي ، لذلك أهمل ذكر كتاب الفلاحة النبطية في شرق العالم العربي ، بينما ذاع صيته وانتشر في بلاد الأندلس .

يعتبر كتاب الفلاحة النبطية خلاصة ما توصلت اليه الشعوب القديمة ، وهي التي كانت تقطن بلاد الهلال الخصيب ، من خبرة عملية وعلم في فلاحة الأرض واصلاحها

وزرعها ودفع الآفات والأمراض عن النباتات التي تنمو فيها · بالاضافة الى معرفة الشروط السكنية والبيئية اللازمة لحياة العمال ، والتنبؤ بأحوال الجو ·

لقد وجد ابن خلدون في كتاب ابن وحشية مزيجا من علم وسحر وشعوذة وعبادة كواكب وصنع طلاسم ، فقال : « ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب ، وكان باب السحر مسدوداً ، والنظر فيها محظوراً ، فاقتصروا منه على الكلام في النبات، من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك · وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة » ثم تابع ابن خلدون الكلام في موضع آخر من مقدمته فقال :

« ان ابن العوام قد اختصر هذا الكتاب، واكتفى منه بالقسم الخالي من السحر ، وبقي الفن الآخر مغفلاً حتى جاء مسلمة المجريطي ، فنقل منه في كتبه السحرية أمهات من مسائله » ·

لقد أخطأ ابن خلدون بالحقيقة في ترتيب الحوادث التاريخية وتسلسلها ، ذلك لأن مسلمة المجريطي عاش في القرن الرابع الهجري ، وهو اول من أدخل كتاب الفلاحة النبطية الى الأندلس ، فاستفاد مما ورد فيه من أمور تتعلق بالسحر والصنعة وعلم التنجيم، ووضع كتاباً عنوانه (غاية الحكيم) · أما ابن العوام فقد عاش في القرن السادس للهجرة وألف كتابه الفلاحة الأندلسية ·

ـ يتألف كتاب الفلاحة النبطية من مقدمة وثلاثة عشر باباً · وقد وجه ابن وحشية كلامه في مقدمة كتابه الى ابنه مبينا له الأسباب التي دعته الى ترجمة ونقل هذا الكتاب الى اللغة العربية · لقد أراد ابن وحشية أن يطلع العرب على تراث اجداده من الكلدانيين ، وهم أنباط العراق ، وان يثبت للعرب تفوق شعبه في علوم نافعة وغامضة ، عجزت بقية الأمم عن معرفتها واستنباطها ·

بدأ ابن وحشية في الباب الأول من كتابه بالكلام على شجرة الزيتون ، وبيَّن أوصافها والطرق المستعملة في زراعتها والعناية بها ، وتغيير صفات ثمارها بالانشاب والتركيب ، واعتبرها من النباتات الخاضعة لتأثير زحل · ثم تكلم على المياه وأنواعها ، وحفر الآبار وتحسين غزارتها وطعم مائها · وانتقل بعد ذلك للكلام على النباتات ذوات الأزهار العطرية ، وعددها احد عشر نباتاً ، ثم تكلم على النباتات الطبية والتزيينية ، وعددها ثلاثة وعشرون نباتاً ـ وخصص الباب الخامس للكلام على ما يحتاجه كل مزارع من معلومات تشمل : العلاقات الزراعية ـ التنبؤ بأحوال الجو وعلامات المطر ـ معرفة ما يصلح من الزرع لكل نوع من أنواع الأراضي ، مع دراسة فيزيائية لأنواع الأراضي ـ اصلاح الأرض بأنواع الدبال مع ذكر الطرق المختلفة للتخلص من الأعشاب الضارة ·

ـ وفي الأبواب الأربعة التالية تكلم ابن وحشية على الحبوب والقطاني ، فذكر ثلاثين نوعاً منها · كما تكلم على النباتات ذوات البذور الزيتية وذكر منها سبعة أنواع · ثم الخضار والبقول المستعملة في تحضير الطعام وعددها (٧٠) ·

ـ وفي الباب العاشر من كتابه تكلم على شجرة الكرمة وطرق زراعتها وتكاثرها ، واستعمال المرايا العاكسة لتدفئتها عند الحاجة، كما ذكر الأمراض التي تصيبها مع طرق

معالجتها • واعتبر شجرة الكرمة خاضعة لتأثير المشتري والزهرة • وبيّن كيفية تحضير الترياق من عصير عنبها •

ـ وفي الباب الحادي عشر ورد ذكر عدد كبير من الأشجار ، يبلغ الثمانين بين نوع وجنس ، بعضها طبي وبعضها مثمر وبعضها يستعمل في الصناعة أو التدفئة • وتكلم في هذا الباب على طرق التركيب ، كما استخدم المرايا العاكسة للحصول على أزهار أطيب رائحة وثمار أكثر عصيراً •

ـ وخصص الباب الثاني عشر للكلام على الفن العظيم ، ويقصد به الطرق السحرية التي يمكن بواسطتها الحصول على كائنات جديدة بطرق التعفين ، وتحويل أفراد من احدى الممالك الثلاث الى أفراد من مملكة أخرى •

ـ أما الباب الأخير فقد كرسه ابن وحشية للكلام على شجرة النخل ، من ناحية زراعتها ونقل فسائلها وطرق معالجتها حين اصابتها بالأمراض ، ثم بيّن فضل النخلة على بقية الأشجار ، وأنها صلة الوصل بين النبات والانسان لعدة أسباب ، منها أنها ثنائية الجنس ، فمنها المذكر ومنها المؤنث ، ولا تنمو ثمارها الا بالتلقيح • كما أنها ذات ذروة هي بمثابة الرأس بالنسبة للانسان ، فاذا قطعت ذروتها ماتت •••

يشمل كتاب الفلاحة النبطية مواضيع مختلفة وهامة ، ويحتاج كل باب فيه لبحث مطول • وقد قام فعلاً عدة علماء وباحثين ، عرب وأجانب ، بدراسات شمل بعضها النواحي الدينية ، واهتم بعضها بعلوم الفلك والتنجيم والأنواء ••• الا أن تلك الأبحاث لا تؤلف الا جزءاً بسيطاً مما جاء في هذا المؤلف الضخم • ولما كان الباب الثاني عشر ، وهو المخصص للكلام عما يسميه ابن وحشية (الفن العظيم) لم يدرس على ضوء الأبحاث العلمية الجديدة ، لذلك سأخصص له جزءاً من دراستي في نهاية المقال •

ب ـ كتاب الفلاحة اليونانية Géoponics : ظهر في بلاد الشام خلال القرن الرابع للميلاد كتاب في الفلاحة باللغة اليونانية ، ينسب الى اناطوليوس البيروتي ، ويتألف من اثني عشر جزءاً ، وقد فقد الأصل اليوناني لهذا الكتاب • الا أن الأب بولس سباط أعلن في محاضرة ألقاها في المعهد المصري بالقاهرة ، عام ١٩٣٠ ، أنه عثر على مخطوط عنوانه (كتاب فلاحة الأرض لابطراليوس) ، ثم قال ان هذا الاسم محرّف وأصله أناطوليوس Anatolius . والمخطوط جيد وفريد ، كتب في منتصف القرن التاسع للهجرة • وقد جاء في مقدمته :

« هناك كتاب لابطراليوس الحكيم ، جمعه من حكمة الحكماء القدماء ، الذين جربوا الأمور في سالف الدهور ••• وهو من الحكمة التي استخرجها بطرك الاسكندرية ومطران دمشق (أوسطاث الراهب) ، ليحيى بن خالد بن برمك • وفسره من الرومي الى العربي في شهر ربيع الآخر عام ١٧٩ هـ •

ويضيف الاب سباط أن بطرك الاسكندرية هو بليطان Politanus ، الذي اشتهر زمن الخليفة هارون الرشيد ، وقام بشفاء احدى نسائه · توفي عام ١٨٦ هـ فخلفه الراهب أوسطاث Eustache الذي بقي بطركاً حتى وفاته عام ١٩٠ هـ ·

لم يشتهر هذا الكتاب في شرق العالم الاسلامي ، ولكن اذا رجعنا الى بعض مؤلفات علم الفلاحة ، والتي ظهرت في بلاد الأندلس فاننا نجد كثيراً من النصوص المقتبسة منه ، والمنسوبة لابطاليوس · فمثلاً ورد هذا الاسم في كتاب المقنع في الفلاحة لأحمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي (١٢) مرة ·

مما لا شك فيه أن أشهر كتاب في الفلاحة اليونانية ترجم الى اللغة العربية كان كتاب لرجل رومي يدعى بالعربية قسطوس بن اسكوراسكينة · ويقول الأب سباط ان هذا الاسم محرَّف أيضاً وأصله باللغة اللاتينية Cassianus Bassus Scolasticus ، وان صاحبه عاش في القرن السادس للميلاد ·

يتألف هذا الكتاب من عشرين جزءاً ، ويضم كثيراً من الأبحاث التي وردت في كتاب أناطوليوس المار الذكر ·

وفي منتصف القرن العاشر اختصر كتاب قسطوس ، وتم نقله الى اللغة العربية من قبل عدة مترجمين ، وكان أبرعهم سرجيس بن هليا الذي عاش في القرن الحادي عشر · وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة عام (١٢٩٣ هـ _ ١٨٧٥ م) ·

يتألف كتاب قسطوس الرومي من اثني عشر باباً تكلم فيها مؤلفه عن جميع الأمور التي تهم المزارع في حقله أو في بستانه ، فابتدأ بذكر أسماء الشهور والبروج والكواكب ، ووصف مسير الشمس والقمر ، وأوقات طلوع القمر ومغيبه ، والفصول والعلامات التي تدل على حدوث العوارض الطبيعية من أمطار ورياح وجفاف وغير ذلك · ثم تكلم على المساكن ومواضع المياه وصفات الأراضي واستصلاحها ، وما يصلح لها من زرع أوقات الحصاد وخزن المحصول · وخصص الجزء الرابع للكلام على الكرمة ·

_ وفي الأجزاء التالية (الخامس حتى السابع) تكلم على ترتيب البساتين وغرس الأشجار فيها وتركيبها ، ومداواة أمراضها وآفاتها · وخص شجرة الزيتون بشيء من التفصيل · ثم تكلم على زراعة البقول ، وبذلك انتهى القسم المخصص للكلام عن الفلاحة ·

_ أما في الأجزاء الباقية (من الثامن حتى الثاني عشر) فقد خصصه للكلام على صفات الخيل وتربيتها والعناية بالحيوانات والطيور · وختم كتابه بالكلام على كثير من الأمور التي يحتاج اليها الانسان في حياته المنزلية ·

كتب الفلاحــة الأندلسية :

لقد أدخل الفتح العربي الى بلاد الأندلس عناصر بشرية ويدأ عاملة مارس بعضها الزراعة والصناعة منذ آلاف السنين • لقد جاءت تلك العناصر من بلاد الشام واليمن ومصر وشمال افريقيا ، فادى ذلك الى تطور سريع وخاصة في مجال الزراعــة والصناعة والطب • لقــد جلب الفاتحــون معهــم أنواعاً مــن البــذور والغراس لنباتات لم تكن معروفة في الأندلس، كما أدخلوا تقنيات في طرق الري ، فتعــددت المحاصيل ، وظهرت أصناف جديدة من الثمار بنتيجة التركيب (التطعيم) والتهجين •

ومما يلفت النظر كثرة المؤلفــات التي ظهرت في علم الفلاحة خلال الحكم العربي في الأندلس ، بدءاً من القرن الخامس الهجري او الحادي عشر للميلاد • وسأذكر فيما يلي بعض هذه المؤلفات بصورة موجزة مع نبــذة يسيرة عن حياة مؤلفيهــا :

١ ـ قــام أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن وافــد اللخمي (ت ٤٦٧ هـ ـ ١٠٧٤ م)

وكان طبيباً ليحيى المأمون بن ذي النون، أمير طليطلة ، برعاية الحديقــة التي كانت تحيط بقصر الأمــير • ووضع مؤلفــاً في علم الفلاحة طبع في مدينة فاس عام ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م) ونشر الاستاذ غارسيا غومز في مجلة Hesperis مقالاً عنه عام ١٩٤٥ م •

٢ ـ كتاب الفلاحة لابن بصال :

وكان معاصراً لابن وافد ، واشترك معه في العناية بجنة المأمون أو بستان الناعورة • ويعتبر كتابه من أجود المؤلفات في علم الفلاحة والنبات ، مــن ناحيتي الترتيب والايجاز • وتظهر فيه روح التجربة الشخصية والمزاولة المباشرة للعمليات الزراعية • وقد تحاشى فيه ذكر المراجع العلمية السابقة التي استفاد منها•

قــام بنشر وتحقيق وترجمة كتــاب ابن بصال الى الاسبانية خوسي ماريه بيكروسا ، الأستاذ بجامعة برشلونة، بالتعاون مع الأستاذ محمد عزيمان السكرتير العام لوزارة التربية والثقافة في المغرب وذلك عام ١٩٥٥ • ويقال بأن المخطوط الذي تم تحقيقــه ليس ســوى مختصر لكتــاب مطول ضــاع أثره • ويعتبر تصنيف ابن بصال للنباتات من ناحية قابليتها للتطعيم انجازاً علمياً رائــداً ، فاتَّبعه مــن جــاء مــن بعده •

٣ ـ كتــاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام الاشبيلي :

لقد أكثر ابن العوام من ذكر الاقتباسات التي جمعها في كتابه • واذا كان هــذا الأمر ينقص من قيمة الكتاب في نظر بعض النقاد ،الا أنه يعتبر بالنسبة للمؤرخين صفة ممتازة تدل على أمانة المؤلف ، كما تفيد المؤرخ في معرفــة التسلسل التاريخي للأفكار والأبحاث والتجــارب •

لقد استبعد ابن بصال جميع الأمور السحرية والدينية من كتابه ، على عكس بقية المؤلفين في علم الفلاحة • واستفاد من مؤلفات علماء روم ولاتين ، لم يكن يعرفهم من ألّف في علمي الفلاحة والنبات في شرق العالم الاسلامي ، واذا كان ابن بصال لم يذكر أسماء أولئك المؤلفين فان ابن العوام جاء على ذكرهم جميعاً ، واحتفظ بكثير من آراء ابن وحشية لذلك قال ابن خلدون ان كتابه ليس سوى مختصر لكتاب الفلاحة النبطية •

تابع ابن بصال تجاربه الزراعية في مدينة اشبيلية بعد سقوط غرناطة عام ١٠٨٥م• وقام بعد ذلك بتأليف كتابه الذي أصبح مرجعاً لكل من ألّف من بعده في علم الفلاحة ، وخاصة ابن العوام الذي أشار اليه مئات المرات في كتابه الفلاحة الأندلسية •

مما سبق يتبين لنا أن المزارعين في بلاد الأندلس قد اهتموا بانتاج كثير من المحاصيل الزراعية كالحبوب والبقول والخضر والأشجار المثمرة ، الى جانب اهتمامهم بالنباتات التزيينية والأحباق والنباتات الطبية ، كما قاموا بالتطعيم على نطاق واسع •

– ولكننا لا نعرف بصورة واضحة شكل العلاقات الزراعية التي كانت تربط بين ملاك الأراضي والعاملين فيها • وكان من المفروض أن يخصص مؤلفو كتب الفلاحة باباً خاصاً لبحث هذا الموضوع الهام ، خاصة وان بلاد الأندلس قد تعاقب على حكمها أنظمة مختلفة انتقلت فيها من امارة الى خلافة الى حكم ملوك الطوائف •

لقد وجدت في كتاب المقنع في الفلاحة لابن حجاج الاشبيلي فصلاً صغيراً عن (تخيّر الأكرة) ، أورد فيه الأفكار التالية :

١ – ينبغي أن يختار من الفلاحين الشباب ، فان الشباب أقوى على احناء الظهور والأكتاف والمداومة على العمل •

٢ – ينبغي ألا يعمل عدد كبير من الفلاحين في موضع واحد ، لأنهم اذا اجتمعوا كثر حديثهم وأشار بعضهم على بعض بالمكر والخبث • لذلك ينصح بقسمهم الى مجموعات تتألف من ستة الى عشرة عمال ، ويشرف على كل مجموعة قيّم •

٣ – يجب أن يكون للأرض أمين ، له حظ من صلاح ودين وصدق وشأن ، ليقتدي به أهل القرية ، اما استحياء أو خوفاً أو طمعاً • وينبغي ألا يكون أكولاً ولا شارب خمر • وليستشر أهل المعرفة بأوقات العمل •

□ تربية الحيوانات والنحل والطيور والدواجن في كتب الفلاحة العربية :

درجت كتب الفلاحة اليونانية على تخصيص الأبواب الأخيرة فيها للكلام على تربية الحيوانات والنحل والطيور والدواجن • ولكن اذا رجعنا الى كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية نجد أنه لم يتعرض لتلك الأبحاث • وقد ذكر السبب في اهماله تربية النحل لأنه عمل لا يزاوله سكان بلاده • أما تربية الأبقار والأغنام وغيرها من الحيوانات فقد وضع لها كتاباً خاصاً أشار اليه •

وحينما ظهرت كتب الفلاحة في الاندلس وفي بلاد الشام اتبع المؤلفون احدى هاتين الطريقتين ، فمثلاً لم يتكلم ابن بصال وابن حجاج على تربية المواشي والطيور ، بينما خصص ابن العوام الفصول الخمسة الأخيرة من كتابه للكلام عليها ·

☐ تأخر الزراعة في بلاد الشام خلال حكم العباسيين والفاطميين بسبب الويلات المتلاحقة:

لقد بدأت المصائب تحل ببلاد الشام منذ أوائل الدولة العباسية · ذلك أن أبا العباس السفاح أرسل حملة بقيادة عمه عبدالله بن علي لمطاردة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، الذي فرّ من حرّان الى حمص ، ثم رحل عنها الى دمشق · فلما وصل عبدالله بن علي الى دمشق حاصرها وفتحها سنة ١٣٢ هـ ، ففرّ مروان الى فلسطين · ويقال بأن الفاتح أباح المدينة لجنوده خلال ثلاث ساعات ، فقتلوا عدداً كبيراً من الأمراء والعلماء الى جانب الألوف من السكان ·

تابع الجيش العباسي تقدمه في فلسطين ملاحقاً فلول بني أمية فخرب المدن والأرياف، ولم يستطع أن يفلت من أمراء بني أمية الابعض أفراد منهم عبدالرحمن بن معاوية الذي فرّ فيما بعد الى الأندلس وأقام فيها امارة ثم خلافة ·

توالت الفتن في بلاد الشام بسبب رغبة اللبنانيين والفلسطينيين في نزع طاعة العباسيين، كما دبّ الخلاف المزمن بين القيسيين واليمانيين ، الى جانب الفتن الأهلية التي قامت بسبب العصبيات المحلية ·

وفي أواخر القرن الثالث للهجرة وصل القرامطة الى دمشق فحاصروها واحتلوها ، ثم تقدموا لاحتلال بقية المدن في بلاد الشام فعاثوا فيها سلباً وفساداً واذلالاً ، وأبادوا سكان عدة مدن منها حماة والمعرّة والسلمية ، وخربوا مدينة طبريا في فلسطين ·

وخلال القرن الرابع الهجري تنافس على حكم بلاد الشام ثلاث دول هي : الاخشيدية ــ والحمدانية ــ والفاطمية · ولكن الحروب والثورات ما لبثت أن قضت على حكم الاخشيديين في مصر والحمدانيين في حلب ، وبقيت بلاد الشام خاضعة لنفوذ ولاة طغاة ، حكموا باسم الفاطميين ، فأكثروا من سفك الدماء وسلب الأرزاق ، فساد الفقر وعمّ الغلاء · وبقي الأمر على هذا الحال الى أن سار السلطان ألب أرسلان ، ثاني ملوك السلاجقة الى حلب فاحتلها عام ٤٦٣ هـ ، وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي وخطب للخليفة القائم العباسي ·

تنازع السلاجقة والفاطميون على حكم بلاد الشام ، فملك الفاطميون بعض المدن الساحلية، وملك السلاجقة أكثر المدن الداخلية · وفي عام ٤٩٠ هـ بدأ الصليبيون حملتهم الأولى فتوجهوا لانقاذ قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين ·

لقد تمكن الصليبيون بسبب كثرة عددهم وبتعاون بعض الطوائف معهم ، من الاستيلاء على أنطاكية ، ثم ساروا الى المعرة فقتلوا ما يزيد على مائة ألف شخص وسبوا مثلهم ·

وقطعوا الأشجار وهدموا الدور وخربوا المزارع واستولوا على المحاصيل ، فانتشرت المجاعة ، ويقال بأن الناس اضطروا الى أكل جثث الموتى ٠

ولما استولى الصليبيون على القدس عام ٤٩٢ هـ قتلوا خلال أسبوع واحد ما يزيد على سبعين ألفا من المسلمين ، وهكذا فعلوا في بقية بلاد الشام الساحلية ٠ فهام الناس في البراري والقرى ، وفر بعضهم الى مصر حيث عانى الفقر وسوء الحال ٠

لم ينهض الفاطميون لقتال الفرنج لمّا دخلوا بلاد الشام ، ذلك لأن جيشهم وأسطولهم لم يكونا على استعداد لمقاومة هذا الغزو المفاجيء ٠ ولكن حينما أخذ الصليبيون يحتلون مدن الشام الساحلية ويتوغلون داخل البلاد خاف الفاطميون على أنفسهم فأرسلوا نجدات ضعيفة عن طريق البر والبحر ٠

لقد حرص الصليبيون على الاستيلاء على قرى حلب والبقاع وحوران والبلقاء ليستفيدوا من غلاتها الكثيرة ، ولأن معظم القرى في فلسطين كانت ساحات حرب ، فتعطلت الزراعة فيها وعجزت بالتالي عن اطعام جيش الغزاة ٠

وفي القرن السادس للهجرة (٥٢١ هـ) منيت بلاد الشام بفتنة الاسماعيليين الذين استطاعوا الاستيلاء على حلب ودمشق ، بقيادة بهرام الفارسي الذي جاء من العراق الى الشام داعياً لمذهبه ، وقد انتهز الصليبيون الفرصة فأغاروا على حوران لنهب محاصيلها ، كما نهبوا وادي موسى وشردوا أهله ٠

لقد قيّض الله الخلاص لبلاد الشام من تلك المحن فارسل عمادالدين زنكي ، والي الموصل ، جيشاً بقيادة قراقوش ، فوصل حلب عام (٥٢٢ هـ) فأخضعها ، ثم خضعت له مدن الشام الواحدة بعد الأخرى ٠

وفي عام ٣٥٩ هـ استطاع عمادالدين أن يستولي على الرها ، وأن يحرر شرق الفرات الذي كان يحتله الفرنج ، ولكنه قتل على يد جماعة من مماليكه عام ٥٤١ هـ في قلعة جعبر ٠

خلف نورالدين أباه ونجح بمعونة أخيه سيف الدين غازي أن يصل الى دمشق وأن يفك الحصار عنها ، وأن يقضي على الحملة الصليبية الثانية في موقعة جرت في منطقة المزة جوار دمشق ٠ كما فتح كثيراً من الحصون الصليبية المنتشرة على سواحل بلاد الشام وأن يأسر الألوف من جيش الفرنج ، وكان من بينهم ملوك وأمراء ٠ وقد قبل منهم الفدية لقاء تحريرهم ، فحصل على مبالغ كبيرة من المال بنى بواسطتها الجوامع والمدارس والبيمارستانات ٠ وقد مدحه ابن الأثير فقال بأنه لم يجد بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن سيرة من الملك العادل نورالدين ٠٠٠

توفي نورالدين بعد حكم دام أربعة وعشرين عاماً ، أعاد خلاله للمسلمين هيبتهم ، بحسن بلائه في قتال الصليبيين ، وحرصه على نصرة المستضعفين ٠ وقد سار على نهجه السلطان

صلاح الدين ، الذي كان عامله في مصر ، ثم امتد حكمه بعد وفاة نورالدين الى بلاد الشام، حيث استطاع أن يحطم جيش الفرنج في حطين وأن يحرر بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ ٠

اختلف سلاطين بني أيوب بعد وفاة صلاح الدين ، وعادت بلاد الشام الى عهد ممالك المدن المتناحرة ٠ وكانت ويلات تلك الخلافات تقع دائماً على المدن والقرى والأرياف فتقطع الأشجار وتسد الأنهار وتحرق الأكواخ ودور السكن ٠

وحينما توفي الملك الصالح أيوب عام ٦٤٧ هـ كان أكثر أمراء عسكره من المماليك الأتراك (البحرية أو البرجية) فاستطاعوا بعد مقتل ابنه تورنشاه أن يستولوا على الحكم في مصر وبلاد الشام ، وأن يحولوها الى اقطاعات يستغلونها أبشع استغلال ٠

☐ المغول والتتر يعيثون فساداً في أرض الشام :

في عام ٦٥٧ هـ تقدم هولاكو ملك التترفاستولى على حران والجزيرة ٠ ثم واصل ابنه تقدمه الى حلب فأخرج أهلها منها بحيلة، لأنها كانت مدينة حصينة، وأعمل فيهم السيف حتى لم يبق على أحد ٠ وهكذا فعل بحارم وحماة ودمشق وبقية مدن الشام ٠ وحينما وصل التتر الى عين جالوت ، وهي تقع بين بيسان ونابلس استطاعت العساكر الاسلامية، بقيادة المظفر قطز أن توقف زحفهم وأن تفني أكثرهم ٠

وفي عام ٦٩٩ هـ أعاد التتر الكرة على بلاد الشام انتقاماً لوقعة عين جالوت ، وبعد أن قاموا بقتل وأسر عدد كبير من السكان تراجعوا عن دمشق بعد أن تقاضوا مبالغ طائلة من المال ٠

وفي عام ٨٠٢ هـ جاء تيمورلنك بحملته المشؤومة فكرر ما فعله التتر ، ولكن بوحشية ودناءة تفوق الوصف ٠ وقد صب جام غضبه على مدينتي حلب ودمشق ، فساق منهما الأسرى والسبايا ، واختار أصحاب العلم والمهن ثم أمر باحراق ما تبقى فيهما من المساكن والأمكنة الأثرية ٠

ويقول الأستاذ كرد علي : « وبعد أن نجت الشام من فتن التتر وتيمور ووقائع الصليبيين وويلاتها عاودتها الأوبئة والمجاعات والزلازل ، فزلزلت حلب سنة ٨٠٦ هـ فتخرب كثير من معابدها ومساجدها ، وفي عام ٨١٤ هـ انتشر الطاعون في دمشق وأطرافها فخلت من سكانها ٠ ووصل الطاعون الى حلب عام ٨٢٠ هـ فقضى على سبعين ألف شخص ، ثم تكرر انتشاره عام ٨٦٣ هـ فأربى عدد الموتى على المائتي ألف ٠

☐ تأثير نظام الاقطاع والوقف في شلل النظام الزراعي :

لقد اعترفت الدولة الاسلامية منذ ظهورها ، من الناحيتين القانونية والعملية ، بحق الفرد في أن يتملك الأرض التي يقوم على زراعتها ٠ ولهذا الفرد الحق في أن يبيع أرضه أو يرهنها أو يوصي بها لغيره ٠ وكان يستطيع أن يزرعها أو يجعل غيره يزرعها ٠ ولكن

ظهرت فيما بعد آراء فقهية تقول بأن بعض الأراضي المستولى عليها أثناء الفتح أو كلها تعود الى الدولة أو الى مجموع المسلمين ، الا أن هذا الرأي لم يطبق بصورة عملية ٠

ان حق ملكية الأرض يختلف باختلاف عوامل كثيرة ٠ فهنالك أراض كان يمتلكها المسلمون أو كتبت لهم عن طريق الشراء أو الميراث أو التنازل أو الاستصلاح ٠ وهنالك أراض كان يمتلكها غير المسلمين وقد ثبتت ملكيتهم لها عن طريق الدولة أيام الفتح أو بعد ذلك ٠ وهنالك أراض لم يكن للأفراد من حيث المبدأ حق الملكية عليها كأراضي الدولة التي تم تملكها بعد الفتح أو المصادرة ، والتي كانت تدار باشراف الحاكم ، الذي كان يمنح حق الانتفاع بها للمستأجر أو للمالك السابق لقاء دفع ضريبة الأرض أو دفع الخراج ٠ الا أن أراضي الدولة كثيراً ما كانت تدخل في ملكية الحاكم أو يستولي عليها بعض أعوانه أو أقربائه أو المتنفذين ٠

ـ كانت الحيازات الزراعية الكبيرة مسيطرة في صدر الاسلام ، ولكن بنتيجة عوامل كثيرة ، منها البيع والمصادرة والميراث وشح المياه ونقص اليد العاملة ، جعلت تلك الحيازات تتناقص بعددها وتصغر مساحاتها ٠

واستناداً الى قول القائل بأن الأرض لمن يعمل بها ، فان كثيراً من الأفراد الذين كانوا يملكون أرضاً زراعية واسعة ، ولكن لا يملكون كفاءة ادارتها أو الاشراف عليها ، كانوا يضطرون لبيعها أو لتسليمها لمزارعين يحسنون العمل فيها ، لقاء تقاسم الانتاج ٠ وكان مستأجرو الأرض يرتبطون بعقود زمنية محددة غالباً ٠

لم يكن المالكون أو المستأجرون مقيدين بمتطلبات كثيرة في أراضيهم تجاه الدولة ، لذلك كان بالامكان احداث تغيرات كثيرة في طريقة استعمال الأرض وتغيير نوعية المحاصيل ، وهذا ما ساعد على زيادة الانتاج وتنوعه ٠

لقد ظهر في العصر العباسي ، منذ القرن الثالث للهجرة نظام يمنح بعض الأفراد امتيازات لقاء خدمات مدنية أو عسكرية أوطبية ٠ وكانت تلك الامتيازات تتمثل باقطاع أحدهم قرية أو مقاطعة بحيث يحق له أن يجمع الضرائب المستحقة على الأفراد والممتلكات طيلة حياته ٠ وكانت تلك الامتيازات تزول بوفاة صاحبها فترد ايراداتها لبيت المال أو يترك شيء منها للورثة ٠

كان صاحب الاقطاع يسعى جهده للحصول على أكبر كمية ممكنة من المال والانتاج من ملاكي الأراضي أو المستثمرين لأراضي الدولة ، دون أن يهتم بتقديم أية خدمات لهم ٠ وحينما يجد الاقطاعي وفرة في انتاج الأرض كثيراً ما يسعى لاغتصابها عن طريق التنازل أو الشراء ٠

كانت الضرائب تثقل كاهل المزارع لذلك كثيراً ما كان يسعى للتنازل عن حقوق ملكيته ليبقى يعمل تحت حماية صاحب النفوذ ، أو أن ينسب ملكيتها اليه فيخفف عنه الخراج ويدفع العشر فقط ٠ وفي كلا الحالين كان المزارع يعيش في قلق واضطراب ويحاول أن يسرق صاحب الاقطاع باخفاء قسم من الانتاج أو بيعه لكي لا يتمتع غيره بعرق جبينه ٠

ومن الأسباب الهامة التي أدت الى الحدمن نشاط المستوطنات الزراعية قيام نظام الوقف بين القرنين الثاني والثالث للهجرة ٠ وكان القصد من هذا النظام الاستفادة من ريع الحيازات التابعة لأملاك الدولة لتوفير الأموال اللازمة للصرف على المساجد والمشاريع الصحية والتعليمية والخيرية ٠ وكان ناظر الوقف ينتخب عادة من أصحاب الدين، المشهود لهم بالعفة والنزاهة ٠ ولكن نظار الوقف كانوا كأصحاب الاقطاع يجهلون غالباً أمور الزراعة ، وليس لديهم الوقت الكافي للاشراف على حسن ادارة العمل في الحقول والبساتين التي كانت توضع تحت اشرافهم ٠ يضاف الى ذلك أن الأراضي الخاضعة لنظام وقف معين كثيراً ما تكون متباعدة ، فيصبح من الصعب جباية ايراداتها ٠ وفي أكثر الأحوال كانت ايرادات الأملاك الموقوفة لا تسد مصاريف المؤسسات التي أوقفت لها بسبب الاهمال والسرقات التي تتعرض لها ٠

☐ نظام الاقطاع في الدولة العثمانية ، وازدياد عدد الأملاك الموقوفة :

درجت الدولة العثمانية منذ زمن السلطان سليمان القانوني على اقتباس النظام الاقطاعي الذي كانت تسير عليه الامبراطورية البيزنطية، فكان الجنود المستحقون للمكافأة يمنحون في بادىء الأمر اقطاعاً صغيراً، ويكون على مالكيه السابقين من الفلاحين أن يواصلوا الحراثة والزرع ٠ وكان على صاحب الاقطاع لقاء ذلك أن يقدم للجيش عدداً من الفرسان أو البحارة ، يتراوح عددهم عادة بين اثنين الى أربعة ، بحسب ثمن الغلة التي يحصل عليها من الأرض ٠ وقد شكلت قوى الفرسان (السباهية) والبحارة الاقطاعية نواة الجيش العثماني في بادىء الأمر ٠

وكانت هنالك اقطاعات خاصة يمنحها الولاة لأتباعهم الخصوصيين ، وكان هؤلاء لا يقدمون مقابل ذلك أية خدمة عسكرية ،لذلك أصدر السلطان سليمان قانوناً (عام ١٥٣٠ م) بنزع حق الاقطاع من يد الولاة ،ولكن جعل من حقهم أن يقدموا للباب العالي أسماء من يرغبون بمنحهم اقطاعاً ٠ فاذا حصلت الموافقة صدرت براءة رسمية وثبتت في السجل الخاص بالاقطاعات ٠ وعند وفاة صاحب الاقطاع فعلى ولده أن يقنع باقطاع أصغر ، ريثما يقيم الدليل بأعماله العسكرية على أنه جدير بذلك الامتياز ٠ واذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ولم يتقدم للخدمة العسكرية خسر الاقطاع ٠ وعلى كل فان كثيراً من الاقطاعيين تجاهلوا أمر الحصول على موافقة الباب العالي ، وبالتالي تخلصوا من دفع الضرائب المترتبة على الانتاج ٠

شرع السلطان سليمان القانوني منذ عام ١٥٥٠ م بانشاء عدد كبير من الآثار العمرانية في مدينة استامبول بصورة خاصة وفي بقية دول الأناضول وعواصم البلاد التابعة للدولة العثمانية ٠ وكان أكثرها جوامع ومساجد ومدارس وبيمارستانات ٠ وكلها بحاجة الى عدد كبير من رجال العلم والدين للقيام بالتدريس والخطابة والامامة ، ونظارة الأوقاف ، الى جانب الحاجة الى عدد كبير من القضاة ورجال الادارة ٠

كانت الحياة العلمية في الدولة العثمانية خلواً من الأصالة والابداع العلمي • وكانت أقصى غاية المتعلم أن يتمكن من جمع ومعرفة ما أنتجته قرائح الأجيال السابقة • ونظراً لأن التشريع الاسلامي هو المطبق في القضايا المدنية والأحوال الشخصية ، لذلك كانت أمهات كتب العلم والتشريع توضع باللغة العربية •

□ كتب الفلاحة الشامية بين القرنين الثامن والثاني عشر للهجرة :

حكم مصر وبلاد الشام خلال الفترة الممتدة من عام ٧٨٤هـ الى عام ٩٢٣هـ دولة المماليك الشراكسة ، ومن بعد ذلك التاريخ حكمتها الدولة العثمانية •

كان نظام الحكم في دولتي المماليك الأتراك والشراكسة متشابهاً ، ففي كلا النظامين كان هنالك عدد كبير من الاقطاعيين ، يستمد السلطان نفوذه من نفوذهم وينشد رضاهم ، لأنهم كانوا يمدونه بالرجال والمال والسلاح كلما احتاج اليهم • وقد ظهر في كل من الدولتين سلاطين كانوا على قدر كبير من الشجاعة والبأس ، أمثال الظاهر بيبرس وقلاوون وبرقوق وقيتباي ، وغيرهم ، ممن استطاعوا أن يحسنوا ادارة الدولة وأن يخرجوا بقايا الصليبيين من سواحل بلاد الشام • كما ظهر من بينهم سلاطين ضعاف لم يحسنوا الادارة ولم يستطيعوا رد غارات المغول والتتر عن مدن بلاد الشام الداخلية •

لقد سيطر المماليك على القطرين المصري والسوري وجعلوا مقرهم القاهرة • وحينما كانت تلم ببلاد الشام ملمة كانوا يكتفون بارسال بعض كتائبهم للمشاركة في رد العدوان• أو كانوا يصدرون أمرهم لأحد نوابهم في بلاد الشام لكي يقوم بمساعدة نائب آخر حلت المصيبة في ولايته • وبهذه الصورة بقيت مصر بعيدة عن ويلات الحرب أما بلاد الشام فكانت مسرحاً لها •

لقد انتشر في بلاد الشام ، عقب خروج الصليبيين والتتر ، الفقر والمرض ، وهجرت اليد العاملة أماكن عملها في الحقول والمزارع ، وتشرد السكان بسبب خراب منازلهم ونهب حوانيتهم • وقلّت اليد العاملة الخبيرة بسبب سوقها أسرى الى بلاد الغربة • لذلك كان الناس في بلاد الشام بأشد الحاجة الى الغذاء والدواء والسكن •

لقد تناقص عدد السكان كثيراً في المدن والأرياف ، من جراء القتل والسبي والأسر والهجرة • ولكن أراضي بلاد الشام المشهورة بخصبها ووفرة مياهها استعادت خضرتها ورونقها ، فجذبت اليها اليد العاملة لاعمارها وزرعها • ولكن الخبرة في فلاحة الأرض واصلاحها قضت عليها الويلات ، لذلك كان لا بد من وضع مؤلفات في علم الفلاحة لترشد الجيل الجديد الى الطرق الصحيحة في ممارسة مختلف الأعمال اللازمة للاستفادة من الأرض•

لم يظهر في بلاد الشام زمن الحكم الأموي أو العباسي أي كتاب حديث التأليف ، يبحث في علم الفلاحة • ذلك لأن العاملين في الانتاج الزراعي كانوا غالباً من أصحاب البلاد القدماء ، الذين اكتسبوا خبرة بالوراثة والتجربة ، واعتادوا طرقاً ثابتة في خدمة الأرض ، وانتخاب أنواع المحاصيل ، وتعيين أوقات زرعها وكيفية العناية بها •

لقد قمت بالبحث عن الكتب المؤلفة في علم الفلاحة ، والتي ظهرت بصورة عامة في بلاد الشام، فوجدت أربعة كتب هامة صنفت خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والثاني عشر للهجرة • وسأتكلم فيما يلي بصورة موجزة على أهم المواضيع التي طرقت في تلك المؤلفات ، مع ذكر أهميتها بالنسبة للعلوم الزراعية الحديثة :

آ ـ كتاب الدر الملتقط من علم فلاحتي الروم والنبط :

يقول الدكتور أحمد عيسى في مؤلفه تاريخ النبات عند العرب انه يوجد في دار الكتب بالقاهرة نسختان مختلفتان من هذا الكتاب ، مقيدتان تحت رقم (٢١) و (٨٤) ، ولا يوجد فيهما تاريخ للنسخ • أما مؤلف هذا الكتاب فهو محمد بن أبي بكر بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي ، المعروف بشيخ حطين •

لم يذكر الدكتور عيسى شيئاً عن الفوارق الموجودة بين المخطوطتين ، كما لم يذكر شيئاً عن حياة المؤلف أو مؤلفاته • وحينما رجعت الى تراجم الأعلام وجدت أن المؤلف المذكور كان يعرف أيضاً باسم شيخ الربوة • وقد جاء في ترجمة حياته أنه ولد في دمشق عام ٦٥٤ هـ ـ ١٢٥٦ م) ، ولقب بشيخ الربوة لتوليه المشيخة والامامة في قرية الربوة •

ذكره الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات) فقال « عاني الانشغال ، فمهر في علم الرمل والأوفاق » كان ذكياً فطناً ، حلو الحديث ، متقشفاً وصبوراً على الفقر والوحدة ، نظم الشعر وصنف في كل علم ، حريصاً على امتاع قارىء مؤلفاته واشباع فضوله واثارة روح التعجب لديه •

سافر الى مصر وعرف مدنها وعجائبها ، ووصف أكثر ما رآه • كما أنه سافر الى فلسطين في طريقه الى مصر بالذهاب والاياب • توفي في مدينة صفد عام (٧٢٧هـ ـ ١٣٢٧م) • له من المؤلفات كتاب السياسة في علم الفراسة وكتاب نخب الدهر في عجائب البر والبحر ولكن اسمه الوارد في الكتاب الأخير « هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الدمشقي » وهو سهو واضح من الناسخ غالباً لأنه لم يذكر اسم جده •

☐ مصادر كتاب الدر الملتقط :

عدد مؤلف هذا الكتاب المصادر التي استقى منها أبحاث كتابه ، وعددها ثمانية • سبعة منها وردت أسماؤها في كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، وهي من تأليف قدماء الكلدانيين والأنباط أمثال : قوثامي السوراني (أو الكوكاني) ـ ذوناي البابلي ـ صفريت النبطي ـ كاماش النهري ••• بالاضافة الى كتاب الفلاحة الرومية لقسطوس سكوراسكينة •

قام المؤلف بعد ذلك بجمع النباتات وصنفها في ثلاثة (أجناس): المشجَّر المخيَّم ـ المغرَّس الممدود ـ الناجم المستأنف • ثم عدد (أنواع) الأشجار بعد تصنيفها في ست زمر وهي :

١ ـ أشجار ذات ثمر له نوى: مثل النخل والمشمش والخوخ والاجاص والقراصيا والعناب والزيتـون (وعددها ١٥) ·

٢ ـ أشجار ذات ثمر بلا نوى : العنب ـ التين ـ الكمثرى ـ التفاح ـ التوت ـ الموز ـ الجميز ـ السفرجل (وعددها ١١) ·

٣ ـ أشجار ثمرهن حوامض: الأترج ـ النـارنـج ـ الليمون ـ الكبـاد ـ المختم (وعددها ٥) ·

٤ ـ أشجار ذات ثمار دهنية : فستق ـ بندق ـ قضم ـ صنوبر ـ جوز ـ لوز ـ بطم (وعددها ٧) ·

٥ ـ أشجار ثمارها ذات غلف وقشور : الرمان بأنواعه ـ الشاهبلوط ـ البلوط ـ لسان العصفور (وعددها ٦) ·

٦ ـ أشجار غير مثمرة وقسمها الى بستانية ـ وحشية بعيدة ـ وحشية بريـة ـ علوكات ـ رطوبات ـ دوابغ ـ قوابض عطرية ذات صبغ ـ دخن ·

أما النباتات المعرشة فقسمها الى (١٢) جنساً هي : القرع ـ البطيخ الأخضر ـ البطيخ الأصفر ـ القثـاء ـ اللوبيا ـ الخيار ···

لقد أحصى عـدد أجناس الأشجار فبلغ (٤٤) جنساً، أما عدد الأنواع فبلغ (٤٥٠) نوعاً·

ثم قسم المتن الباقي من الكتاب الى تسع وعشرين باباً ، تكلم في النصف الأول منها على المواضيع الآتيـة :

ـ أسماء الشهور بالأعجمية وما يعمـل الفلاح فيها ـ التوقيت بواسطة القمر ومعرفة الطالع والغارب والمتوسط ـ منازل القمر ـ معرفة الأنواء والنظر في دلائل المطر ـ في ذكر الرياح وأمزجتها والنبات المتأثر بها ـ تأثيرها في الميـاه والبقاع ـ تأثير الشمس ، وهو سر مـن الأسـرار ···

ـ في ذكر الأرض الكثيرة الماء في أعماقها ، والقليلة الماء ، والعديمة كذلك ، طيور الماء والتخلص من شرها ·

حفر الآبار واستخراج الميـاه ـ ازالة البخار القاتل منها ـ زيادة ماء الآبار بالطرق المختلفـة ·

ـ في تأسيس القرى ـ وضع مساكنها ـ مدح أهلها ـ ذكر محاسنهم والوصية بهم لمن ملكهم وحكم فيهم ـ ذكر أشياء يستعملها أهل القرى فتصح بها جسومهم ·

ـ وصف غرسة الكرمة التي استنبطها النبط والتي تعرف بكرمة الترياق ، ويغني عصير ثمرها عن كثير من الأدوية ·

– سقط من المخطوطة البابان الثالث عشر والرابع عشر • أما الأبواب الباقية فتضم المواضيع الآتية :

– ذكر منافع وأدوية سهلة يحتاجها سكان القرية – ما يطرد الحيات والعقارب ويقي من سمومها – الأدوية الشافية من السموم – ما يطرد القمل والبراغيث والفأر والجرذ والجنادب والذباب والبق والبرغش والفسافس والنمل والخفاش •

– في تربية النحل ودود القز – اقتناء الدجاج والحمام – تربية الغنم والماعز والبقر والخيل وسياستها •

– خصص الأبواب الخمسة الباقية للكلام على التكوينات وأسباب تشكلها (تغير صور الكائنات – تكوين الرياحين – استنباط الألوان المختلفة •••

لقد اقتبس شيخ الربوة من كتاب الفلاحة النبطية كثيراً مما جاء في كتابه ، وخاصة أجناس وأنواع الأشجار – الأنواء والرياح – تأثير القمر والشمس – استنباط المياه – تأسيس القرى ومعاملة أهلها – كرمة الترياق – التكوينات • واقتبس من كتاب الفلاحة الرومية كل ما يتعلق بتربية النحل ودود القز واقتناء الطيور والمواشي وما يطرد الزواحف والحشرات ، وما ينفع عند أذاها من أدوية •

ذكرنا في مقدمة الكلام عن شيخ الربوة أنه كان من مواليد وسكان مدينة دمشق • وقد عاصر منذ طفولته وشبابه الانتصارات التي تمت للمسلمين على المغول في عين جالوت ، والتي تلتها انتصارات الظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون على الصليبيين ، وتكلم على ذلك في كتابه نخبة الدهر وعجائب البر والبحر •

قلنا ان شيخ الربوة رحل الى مصر وتجول في أنحائها ، ولكننا لا نعرف المدة التي قضاها فيها • وعلى كل يمكننا أن نقول بأنها كانت كافية لتاليف كتابه الدر الملتقط في علم فلاحتي الروم والنبط •

ومما يلفت النظر في هذا الكتاب أن مؤلفه حول الشهور السريانية ، المذكورة في كتاب الفلاحة النبطية ، الى شهور أعجمية ليفهمها أهل مصر • كما أنه مدح أهل القرى وذكر محاسنهم وأوصى من ملكهم أو حكم فيهم أن يحسن معاملتهم ، وهذا ينطبق على سكان الأرياف في مصر أكثر مما ينطبق على المزارعين في سوريا بصورة عامة •

وأخيراً لم نجد في مكتبات الشام أي مخطوط لكتاب الدر الملتقط في علم فلاحتي الروم والنبط ، بينما يوجد له في القاهرة كما رأينا مخطوطتان • وهذا يدل على أن شيخ الربوة قد ألّف كتابه هذا في شيخوخته ، حيث كان في مصر ، بينما ألّف كتاب السياسة في علم الفراسة في مطلع شبابه ، لأنه يوجد في المكتبة الظاهرية أربع نسخ مخطوطة منه •

ب ـ كتاب مفتاح الراحة لأهل الفلاحة :

وهو كتاب لمؤلف مجهول ، قام بتحقيقه كل من الأستاذين الدكتور محمد عيسى صالحية والدكتور احسان صدقي العمد . ونشره قسم التراث العربي في دولة الكويت .

لقد استطاع هذان الباحثان العثور على سبع مخطوطات لهذا الكتاب ، أربع منها محفوظة في بعض المكتبات الأوربية ، وثلاث منها موجودة في مكتبات القطر المصري . وبعد دراسة وتمحيص لتلك المخطوطات تبين لهما أن النسخة ذات الرقم (٦٢٠٨) والمحفوظة في مكتبة برلين الأهلية ، هي أجود النسخ ، من ناحية أسلوبها ودقتها ، وانسجام مادتها العلمية مع طبيعة عنوانها وحسن خطها . فاعتمدت كمخطوطة أم ، واستعين ببقية النسخ لتدارك واصلاح ما أبهم أو نقص من كلمات أو جمل .

لقد جاء في مخطوطة برلين المذكورة أن مؤلف كتاب مفتاح الراحة لأهل الفلاحة هو الشيخ الامام العالم أبو عبدالله شمس الدين محمد ابن وحشية ، أما بقية النسخ المخطوطة فلا تحمل اسم المؤلف . لذلك سعى المحققان ، عن طريق دراسة المخطوط ، والتفتيش عما ورد فيه من أسماء أو أفكار أو أبيات شعر ، لمعرفة هوية المؤلف وتاريخ التأليف .

لقد اتبع المؤلف التقويم السرياني في تحديد مواعيد الغرس والزراعة وتحويل النباتات . وأكثر من الاشارة الى أمكنة وقصص ونباتات لا يعرفها الا أهل الشام ، وهذا ما دعا المحققين الى القول :

« يتبين لنا مما تقدم أن أغلبية الاشارات والشواهد الفلاحية التي اعتنى بها المؤلف تهتم بتلك التي تفلح في بلاد الشام . الأمر الذي يدعونا الى أن نرجح أن يكون مؤلف كتاب (مفتاح الراحة لأهل الفلاحة) مؤلفاً شامياً عاش في النصف الأول من القرن الثامن الهجري على أبعد تقدير » .

أما لمعرفة اسم المؤلف فقد انطلق المحققان الى التفتيش عمن يحمل اسم (أبا عبدالله شمس الدين محمد) . وبالرغم من أن شيخ الربوة يحمل نفس اللقب والاسم الا أن ترجيحه من قبل المحققين كان ضعيفاً ، لأنهما لم يجدا له كتاباً فلاحياً باستثناء كتاب الدر الملتقط في فلاحتي الروم والنبط . لقد صرح الزميلان أن ما ورد في الكتاب الأخير يختلف عما يشتمل عليه كتاب مفتاح الراحة . لذلك نقول : ماذا يمنع اذن أن يكون هذا الكتاب أيضاً من تاليف شيخ الربوة ، علماً بأن المباحث التي وردت في الكتابين المذكورين يتمم بعضها بعضاً ؟..

لقد قام المحققان بدراسة متعمقة للنصوص المتعلقة بعلم الفلاحة ، والواردة في كتاب مفتاح الراحة ، فتبين لهما أن مؤلف هذا الكتاب قد اعتمد على الاقتباس والنقل والتلخيص ، ولم يكن لديه تجارب خاصة ولامعاناة في علم الفلاحة . وهذا أمر ذكرناه عند الكلام على مؤلف كتاب الدر الملتقط ، وكل ذلك يؤكد أن شيخ الربوة أو شيخ حطين هو مؤلف الكتابين ، وقد تم تاليفهما في القاهرة ، حيث أمضى سنوات نضجه بصحبة مراجع وردت من الأندلس الى مصر ، ولم يكن لها وجود في بلاد الشام .

□ فهرس كتاب مفتاح الراحة :

يتألف هذا الكتاب من مقدمة وعشرة أبواب . بدأ مؤلفه بعد البسملة بقوله : « الحمد لله الذي فلق الحب والنوى ، وسخّر الأنهار والامطار لسقي ما احتاج الى الارتواء، أوجد الأشياء بقدرته مختلفات لحالتي ضعف وقوى ... » .

ثم تكلم بعد ذلك في امكان نقل المولّدات من طور الى طور ، بالهام من الله لبعض ذوي الباب ، بواسطة تدابير او تعافين . فمثلاً اذا عفّنا شعر الانسان في أرض ندية ، خرج منه ما يشبه الثعابين ، ومن ورق القرع سام أبرص ... وكذلك أنواع النبات كالفجل من السلجم ، والزوان من الحنطة ، والنّمام من الريحان ... وقد يتولد من النبات حيوان، كما ذكر انه في أرض اسكوسيا ، من جانب البحر من بلاد الفلمنك ، شجر يتولد منه حيوان كالدود ، ينمو ويزيد حتى يصير كطير الاوز ، وهو كثير في تلك الناحية ، يصاد ويؤكل ... أما الأبواب التي يتألف منها الكتاب فهي كما يلي :

الباب الأول	:	في كيفية كون النبات وكميته .
الباب الثاني	:	فيما يوافق النبات من الارضين والسرقين .
الباب الثالث	:	في فلاحة الحبوب والقطاني :
الباب الرابع	:	في فلاحة البقول .
الباب الخامس	:	في فلاحة النبات الذي لثمره قشر .
الباب السادس	:	في فلاحة النبات ذي النوى .
الباب السابع	:	في فلاحة النبات الذي لا قشر لثمره ولا نوى .
الباب الثامن	:	في فلاحة أنواع الرياحين .
الباب التاسع	:	في ذكر أشجار الأصماغ والأمنان .
الباب العاشر	:	في ملح واشعار ولسان حال الازهار .

لقد اتبع مؤلف كتاب مفتاح الراحة ،في تصنيف النباتات ، نفس الطريقة التي اتبعها شيخ الربوة في كتابه الدر الملتقط في فلاحتي الروم والنبط ، وذلك بقسمها الى الزمر الآتية : حبوب ـ قطاني ـ أشجار لثمرها قشور ـ أشجار لثمرها نوى ـ أشجار ليس لثمرها قشر ولا نوى ـ رياحين ـ أشجار ذات أصماغ ـ أشجار ذات أمنان ـ وهذا ما يؤيد نظريتنا بأن مؤلف الكتابين واحد . يضاف الى ذلك أننا اذا قارنا بين الأبواب التي يتألف منها كل من الكتابين نجد أنها مختلفة ولا يوجد بينها تكرار واضح .

لقد تكلم مؤلف كتاب مفتاح الراحة في الباب الاول من كتابه عن كيفية كون النبات ، فنقل عن المسعودي ان ادم عليه السلام لما هبط الى الارض خرج من الجنه ومعه ثلاثون قضيباً مودعة اصناف التمر ، منها عشرة لها قشر وهي : الجوز ــ اللوز ــ الجلوز ــ الفستق ــ البلوط ــ الشاه بلوط ــ الصنوبر ــ النارنج ــ الرمان ــ الخشخاش ٠ ومنها عشرة لثمرها نوى وهي : الزيتون ــ الرطب ــ المشمش ــ الخوخ ــ الاجاص ــ الغبيرا ــ النبق ــ العناب ــ المخيط ــ الزعرور ٠ ومنها عشرة ليس لها قشر ولا نوى وهي : التفاح ــ السفرجل ــ الكمثرى ــ العنب ــ التين ــ الاترج ــ الخروب ــ التوت ــ القثاء ــ البطيخ ٠

ثم أورد بعد ذلك نظرية جاء بها ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية وهي تقول بأن الماء الراكد اذا طال وقوفه في أرض ماندى حوله ، وتشرب التراب الماء ٠ ثم يضربه الهواء الحار الرطب ثم تسخنه الشمس ، فتحدث في الارض عفونة بتعاون الحارين وهما الشمس والهواء والباردين وهما الارض والماء ويتشكل شيء يشبه الحبوب والبذور ٠٠٠ يقول صاحب كتاب مفتاح الراحة « يحتاج الانسان لدوام بقائه لمجموعة من النبات والفواكه والبقول ليقتات بها ٠ وهذه الانواع التي يحتاج اليها الانسان لا بد من اصلاحها من العوارض والأمراض التي قد تلحق بها ٠ فان فقدت تلك الانواع عمد الفلاح الى ايجادها بالتوليدات ٠

كان لنشوب الثورات والحروب وتعدد الكوارث والمحن الطبيعية ، في شرق العالم الاسلامي وغربه ، خلال القرن الرابع الهجري حتى القرن الثاني عشر أثر كبير في حياة الشعوب ، وخاصة فيما يتعلق بتأمين الغذاء ٠ لذلك اصبحت الحاجة ماسة لظهور مؤلفات تتعلق بعلم الفلاحة وتربية الدواجن من طيور وأغنام وأبقار ٠٠ وقد درج المؤلفون على اطلاق اسماء كتب الفلاحة مرتبطة بالأقاليم التي تمارس فيها ، فقالوا الفلاحة الأندلسية ــ الفلاحة المصرية ــ الفلاحة الشامية ، وتعتبر كتب الفلاحة التي ظهرت في بلاد الشام من أحدث تلك المؤلفات ، ومن جملتها كتاب مفتاح الراحة الذي ظهر في القرن السابع للهجرة ٠

لقد قام محققا الكتاب الأخير باحصاء دقيق للنصوص التي اقتبسها مؤلفه من مؤلفات من سبقه من علماء النبات والفلاحة والأدوية المفردة ، فحصلا على ما يأتي :

نقل من مؤلفات قدماء اليونان والرومان أمثال أبقراط وأرسطو وديمقراطيس وديوسقوريدس وجالينوس وبليناس (١١) نصاً ــ ومن كتاب أبي حنيفة الدينوري (١٧) نصاً ــ ومن كتاب الفلاحة لابن بصال الطليطلي (٣١) نصاً ــ ومن كتاب الفلاحة لأبي الخير الاشبيلي (١٠) نصوص ٠٠٠ ولكنه اعتمد بصورة خاصة على مؤلفات ابن وحشية وهي : كتاب الفلاحة النبطية ــ وكتاب أسرار القمر ــ وكتاب التعافين ، فأخذ مثلاً من كتاب الفلاحة النبطية (٩٦) نصاً تتعلق بأنواع المياه واستنباطها والوان النبات وأنواع الأراضي واصلاحها ، وافلاح كثير من أنواع الحبوب والقطاني والبقول والأشجار المثمرة والرياحين ٠ واهتم بصورة خاصة بنقل التوليدات من كتاب التعافين وقد تجاوز عددها (١٩) توليداً ٠ وسأذكر فيما يلي بعض الأمثلة الموجزة ، لأن طرق التعفين معقدة وتحتاج الى فترة طويلة من الزمن بصورة عامة :

١ ــ للحصول على أنواع من التين :

قال ابن وحشية « ان خلطتم من اليبروح الرطب ، اصلا وفرعاً ، مثل وزنه من العسل والشمع ، وزرعتموه في الأرض كما تزرعون سائر الاشياء ، وحفرتم لذلك بالقدر الذي تحفرون لسائر الشجر مثل زرعه من النوى ، وصببتم عليه وقت زرعه من الماء بقدر ما تعلمون أنه قد وصل اليه ، ثم أتركوه ولا تزيدوا على ذلك ، خرج من ذلك التين الأصفر الشديد الحلاوة . وان خلطتم باليبروح أربع ثومات وبصلة وسحقتم الجميع وزرعتموه ، خرج من ذلك شجر التين الأسود المتوسط ، لكنه ينفط الفم ويأكل اللثة » .

٢ ــ توليد القطن :

قال ابن وحشية « اذا أردنا أن يكون القطن ، آخذنا من أوراق الكرمة ما رطب ، فجمعنا منها شيئاً صالحاً وألقيناه في هاون حجر ، وألقينا معه ملحاً ثم مثل سدس وزنه قطناً منفوشاً قليلاً قليلاً . ويدقان معاً بالزيت دقاً جيداً ، فاذا اختلطا أضفنا اليهما شيئاً من خثاء البقر الرطب ، وبالغنا في الخلط ، ثم عملناه كهيئة كرة ، وطيناها بطين مخلوط بزبل واخثاء البقر ، ثم دفناه وسقيناه فانه ينبت منه ما ذكرنا » .

٣ ــ وللحصول على شجر اللوز الحلو :

يقول ابن وحشية في كتاب أسرار القمر « خذوا من آذقان التيوس ، واحلقوا منها الشعر ، وانقعوها في دهن الشيرج سبعة أيام . ثم اتركوها في الشمس ثلاثة أيام ، ثم اطمروها في الأرض قائمة ، واجعلوا فوق رأس كل واحدة منها طاقات من الخزامى ، والمقصود الورد المرروغ في التراب ، فانه ينبت منه شجر اللوز الحلو » .

مما سبق يتبين لنا أن مؤلف كتاب الراحة في علم الفلاحة قد اهتم كثيراً بأمور التوليدات العجيبة ، فذكرها كما وردت في مؤلفات ابن وحشية دون أن يلقي عليها أية شبهة ، مما يدل على اعتقاده بامكان حدوث تلك الأمور التي هي اقرب للخيال منها الى الحقيقة ، أو آنه يرغب في اشباع فضول القارىء واثارة روح التعجب فيه وهو الغالب . وهذا ما يؤكد أيضاً أن مؤلف هذا الكتاب هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الملقب بشيخ الربوة ، والذي جاء في ترجمة حياته آنه كان متصوفاً ، موسوعي الثقافة ، متنوع المعارف . ولكنه لم يكن متعمقاً لأحد العلوم أو على رسوخ أصيل فيه . بل كان كثير المطالعة والجمع والاختيار والتأليف . حريصاً على تثقيف السامع أو القارىء وامتاعه واشباع فضوله واثارة روح التعجب فيه » .

ج ــ كتاب جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة :

ألّف هذا الكتاب عالم من علماء دمشق ، عاش في القرن التاسع الهجري ، فعاصر نهاية الحكم المملوكي وبداية الحكم العثماني في بلاد الشام . وهو الشيخ رضي الدين محمد ابن محمد بن أحمد بن عبدالله .. بن لؤي بن غالب . تكلم عنه حفيده نجم الدين الغزي في كتابه الكواكب السائرة فقال :

« ولد رضي الدين الغزي جد ي صبيحة العاشر من ذي القعدة عام (٨٦٢هـ ـ ١٤٥٨م) ·
توفي والده رضي الدين شيخ الاسلام وسنه آنذاك دون السنتين · واسند وصايته عليه الى شيخ الاسلام زين الدين خطاب بن عمرك بن مهنا الغزاوي ، شيخ الشافعية بدمشق · فرباه أحسن تربية ، وكفله أحسن كفالة الى ان ترعرع وطلب العلم بنفسه » ·

امضى رضي الدين الغزي عمره في طلب العلم ، فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث وعلوم اللغة العربية · وولي القضاء بالنيابة وعمره دون العشرين ، ثم تولى القضاء أصالة زمن السلطان سليم العثماني ·

زار رضي الدين فلسطين ومصر وقصد البلاد المقدسة للحج · وقد سجل خلال تجواله في تلك البلاد كثيراً من المشاهدات الشخصية المتعلقة بعلوم الزراعة والنبات والعقاقير ، وأضافها الى المعلومات التي اكتسبها أثناء وجوده في دمشق حيث تقلد مناصب دينية رفيعة ، كما تولى نظارة البيمارستان النوري زمن الحكم المملوكي ·

صنف رضي الدين الغزي مجموعة من المؤلفات ، طرق فيها أبواب علوم كثيرة ، مما يدل على سعة اطلاعه وحب تعمقه · وقد نظم بعض مؤلفاته شعراً ، وألّف بعضها نثراً · ومن اراجيزه ومؤلفاته الشعرية نذكر :

١ ـ ألفيّة في التصوف ·
٢ ـ ألفيّة في علم الهيئة ·
٣ ـ ألفيّة في علم الطب ·
٤ ـ منظومة في علم الخط ·
٥ ـ ألفيّة في اللغة ·
٦ ـ أرجوزة في الظاءات ·
٧ ـ أبيات في العقائد والفرائض ·

أما ما ألّفه نثراً فاشهر كتبه :

آ ـ اتقان ما يحسن من بيان الأخبار الدائرة على الألسن ·

ب ـ جوامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة الذي نحن بصدده ·

□ مقدمة كتاب جامع فرائد الملاحة وفهرس مواضيعه :

يقول رضي الدين الرحبي في مقدمة كتابه هذا « الحمد لله الذي فتح خزائن الأرض بمفاتيح رحمته ، وزيّن سماء رياضها بمصابيح حكمته ··· فهذا كتاب يعوّل في علم الفلاحة عليه ، ويرجع في عمارة الأرض اليه ··· » ثم يعدد بعد ذلك عناوين الأبواب التي يشتمل عليها كتابه ، والتي سنذكرها فيما يلي · يضم هذا الكتاب بالاضافة الى مقدمته ثمانية أبواب ، وكل فصل يشمل من (٣ـ٧) فصول ، وتشمل المواضيع الآتية :

الباب الأول: خصصه للكلام على الأرض وأنواعها ، الجيد والرديء ـ حرث الأرض واصلاحها ـ تعمير الأرض بالأزبال والأرمدة والأتبان ·

الباب الثاني : في السقي ويشمل الكلام على حفر السواقي والآبار واستنباط الماء ـ كيفية السقي بمختلف الطرق ـ معرفة حال السنة في كثرة المطر أو قلته ٠

الباب الثالث : في الاشجار ، من حيث معرفة قوانين الغرس ـ كيفية غرس كل نوع من الاشجار ـ تقليم الاشجار وتشميرها وكسحها وتدذيرها وتحسين حملها ٠

الباب الرابع : في أنواع التراكيب ـ فيما ينشب من الأشجار بعضه من بعض ـ الاشجار المتحابه والمتنافرة والمتضادة وعلاج عللها ٠ في تشكيل الفواكه وغيرها ، واكتسابها منافع وصفات غريبة ٠

الباب الخامس : في الحبوب والبقول المقتاة ، وقت زرع وحصاد كل منها ، اختيار ما يوافقه من الارض في زراعة البذور المستعملة في الأطعمة والادوية ـ في زراعة البقول والمقاتي والخضروات ٠

الباب السادس : ويتألف من فصل واحد، تكلم فيه على اصناف الرياحين والأحباق وزراعة كل منها ٠

الباب السابع : في الطلاسم والدخن ، وهي تستعمل في اسراع نمو الأشجار وحفظها من تأثير الطيور والقوارض والزواحف والحشرات والأعشاب الضارة ـ التقويم الزراعي وما يجب على المزارع فعله في كل شهر ٠

الباب الثامن : في ادخار الفواكه والحبوب والبذور وبعض الخضروات ـ صنع المخللات وبعض الأغذية المشهية ـ تحضير عصير العنب والدبس والزيت ـ تقطير المياه العطرية وحفظها ـ فوائد منثورة وفرائد مأثورة ٠

وختم رضي الدين الغزي كتابه في الفصل الأخير من هذا الباب بالكلام على صفات النبات الحي ، والقوى الحيوية التي يتمتع بها ،وهي : القوة الجاذبة للغذاء ـ القوة الماسكة له ـ القوة الهاضمة ـ القوة الغاذية ـ القوة المصورة ـ القوة النامية ٠ ثم وضع النبات في مكانه في التصنيف العام ، بالنسبة للمواليد الثلاثة ، وقارن بعدها بين الحيوان والنبات من ناحيتي حس اللمس والألم ٠

☐ دراسة كتاب جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة للشيخ رضي الدين الغزي :

لقد قامت الآنسة ابتسام فاني ، الطالبة في معهد التراث العلمي العربي بحلب ، بتحقيق ودراسة مخطوط هذا الكتاب ، معتمدة على ثلاث نسخ لمخطوطات محفوظة في بعض المكتبات العربية والأجنبية ٠ ثم قامت بعد ذلك بمقارنة ما ورد في هذا الكتاب من معلومات نباتية وزراعية مع ما جاء في المؤلفات الأندلسية في علم الفلاحة ٠

وبنتيجة هذه الدراسة تبين للآنسة فاني أن كتاب الغزي المذكور هو كتاب شامل لأبحاث مهمة في علوم الزراعة والنبات ، من الناحيتين النظرية والعملية ، بالنسبة لعصره ٠ وهو يضم بين دفتيه معلومات علمية تطبيقية لا تزال مفيدة حتى وقتنا هذا ٠ وتضيف الى ذلك قولها :

واذا استثنينا الباب السابع من هذا الكتاب ، والذي تكلم فيه مؤلفه على الطلاسم والأدخنة ، ومعرفة حال السنة ، وكذلك اذا استثنينا بعض ما ورد في الباب الرابع من طرائف وخواص وملح الفلاحة ، وبعض أشكال التوليدات التي استفادها من كتاب الفلاحة النبطية ، يمكننا أن نقول بأن كتابه كان أعمق وأشمل وأقرب الى المؤلفات الزراعية العلمية الحديثة ، بالمقارنة مع المؤلفات المشابهة التي ظهرت في بلاد الأندلس ٠

مما لا شك فيه أن الغزي قد استفاد بصورة واسعة من المؤلفات التي صدرت في الأندلس وخاصة من كتاب الفلاحة لابن بصال، وكتاب المقنع لابن حجاج وكتاب الفلاحة الأندلسية لأبي الخير الاشبيلي ٠

لقد أشارت الباحثة الى الأفكار العلمية الهامة التي تكلم عليها المؤلف في كل باب من أبواب الكتاب ٠ ومن المستغرب أن يستطيع عالم فقه ودين أن يلم بهذه المعلومات الزراعية العملية ، ولكن حينما نتذكر بأن المزارعين الذين كانوا وما زالوا يعملون في حدائق وبساتين غوطة دمشق ، قد اكتسبوا خبرات عميقة في حقل الزراعة ، عرفنا مصدر تلك الأفكار العلمية التي جاء بها الغزي في كتابه ٠ أما المعلومات التي وردت في نهاية كتاب الغزي، والمتعلقة بصفات النبات ووضعه في تصنيف الكائنات الحية فهو مقتبس على الأغلب من كتاب رسائل اخوان الصفا ، الذي انتشرت نسخه في الأندلس قبل انتشارها في بلاد الشام ٠

د ـ كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة للشيخ عبدالغني النابلسي :

لقد قام عدة مؤلفين باختصار كتاب الشيخ رضي الدين الغزي ، أو وضعوا مؤلفات مشابهة له، وكان كتاب النابلسي الذي سنتكلم عليه من أشهر تلك المختصرات وأكثرها انتشاراً ٠

ولد الشيخ عبدالغني بن اسماعيل النابلسي الحنفي النقشبندي في مدينة دمشق عام (١٠٥٠ هـ ـ ١٦٤٠ م) ٠ توفي والده وهو في الثانية عشر من عمره ٠ فعاش يتيماً ٠ اشتغل بقراءة العلم فقرأ الفقه وأصوله على الشيخ أحمد القلعي ، وقرأ النحو والمعاني والبيان والصرف على الملا محمود الكردي ، وأخذ الحديث ومصطلحه عن الشيخ عبدالباقي الحنبلي ٠ وحينما بلغ العشرين من عمره باشر التدريس في مدينة دمشق ٠ وكان يدمن مطالعة مؤلفات الشيخ محي الدين ابن عربي وغيره من السادة الصوفية ٠

رحل الى بغداد عام ١٠٧٥ هـ ، ثم زار البقاع وجبل لبنان والقدس ومصر والحجاز ٠ وعاد أخيراً الى دمشق وسكن حي الصالحية ،حيث توفي عام (١١٤٣ هـ ـ ١٧٣٠ م) ٠

كان الشيخ عبدالغني النابلسي من أشهر علماء وفقهاء بلاد الشام خلال الحكم العثماني ٠ كان وافر الانتاج ، قام بتصنيف ما ينوف على (٢٢٣) مؤلفاً بين كتاب وديوان ورسالة ٠ ومن الممكن حصر مؤلفاته في أربع زمر ، نذكرمنها ما يلي :

أ ـ أدب الرحلات :

١ ـ حلية الابريز في الرحلة الى بعلبك وبقاع العزيز ٠

٢ ـ الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية وصفبها رحلته الى القدس عام ١١٠١هـ ٠

٣ ـ الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ٠

٤ ـ الرحلة الحجازية والرياض الأنسية في الحوادث والمسائل العلمية ٠

ب ـ مؤلفات في التصوف والفقه :

١ ـ قلائد المرجان في عقائد أهل الايمان ٠

٢ ـ الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية ٠

٣ ـ كفاية الغلام في جملة أركان الاسلام ٠

٤ ـ ايضاح المقصود من معنى وحدة الوجود ٠

٥ ـ العقود اللؤلؤية في طريق السادة المولوية ٠

ج ـ مؤلفات تعليمية :

١ ـ تعطير الأنام في تعبير المنام ٠

٢ ـ كفاية المستفيد في علم التجويد ٠

٣ ـ ايضاح الدلالات في سماع الآلات ٠

٤ ـ علم الملاحة في علم الفلاحة ٠

د ـ أوراد ودواين شعرية في الالهيات والمدائح والغزل والمراسلات ٠

مقارنة بين كتاب جامع فرائد الملاحة لرضي الدين الغزي وكتاب علم الملاحة لعبدالغني النابلسي :

يعتبر كتاب علم الملاحة للنابلسي أحد المختصرات العديدة التي ظهرت لكتاب جامع فرائد الملاحة للشيخ رضي الدين الغزي ،كما ذكرنا سابقاً ٠ وقد طبع كتاب النابلسي بدون تحقيق حسب الأصول ، وصدر في بيروت عام ١٩٧٩ م ٠

لقد بيّن النابلسي في مقدمة كتابه الأسباب التي دعته الى اختصار كتاب الغزي فقال:

« لما وجدت كتاب الفلاحة المسمى بجامع فوائد الملاحة للشيخ الامام العالم العلامة ، والعمدة الحجة الفهامة ، رضي الدين أبي الفضل محمد بن محمد بن أحمد الغزي ، العامري الشافعي ، تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جنانه ، كتاباً جليل القدر

عظيم النفع ، لمن يعاني زراعة الأرض وتربية الأشجار • ولكنه مما يحسن فيه الاختصار بذكر ما لا بد منه من الفوائد التي لها اعتبار، وحذف ما المهم حذفه ••• فجمعت الهمة ولخصت غالب ما فيه من المسائل المهمة ،واكتفيت بما هو في الصدد من المراد ، وحذفت ما وقع فيه من الزوائد بطريق الاستطراد •وسميته علم الملاحة في علم الفلاحة ، ومن الله تعالى استمد العناية والتوفيق ، وأن يهديني الى أقوم طريق » •

لقد قامت الآنسة فاني بدراسة كتاب علم الملاحة للشيخ عبدالغني النابلسي مستندة الى النسخة المطبوعة ، دون أن تقوم بتحقيق للكتاب حسب الطريقة العلمية ، وذلك لاتساع موضوع بحثها • وقد توصلت للنتائج الآتية :

آ ـ ان كتاب النابلسي هو فعلاً نسخة مختصرة لكتاب الشيخ رضي الدين الغزي ، مع بعض التعديلات البسيطة من ناحية ترتيب المواضيع • لقد جعل النابلسي عدد الأبواب عشرة تنتهي بخاتمة ، بينما هي ثمانية في كتاب الغزي • كما أن النابلسي لم يقسم الأبواب في كتابه الى فصول ، مثلما فعل الغزي •• أما مواضيع كتاب النابلسي فهي كما يلي :

الباب الأول : في معرفة الاراضي •

الباب الثاني : في سقي الأراضي •

الباب الثالث : في غرس الأشجار والرياحين •

الباب الرابع : في تقليم الأشجار وكسحها وتذكيرها •

الباب الخامس : في التركيب وأنواعه (التطعيم) •

الباب السادس : في الأشجار المتحابة والمتنافرة •

الباب السابع : في تشكيل الفواكه •

الباب الثامن : في الحبوب والبذور والبقول وذكر أراضيها وأوقات زرعها •

الباب التاسع : في أنواع الحبوب المستعملة وما يجعل منها خبزاً •

الباب العاشر : في طلاسم دافعة وخواص أشياء مانعة ، وملح ونوادر نافعة ، وما يعمل به خلال السنة •

الخاتمة : في كيفية خزن وادخار الحبوب والبذور •

ب ـ في كتاب النابلسي سقطت بعض الكلمات وحذفت بعض الجمل الهامة مما ورد في كتاب الغزي ، كما وردت أسماء بعض النباتات بصورة غير صحيحة • ولا ندري فيما اذا كان ذلك قد ورد في المتن الأصلي للكتاب أم هو من خطأ الناسخ •

ج ـ لقد علق النابلسي أو من نسخ عنه على بعض النباتات الطبية تعليقاً خاطئاً فمثلاً قوله « ان الشبارم لم يعثر لها على معنى ولعله نوع من النبات ••• » علماً بأن

كلمة الشبارم هي جمع شبرم وهو نبات سهل معروف ، وكذلك قوله عن الكندس « انه ليس له ذكر في المعاجم ، ولعل الكلمة عامية تعني نوعاً من المستحضرات الكيميائية المعروفة في ذلك الزمان » علماً بأن الكندس نبات ورد ذكره كثيراً في كتب الطب العربي ، وهو يستعمل كدواء معطس ٠ وهنالك أخطاء أخرى فمثلاً قوله « ان نبات النيل هو اللبلاب ونبات اللوف هو الفيلجوش » ٠

واذا تجاوزنا وجود أمثال هذه الأخطاء القليلة يمكننا أن نقول بأن كتاب النابلسي كان مختصراً جيداً لكتاب الشيخ رضي الدين الغزي ولكن التجارب الشخصية فيه كانت قليلة ٠

☐ الخلاصة :

لقد ازدهرت الفلاحة في بلاد الأندلس علماً وعملاً ٠ وكانت الأسباب الرئيسية في ذلك خصوبة أرضها واعتدال مناخها وكثرة أنهارها ونشاط أهلها ، بالاضافة الى حاجتهم الماسة للحصول على المواد الغذائية من حبوب وخضراوات وفواكه بسبب زيادة عدد السكان وكثرة غزو الاسبان ٠

وقد ظهر في الأندلس علماء في علمي النبات والفلاحة ، اطلعوا على مؤلفات من سبقهم من كتب اليونان والأنباط والرومان ، فاقتبسوا كثيراً مما ورد في كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، كما اقتبسوا من مؤلفات تيوفراست وأرسطو وديمقراطيس وأناطوليوس البيروتي وقسطوس الرومي وغيرهم ٠ كما استفادوا من المؤلفات العربية التي ظهرت في شرق العالم الاسلامي وخاصة كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري وغيره من علماء اللغة الذين عاشوا بين القرنين الثاني والثالث للهجرة ٠

ومن أشهر علماء الأندلس في علم الفلاحة ممن قاموا بوضع مؤلفات قيّمة في هذا العلم ابن بصّال ، وأبو عمر بن حجاج وأبو الخير الاشبيلي والحاج الغرناطي ومحمد بن أحمد ابن العوام الاشبيلي ٠ لقد اقتبس هؤلاء المؤلفون كثيراً من الأفكار التي وردت في كتب الأقدمين ٠ وقد تفاوتت نسبة الاقتباس والابداع الشخصي من مؤلف لآخر ٠ ومن الملاحظ وجود اختلافات بسيطة في هذه المؤلفات من حيث ترتيب الأبواب وتسلسل المواضيع والشرح والاختصار بين باب وآخر ٠ وقد كان ابن العوام أكثرهم أمانة فذكر الأفكار المقتبسة الى جانب أسماء أصحابها ، بينما ذكر بعضهم قليلاً من أسماء المصادر التي اعتمدوها أو لم يذكر أي مصدر أو مرجع على الاطلاق ٠ ومن المفيد أن نذكر بأن مؤلفات الفلاحة الأندلسية قد ظهرت خلال القرنين (١١ــ١٣) للميلاد ٠

أما اذا استعرضنا كتب الفلاحة التي تم تصنيفها في بلاد الشام فنجد أن أكثرها قد ظهر خلال الفترة الممتدة بين القرنين (١٥ــ١٨) للميلاد ، أي خلال حكم المماليك البحرية والدولة العثمانية ٠

يقول المرحوم الأستاذ محمد كرد علي : « لقد بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع الهجري فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملاً علمياً عظيماً ، أو دل على نبوغ في فرع من

فروع العلم • وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين ••• ثم زادت الحال اشتداداً بانسيال جيوش تيمورلنك على القطر وقتله لبعض العلماء وحمله الى سمرقند كل ممتاز بعلم او صناعة •

وفي القرن العاشر الهجري زاد انحطاط العلم ، فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف في هذه الديار ، وخصصت الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك » •

وقد ذكر المقدسي أن أهل الدولة العثمانية كانوا لا يولون المدارس في الشام أحداً من أبناء العرب ، زاعمين أن العلماء في العرب كثير ، وانهم ان ولوا عربياً كثر الطالبون من أبناء العرب وعجزوا عن ارضائهم ، وضاق الأمر على ملازمي الروم •• » •

لقد حصر الترك عنايتهم بالآستانة ، كما حصروها من قبل ببورصة ، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم •• » •

وبالرغم من وجود تلك العقبات فقد تسلل العلم الديني الى بعض البيوت الدمشقية والحلبية في هذا القرن والذي بعده منها بني الغزي وحمزة والعمادي والنابلسي وغيرهم •

لقد ظهر بين أبناء هذه العائلات علماء موسوعيون جمعوا بين علوم الدين والأدب والشعر والنحو • وكانت مؤلفاتهم في العلوم التطبيقية والبحتة نادرة • وبما أن بلاد الشام قد مرت خلال الحروب الصليبية وحملات المغول والتتر والثورات الداخلية ، بأزمات اقتصادية ومجاعات نشأت من اضطراب الأمن وغزو المحاصيل الزراعية وانتشار الجراد والأوبئة والأمراض واهمال المزارعين لحراثة الأرض وفرارهم الى المدن طلباً للرزق وخوفاً من بطش الأعداء ، لذلك أصبحت الحاجة ماسة الى ظهور مؤلفات في علم الفلاحة لتعيد للمزارعين محبتهم لأرضهم ، ولتجدد في خبرتهم العملية ، وتهديهم الى طرق جديدة في هذا العلم •

كان أصحاب الطرق من صوفيين ونقشبنديين وجيلانيين ومولويين يسيطرون على عقول سواد الشعب وخاصة زمن الحكم العثماني • وكان الناس يؤمنون بالخوارق ويطلقون على بعض المجذومين أو المعتوهين أسماء الأولياء وأصحاب الكرامات ، لذلك لا عجب ان رأينا أصحاب كتب الفلاحة الشامية يذكرون في مؤلفاتهم عدداً كبيراً من التوليدات الخارقة ، مما ورد ذكرها في كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، والتي أعتبرها علماء المسلمين ، أمثال النديم الوارق وابن خلدون ، من أبواب السحر والشعوذة • وقد قمت باحصاء ما جاء من التوليدات في كتاب مفتاح الراحة لأهل الفلاحة ، فبلغ عددها (٣٢) طريقة ، ويقصد بالتوليد الحصول على نبات معيَّن باتباع طرق غريبة لا يقرها العقل ولا تستند على احدى الطرق المعروفة في تكاثر النبات • فمثلاً للحصول على نبات السذاب : تؤخذ رجلا ديك منقوعتان في عصارة فوذنج وتغمسان في الزيت ثم تزرعان ، ويوضع فوق كل منهما حجر من الكندر •

والى جانب تلك التوليدات أورد مؤلفو كتب الفلاحة كثيراً من الطرائف والغرائب ، وهي طرق يراد بها الحصول على صفات جديدة لثمار بعض الأشجار ، عن طريق

التركيب غالباً (أي التطعيم) ، وهي عملية تفنن المزارعون في الأندلس بتطبيقها على نطاق واسع على مختلف الأشجار المثمرة ٠

وتوخياً للانصاف لا بد لنا أن نقول بأن مؤلفات الفلاحة ، الذي ظهرت في بلاد الشام ، بالرغم من قلة وجود الابداع فيها الا أنها كانت أكثر تنسيقاً وأجود لغة وأوجز أسلوباً من المؤلفات المماثلة والتي ظهرت قبلها في بلاد الأندلس ٠ يضاف الى ذلك أنها حذفت بعض الأبحاث المتعلقة بنباتات غير معروفة ببلاد الشام وتكلمت على نباتات وخبرات مستوطنة فيها ٠

ولكي تكون المقارنة بين الفلاحتين ، والتي قامت بها الآنسة فاني ، تامة كان لا بد من استخراج المصطلحات الفنية التي استعملت في الأندلس خلال الحكم العربي ومقارنتها بالمصطلحات المقابلة لها والتي استعملت في بلادنا خلال الحكمين المملوكي والعثماني ، وفي ذلك فائدة كبيرة لمعرفة تطور المصطلح العربي خلال التاريخ والسلام ٠

★ ★ ★

□ المراجع :

١ ـ كتاب خطط الشام للأستاذ محمد كرد علي ٠

٢ ـ كتاب تاريخ النبات للدكتور أحمد عيسى ٠

٣ ـ كتاب مفتاح الراحة لأهل الفلاحة تحقيق د٠ محمد عيسى و د٠ احسان صدقي العمد ٠

٤ ـ مخطوط كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية نسخة المكتبة الوطنية في باريس ٠

٥ ـ كتاب الفلاحة لابن بصال تحقيق مياس بيكروسا ومحمد عزيمان ، تطوان ١٩٥٥ ٠

٦ ـ كتاب المقنع في الفلاحة لابن حجاج ، تحقيق صلاح جرار وجابر أبو صفية عمان ١٩٨٢ ٠

٧ ـ كتاب مقدمة ابن خلدون ، طبع دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٥٩ ٠

٨ ـ كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، تحقيق برنهارد ليفين ـ فيسبادن ١٩٧٤ ٠

٩ ـ كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لمحمد بن أبي بكر الأنصاري (شيخ الربوة) تحقيق مهران ليبزيغ ١٩٢٣ ٠

١٠ـ كتاب الفهرست لمحمد بن اسحق النديم الوراق ، بيروت طبعة رضا ٠

١١ـ كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، د٠ جواد علي ـ دار العلم للملايين ١٩٧١ الجزء السابع ٠

١٢ـ كتاب الإعلام لخير الدين الزركلي ٠ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩ ٠

١٣ـ كتاب علَم الملاحة في علم الفلاحة للشيخ عبد الغني النابلسي ، طبع دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩ ٠

١٤ـ كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ، دار العلم للملايين ٠

١٥ـ كتاب تاريخ التراث العربي تاليف فؤاد سزكين ، ترجمة عبدالله حجازي المجلد الرابع صدر عن جامعة ملك سعود في الرياض عام ١٩٨٦ ٠

١٦ـ كتاب الابداع الزراعي في بدايات العالم الاسلامي تاليف اندريو واطسن ، ترجمة أحمد الأشقر من منشورات معهد التراث العلمي العربي ـ جامعة حلب ١٩٨٥ ٠

١٧ـ كتاب جامع فوائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة ، مخطوط حققته الآنسة ابتسام فاني باشراف الدكتور محمد زهير البابا والدكتور محمد نذير سنكري عام ١٩٨٧ ، من منشورات معهد التراث في حلب ٠

١٨ـ دراسة مقارنة بين الفلاحتين الأندلسية والشامية رسالة قدمتها الآنسة ابتسام فاني لنيل شهادة الماجستير في معهد التراث العلمي العربي ـ جامعة حلب عام ١٩٨٧ ٠

١٩ـ مجلة دراسات تاريخية عدد (٢٥ ـ ٢٦) لعام ١٩٨٧ ـ سورية في عصور ما قبل التاريخ د٠ سلطان محيسن ٠

٢٠ـ الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة للشيخ نجم الدين الغزي ـ دار الآفاق بيروت ١٩٧٩ ٠

٢١ـ لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان القرن الحادي عشر لنجم الدين الغزي ـ وزارة الثقافة ١٩٨١ ٠

فلاحة الرُّمَّان في الأندلس

فاضل السباعي

١ ـ هديّة شاميّة الى الأندلس :

من قرطبة ، كتب أميرها عبدالرحمن الداخل الى أخيّته في الشام ، يدعوها الى القدوم الى الأندلس ، وقد استتبّ له الحكم فيها . ولكن الأخت تعتذر من عدم الاستجابة ، وتقول لرسوله اليها ـ وهو القاضي معاوية بن صالح الحمصي الأصل ، الذي كان قد توجّه الى المشرق حاجّاً وحاملاً لرسالة الأمير « كبرت سنّي ، وأشرفت على انقضاء أجلي ، ولا طاقة بي على شق البحار والقفار . وحسبي أن أعلم ما صار اليه من نعمة الله » ؛ وحمّلت الوفد شيئاً من « تحف الشام » ـ كما يقول صاحب كتاب « **قضاة قرطبة** » (القرن الرابع الهجري) ـ وكان في تلك التحف **رمّان** ... « فجعل جلساء الأمير ، من أهل الشام [وهم ينظرون الى الرمان] ، يذكرون الشام ، ويتأسفون عليها ! »(١) .

أرسلت **أم الأصبغ** ، في هداياها الى أخيها ، شيئاً من رمان الشام ، وما درت أنها بذلك قد **نقلت زراعته** من مشرق الى مغرب ، وأن اسمها ـ اذا ما قيّض له أن يذكر في التاريخ ـ سيقترن بهذا الجانب من الهدية : الرمّان !

وتفصيل ذلك ـ كما يفيض شيخ مؤرخي الأندلس ، **ابن حيّان** (القرن الخامس الهجري) ـ أن رسول الأمير الى أخيّته ، قد جلب الى الأندلس طرائف ، منها رمان **الرصافة** المنسوبة الى هشام(٢) ، فعرضه عبدالرحمن على خواص رجاله مباهياً به .. يقول ابن حيّان :

« وكان فيمن حضره منهم **سَفْر بن عبيد الكلاعي** من جند الأردن (...) ، **فأعطاه** [الأمير] من ذلك الرمان جزءاً ؛ فراقه حسنُه وخُبْره ، فسار به الى قرية بكورة **ريّه**(٣)،

فعالج عَجَمه، واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله، حتى طلع شجراً أثمر وأينع ، فنزع الى عرقه، وأغرب في حسنه · فجاء به ، عما قليل ، الى عبدالرحمن ، فاذا هو أشبه بذلك الرصافيّ ! فسأل الأمير عنه ؟ فعرّفه وجه حيلته · فاستبرع استنباطه واستنبل همته ، وشكر صنيعه ، وأجزل صلته ؛ واغترس منه بمُنْيَة الرُصافة وبغيرها من جنّاته(٤) ؛ فانتشر نوعه ، واستوسع الناس في غراسه ، ولزمه النسب اليه ، فصار يعرف الى الآن [القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي !] بالرمان السَّفري »(٥) ·

٢ ـ ما الرمّان ؟ :

اسمه العلمي ، كما اصطُلح عليه اليوم (Punica granatum) وبالفرنسية (Grenadier) وبالانكليزية (Pomegranate) .

ويتتبع **الأسدي** (المتوفى بحلب ١٩٧٢) اسمَه في عدد من اللغات :

في السريانية والكلدانية : رومنا ،
العبرية : رِمون ،
البابلية : (Nurmu) .
المصرية القديمة : (Arhmani) .
القبطية : رَمَن ،
واستمدت البرتغالية الرمان من العربية Roman (٦) ·

وتعريف الرمان ، كما ورد في المعاجم العلمية :

شجر مثمر ، من **الفصيلة الآسية** (نسبة الى شجر الآس) أو **الرمانيّة** · له ضروب · **وثمرته** لوزة نباتيًا · يؤكل منها اللب المائع، الشاف ، المحيط بالبزور · **والجلّنار** زهره ، فارسية : **كُل** (ورد) **ونار** (رمان) : زهر الرمان ·

وشجرة الرمان صغيرة ، معمّرة ، متساقطة الأوراق · أوراقها لامعة ، وأزهارها كبيرة ؛ كاسياتها لحمية ؛ ونورياتها عديدة، حمراء أو حمراء برتقالية اللون ، وبعضها عقيم بسبب اختزال المِبيض ·

الثمار كريّة ، مضلعة أحياناً ، في حجم البرتقالة ، بطرفها بقية الكأس الكبيرة ·

الجلد ، أو القشرة ، ملساء سميكة ، لونها أصفر مخضر ، أو مُشْرب بحمرة ، أو أحمر قرمزي ·

الثمرة محشوّة **بحب** ، أبيض أو أحمر، مائي لامع ؛ وفي كل حبة بذرة صلبة ، أو لينة في بعض الأصناف ·

وعصير الرمان مزّ لذيذ منعش ·

وقديماً ، عرّفه **أبو حنيفة الدّينَوري** (القرن الثالث الهجري) ، قال :

شجر الرمان معروف • وله نوّار أحمركالأزرار ، ثم يكبر ، ويفتّح كقوالب السكر، مشرفةالرؤوس، بعضها ما هو مثمّن والبعض مسدّس ، وداخل هذا القمع نوّار أصفر ، يعلوها ورق أحمر أرق بشرة من الحرير(٧)٠

وعدّد **أبو البقاء البدري** (من أهل القرن التاسع الهجري) أصنافه في عصره، فقال هي:

شويكي ، بردي ، ماوردي ، ملّيسي ، كوفي ، برجنيقي ، سماقي ، شويخي ، مصري، سلطاني ، محجر ، مطوق ، تدمري ، لقيط ،حصوي ، طقاطقي ، قطي ، مشبه ، حامض للطعام ، لفّان ، رأس البغل(٨) ٠

وفي عصرنا ، عرّف **الشيخ كامل الغزي**(ت بحلب ١٩٣٣) ، أصنافاً له خمسة ، قال :

الصنف الأول يقال له **الملّيسي** : أصفرباهت ، رقيق القشر ، لا تزيد الواحدة منه على خمسين درهماً • حبّه أبيض ، مضمحل العجم جداً • وهو عندنا أرفع أنواع الرمان وأندرها • ويوجد في بساتين حلب قليلاً ،وبالرها كثيراً(٩) ٠

الثاني **صهيوني** : أخضر أصفر ، قد تبلغ الواحدة منه أربعمئة درهم • أبيض الحب ، محمرّه قليلاً ، صلب العجم • يوجد منه في بساتين حلب وتاذف والباب ودير كوش وغيرها ٠

الثالث **المصري** : قد تبلغ الواحدة منه مئتي درهم • ياقوتي القشر والحب ، صلب العجم ٠

الرابع **الصفروني** : أصفر القشر الى البياض ، أبيض الحب ، قد تبلغ واحدته مئة درهم • صلب العجم ٠

الخامس يعرف **بالأسود** ، لسواد لون قشرته • رديء الحب ، لا يؤكل غالباً ، انما يستعمل هو وقشره في قوابض المعدة ٠

ويوجد في كل نوع منها : الحلو والحامض والمزّ(١٠) ٠

ولجمال زهر الرمان ، الجلّنار ، وللذاذة طعم ثمره ، الرمان ، فقد كان لا بد من أن يتوقف عندهما الشعراء، فيمشرقومغرب، يصفون ويتغنّون ٠٠٠

في زهره ، يقول **أبو فراس الحمداني** (القرن الرابع الهجري) :

وجُلّنارٍ مشرفٍ على أعالي شجرَه
كأنّ في رؤوسه أحمرَهُ وأصفرَه
قُراضة من ذهبٍ في خِرَقٍ معصفرَه(١١)
(مجزوء الرجز)

وللشاعر الأندلسي ، **أحمد بن فرج الجياني** (من القرن الرابع الهجري) ، قصيدة كتبها الى من أهدى اليه رماناً ، منها :

ولابسة صدفاً أحمرا أتتك، وقد مُلئت جوهرا
كأنّك فاتح حُقّ لطيف تضمّن مرجانه الأحمرا

وللسّفر تُعزى ، وما سافرت
فتشكو النوى أو تقاسي السرى

بلى ! فارقت أيكها ناعماً رطيباً، وأغصانها نُضّرا!(١٢)

(المتقارب)

٣ ـ مؤلّفو كتب الفلاحة الأندلسيون :

بدءاً من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، أخذت تظهر في الأندلس المصنفات التي تبحث في الفلاحة • وقد عول مؤلفوها على ما عرفوه من المصادر المشرقية ، مثل **كتاب النبات** لأبي حنيفة الدينوري وكتابي **الفلاحة** لابن وحشية وابن لوقا البعلبكي ، وذلك بمقدار اعتمادهم على **التجارب الفلاحية** التي مارسوها واغتنوا بها في ديار الأندلس الخصيبة •

وهذه الكتب هي (ونوردها حسب زمن مصنفيها) :

١ ـ **المقنع في الفلاحة** ، لأحمد بن محمد **بن حجاج الاشبيلي** (كان حيّاً في سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م) • نشر في سنة ١٩٨٢ بعمّان ، بتحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية ، في منشورات مجمع اللغة العربية الأردني •

٢ ـ **مجموع في الفلاحة** ، لأبي المطرف عبدالرحمن **بن وافد** ، **الطليطلي** (ت ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م) •

٣ ـ **كتاب الفلاحة** ، لأبي عبدالله، محمد بن ابراهيم **بن بصال، الطليطلي** (حيّاً ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م) ، ثم اختصر الى كتاب « القصد والبيان » • نشر في سنة ١٩٧٥ بتطوان ، بتحقيق المستشرق خوسي مارية بييكروسا ومحمد عزيمان •

٤ ـ **زهر البستان ونزهة الأذهان** ، لأبي عبدالله ، محمد بن مالك **الطغنري** ، المعروف **بالحاج الغرناطي** (حيّاً ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م) ، ما زال مخطوطاً(١٣) •

٥ ـ **كتاب الفلاحة** ، **لأبي الخير الاشبيلي** (من علماء القرن الخامس الهجري) • نشر في سنة ١٣٥٧ و ٥٨ هـ (١٩٣٨ و ٣٩) بفاس ، بتحقيق محمد بن عبدالملك الرسموكي(١٤) •

٦ ـ **الفلاحة في الارضين** ، لأبي زكريا ، يحيى بن محمد بن محمد بن أحمد ، المعروف **بابن العوام الاشبيلي** (من علماء القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) • نشر في سنة ١٨٠٢ بمدريد، في جزأين (مع ترجمته الى الاسبانية) ، وأعيد طبعه فيها مصوراً في سنة ١٩٨٨ •

٧ ـ **أرجوزة في الفلاحة** : كتاب ابداء الملاحة وانهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة، لأبي عثمان، سعد بن أحمد **بن ليون التجيبي** ، من مدينة المرية (ت ٧٥٠ هـ/

١٣٤٩ م) • نشر في سنة ١٩٧٥ بغرناطة (مع ترجمته الى الاسبانية) ، بتحقيق المستشرق اجواراس ابانيث(١٥) •

٨ ـ وأحب أن ألحق بهذه الكتب ما يقع مضمونه في الطب النباتي ولكن فيه جانباً فلاحياً ، هو كتاب : **حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقّار** ، لأبي القاسم بن محمد بن **ابراهيم الغساني**، الشهير بالوزير(ت١٠١٩هـ/١٦١١ م ، وهو مغربي ابن لأندلسي نزح عن الوطن بعد سقوط آخر المعاقل ، غرناطة) • نشر في سنة ١٩٨٥ ببيروت (دار الغرب الاسلامي) ، بتحقيق محمد العربي الخطابي(١٦) •

وفي المشرق ، كان قد صنّف في الفلاحة كتابان قبل هذه ، وصنف غيرهما فيما بعد كثير • وأهم ما هنالك ـ فيما نرى ـ هذه الكتب الثلاثة التي سنستعين ـ في استيفاء البحث في فلاحة الرمان ـ بها ، أو باثنين منها على الأقل • والثلاثة هي :

٩ ـ **الفلاحة النبطية** ، لأبي بكر ، أحمد بن علي **بن وحشية** (ت بعد ٢٩١هـ/٩٠٤م)• طبع منه ، في سنة ١٩٧٥ ببيروت ، مقتطفات بعنوان : « الفلاحة النبطية لابن وحشية ، دراسة جديدة لأثر زراعي قديم » لعادل أبو النصر •

١٠ ـ **الفلاحة الرومية ، لقسطوس بن لوقا البعلبكي** (ت بعد ٣٠٠ هـ/٩١٣ م) • نقله الى العربية سرجس بن هلبا • نشر في سنة ١٢٩٣ هـ/١٨٧٦ م) بالقاهرة ، بعنوان **الفلاحة اليونانية** •

١١ ـ **مفتاح الراحة لأهل الفلاحة ، لمجهول** (من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) • نشر في سنة ١٩٨٤ بالكويت ، بتحقيق الدكتور محمد عيسى صالحية والدكتور احسان صدقي العمد(١٧) •

ونلاحظ أن اللفظ ، الذي كان يستحوذ على المعنى قديماً ، هو **الفلاحة** لا الزراعة ، مما يدل على أن غلبة لفظ **الزراعة** انما كانت في أيامنا : وزارة الزراعة ، الجمعية الزراعية ، زراعة الرمان •••

فمعجمات اللغة تنص على أن الجذر **(فلح)** يشير الى معاني ثلاثة هي : **الظَّفَر، والمكْر ، والشّق !**

المعنى الأول : فَلَح فَلْحا (بالفتح) وفلاحا : يدل على **الظّفر، والفوز، والنجاة** (حيَّ على الفلاح ، أي : أقبِل على النجاة) •

الثاني : فَلَح البائع في البيع ، فَلاحا: زاد في ثمن السلعة ليخدع المشتري ! ومنه : التفليح : **الاستهزاء والمكر** • وهو معنى نراه **غاب عن التداول في كتاباتنا المعاصرة !**

الثالث : فَلَح الشيء فَلْحا : شقّه • يقال : فلَح الأرض : **شقّها للزراعة** • وفلِح يفلَح : انشقّت شفتُه • وانفلحت الشفة أو اليد : تشقّقت • وفي رجله فُلوح : شقوق • « والحديد بالحديد يُفلح » ، أي :يُشق ويقطع •

والفلاحة (بالكسر وبالفتح) : الحراثة • وهي، ايضا، القيام بشؤون الأرض الزراعية، من حرث وزرع وري ونحو ذلك •

والفلاّح : الاكّار (الحرّاث) ، والمكاري (عامل الأرض المستأجَر) ، ومحترف الزراعة •

وأما الفعل **(ز ر ع)** ، فما ذكرته المعاجم أن الزرع هو : **طَرح البَذر في الأرض** • وزرع الأرض : **حرثها** للزراعة •

والزراعة ، اليوم ، مثل الفلاحة Agriculture : فن زراعة الأرض ، أي : فن استثمار النباتات والحيوانات الزراعية علىآكمل وجه اقتصادي(١٨) •

ومن ناحيتنا ، سنستعمل ، في البحث ، اللفظ الذي كان سائداً : الفلاحة •

٤ ــ الرمان غرساً وزرعاً :

يتكاثر نبات الرمان : **بالغرس ، وبالعكس ، وبزراعة أشطائه ، وبمعالجة حبّه •**

١ ــ **فأما الغرس** ، فأن تؤخذ أغصان(أو أوتاد) من شجر الرمان ، وتزرع في الأرض • والحفرة التي تنصب فيها **الغريسة**،هي الفقير (ج فُقُر) والجُب (ج جِباب) •

٢ ــ **وأما العكس** (وهو الترقيد مع التجوّز) ، وسمّاه ابن العوام : التكبيس والتغطيس، وهو في عامي الشام: التدريخ• فأن وجه العمل فيه أن يُحنى غصن ــ دون أن يُفصل عن أمه ــ ويدفن في التراب ، أو أن يجمع التراب حوله على نحو ما • حتى اذا صارت له جذور ، فصل عن امه وزرع ،فيكون نباتاً مستقلاً اسمه العكيس(١٩) •

٣ ــ **والشَّطء** (ج أشطاء) ، وسماه الحاج الغرناطي الطِّغْنَري **مَلْخ** (جملوخ) : هو غصن أو ساق تنمو من البراعم العرضيةالناشئة على الجذور ، وقد تنمو بعيداً عن ساق الأم • واتخاذ الرمان من الأشطاء ، أوالملوخ ، يكون بأن يؤخذ هذا الشطء ، أو الملخ ، ويزرع •

٤ ــ **وأما زراعة الرمان من حبّه** ، فهوعلى ما فعل سَفر الكَلاعي في تلك القرية من كورة ريّه ، في القرن الثاني للهجرة ، حسبرواية ابن حيّان : « عالج عَجَمه [حبّه ، نواه] ، واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله ، حتىطلع شجراً أثمر وأينع »(٢٠) •

وأما الأرض ، التي توافق فلاحة الرمان ، في نظر **الفلاحيّين الأندلسيين** :

فهي ، عند **ابن حجاج الاشبيلي :** « مكاندفيء ، قليل الماء »(٢١) •

وهي ، عند **ابن بصال :** « الرملة الحلوةوالأرض الرخوة »(٢٢) •

وتوافق فلاحة الرمان ، في رأي **الحاج الغرناطي ،** « البلاد الحارة والبلاد المعتدلة ، وتوافقه **الأرض** الحمراء ، أو **الأرض** الرفيعة ،والأرض الرطبة ، ويوافقه كثرة الرمل »(٢٣) •

ويعدد **ابن العوام** ، في كتابه الفلاحة في الأرضين ، أنواعاً كثيرة من التربة ··· يقول:

« يوافق الرمان ، من أنواع الأرض ، ما هو منها مائل الى الحلاوة ، والأرض الحمراء الرخوة ، والرقيقة الرطبة ؛ والرملة الحلوة توافقه أيضاً ؛ ويجود في الأرض الرخوة الدهنة والمواضع الرطبة ، ويشتغل بالايناع في الأرض الطيبة الكريمة ويقلّ حمله فيها ! وقيل : ان التجارب أعلمت أن الرمان والزيتون يصلحان في المواضع اليابسة »(٢٤) ·

٥ ـ الرمان : أنثى وذكر !

أكد القدماء أن الرمان أنثى وذكر : فالأنثى هي التي تحمل ثمراً ، والذكر لا يتعدى أن يزهر جلنارا ، فسموه باسم زهره : الجلنار !(٢٤م) ·

وقد لخص ذلك ـ في القرن العاشر الهجري عشر ـ **الغساني الوزير** وهو في **فاس** ··· قال :

الذكر هو **الجلنار** ، « شجره كشجره ، الا أن شجر الرمان له شوك حاد ، وينور ويثمر ؛ الجلنار لا شوك له ، وينور **ولا يثمر** ، ونوره كنور الورد المضعف ، وهو شديد الحمرة كثير الورق ، ويعرف عندنا بفاس بالجلنار ، يتخذ **بالبساتين** ··· »(٢٥)

وللرمان الأنثى « أنواع كثيرة : فمنه الحلو والحامض والمز ، **والمائي والعظمي** · و (للرمان) ألقاب وأسماء عند العامة **بفاس** ، مختلف باختلاف أصنافه وأنواعه ، فمن ذلك : السلطان (وهو أجودها وأرفعها) ، ثم السفري (وهو دونه) ، ثم **الكلخي** ، ثم ميمونة (**وهي أعظم ثمار الرمان**) ، ثم العظمي (وهو أردأ أنواع الرمان وأقله) · والرمان **بمراكش** كله جيد وليس فيه رديء ، وهو نوع واحد : **السفري** ، يعظم كثيراً كمثل ما يعظم صنف ميمونة عندنا بفاس »(٢٦) ·

وقبل أبي القاسم الغساني ، بنحو خمسة قرون من الزمان ، عدّد **ابن العوام الاشبيلي** أصنافه :

« هو أنواع ، منه: الشعري، والأمليسي، والسحي (وهو الدواري ، يقال له الدلوي أيضاً) ، ومنه القسطيسي ، والعدسي ، والمرسي ، والنحزابني ، وهذه كلها حلوة الطعم ؛ ومنه المرواني (وجرمه كبير ولحمه غليظ وحبه أحمر قاني [قاني] ؛ ومنه الحامض ؛ ومنه الرمان الذكر وهو الجلنار ·[وأضاف و] يذكر أن الرمان الشعري أهدته أخت لعبد الرحمن الداخل الى الأندلس اليه في جملة هدية بعثت اليه فيها من **بغداد** ، وقيل أهدته اليه من **المدينة [المنورة] وأنه** مما غرس النبي ﷺ بيده بها ، وسمي **سفريا لذلك** ، قيل : بل كان اسم الرجل الذي فلحه بقرطبة سفرا أو مسافرا ، فسمي : سفريا لذلك ··· » !(٢٧) ·

وذكر **ابن حجاج** أن في الأندلس نوعاً من الرمان يسمى : المحسوم أو البرجين ، **ووصف لنا معالجته** كي يصبح سفريا : « فاحفر في أصله ، في يناير [كانون الثاني] ، من من حواليه ، شبراً ، واحشها رماداً ، واسقه ثلاثين يوماً »(٢٨) ·

وفي فصل آخر **لابن العوام** حول الجلنار ، قال :

« هو الرمان الذكر : منه بستاني ، ومنه جبلي ، وهو أكمل ورقاً وأبنى زهراً وأغلظ نواراً من الرمان ، وزهره أحمر ؛ ومنه مورّد؛ ومنه أبيض » .

وقال انه يُذكّر به الرمان ... ف « من أحب قلب الرمان الى الجلنار ، فليغرس أوتاد الرمان ، غير محدودة الأطراف ، منكسة ، في شهر نوفمبر [تشرين الثاني] ، وبعد عام يقلعها ويقطع (لقحها) بحديد قاطع ، ويغرسها منكسة أيضاً ... يفعل ذلك بها أربع مرات في أربعة أعوام ، ثم يسترحها (!) في الخامس ، فانها تنور نوارا أكثر من نوار الرمان ولا يعقد بوجه . وليستكثر من الأوتاد، فانها ــ بكثرة تكرار القلع والغراسة عليها ــ يفسد بعضها »(٢٩) .

وأيد تقسيم الرمان الى ذكر وأنثى ، العشاب الأندلسي المقيم في مصر والشام ، **ضياءالدين بن البيطار** (من القرن السابع الهجري) ، حين عرّف الجلنار : « معناه بالفارسية : ورد الرمان ، وهو الرمان الذكر، وأجوده المصري » ؛ ثم ينقل عن العشاب الاغريقي الأشهر **ديسقوريدس** (من القرن الأول الميلادي) : الجلنار « بالوسطيون [يونانية Balaustion] ، وهو جلنار بري ؛ أصنافه كثيرة ، منه : أبيض ومورّد أحمر ؛ وخلقته كورد الرمان »(٣٠) .

ويرد ، في القرن الثامن الهجري ، تعليم في **مفتاح الراحة** : « ان أحب انسان أن يصير الرمان كله رَعْثاً ، فليغرس القضبان منكوسة ، فان الجلنار يعظم حتى يكون في قدر الرمان »(٣٠ م) .

٦ ـ اتخاذ الرمان من أوتاده :

قلنا : ان من طرق تكثير شجر الرمان أن يتخذ من **أوتاده** غرساً .

ووجه العمل في ذلك أن تحضّر ،، أولا ،الأرض: « تحوّض، وتعمر ــ بعد التحويض ــ عمارة جيدة » ، كما يقول الحاج الغرناطي(٣١) .

وأن تؤخذ الأوتاد (الأغصان ، القضبان) ــ كما قال غيره ــ من أشجار الرمان . فان اقتطعت « من **أعلى الشجرة فانه أسرع لحملها** »(٣٢ .

ولتكسح الأوتاد « بمنجل ماض مسقى ،كسحاً مواربا كما يبرى القلم »(٣٣) .

وليكن **طول الوتد شبرين اثنين** ، يكون منه ــ عند الغرس ــ « تحت الأرض أقل من شبر ونصف ، وفوق الأرض نصف شبر . ويرزم (!) التراب بالقدم ، حوالي الأوتاد ، رزماً جيداً ، (ويسقى ، ثم) يتعاهد بالسقي في كل ثمانية أيام »(٣٤) .

ويقول الحاج الغرناطي ، صاحب « زهر البستان .. » ، في تعليمه :

« فاذا انبعثت الفروع في عمارتها في كل وقت ، تحفر أرضها ، وتسقى اذا أعشبت ؛ ولا يتعرض لها بالحديد والتنقية بوجه ، الا بعد عام من غرسها .

« فاذا أتى عليها عام ، أخذ الزبل الرقيق ورماد الحمامات والرمل الرقيق ، وخلط ، وزبّلت به الأرض زبلا جيداً ، ونقشت وبولغ في نقشها . فاذا همت أن ( )(٣٥) باللقح سقية ، ويوالى عليها بالعمارة والسقي .

« فاذا أتى عليها **ثلاثة أعوام ، نقلت** حيث يراد تنقيلها ، بأن تقلع من جميع أصولها ــ وان قلعت بأصولها كان أجود ــ ويجعل بين الشجرة والشجرة من الرمان ثلاثة أبواع »(٣٦) .

وغرس أوتاد الرمان ــ كما يقول ابن العوام الاشبيلي ــ يكون في **شهر ينساير (كانون الثاني)**(٣٧) ؛ وهو بعد كل شيء ، يتحفظ في اتخاذ الرمان من **أوتاده** ... يقول نقلا عمن لم يسمهم : « وقيل : ان أغصانه اذاغرست **قلّ حملها** »(٣٨) ، فكأنه يفضل ، على هذه الطريقة في تكثير الرمان ، طرقاً أخرى(مما يأتي بيانه) .

٧ ــ اتخاذه من نباته :

كذلك سمى الحاج الغرناطي **العكس**(الترقيد) في فصل جعل عنوانه : اتخاذ الرمان **من نباته**؛ على حين سماه ابن العوام الاشبيلي،كما أسلفنا : **التكبيس والتغطيس** .

يقول الغرناطي :

« تُفتح له [في الأرض] خطوط، **وتُثنى**[أغصانه] الى الخطوط برفق ، ويرد عليها التراب ويرزم. وتقوّم أطراف [الغصن] الى فوق على استواء . ويواظب [عليه] بالماء ، يفعل ذلك الى شهر نوفمبر [تشرين الثاني] .

« فان كان عام آخر ، عُمد الى ذلك النبات **المنكّس**(٣٩)، **فقطعت** من شجرة الرمان، **وقلعت** بجميع اصولها ، ونقلت ، وفتح لها **الحفر** كل قدر اجرامها في السعة . وينزل لها في الأرض قدر ثلاثة أشبار . فاذا ردّ التراب في الحفر ، يدخل الحصى المتوسط ، فيخلط بالتراب ويرد في الحفر ويرزم بالقدم ، حتى تمتلىء [الحفر] .

« ويكون بين الشجر من البعد ثلاثة أبواع . وتسقى في كل ثمانية أيام . ولا تترك أرضها بغير عمارة ، ولا يغفل عنها بالتنقية والنقش للأرض ، حتى تثمر وتحمل حملاً جيداً »(٤٠) .

ثم يقدم الحاج الغرناطي لنا معلومة من عنده :

« واعلم أن ما غرس من وتد الرمان **منكّساً** ، فانه يأتي **كثير السقط** ، لا يجدي (شيء) من حمله بوجه . وان عولج لا ينفع العلاج بشيء . وانما ينفع العلاج في ما غرس **قائماً** على حسب ما كان في شجره »(٤١) .

وعند ابن العوام الاشبيلي أن الرمان « يكبس **في دجنبر [كانون الاول]** . ولا يعمّق (له) أكثر من شبرين »(٤٢) .

٨ ـ اتخاذه من المَلْلُوخ :

قلنا : ان **الأشطاء** (مفردها شَطء ، وأيضا: **الشَكْر**، شَكِير) ، هي تلك الأغصان، أو السوق ، التي تنمو من البراعم العَرضية الناشئة **على الجذور** ، وقد تنمو **بعيداً عن ساق الأم** ·

وقد أطلق **الحاج الغرناطي** على الأشطاء: **المَلْلُوخ** (مَلْخ) ··· وقال في اتخاذها :

« يعمد الى الرمان ، **في العشر الأواخر من شهر فبراير [شباط]** ، فتؤخذ منه القضب [يعني الاشطاء ، المَلوخ] المحدثة ، الملس ، المنبعثة أحسن انبعاث ، ويكون غلظها مثل الابهام الى غلظ الاقلام الكتابية ·

« ويعمد الى الاحواض ، فيُخط لتلك القضب خطوط ، كل خط طوله ثلاثة أشبار في عمق ثلاثة في عرض شبر ·

« وتكون تلك القضبان في الحفر بحيث يأخذ القضيب الحفرة من أولها الى آخرها ، **وتنثني قليلاً [قليلاً] لئلا تتكسّر** ، ويرد عليها التراب مع الرمل ، على ما ذكرناه ·

« فان كان انما غرست **لتنقل** ، جعل بينها أقل من باع · وان كانت **ستبقى في** مواضعها ، جعل بين الغرسة والغرسة من البعد أقل من ثلاثة ابواع »(٤٣) ·

وعند ابن العوام ، أيضاً ، أن الرمان « يغرس مَلخه **في فبراير [شباط]** »(٤٤) ·

٩ ـ اتخاذه من حبّه :

لو أنه تراءى لنا أن نتخيل ما فعل **سَفر الكَلاعي** بالرمانة ـ تلك التي قدمها له أميره عبدالرحمن الداخل ـ وقد عاد بها فرحاً الى مقره في كورة ريُّه ··· لتبينا أنه عين ما شرحه لنا ـ بعد نحو ثلاثمئة وخمسين سنة ـ العالم الفلاحي أبو زكرياء **بن العوام الاشبيلي** في كتابه الموسوعي **الفلاحة في الأرضين** ·

يقول ابن العوام، **في تحضير حب الرمان** تمهيداً لزرعه :

« تؤخذ **رمانة نضجة** من أحسن أنواعها، وينثر حبها ، **ويعصر** ، ويؤخذ **النوى** ، ويغسل بالماء ، ويجفف (···) ، ويرفع في آنية جديدة ؛ [ولا يفوته أن يُنبّه] وهو من الزراريع الضعاف »(٤٥) ·

وفي **اعداد الحفيرة وزرع الحب فيها** ، يقول :

تتخذ الحفيرة « في تراب طيب من وجه الأرض ، مخلوط بزبل قديم ، ورمل ورماد »؛ ويلقى « من حبّه ، في الحفيرة الواحدة ، من الستة الى التسعة ، ثم الى اثني عشرة (!) أزيد من ذلك ، ويفصل بينها بالتراب ·ويسقى بالماء عقيب غرسه ، ولا يكثر عليه أول غرسه »(٤٦) ·

وفي **رعايتـه وتنميتـه :**

« يزبّل ، اذا كان على قدر شبر ، ببعرالغنم وزرق الحمام وتراب سحيق ، أثلاثا ، ويتعاهد بالسقي اليسير بالماء · فاذا صار الىنحو شبرين، فيزاد بالسقي علىترتيب »(٤٧)·

وفي **تحويلـه** ، الى حيث يراد ابقاؤه ، يقـول :

« وينقل ، **بعد ثلاثة أعوام** أو نحوها ، الى المواضع التي تصلح له · ويغرس نقله في حفرة عمقها نحو ثلاثة أشبار، لأنها من الأشجارالتي تدب عروقها بقرب وجه الأرض · ويخلط مع التراب الذي تغرس فيه ، رماد · ويجعل ،بين نقلة وأخرى ، ستة أذرع الى ثمانية أذرع (···) ، وان نقلت نقلة ، بحرزة من ترابها ،كأن أجود · ويزبل نقله ، بعد عام من وقت غراسته ، بزبل دقيق مخلوط برماد الحماماتوالرمل ··· »(٤٨) ·

وعنده أن زراعة حبّــه تكون **في ينــاير(كانون الثـاني)**(٤٩) ·

١٠ــ شجر الرمان ، خصائص وخواص (٥٠) :

آكد الفلاحيون الأندلسيون أن الرمان منالثمار التي **تضربها الشمس** · ولذلك نصحوا ــ وفي طليعتهم الحاج الغرناطي ــ **بأن يغرس** شجره « قريبا بعضه من بعض ، حتى **لا تأخذ** الشمس شيئاً من ثمره · فاذا ما أخذت منـهشيئاً من ثمره ، **صغر حبّه ، وابيضّ ، وفسل طعمه ، وأتى عفصاً مفرط العفوصة** ، وما لم تأخذه الشمس رقّت قشرته ، وعظم حبّه ، وصغر نواه ؛ ولذّ طعمه ؛ فهو في هذا مخالفلجميع الشجر »(٥١) ·

ويستحب لشجره **الذهاب في الهـواء** · يقـول ابن حجـاج : « ان أردت أن تطـول [شجرته] ، فاجعل معها من حجارة البحر(٥٢)(···) ؛ وان كانت قـد نصبت ، فانصب في أصلها بصل الفـأر »(٥٣) · وينصح صاحب« مفتاح الراحـة » بـ « **ألاّ ينْشمّر** [شـجر الرمان] ، وتترك أغصانه **شعثَثَة** ، فان هذاالنبات يراد ارتفاعه في الهواء »(٥٤) ·

ويؤكد ابن العوام أن شجره ينمو ويحيا بالماء :

« ان حياة شجر الرمان ، ونشوءه ، انمايكون بكثرة السقي بالماء · فيسقى في كل يوم سقية ، منذ يغرس ، وبعد آن ينبت ، والىأن يحمل ، وبعد حمله **أيضاً** · فانه **يحتاج** الى ذلك »(٥٥) · ويستدرك ، في موضع آخـر :« وان قلّل سقيه لم يضره (···) واستحبوا أن يسقى من آخر يونيه [حزيران] كل خامس،الى آخر سبتمبر [أيلول] » ··· ويقـول : « وتوافقه العمارة الكثيرة »(٥٦) ·

ولشجر الرمان **خواص** تعرّفهـا القـدماء :

وقبل الأندلسيين ، قال قسطوس البعلبكي : « وشجرة الرمان ، سواء كانت مثمرة أو غير مثمرة ، **لا يقربها شيء مـن الهوام** ![ويضيف] ويذب بعضالطير الهوام عنأفراخه بأن يعلّق في وكره من **عيدان الرمان** ! »(٥٧)·

ونقل ابن العوام عن أحد قدماء اليونانيين : « أن بين شجر الرمان **وبين الحيّات والأفاعي ، معاداة بالطبع** ، مانعة للحيات من المقام في اصول شجر الرمان ، خاصة الافاعي السود والشجاع والارقم . فانّا نراها عياناتكره الرمان . ونرى الأفاعي وغيرها من أصناف الحياة تهرب من التقرب من الرمان ؛ودخان خشبها وقشورها وأغصانها ، يطردها ! »(٥٨) .

ويتابع ابن العوام : « ومن خواص الرمان الحلو . **أن يُخرج طعم الدخان من الطبيخ** . فان تدخّنت قدرة مطبوخة دخاناغيّر طعمها ، فتؤخذ رمانة حلوة ، فيلقى حبّها في القدرة ، ويتبع بقليل من شحم البقر ،فان الدخان يزول طعمه عنها ؛ ويزول ، أيضاً بهذا ، عن القدر ، كل طعم كريه ! »(٥٩) .

ومن خواصه ، التي أطالوا الوقوف عندها ، تلك التي سموها **مؤاخاة الرمان لغيره من أنواع الشجر** ، وخاصة الآس .

فابن حجاج يقول ، وكذلك ابن العوام بعده بمئة سنة : « **والآس** والرمان ، بينهما مؤاخاة . فاذا غرستهما معاً كثر حملهماواتصلت عروقهما »(٦٠) .

وأشار ابن لُيون التُّجيبي ، في أرجوزته الفلاحية ـ وذلك في أثناء حديثه عن الزيتون كما بدا ـ الى تلك المؤاخاة ، أو المجاورة ، بين الزيتون والجلّنار (ولا أقول: الرمان !)، قال :

والجلّنار نافعٌ **للزيتون** فغَرسُه بالقرب منه يبغون(٦١)

وقبلهم أفاض البعلبكي في ذلك . قال :

« الرمان يعلق **بالآس** اذا أضيف اليه . وقال ديمقراطيس العالم(٦٢) : ان الرمان والآس متحابان ، فاذا تجاورا وتقاربا فيالموضع ، **كثر نزلهما واختلفت عروقهما** ، وان تباعدا بعداً ليس بالكثير ، لما بينهما من الألفة والمحبة ! والرمان يعلق أيضاً بشجرة **الغَرَب** اذا أضيف اليها ، ويعلق **بالتفاح والكمثرى والسفرجل** . [ويستدرك] الا أن أجود ما أضيف اليه الرمان : الآس والغَرَب ،فانه اذا آضيف الى احد هذين النوعين قلّ ألاّ ينجبا . (وأضافأخيراً) وقال شادهمس العالم: ان الرمان يألف **الأُترُج** ! »(٦٣) .

١١ ـ رعاية حمله :

والأندلسيون عرفوا طرقاً لرعاية حمله: **تعجيلا له ، واكثاراً منه ، وتفاديا لسقوطه أو انتثاره** .

ففي **تعجيل الحمل** في شجر الرمان ، يقول ابن حجاج : ان اتخاذ الأوتاد للغرس ، **من أعلى الشجرة** ، « أسرع لحملها ؛ [وينصحك]وعمّق غرسه في الأرض ذراعاً »(٦٤) . وفيما بعد يضيف صاحب « مفتاح الراحة » : انذكر **الرمان ، الجلنار** ، « اذا علّق منه على شجرة [قد] تأخّر حملها ، أسرعت الحمل ؛وان علّق على الحاملة كملت و [هو] يدفع

العوارض عنها ؛ وان علّق على التي لم تحمل الا حملا ضعيفا لطيفاً ، تغير عن ذلك الى الكبر والرزانة والحسن ! »(٦٥) .

وتعرّفوا ، كذلك ، طرقاً **لاكثار حمله** .

فابن حجاج ، ثانية ، ينصحك وأنت تغرس أوتاد الرمان : « ان أردت أن يكثر حمله ، فانصب القضيب منكوساً ! »(٦٦) .

وقبله قال قسطوس **بن** لوقا :

« وأما ما يعمل للرمان فيكثر حمله ،فهو أن يعمد الى **البقلة الحمقاء** فتيبس ، ثم تدق مع دواءين ــ يسمى أحدهما ترس والآخر بوداميلون ــ أثلاثاً ؛ ثم يجعل ، بعد الدق ، في اناء ؛ ويصب عليه ماء عذب ، ويرض فيه؛ ثم يطلى بذلك أصل شجرة الرمان الذي يلي وجه الأرض [و] غصونها ، في كل عام مرة ،قبل تصورها(٦٧) ، فانه يكثر لذلك حملها »(٦٨) .

وكان لا بد من أن يتوقفوا طويلا عند **سقوط الحمل** ، ويصفوا له ضروباً من العلاج.

وقد خص **الحاج الغرناطي** ذلك بفصل من كتابه ، ابتدأ فيه القول :

« ان الرمان ، اذا غرس **منكوساً** ، وتدهونباته ، على خلاف **ما** كان في شجره ، فانه يسقط حمله ولا يثبت ، ولا ينفع فيه علاج بوجه ، ولا راحة فيه ! »(٦٩) .

ثم يروح يعدد حالات ، ويصف لكل منها العلاج المناسب :

١ ــ « فاذا رأيت الرمان كثير السقوط، فاعمد الى عيدان **الطرفاء بعيونها**(٧٠) ، وعلّقها عليه ؛ فان نجح ، والا [فخذ](٧١) أصل (   )(٧٢) ، فانضد خمسة أصول في خيط ، وعلقه في أغصان الرمان ، في كل غصن منها أربعة الى خمسة ، فانه يمسكه ! ».

٢ ــ « ويذكر بأن يعلق على(الشجرة) خرق كناسات الحمر (!) ، فانه يمسكه » .

٣ ــ « وذكر أنه يصنع في أصل الرمان(٧٣) ، **خلخال ورصاص** ، أسفل الشجرة قرب عروقها ، فتمسك الحمل » .

٤ ــ « والجميع قال: أن يؤخذ **الرماد**، أي رماد كان ، فيخلط مع الرمل مشاطرة ؛ فاذا كان في شهر يناير [كانون الثاني] ، كشف عن أصولها من الرمان ما عليها من التراب(٧٤) . وتسقى ، في شهر يناير ، ثلاث سقيات ، فان حملها يثبت ولا يسقط ، الا ما لا خطر له ، ويكثر ورقه وحمله » .

٥ ــ « وان غرس **بصل الفار** الى جنب الرمان ، بحيث تلتحم عروقه مع عروق الرمان ، صلح بذلك وثبت » .

٦ ــ وأخيراً ، نقل عن قسطوس بن لوقا : « الفلاحة الرومية : ان غرس **الريحان** ، في جنب الرمان ، زاد حمله ، وطرد عنه الآفات ! »(٧٥) .

وفي « مفتاح الراحة » :

ان « من أراد **ألا ينتثر [حملها]** ، فليأخذ **كناسة البيدر وقصله** وعوده وما يكون فيه، ثم يحفر أصل الشجرة ، ويطمر ذلك فيها ؛ فان نباتها يحسن ولا ينثر ثمرها ؛ أو يُعلق في الشجرة **صفيحة رصاص** »(٧٦) .

١٢ ـ تدبير ثماره :

ولقد فضل محبو الرمان دائماً ـ ولهم العذر ! ـ أن تكون ثمرته **كبيرة الحجم ، سليمة غير متشققة ، تغلب الحمرة على حبها** ... فاجتهد فلاحيو الأندلس في تلبية هذا المطلب ، مستندين الى كتب الأوائل ومعولين على تجاربهم ، هم أنفسهم ، المستمرة ، في بساتين البادية الأندلسية وحدائق مدنهم الفيحاء .

فابن العوام رأى أن « مما **يزيد في قدر [ثمره]** أن يجعل ـ مع قضبانه اذا غرست وحبه اذا (زرع) ـ من **الباقلاء المدقوق بقشوره** قدر كف ، أو يؤخذ حب الحمص فيدق ويبل باللبن الحليب ؛ ثم يجعل في الحفرة مع حبه ، أو مع أغصانه المغروسة »(٧٧) . وبعد مئتي سنة ، يقدم صاحب « مفتاح الراحة » العلاج ذاته ، مبتدئاً **بقوله : « وان أردت أن ينبل في القدر ، فاجعل معه** ـ ان زرعته أو غرسته ـ **الباقلاء المدقوق مع قشوره** ... الخ »(٧٨) .

وذهب القدماء ، في معالجة **تشقق الرمان** ـ وقد بدوا معنيين **بذلك على نحو ما ـ الى أن زراعة الرمان « منكوساً » يمنع من تشققه !**

بدأ ذلك عند قسطوس البعلبكي : « وأما ما يعمل للرمان **فيمنعه من التشقق ، فهو** أن (...) تغرس حين تغرس **منكسة** ، بجعل فروعها في ما توارى من الأرض منها ، فان رمان هذا الغرس (...) لا يتشقق ! »(٧٩) .

ثم جاء ابن العوام ، فقال : « تغرس أوتاده **منكسة**(٨٠) ، وملوخه (...) قيل : ان ما غرس كذلك منها لا يتشقق قشره ! »(٨١) . وقال أيضاً : « اذا غرس عند **أصولها بصل العنصل** نفعها ، ولم يتشقق ثمرها (...) ؛ وقيل : ان جعل حول أصلها ، **تحت الأرض ، حجارة** لم يتشقق ثمرها وقيل : ان خفت على شجر الرمان أن يتشقق قشره ، فاكشف التراب عن أصله ، واسقه بماء قد خلط **برماد الحمّام** »(٨٢) .

ويقول صاحب « مفتاح الراحة » : « وقالوا : متى غرس قضيب رمان **منكوساً** ، لم يتشقق قشره أبداً ! »(٨٣) .

ويقدم ابن حجاج الاشبيلي علاجات ثلاثة :

١ ـ « ان أردت **ألا ينشق [الرمان]**، فاغرس معه **بصلة عنصل** » .

٢ ـ « اذا تشقق الرمان ، فغطّ أصله، واسقه ماء قد خلط به **رماد الحمّامات** » .

٣ ـ « ومتى غرست قضيب الرمان**مقلوباً** (!) لم يتشقق قشره أبداً »(٨٤) .

وأما في **حمرة حب الرمان**، فان قسطوس البعلبكي يخاطبك، بمودة ملحوظة، مقتبساً مقولته من « سوبيوس العالم » .. يقول :

« اذا سرّك أن تشتد حمرة الرمان، فاعمد الى **رماد حمّام**، واخلطه بالماء، واضربه ضرباً شديداً، ثم بلّ بذلك أصل شجرة الرمان؛ وتعاهده بذلك ما استطعت، فانه يشتد بذلك حمرة رمان الشجرة ... »(٨٥).

ويأخذ صاحب « مفتاح الراحة » بهذا العلاج، ويزيد عليه :

و « من أراد أن تشتد حمرته، فيجمع من **رماد أغصانه وورقه** مقداراً، أو يضيف له شيئاً من رماد الحمام، ويزبل بهما، ويتعاهد بالماء لئلا تحرقه الأرمدة؛ وكذلك ان كشف عن عروقها، وغطاها ببعر الغنم، فان حبها يحمر »(٨٦).

١٣ ـ كيف يصير الحامض حلواً :

وتوخياً لعذوبة الطعم، أحب الأندلسيون أن يكون طعم رمانهم حلواً، فاجتهد علماؤهم وفلاحيوهم في تحقيق هذه **الغاية الحلوة !**

وقبل الأندلسيين، نصح قسطوس بن لوقا ـ كي يصير الرمان الحامض حلواً ـ أن « يحفر عن أصل الرمان حتى تبدو عروقه، ثم يطلى بشَلْط خنزير، ثم يعلى على ذلك بشيء من تراب، ثم ينضح بأبوال الأنس؛ فانه، اذا فعل ذلك، احلولى ذلك الرمان وذهبت عنه حموضته ! »(٨٧).

وبعده، تبنّى ابن حجاج علاجاً لأحد القدماء :

« **اثقب في الأصل**، واجعل فيه **عود أداذين**. وألق في أصلها زبل الخنازير، واسقه بول الناس، فانه يحلّي الحامض. وان أخذت منقاراً، فنقبت به أصل الرمانة، وضربت في الثقب عود أداذين سمين بقدره حتى يملأه، وتطمره وتسقيه بولا حتى يخرج عيوناً، فان حبها يصير حلواً، ان شاء الله »(٨٨).

ثم يجيئنا ابن العوام بعلاج **عسلي**، فريد في نوعه ... يقول :

« وان طلي، من **أسافل القضبان** التي تغرس، مقدار أربع أصابع، **بالعسل** الجيد، ويصب على **الحب المغروس عسل**، فان الرمان يخرج حلواً، [و] **بلا نوى** ! »(٨٩).

وبعدهم، ارتاح صاحب « مفتاح الراحة » الى القول :

« ان من أراد أن يصير الرمان الحامض حلواً، فليكشف عن أصول شجرة الرمان الحامض، ويشقها، ويدخل في كل عرق منها **عوداً من أرز**، ثم يربطه ببرديّ ويطمر عليه التراب، ويزبله ببول انسان عتيق ! » (٩٠).

١٤ـ أن يكـون حب الرمـان بلا نـوى :

وتطلعوا ، كذلك ، الى **رمان يخلو مـن العَجَم** ، **أو النوى**(٩١) ، فتوقف بعضهم عند ذلك وأطالوا الوقوف !

في البدء ، اجتهد **قسطوس البعلبكي** ، في بلاد الشام ، أن **تذهب الصلابة** من حبـّه ، دون أن يتجاوز ذلك الى **انعـدام نواه** ٠٠٠ قـال :

« وأما ما يُعمل لذهاب الصلابة من حب الرمـان ، فهـو أن يعمـد الى قضيب غرس الرمان ، فيشق من أصله مقدار ذراع نصفين؛ ثم **يـُزال لـُبـاب** النصفين جميعاً مـن غير أن يُنهكا ؛ ثم يعصبان ببردية ، ويطليان بطين حر وروث مـن أرواث الدواب ؛ **ويجعـل في** حفرته ، التي يغرس فيهـا ، بقدر ما يظهر فـوق الأرض ، من ذلك الشق ، **ثلاثة أصابع** مضمومة ٠

« ويقرّ ذلك القضيب من غرس الرمان حتى يعلق ، وتنبت عروقه بعض النبات ؛ ثم يقطع ما فوق الشق منـه ، ويطرح في طين ، ويسقى ، حتى تنبت فروعه المرة الثانية ٠

« فانه يطعم ؛ ويكون رمانه لا يطرح أكلـه منـه شيئاً »(٩٢) ٠

وبعد زمن البعلبكي بنحو مئتي سنة ، يتطلـع **ابن حجـاج الاشبيلي** الى أن يجيء الرمان وقد **انعدم فيـه النوى** ٠٠٠ يقول :

« ان أردته **بلا عـَجَم** ، فشقّ مـن أصل القضيب قدر أربعة أصابع ، **وأخرج لـُبابه** ولف عليـه شيئاً ، واغرسه ، فانـه يلتحـم ويستمسك ولا يكون لحب رمانه عَجَم ! » ٠

ثم يحدثنا عن معالجة أخرى لأحد القدماء (هو أنطرليوس) : « من أراد أن يصـير الرمان **بلا عـَجَم** ، فليشق القلب الذي يكون في الأرض ، ويجعل فيه **عصارة مُرّ** ويربطه بالشمع ، ويلفه ببصـل الفـأر ، ثم يطمره ويسقيه بماء حـار ٠ وان صنع ذلك بقضيب النصب صار كذلك »(٩٣) ٠

وشاطر ابن حجاج الاشبيلي ، في تطلعه ، أندلسي آخر هو **الحاج الغرناطي** ٠ قال :

ان « الرمان ، اذا غرس ، ودفع باللقح ، وأتى عليـه عام ، فيشق **القضيب** المغروس برفق حتى يصل الى اللب ــ الذي يعرفه عامّة الفلاحين بالمخ ــ وهو شبيه حَشِيَّة القطيفة البالية ، فيستخرج منه اللب بأسره ؛ ويدس في موضع اللب **عود من شجر الطَرفاء ، أو من شجر الصفصاف** ثم يشد (عليه رباط ٠٠٠) ،ويترك عليه [مـدة] عام ٠

« فاذا كان بعد عام ، تـُفـْقـَد ذلك الشق: فان وجد قد التحم ، حـُلّ عنه الرباط ، والا تـُرك عليـه ٠ فاذا أثمر بالرمان كـان **بلا نـوى** ! »(٩٤) ٠

ثم يورد علاجاً آخر ممن سماه « الغليوس الرومي » ، قال :

ان أحدهم اذا « شق قضيب الرمان حين الغراسة ، فأخرج منه لبَّه ، ووضع مكان اللب عصارة الرمان ، وربط القضيب بالخرق ، ولف عليه بصل الفأر ، وكبسه ، وواظب [على] سقيه بالماء الحار ، أتاه حب الرمان من ذاك الأصل **بلا نوى !** »(٩٥) .

ويوجز القول في ذلك ، بعد ثلاثمئة سنة أخرى ، **مفتاح الراحة** ، الذي يقول بثقة واضحة :

« من أراد الرمان بلا عَجَم ، فليأخذ القضيب حين يريد غرسه ، ويشقه مما يلي الأرض ، **ويخرج البياض الذي داخله** ، ثم يلف عليه البرديّ ، ويدفن ما شق مع العُنصل ، فانه يكون **بلا عَجَم !** »(٩٦) .

١٥ـ صيانة ثمره :

وكان لا بد من أن يتعرفوا ، من وسائل الصيانة والحماية ، ما يقي هذه الفاكهة من أن تمتد اليها يد التلف والفساد ، مع ما متعت به من حماية ربانية وهي طيّ هذه « **الصدفة المملوءة جوهراً !** » ، كما وصف ذلك الشاعر الأندلسي !

ولصيانة الرمان ـ الذي أوصى ابن العوام بأن « **يجمع حبه في النصف من أكتوبر [تشرين الأول]** »(٩٧) ـ ينصح **قسطوس بن لوقا** بأن يجنى ، عند بلوغ ابَّانه ، « **برفق** ، لئلا ينفسخ » ، ثم نراه يُعدّد ـ ولم أجد أحداً بعده ، في علمي ، نحا نحوه ـ طرقاً خمساً يصان بها الرمان :

١ ـ أن « يغمس طرفاه ، أعلاه وأسفله (يعني كل رمانة منه) ، في **قار مذاب** ، ويعلق ، فانه يطول بقاؤه » .

٢ ـ أن يُعمد اليه ، اذا بلغ ابَّانه ، فيقرّ على حمله ، ويلف على كل رمانة منها **ما يسترها من الحشيش** ، ثم يعصب عليها ، وتطلى بجص ، فانها تبقى بذلك غضَّة الى أن يدركها زمان قابل » .

٣ ـ « وربَّ من يضع الرمان في **نشارة خشب البلوط** ، ويخلط بتلك النشارة شيئاً من السَّهلة(٩٨) ، فانه يطول بقاء ذلك الرمان » .

٤ ـ « وربَّ من يغمس الرمان ، حين يُجتنى ، **في ماء الملح** ، ثم يجفف في الشمس ، ويعلق ، فاذا بدا لأصحابه أكله غسلوا [الملح] عن قشره بالماء ، ثم أكلوه » .

٥ – « وربَّ من يجعل الرمانة في كوز من خزف ، **ويُجصِّص ذلك الكوز** ، ويرفعه في مكان جاف لا نداوة فيـه ، فانهـا لا تزال لذلك غضـَّة »(٩٩) ٠

ونحسب أن المبعوث الأندلسي ، **القاضي معاوية بن صالح** ، العائد مـن الشام ، قـد قدَّم الى الأمير عبدالرحمن ، في قصر الرصافة بقرطبة ، الرمان ، هدية أخيَّته أم الأصبغ ، **مغمَّسَ الطرفين في القار** ، الطريقة الأولى المتاحـة لقاطع البراري والقفـار ، في ذلك الزمان البعيـد !

* * *

وبعـد ٠

فذلك هو **فن فِلاحة** الرمان ، في الأندلس التي كانت ٠

وليس يعني هـذا أنه هو فـن فلاحته **اليـوم** ، فالعلم في تطور مستمر ٠٠٠ ولعل ما في هـذه « المعلومات » مـن وجوه الصواب يفوق ما فيها من الخطأ والأوهام !

وانمـا تُستبان الحقيقة **بالتجربة والاختبـار** ٠

وذلك مـن مهام علماء اليوم ، المعنيين بالزراعة تخصُّصـاً ، **أولئك الذين قدَّروا** ما خلَّفـه لهم الأجداد من التراث ، فأحبوا أن يمخضوه ، ليروا ما فيه من الحقيقة العلمية فيأخذوا بها ، ويدعوا ما سوى ذلك زَبَـداً يذهب جُفـاء ٠

وتلك هي سنَّة الطبيعة (١٠٠) ٠

دمشق : ١٩٨٩/٩/٩

فاضـل السباعي

□ الحواشـي :

١ ـ الخشني : قضاة قرطبة ، الدار المصرية للتاليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٦ و ١٧ ٠

٢ ـ يعني الخليفة الأموي ، الشامي ، هشام بن عبد الملك(حكمـه : ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) ، الذي جـدد بنـاء الرصافة القريبة من الرقة ، وجعلها مصيفا له ٠ وفي الرصافة نشا حفيده عبد الرحمن بن معاوية بن الخليفة هشام ٠٠٠

٣ ـ ريّه : منطقة في قبلي قرطبة ، نزلها جند الأردن مـن العرب ٠ وهي كثيرة الخيرات ٠

٤ ـ منية الرصافة (أو رصافة قرطبة) : اسم للقصر الذي ابتناه عبد الرحمن الداخل ، في الشمال الغربي من قرطبة ، والجنات (مفردها جنة ، وفي المشرق يصغرون : جنينة ، جنائن !) هي الحدائق ٠

٥ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (المقري ، نقـلا عن ابن حيان) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٨ ، ١ : ٤٦٨ و ٤٦٧ ٠

٦ ـ الأسدي م ٠ خير الدين : موسوعة حلب المقارنة ، منشورات جامعة حلب ، المجلد الرابع (١٩٨٤) : ١٩١ ٠ ويضيف أن من اعتقادات أهل حلب أن من ياكل رمانة بكاملها ، دون أن تنفرط منه في ذلك حبة ، قدر له أن ياكـل رمانة في الجنة ! (البياكل رمانة منا ليها [منها إليها !]وما بفرفط ولا حبة واحدة ، بياكل رمانة بالجنة) ٠

٧ ـ نزهة الأنام في محاسن الشام (لأبي البقاء البدري المصري الدمشقي ، نقـلا عن الدينـوري) ، القاهـرة ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) : ٢١٤ ٠

٨ ـ نفسه : ٢١٤ ٠

٩ ـ الدرهم : وحدة للوزن قديمة ، تعادل نحو ثلاثة غرامات ٠ والرها : مدينة ، رومية الأصل ، في منطقة الجزيرة بين حلب والموصـل

١٠ـ موسوعة حلب المقارنة ٤ : ١٩١ (نقلا عن : نهر الذهب في تاريخ حلب ١ : ١٢٩) ٠

١١ـ ديوان الأمير أبي فراس الحمداني ، تحقيق الدكتور محمد التونجي ، من منشـورات المستشاريـة الثقافيـة للجمهوريـة الاسلامية الايرانية بدمشق ١٩٨٧ ، ص ١١٦ و ١٧ ٠

١٢ـ نفح الطيب ١ : ٤٦٨ ٠

١٣ـ ترجمة المؤلف في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة ببيروت ١٩٧٥، القسم ١ : ٢ : ٨٠٥ ـ ٨٠٨ ، والاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٤ ، ٢ : ٢٨٢ ـ ٨٤ ٠

١٤ـ ويرى الباحث الدكتور محمد عيسى صالحية « أن النص المنشور لكتاب الفلاحـة لأبي الخـير الاشبيلي انمـا هو نص منتحل » ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد التاسع والخمسون ، الجزء الثالث ، تموز ١٩٨٤ ٠ وأعلن هـذا الرأي ، قبله ، محققا كتاب المقنع في الفلاحة (أعلاه): المقدمة صفحة : ٥ ٠

١٥ـ الدكتور أمين توفيق الطيبي : « كتب الفلاحة الأندلسية :أرجوزة ابن ليون التجيبي في الفلاحـة » ، مجلة كلية الدعـوة الاسلامية (ليبيا) ، العدد السادس ١٩٨٩ ، ص ص٣٥٤ ـ ٦٦ ٠

١٦ـ ما أتيح لي الاطلاع عليه ، من هذه المصادر المطبوعة ،هو : المقنع لابن حجاج ، والفلاحـة لابن العوام ، وحديقـة الأزهار للغساني الوزير ، فضلا عن مخطوطة زهر البستان للطغتري الغرناطي ٠

وعبثا حاولت الاطلاع على فلاحة ابن بصال المطبـوع ،وفي دمشق منه ـ كما أعـلم ـ نسختان : في المكتبة المركزيـة لجامعة دمشق ، وفي المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ٠

١٧ـ اطلعت منها على الكتابين الأخيرين ٠

١٨- معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية (انكليزي -عربي) ، اعداد أحمد شفيق الخطيب ، مكتبة لبنان ببيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ ، مادة Agriculture .

١٩- أرى من المستحسن أن أورد ، هنا ، ذلك الوصف الدقيق الذي أتى به قسطوس بن لوقا في كتابه حول هذه العملية الطريفة ، وقد سماها الغرس المضاعف القوة ... قال :

« وقد يغرس الرمان الغرس المضاعف القوة ، وذلك بان يعمد الى ساق شجرة الرمان ، فيربط فيه (حبل متين) ، ويجذب بذلك الحبل حتى ينحني ، ثم يربط ذلك الحبل في وتد « في الأرض » لئلا ترجع الشجرة الى اعتدالها ، ثم يعمد الى أقرب غصونها من الأرض (فيجذب) جذبا رفيقا لئلا ينكسر أو ينفسخ ، حتى يضع وسط ذلك الغصن او دون وسطه في الأرض .

« ثم يحفر لذلك الغصن ، حيث لاقى من الأرض ، حفرة مستطيلة عمقها في الأرض ذراع ، فيدفن وسط ذلك الغصن في تلك الحفرة ، ويترك طرفه ظاهرا على وجه الأرض ، ثم يسقى ما كان منه في الأرض ، حتى يعلق وينبت .
« فاذا علق ونبت ، قطع ما يلي ساق تلك الشجرة ، المشدودة بالحبل الى الوتد من ذلك الغصن ، وحل عنها الحبل ، (فترتد) الى اعتدالها الذي كانت عليه ، فانها تعود اليه ، ولا يضرها قطع الغصن المقطوع منها .
« فاذا تكامل هذا الغرس ، حوّل الى الموضع الذي يراد قراره فيه ... فانه يجيء ناجبا في الغاية ، حسن الثمرة ! » .
الفلاحة اليونانية : ٨٨ .

٢٠- نفح الطيب ١ : ٤٦٨ .
٢١- المقنع في الفلاحة ، لابن حجاج : ٣٨ .
٢٢- مفتاح الراحة لأهل الفلاحة ، لمجهول ، ص ١٦٨ (نقلا عن ابن بصال) .
٢٣- الحاج الغرناطي : زهر البستان ونزهة الأذهان (مخطوط) : لوحة ٤٧ ب ولوحة ٤٨ أ . وسوف نصطلح على تسمية كتابه ب « فلاحة الغرناطي » .

٢٤- ابن العوام : الفلاحة في الأرضين : ٢٧٧ .
وكان ابن وحشية في المشرق ، قد قال : والرمان « يصلح في كل أرض يابسة قليلة الماء ، ولا يصلح في الأرض الباردة » .
مفتاح الراحة : ١٦٨ .
وفي عصره (الثالث الهجري) ، قال قسطوس بن لوقا البعلبكي :
ان « أجود مواضع غرس الرمان المواضع الدفيئة الجافة السليمة من كثرة الأنداء ، فان شجرة الرمان يضرها البرد الشديد اضرارا كبيرا ... « وأضاف » فاذا علق غرس الرمان وطلع ، كان غطاؤه ، في البلاد الباردة في فصل الشتاء ، ورق القرع وقضبانه ، فان ذلك يدفع عنه مضرة البرد ، ويتحاماه الطير لذلك » .

الفلاحة اليونانية : ٨٧ و ٨٨ .

٢٤ م- حدثني الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي ، بعد اطلاعه على مسودة البحث ، ان علم الزراعة الحديث أبان ان أزهار الرمان خنثوية كبقية أصناف الفصيلة الآسية ، مع ملاحظة ان القدماء كانوا يعنون بما سموه الرمان الذكر قصد الاستفادة من زهره ، الجلنار ، في المعالجة الطبية .

٢٥- أبو القاسم الغساني : حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار : ٧١ .
٢٦- حديقة الغساني : ٢٥٣ .

والمز : ما كان طعمه بين الحلو والحامض ، أو خليطا منهما . وهو ، في عامي الشام : اللفان !
قلت : والعظمي ربما سمي كذلك لكبر مقدار النواة في حبه ، وذلك عيب عمل الفلاحيون القدماء على معالجته (كما يرد أدناه) .

٢٧- فلاحة ابن العوام : ٢٧٣ و ٧٤ .
ويلاحظ في النص تحريف في الألفاظ واضطراب في الرواية .

وشبيه بذلك ما وقفت عليه في نص الحاج الغرناطي ،المخطوط : فالرمان ـ الهدية ، أرسل الى عبد الرحمن من أخته في بغداد ، واسم عامله في كورة ريه : جعفر ، فلما وصل اليه الرمان « أخذ حبه ، وغرسه واهتبل به « اقراها : واحتفل به ! » حتى أثمر ، ثم دخل على « الأمير » بثمره ،فاستغربه وأعجب به ، وامر باتخاذه ، فغرس ، وسماه باسم الغارس له ، فقيل له : الجعفري ! » ، لوحة ٤٧ ب .

وقد بينت ، أعلاه ، أن في رواية المقري (التي نقلها عنابن حيان الاندلسي) أن الرمان السفري المشهور منسوب الى سفر الكلاعي .

ولكن للباحث المعاصر الدكتور محمد نذير سنكري (الأستاذ في كلية الزراعة بجامعة حلب ، وكيل معهد التراث العلمي بالجامعة اخرا) ، مذهبا آخر في هذه التسمية :أن النسبة هنا هي الى بلدة « السفيرة التي تقع الى الجنوب الشرقي من حلب » غير بعيد عن رصافة هشام .

انظر : الابداع الزراعي في بدايات العالم الاسلامي ،تاليف الدكتور أندريو واطسون ، نقله الى العربية الدكتور أحمد الأشقر ، وراجعه وعلق عليه الدكتور محمد نذيرسنكري ، منشورات معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨٥ ، تعليق المراجع في الصفحة ١٩٢ .

٢٨ـ المقنع لابن حجاج : ٤٠ .

٢٩ـ فلاحة ابن العوام : ٢٨٠ و ٨١ .
ويقال : القحت الشجرة : أنبتت الفروع .

٣٠ـ ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، طبعة بولاق ١٢٩١ هـ (١٨٧٥ م) ، ١ : ١٦٤ ، وتصحيح اللفظ ، ومقابله اليوناني ، من ابراهيم بن مراد : المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية ، دار الغرب الاسلامي ١٩٨٥ ، ٢ : ٣١٣ .

٣٠ مـ مفتاح الراحة : ١٦٩ .

ورعث الرمان : زهره (الجلنار) . ويبدو أن محققي المفتاح قد ذهبا في تفسير الكلمة بعيدا : « الرعث : كل معلاق كالقرط ونحوه فهو رعاث . والمقصود أن يكون حمله متدليا كثيفا » ! (الحاشية ١) ، وغاب عنهما أن رعث الرمان هو جلناره .
وقد تبينا ، أعلاه ، أن بعض أشجار الرمان يكون ، في التعريف العلمي الحديث ، عقيما بسبب اختزال المبيض فيه . هذا العقيم هو ما أطلق عليه أجدادنا الرمان الذكر ،وسموه باسم زهره : الجلنار !

٣١ـ فلاحة الغرناطي : ٤٨ آ .
وتحويض الأرض ، فيما يبدو ، تقسيمها الى أحواض ،أو مشاتل ، والى حد ما مساكب .
ويقول قسطوس بن لوقا : « ولا يستغني غرس الرمان أن يكون معه في حفرته التي يغرس فيها بعض الدواء الذي يسمى الاسكيل » ، فلاحة البعلبكي : ٨٧ و ٨٨ .

٣٢ـ فلاحة ابن حجاج الاشبيلي : ٣٩ .
ويؤكد قسطوس بن لوقا البعلبكي أن « غرس الشجركله يغرس قبل تصوره « ربما : تنوره ، أي تفتح أزهاره ! » غير شجر الرمان ، فان له خاصية : لا يغرس الا بعدتصوره » ، الفلاحة اليونانية : ٨٧ .
وقد نقل ابن العوام الاشبيلي عن ابن لوقا هذا المعنىعلى نحو ما : « ان غروس جميع الأشجار لا ينبغي أن تنقل الى مواضع غرسها الا قبل الفتاح « ربما : انفتاح ! » أعينهاعن الأوراق ، الا الرمان ، فانه يغرس بعد الفتح ، فان له في ذلك خاصة طبيعية » ، الفلاحة في الأرضين ١ : ٢٧٤ .

٣٣ـ مفتاح الراحة : ١٦٨ (نقلا عن ابن وحشية) .
ونقل ابن العوام عن احد قدماءاليونانيين قوله :« يمضغ طرف القضيب ، الذي يغرس (من الرمان) قبل غرسه ، فيعمل مثل حمله الأصلي » ، فلاحة ابن العوام١ : ٢٧٦ .

٣٤- فلاحة الغرناطي : ٤٨ آ .
ويلاحـــظ الحـاج الغرناطي أن معاصره ابن بصـال الطليطلي قال بان تغرس ثلاثة أوتاد معا في الحفيرة الواحدة ، ويعلق على ذلك بقوله : « ولم يذكر هذا من أهل الفلاحة أحد سواه ، وانما أراد بذلك أن يكثر شجرها في منبته ملتفا » وينصح « فمن شاء غرس أوتاد الرمان وتدا وتدا ، فاذا انبعث باللقح ترك في كل وتد من ذلك اللقح خمسة فروع أو ستة ، وقرّب مسافة ما بين الأوتاد ، فيكون الشجر ملتفا » ، فلاحة الغرناطي : ٤٨ آ .

٣٥- فراغ ، في الأصل ، بمقدار كلمة ، تليه أخرى غير مقروءة :

٣٦- فلاحة الغرناطي : ٤٨ آ .
والأبواع ، مفردها باع : مسافة ما بين الكفين اذا انبسطت الذراعان يمينا وشمالا .

٣٧- فلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٧ .

٣٨- نفسه : ٦١٩ .
وقبله ، بثلاثمئة عام ، رأى قسطوس بن لوقا خلاف رأيه : « واجود غروس (الرمان) ما غرس من قضبانه وأوتاده » ، فلاحة البعبكي : ٨٧ .

٣٩- سيسميه : المنكس ، والمنكوس ، أي الغصن الذي تـم ثنيه ، أو حنيـه ، من الأغصـان ، ودفن في حفيرته من تلـك الخطـوط .

٤٠- فلاحة الغرناطي : ٤٨ ب و ٤٩ آ .
وقد قدمنا ، أعلاه ، وصفا جيدا للعكس (التكبيس ، التدريخ) ، نقلناه عن قسطوس بن لوقا ، وقد سماه : الغرس المضاعف القوة (الحاشية : ١٩) .
وبقال : نقش الشوكة بالمنقاش ، أي بحث عنها واستخرجها ، فالنقش ، هنا ، بمعنى التنقية أيضا .

٤١- فلاحة الغرناطي : ٤٨ آ و ٤٨ ب .

٤٢- فلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٨ .
٤٣- فلاحة الغرناطي : ٤٩ آ .
٤٤- فلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٧ و ٧٨ .
٤٥- فلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٨ .
٤٦- نفسه ١ : ٢٧٨ و ٧٦ .
٤٧- نفسه ١ : ٢٧٥ .
٤٨- نفسه ١ : ٢٧٨ .
والحرز ، لغة : كل ما يحرز . ولعله يقصد بنقل النبتة، بحرزة من ترابها » : بما علق بها منه .

٤٩- فلاحة بن العوام ١ : ٢٧٨ .
٥٠- أردنا بالخصائص (خصيصة) : الصفات التي تميز هذه الشجرة عن غيرها من الأشجار ، وبالخواص (خاصة) نقترب من ذلك المعنى ، الذي أضفـاه القدماء على الكلمـة ، فجعلوا منها مصطلحا طبيا ، فقالوا : خواص العقاقير : قواها التي تؤثر في الأجسام !
٥١- فلاحة الغرناطي : ٤٨ آ .
٥٢- في مفتاح الراحة : « فليدفن (صاحبها) ، مع القضبان ، شيئا من حجارة البحر » ، ص ١٦٩ .
٥٣- المقنع لابن حجاج : ٣٩ .
وبصل الفار (العنصل ، بصل البر ، الاشقيل وهذه معربة قديما من اليونانية Scella) : جنس زهر من الفصيلة الزنبقية . وسمي ببصل الفار ، لأنه يقتله اذا أكله : سوف يرد ، أدناه ، باسم العنصل أيضا .
وقد أشار اليه مترجم فلاحة البعلبكي ، غير مرة ، باسم : الاسكيل (أعلاه ، في تحضير الحفيرة ، وأدناه ، في معالجـة تشقق الرمان) .

٥٤ـ مفتاح الراحة : ١٦٨ و ٦٩ ·
وشمر الشيء : قلصه ، فكان المعنى ينحو الى النهي عن الكسح والتقليم · يؤيد ذلك : ترك الاغصان شعثة ، اي : منتشرة متفرقة ·

٥٥ـ فلاحة ابن العوام ، ١ : ٢٧٦ ·
٥٦ـ نفسه ١ : ٢٧٩ ·
٥٧ـ فلاحة البعلبكي : ٨٨ ·
٥٨ـ فلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٦ و ٧٧ ·
٥٩ـ نفسه ١ : ٢٧٧ ·
٦٠ـ المقنع لابن حجاج : ٣٨ و ٣٩ ، وفلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٥ ·

٦١ـ مجلة كلية الدعوة الاسلامية (ليبيا) ، العدد السادس ١٩٨٩ ، ص ٣٦٣ (مرجع سبقت الاشارة اليه) ·
٦٢ـ ديمقراطيس (او ذيمقراطيس بالمعجمة) : فيلسوف عالم يوناني ، نسب اليه كتاب في الفلاحة · وفي « صوان الحكمة »: أنه والطبيب الفاضل بقراط كانا « في زمن واحد (منتخب صوان الحكمة ، للسجستاني ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ، طهران ١٩٧٤ ، ص ٢٠٣) ، وبقراط توفي ، على الأرجح ، سنة ٣٥٧ ق·م ·

٦٣ـ فلاحة البعلبكي : ٨٩ ·
والغرب : نوع من شجر الحور أو الصفصاف ·
والأترج (والترنج) : نوع من الحمضيات ، من الفصيلة البرتقالية · ثمره كبير ، أصفر ، لا يؤكل ، بل يصنع منه مربى · وهو ما يسمى في الشام : الكباد ·

٦٤ـ المقنع لابن حجاج : ٣٩ ·
٦٥ـ مفتاح الراحة : ١٧٠ ·
٦٦ـ المقنع لابن حجاج : ٣٩ ·
٦٧ـ اقرأها : تنورها !

٦٨ـ فلاحة البعلبكي : ٨٨ ·
والبقلة الحمقاء (واسمها العلمي Portulaca) : بقلة سنوية عشبية لحمية ، تزرع ، ولها بزور دقاق ، كثيرا ما تنبت في الزروع عفوا ، يؤكل ورقها مطبوخا أو على شكل « سلطة » ·
ويذكر الطبيب مدين القوصوني المصري أنها وصفت بالحمق « لأنها تنبت في مجرى السيل فيقلعها ، وفي الطرقات فتداس ، وتوصف ، أيضا بالبقلة المباركة لكثرة منافعها » ، قاموس الأطبا وناموس الألبا ، من مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٩ ، ١ : ٢٩٧ ·

٦٩ـ فلاحة الغرناطي : ٤٨ ب ·
وبدا أن ابن العوام يوافقه : وقيل ان غرست أوتاد الرمان متكمية « اقرأها : منكسة ! » ، فانه « يمسك شيء من حمله ، ويتساقط ، ولا ينجع فيه علاج ! » ، ١ : ٢٧٨ و ٧٩ ·
ونحرص على أن نشير الى ما في أقوال الفلاحين ، هنا من تناقض في مسالة الوتد أو القضيب المنكوس :
فعلى حين يرى ابن حجاج ، أعلاه ، أن نصب القضيب منكوسا يكثر من حمله ، فانا نجد ذلك ـ عند الغرناطي وابن العوام ـ مدعاة لسقوط الحمل ، الذي « لا ينفع فيه علاج » !
وسوف يصادفنا ، عما قريب ، تناقض آخر عند ابن العوام (وقبله عند ابن لوقا البعلبكي) ، اللذين رأيا ، في الغرس المنكس ، منجاة لثمر الرمان من أن يتشقق !

٧٠ـ الطرفاء : جنس نبات للتزيين ، من الفصيلة الطرفاوية ، أغصانها رفيعة دقيقة ، وازهارها عناقيد ريشية أرجوانية · اسمها العلمي Tamarix .

وقول الحاج الغرناطي بعيونها ، أي ببراعمها !

٧١ـ في الأصل : أخذ !
٧٢ـ كلمتان غير مقروءتين .
٧٣ـ أو : يوضع !
٧٤ـ اقرأها : كشف ، عن أصول الرمان ، ما عليها من التراب .
٧٥ـ فلاحة الغرناطي : ٤٨ ب .

٧٦ـ مفتاح مفتاح الراحة : ١٦٩ .
ونثرت الشجرة حملها : رمت به متفرقا .
والقصل (م قصلة) : الرخو من الشجر (أو النبات) ،والقصيل : ما اقتطع من الزرع أخضر لعلف الدواب .

٧٧ـ فلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٦ .
والباقلاء (أو الباقلى ، أو الفول ، والاسم العلمي Faba vulgaris) هو النبات المعروف ، تؤكل عروقه الغضر المطبوقة ، وكذلك حبوبه .
٧٨ـ مفتاح الراحة : ١٦٩ .

٧٩ـ فلاحة البعلبكي : ٨٨ .
وقدم على ذلك علاجين آخرين : « أن يعمد الى قضبان غرس الرمان ، ويحفف حولها ـ مما يواري أصلها من الأرض ـ بالحجارة (أي : تحاط بها) ، أو يزرع في أصلها الدواء الذي يسمى الاسكيل ... » .

٨٠ـ وقد جاءت ، في النص ، متكمية ، كما أسلفنا !
هذا الى أنه ورد في موضع آخر من كتابه : وشجرة الرمان ، ان غرست وقضبانها منكسة ، « لم يتشقق ثمرها » ، ١ : ٦١٩ .
٨١ـ فلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٨ .
٨٢ـ نفسه ١ : ٦١٩ .
وقد بينا أعلاه (الحاشية : ٥٣) أن بصل العنصل هو بصل الفار ، والاشقيل ، والاسكيل أيضا !

٨٣ـ مفتاح الراحة : ١٦٩ .
٨٤ـ المقنع لابن حجاج : ٣٨ و ٣٩ .
ولعله : مثقوبا ! فان عند ابن حجاج الاشبيلي أن يثقب أصل شجرة الرمان ، ليصير حبها حلوا ! (كما يجيء أدناه) .

٨٥ـ فلاحة البعلبكي : ٨٨ .
٨٦ـ مفتاح الراحة : ١٦٩ .
٨٧ـ فلاحة البعلبكي : ٨٩ .
وفي القاموس المحيط : الثلط : رقيق سلح الفيل ونحوه.

٨٨ـ المقنع لابن حجاج : ٣٩ .
والداذين هو خشب الأرز ، وهو كلام رومي ، كما علق محققا كتاب « المقنع » (نقلا عن كتاب « النبات » للدينوري).

٨٩ـ فلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٦ .
٩٠ـ مفتاح الراحة : ١٦٩ .
٩١ـ وهذا يعني أنه لو أتى حين من الدهر انقرض فيه شجر الرمان ، فلن يكون من سبيل الى معاودة استزراعه من ثماره المتبقية التي لا نوى لها !!
٩٢ـ فلاحة البعلبكي : ٨٩ .
والبردية (واحد البردي) : نبات مائي ، يقول الشهابي في معجمه ، أنه « يوجد منه في مناقع بحيرة الحولة ، كانوا يصنعون ورق البردي من لحائه » .
والطين الحر : نوع من الطين ، خالص من الرمل والحجارة.

٩٣- المقنع لابن حجاج : ٣٩ .

والمر ، والمر الحجازي (والاسم العلمي Commiphora myrrha) : نوعان لشجر من الفصيلة البخورية ، يخرج ساقه صمغا راتينجيا ، يسمى المر أيضا ، هو من العقاقير الطبية التي استعملها العرب قديما .

٩٤- فلاحة الغرناطي ٤٩ آ .

٩٥- نفسه : ٤٩ آ .

٩٦- مفتاح الراحة : ١٦٩ .

٩٧- فلاحة ابن العوام ١ : ٢٧٩ .

٩٨- السهلة (بالكسر) : تراب كالرمل يجيء به الماء .

٩٩- فلاحة البعلبكي : ٨٩ .

١٠٠- يطيب لي أن أعترف بأنني بدأت البحث - باستكتاب من الدكتور عبد الكريم اليافي - متناولا الرمان من نواحي ثلاث : قصة انتقاله من الشام الى الأندلس ، ومعالجته فلاحيا ، وأخيرا بيان منافعه الطبية ...
فلما امتد البحث صفحات تضيق بها دورية ، وان اتسع فيها مجال القول ، عمدت الى اختصاص مجلة « التراث العربي » بالجزء الفلاحي وحده ، مع اشارة ما الى قصة انتقال الرمان الى الأندلس .
والشكر للصديق الدكتور اليافي ، لأنه أوحى الي بكتابة البحث جميعه ، فامتعني - وهو لا يدري - بالاستغراق بما أصبحت معنيا به ، من شأن التاريخ الأندلسي ، وجوانبه العلمية - بمصطلح اليوم - هذه التي لا تزال أرضا بكرا ، لم تجل فيها الأقلام الا يسيرا .

* * *

☐ مراجع البحث :

أولا : المصادر (مسلسلة حسب أزمان مؤلفيها) :

★ قسطوس بن لوقا البعلبكي (توفي بعد ٣٠٠ هـ) : الفلاحة اليونانية (او الرومية) ، نقله الى العربية سرجس بن هليا ، القاهرة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٥ م) .

★ أبو فراس الحمداني - الحارث بن سعيد (ت ٣٥٧ هـ) :ديوانه ، تحقيق الدكتور محمد التونجي ، من منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية بدمشق ١٩٨٧ .

★ الخشني - أبو عبد الله ، محمد بن حارث (ت ٣٦١ هـ): قضاة قرطبة ، الدار المصرية للتاليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦ .

★ السجستاني - أبو سليمان ، محمد بن طاهر ، المنطقي (ت بعد ٣٩١ هـ) : منتخب صوان الحكمة ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ، طهران ١٩٧٤ .

★ ابن حجاج الاشبيلي - أحمد بن محمد (حيا سنة ٤٦٤ هـ):المقنع في الفلاحة ، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية ، من منشورات مجمع اللغة العربية الأردني ١٩٨٢ .

★ الحاج الغرناطي - أبو عبد الله ، محمد بن مالك الطغنري (حيا سنة ٤٨٠ هـ) : زهر البستان ونزهة الأذهان (مخطوط) .

★ ابن بسام - أبو الحسن علي الشنتريني (٥٤٢ هـ) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (أربعة أقسام في ثمانية أجزاء) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، طبعة دار الثقافة بيروت١٩٧٩ ، القسم الأول الجزء الثاني .

★ ابن العوام الاشبيلي - أبو زكرياء ، يحيى بن محمد بن أحمد (من القرن السادس الهجري) : الفلاحة في الأرضين ، نشر وزارة الخارجية الاسبانية ١٩٨٨ (مصورة عن طبعة مدريد ١٨٠٢) .

★ ابن البيطار ، ضياء الدين أبو محمد ، عبد الله بن أحمد المالقي (ت ٦٤٦ هـ) : الجامع لمفردات الادوية والأغذية (اربعة أجزاء في مجلدين) ، دار المدينة (د٠ت) (مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩١ هـ/١٨٧٥ م) ٠

★ ابن الخطيب ـ لسان الدين ، محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦ هـ) : الاحاطة في أخبار غرناطة (أربعة مجلدات) ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٣ ـ ٧٧، المجلد الثاني ٠

★ مجهول (من القرن الثامن الهجري) : مفتاح الراحة لأهل الفلاحة ، تحقيق الدكتور محمد عيسى صالحية والدكتور احسان صدقي العمد ، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٤ ٠

★ أبو البقاء البدري ـ عبد الله بن محمد ، المصري الدمشقي(من القرن التاسع الهجري) : نزهة الأنام في محاسن الشام ، القاهرة ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) ٠

★ الغساني الوزير ـ أبو القاسم بن محمد بن ابراهيم (ت١٠١٩ هـ) : حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الاسلامي بيروت ١٩٨٥ ٠

★ المقري ـ أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) :نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (سبعة مجلدات والثامن فهارس) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادربيروت ١٩٦٨ ، المجلد الأول ٠

ثانياً : معاجم وموسوعات :

★ الصحاح في اللغة والعلوم ، للجوهري (ت ٣٩٣ هـ) ،اعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي (مجلدان) ، دار الحضارة العربية ببيروت ١٩٧٤ ٠

★ قاموس الأطبا وناموس الألبا (جزءان) ، للطبيب مدين القوصوني المصري (ت بعد ١٠٤٤ هـ) ، من مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٩ و ٨٠ ٠

★ المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية (جزءان) ، لابراهيم بن مراد ، دار الغرب الاسلامي بيروت ١٩٨٥ ٠

★ معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية (انكليزي ـعربي) ، اعداد أحمد شفيق الخطيب ، مكتبة لبنان ببيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ ٠

★ المعجم المدرسي ، لمحمد خير أبو حرب ، وزارة التربية بدمشق ١٩٨٥ ٠

★ المعجم الوسيط (مجلدان) ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار احياء التراث العربي ببيروت (د٠ت) (طبعة مصورة عن الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٢) ٠

★ موسوعة حلب المقارنة (سبعة أجزاء ١٩٨١ ـ ٨٨) ، للأسدي م٠ خير الدين ، اعداد محمد كمال ، من منشورات جامعة حلب ، الجزء الرابع ١٩٨٤ ٠

★ الموسوعة العربية الميسرة (مجلدان) ، باشراف محمد شفيق غربال ، دار احياء التراث العربي ببيروت (د٠ت) (طبعة مصورة عن طبعة دار الشعب بالقاهرة ومؤسسة فرانكلين، ١٩٦٥) ٠

ثالثاً : مراجع ودوريات :

★ الابداع الزراعي في بدايات العالم الاسلامي ، للدكتور أندريو واطسون ، ترجمة الدكتور أحمد الأشقر ، مراجعة وتعليق الدكتور محمد نذير سنكري ، من منشورات معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨٥ ٠

★ مجلة كلية الدعوة الاسلامية (ليبيا) ، العدد السادس١٩٨٩ ٠

★ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد التاسع والخمسون ، الجزء الثالث ، تموز ١٩٨٤ ٠

علم الزراعة عند العرب
وتأثيره في أوروبا

بقلم: سيمون لافلوريل ذاكري★ ترجمة: سلمان حرفوش

ليس من اليسير على الباحث أياً كان أن يقدم وصفاً دقيقاً وشاملاً لما ساهم به علم الزراعة عند العرب في الحضارة الأوروبية، اذ لا تتوافر بين أيدينا الوثائق الكافية والبحوث المستوفاة، لا على أرض الواقع ولا في بطون الكتب، فيتيح الالمام الشامل الوافي بهذا الموضوع. وعلة هذا أن علم التاريخ انما وجه اهتمامه بادئ ذي بدء الى حضارات المدن. ويصدق هذا على الحضارة العربية الاسلامية التي ازدهرت إبان العصر الوسيط مثلما يصدق أيضاً على أوروبا.

نعم، ان مثل هذه الدراسات شائك عسير، لأنك اذا تناولت تاريخ الزراعة في أرياف العصر الوسيط فلن تقع فيه الا على مادة شحيحة الوثائق، اذ لا تتهيأ لديك في هذا المجال النصب التذكارية، ولا الرسامون، ولا الشعراء، لا ولا المحاربون. وأما التطورات في الأرياف فهي بطيئة متأنية عبر العصور، ونادراً ما تكون جذرية وثورية. فالنمط الزراعي الجديد يتوضع فوق النمط القديم الموجود منذ قرون وقرون؛ وأما محاولة توطين صنف جديد وأقلمته فتتطلب سنوات عديدة قبل أن يجتاز هذا الصنف بستان التجارب حيث يحتجز وسط احتياطات مشددة، وقبل أن يصبح عاماً وشائعاً، شأن النباتات الأخرى الشائعة والعامة في الأراضي المزروعة. وان حياة الأرياف التي تعاني كثيراً من وطأة التغيرات السياسية والتقلبات العسكرية دون أن تستمد منها فائدة تذكر، ودون أن تستفيد من حقب الازدهار الا لماماً، تظل على الدوام متواضعة، راضية بموقعها في الظل، بعيداً عن دائرة الضوء.

★ ألقت السيدة ذاكري هذه المحاضرة القيمة في نطاق الدورة الأولى للجامعة الصيفية العربية الأوروبية المعقودة في دار الحكمة – قرطاج – تونس وذلك في يوم الأربعاء /٣٠/ تموز لعام ١٩٨٦.

ثم ان علم الزراعة ـ ويسميه ابن خلدون علم الفلاحة ـ يختلف عن بقية العلوم بارتباطه الوثيق بالمنطقة الجغرافية والمناخية. ونحن في هذه الدراسة انما نصبّ اهتمامنا على بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط ،حيث التقاليد على اشدها ، وهي القادرة على حفظ استقرار التوازن البيئي الضعيف . واليكم ما كتبه Fernand Braudel حين قدم وصفاً مختصراً أوجز فيه خصائص الطبيعة المتوسطية .

« جبال شاهقة محيطة بالبحر احاطة تكاد تكون تامة ، وذرى سامقة مستفيضة شديدة الوعورة ، تكللها الثلوج وتنتصب على سيف البحر وعند سفوحها سهول حارة تزهر فيها الورود وأشجار البرتقال ، ومنحدرات قاسية حادة تنزل مباشرة في مياه البحر... ».

تلك اللوحات المتشابهة تتكرر من أقصى شواطىء البحر الأبيض المتوسط الى أقصاه فهي هي من بلد لآخر دون أي تغيير ملحوظ ؛ وها هو في اغلب الاحيان شريط ساحلي صيق، مستو، مواز للبحر، فيه تنمو أهم المزروعات. أما من الطرف الآخر المقابل ، خلف سلسلة الجبال ، فيترامى بحر داخلي اخر الا وهو الصحراء .

وعودة ثانية الى Braudel الذي يكتب قائلاً : « هما قطبان متعارضان ، البحر والصحراء ، هذا من طرف وتلك من طرف آخر . وتتضارب حتى ألوانهما حيث يتدرج البحر من الأزرق الى البنفسجي وحتى الأسود، وتبدأ الصحراء من الأبيض الى الصلصالي والبرتقالي »(١) .

ثم يتابع :

«... والبحر والصحراء كلاهما ينتهيان بحضارات العالم على الضفاف ذاتها : ففيها أعماق افريقيا البعيدة ، وفيها صخب وفوضى الحياة البدوية المتنقلة مثلما فيها جميع ثروات آسيا ... » .

وهكذا كانت المواد الغذائية ومختلف السلع والبضائع الغريبة والثمينة تتوافد الى هذا المجال الشحيح المحكوم على الأغلب بشظف الحياة وقسوتها . وكانت وسائط النقل متنوعة فمن أفواج السفن الى قوافل الجمال، الى السعي الحثيث والدؤوب للحجاج والتجار والعلماء والرجالة ذوي العزم والتصميم من كل حدب وصوب .

فاذا أردنا أن نسوق عن الزراعة العربية وما قدمته من منافع حديثاً له مصداقيته كان لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار هذين البعدين للاطار الذي تطورت ضمنه ، وكان لزاماً علينا أن نحفظ في ذاكرتنا هاتين الصورتين: فواحدة نرى فيها المدن المزدهرة المترفة ، والثانية تمثل طبيعة بينها وبين النباتات عداء مستحكم، وفيها لحياة الانسان مشقة وعناء . انه مجال يوجب على الانسان التغلب على كل ما يحيط به : تربة هشة خفيفة تجرفها المياه كلما أطلقت العنان لنزواتها الطاغية ، وسهول مستنقعية موبوءة، وأمطار يبدأ تهطالها عندما تنتهي الزراعات ، ورياح جافة تنشر اليبس ،وحرارة عالية تتسلط وتهيمن حيث ينضب الماء... فترى الفلاحين والمزارعين ــ ٨٠ الى ٩٠ ٪ من السكان ــ وهم يتشبثون ما وسعهم بتلك الأراضي العاقة ، القليلة المساحة ويشقون باستمرار كي يستمدوا من السماء والتربة ، وفي اللحظة المناسبة ، ما يقيم أودهم . ولديك من الطرف الآخر ، حيث المرافىء ، مدن تجارية باذخة مترفة ، وهي بمثابة مستودعات تكتظ فيها ثروات العالم

قاطبة ؛ وفيها فئة برجوازية نشطة ، دائبة الحركة والحيوية ، وقد ألفت حياة الأبهة فهي تبحث فيما وراء البحر وليس في داخل البلاد ، عن المنتوجات النادرة المتنوعة التي ألفتها ولا تستطيع الاستغناء عنها أو العيش من دونها . نعم ، من جانب ، كان يعيش أغلب الاهلين حياة الشظف والقلة ، قانعين بالنزر اليسير ، وجل اعتمادهم على ثلاثة مصادر زراعية متوارثة : الزيتون والكرمة والقمح ، وهم تحت تهديد المجاعة باستمرار ... ومن الجانب الآخر ، أصحاب حظوة وامتياز يجب على الأهلين الواقعين في الشظف والضيق أنفسهم أن يقدموا اليهم منتوجاتهم العادية أو المترفة ، بمقادير ومواصفات يجب زيادتها وتحسينها دون انقطاع .

أولئك الأمراء الأرستقراطيون ، تلك الطبقة البورجوازية التي عمادها الصيارفة والتجار وملاك الأراضي ، كانوا يستمدون جميعاً ثرواتهم من الأرياف ، اما بطريق الضرائب التي كانت تجبى عن الاراضي والمحاصيل ، واما بطريق الاتجار بتلك المحاصيل وتصديرها الى الخارج ، وكان من بين ما هو مطلوب من الأرياف تقديم أهم المواد الأولية المستعملة في الصناعات المحلية أو البعيدة : من خيوط ومواد ملونة في الصناعات النسيجية ، ومن عقاقير نباتية للصناعات الصيدلانية حيث كانت تجارة النباتات الطبية إبان العصر الوسيط رائجة وعميقة الفائدة ؛ أضف الى ذلك كله الجلود، والصموغ والمداد ، ومواد الغسيل والتنظيف، الخ ... وكان على الزراعة فوق كل ذلك أن ترد غوائل المجاعات وذلك بتوفير المواد البديلة لتأمين صناعة الخبز ، وان تكن تلك المواد ذات قيمة غذائية بسيطة ، لأن الخبز ، من أية مادة صنع هو أساس الغذاء ؛ وتوفير الماء ، وزيادة رقعة المساحات المزروعة : تلكم كانت أهم مشاغل وهموم المزارع في العصر الوسيط، مثلما كان من مشاغله أيضاً اكثار الأنواع الجيدة ، وتوطين الأصناف الجديدة ، مع تحسين الأساليب ، ومضاعفة مردود الأراضي ، وانتاج بواكير نادرة – خارج أحوال الطبيعية – مما يعني زيادة سعر البيع ، وبالتالي زيادة الربح . وكان من واجبه أيضاً توفير الملبس ، والعناية بصروف العيش ، وتحسين تلك الصروف مما يضفي عليها **البهجة والسرور** ... ضمن مثل هذا الاطار الرحب للمشاغل وآفاق التفكير ، قُدِّر لعلم الزراعة في العصر الوسيط أن يتطور ... وذلك العلم ومارافقه من تطور هما موضع اهتمامنا في هذه الدراسة .

تلك كانت تحديداً هموم ومشاغل ابن العوام ، وهو عالم زراعة عربي من علماء الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي ، وهي في الوقت ذاته هموم ومشاغل Costus ذلك المؤلف الغامض لكتاب حول الزراعة البيزنطية-الاغريقية في القرن الرابع الميلادي ، وغالباً ما يترافق اسمه مع اسم عالم الزراعة اللاتيني Columelle الذي ولد في Cadix في القرن الأول الميلادي ، وذلك في كتابات أغلب علماء الزراعة الشرقيين والغربيين إبان العصر الوسيط، وتلك كانت أخيراً هموم ومشاغل أول عالم زراعة فرنسي نابه الذكر ألا وهو Olivier de Serres وكان مستشاراً مع الوزير Sully الشهير للملك هنري الرابع (وكان الملك هنري ذاك طيب السمعة ، محبباً الى قلوب أبناء شعبه لأنه وعدهم بدجاجة دسمة كل يوم أحد لكل منهم ، كناية عن تحسين ورفع مستوى الشروط المعاشية) . ولقد اطمأن



الغـــان Koulbilaï وهو يامر بزراعة بعض الأشجار في الصين الجنوبية ماخوذة من كتاب « العجائب » ، من القرن الخامس عشر • (مخطـوط فرنسي ، باريس ، 2810, F, 47 V°)

الفرنسي آنذاك الى أنه سوف يتناول وجبـةلحم دسمة كل اسبوع وفي ذلك إغنـاء لقوته اليومي الهزيل على وجه العموم ، ولكنه كان يجهل آن استيراد الحرير الشرقي يلحق الافلاس بخزينة الدولة(٢) ، رغم المراسيم التي حاولت لجم الميل الى الترف الفاحش في صفوف رجال البلاط والحاشية، ورجال الكنيسة، والتجار؛ ورغم آن جهود Olivier de Serres لم توجه الى تحسين تربيـة الدجـاج وانمـا انصبت بالدرجة الأولى على تربية دودة القز ، مـع تجريب انجاح تفقيسها باتباع الطرق التي أرشد اليها علماء العرب الأندلسيون ، وعلى رأسهم عالم النبات العربي الشهير ، المولود في مالقة إبان القرن الثالث عشر ، آلا وهو ابن بيطار(٣) • وعندما حاول de Serres اجراء التجارب في حقوله الخاصة في پرادل من مقاطعة البروڤنس (آيضـاً في اطـار البحـر الأبيض المتـوسط) كان ذلك آول حقـل تجريبي في فرنسة قادر على الوقوف على قدم المساواة أمام البساتين التجريبية الشرقية والأندلسية والتي هي وريثـة حدائـق بابـل التجريبية (القرن السابع قبل الميلاد) • ولقد حضر الى نيم أو مونبلييه للحصول على البذور والأغراس من السوق العامة عند أسوار « المعهد الطبي » الذائع الصيت ، والذي كان يزدحم فيه كبار الأطبـاء ، والصيادلة ، وعلمـاء النبـات ، ومستحضرو العقاقير، والعلماء في كل اختصاص ومن كل حـدب وصوب ، خاصة مـن أرجاء العالم الاسلامي ، تماماً • مثلما كانت الحال في القرن السادس الميلادي في مدينة جنديشابور في ايران العجـم(٤) •••

ولا بأس بهـذا الصدد من الاشارة دون الدخول في التفاصيل الى أن مدينة جنديشابور هي التي أجريت فيها أولى التجارب لاستخدام السكر المستحضر مـن زراعة قصب السكر في خوزستان ، وادخاله في صنـاعـة العقاقـير والأشربة الطبية ؛ وأن السكر سرعان ما حل محل العسل لمثل هذه الغاية في المشرق العربي كافـة ، وفي عموم أرجاء العالم الاسلامي ، إبان القرن العاشر الميلادي · ولكن السجلات الصادرة في منطقـة جنـوبي فرنسا في القرن الرابع عشر الميلادي تنوه أن العسل لم يستبدل به استبدالاً تاماً ودائماً تلك المادة الجديدة ــ السكر ــ عند صناعة الأدوية ·

تلك الطرائف والحكايات المتناثرة تعود بنا الى صميم موضوعنا ، والى المنهج الذي ارتضيناه سبيلاً لمعالجـة ذلك الموضوع ، اذتراءى لنا آن من المفيد كل الفائدة في المرحلة الأولى مـن البحث أن نستعرض استعراضاً سريعاً علم الزراعة العربي وخصائصه المميزة، ثم نلـج بعـد ذلك الى تفصيل مساهماته في الحضارة الأوروبية ، ما كان منها مباشراً أو ما كان طويل الأمد ، وذلك في مجال الزراعة تحديداً ، بما أغنى ورفع من مستوى التقنيات الزراعية ، وبما ترك مـن بصمات واضحـة المعالم عدلت مـن أنماط المعيشة ، وغـيرت أساليب الحيـاة ·

□ علم الزراعـة العربي ، مصادره وخصائصـه :

تعالوا باديء الأمر نبحث عـن الوثائق المتوافرة بين أيدينا، والتي يمكنها أن تساعدنا على الحديث عن مثل هذا العلم عند العرب ،وانها لغنية متنوعة · لقد أجرينا بحثاً منظماً حول الكتب المؤلفة في هذا المجال بغية وضع فهرس خاص ب : « تاريخ علم الزراعـة في العالم العربي الاسلامي » ؛ وخلصنا بنتيجـة هـذا البحث الى جمـع شتات ما يقرب مـن خمسمائة كتاب ودراسة، من مختلف الانواع،وقد كتبت في مجموعها إبان القرنـين التاسع عشر والعشرين على وجه الخصوص · هـذه الأعمال ، التي تقادم العهد بالنسبة لمعظمها ، منقوصة الفائـدة ، بل وتفتقر أحيـاناً الى الدقـة ، مثلما أنهـا لا تقدم أبـداً منظوراً متكاملاً منسجماً ضمن بحث شمولي ؛ ثم انها تعالج مواضيع شتى بصدد المحاصيل الزراعية، الغذائية والصناعية على أنواعها، والمقاطعات المزروعة فيها · نجد على سبيل المثال دراسة قيمة عن انتشار الأرز وهي بقلم Marius Canard ، وكتـاباً آخر حـول انتشار أصناف النبات مـن الشرق الـى الغرب ، بقلم عالم الزراعة الكندي Andrew Watson ، كما نعثر على الكتب التي تعالج الأمور التقنية المتعلقة باستثمار الأراضي ، وخصوصـاً في الأزمنـة القديمة ، ومشاكل الحقوق العقارية ، والتغير في أنماط التغـذية ··· وهذه الدراسات في مجموعها تستمد مادتها الوثائقية مـن عـدة مصادر : المؤلفات الحقوقية ؛ وقصص الرحالة وما يقدمونه مـن وصف لمقاطعـات زاروها فأرادوا تقريظهـا ، والمؤلفـات الطبيـة ، والصيدلية، والنباتية ، والمفكرات الزراعية، والمؤلفات حول وسائل الري الآلية التقنية ، وفي النهاية ، تلك القصص العاطفية الشاعرية التي غالبـاً ما تفسح المجال لوصف البساتين والحدائق أو المنتوجات التي تزين القصور ،وتحلي الموائد العامرة ·

لكن الواجب يدعونا ، بعد تجميع هذه المعارف بأكملها ، الى مقابلتها - بغية التمحيص - بما هو متوافر لدينا في الكتب الدقيقة المتداولة حول التقنيات والطرائق ، وهي تؤلف جملة ما لدينا من معارف نظرية وعملية في مجال علم الزراعة ؛ تلك الكتب هي مؤلفات علم الزراعة التي وضعها العرب أنفسهم • ومن المناسب أن نشير بهذا الصدد الى أن مصادر المعلومات تلك توافق تماماً البحوث المخصصة للعصر الوسيط الأوروبي ، وأننا عن طريق المقارنة المنهجية لهذه المعلومات الغزيرة سوف نتمكن ، مستقبلاً ، من وضع جداول مرضية لما كان عليه واقع الحال على شاطىء البحر الأبيض المتوسط •

نعود اذن الى دراسات علم الزراعة عند الغرب • ونرى لزاماً علينا الاشارة الى أنها في جملتها تأخذ شكل « مجموعات » شاملة تحيط بمجمل المعرفة الزراعية المتوافرة ، بدءاً من قدماء المؤلفين القرطاجيين والاغريق واللاتين فيما قبل الدعوة الاسلامية ، ثم المؤلفين النبطيين ومؤلفي بلاد الرافدين فيما يتعلق بالماضي القريب وتشتمل خاصة على ثلاثة مصادر رئيسية يرد الحديث عنها وتوضع موضع البحث الدقيق المنهجي باستمرار - لدى علماء الزراعة الأندلسيين على وجه الخصوص - وتلك المصادر هي :

كتاب الفلاحة النبطية ، وهو مجموعة من نصوص رافدية تعود الى القرن الرابع وحتى السادس في التاريخ العراقي ، قام ابن وحشية بترجمتها في القرن التاسع ؛ **وكتاب الفلاحة الرومية** ، من تأليف Qustus ويرد ذكره أكثر من /٢٤٠/ مرة في أشهر كتاب أندلسي من كتب القرن الثاني عشر الا وهو : **كتاب الفلاحة لابن العوام** من مدينة اشبيلية، وعند ابن بيطار المولود في مالقة والذي وضع في القرن الرابع عشر كتابه : **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية** ، وفيه أكمل وأوفى شرح لمقادير المفردات والعناصر الداخلة في تصنيع الأدوية • ولدينا في نهاية المطاف المصدر الثالث المعروف باسم : **(علوم الفلاحة)** وهو عبارة عن ملخصات مأخوذة عن النصوص الاغريقية الزراعية، وكان قد أوصى بكتابتها الامبراطور البيزنطي سليل الملوك قسطنطين السابع • ونعلم بأن الكتاب أرسل هدية بالاضافة الى عدة مؤلفات علمية أخرى ،وكان حامل الهدية ومترجمها الراهب نقولا ، وذلك من القسطنطينية الى البلاط الأموي في اسبانيا ، في القرن العاشر الميلادي• وترجمت هذه المؤلفات فيما بعد أكثر من مرة الى اللغة العربية ، ثم الى اللغة اللاتينية • ومن بعد ذلك ، ونظراً لأنها من الأدبيات الزراعية العربية الأندلسية ، فقد ترجمت الى اللغات: الاسبانية، والايطالية، والالمانية، والفرنسية، والانكليزية ، وذلك بدءاً من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر •

هذه المعرفة القديمة المزدهرة الغنية جرى تمحيصها على الدوام في الكتابات العربية بمواجهتها مع ما يقوله عنها الكتاب المعاصرون في العصر الوسيط ، ومع ما يلاحظه علماء الزراعة في الممارسات التطبيقية المحلية ،وأثناء الرحلات التي كانوا يقومون بها •

يمكننا أن نفهم على هذه الصورة كيف أمكن لتلك المعرفة ، ومنذ ذلك العهد ، أن تنتقل بوفرة وغزارة عبر العصور وعلى مدى رقعة جغرافية مترامية الأطراف : اذ ينقل كل عالم ما يراه في مجال الزراعات المختلفة من عالمه الأضيق الى أبعد ما وصلت اليه

حدود المملكة المترامية • كان الاسلام عاملاً مساعداً في انتقال المحاصيل ، والأفكار ، والبشر ، بكل يسر وسهولة في **مجال منفتح بلا حدود**، وبالتالي ، فان الانتماء الى قطاع جغرافي ومناخي ذي مميزات مشتركة كان منشأنه دعم وتقوية ظاهرة التبادل تلك ، وما ينجم عنها من تأثيرات متبادلة ، سوف نعرض فيما يلي الى مناقشتها •

كان الانتماء هو هو للقطاع الجغرافي والمناخي ذاته ، وفي جميع الأماكن ؛ وكان علماء الزراعة على اختلاف عصورهم يشعرون بأهمية ذلك الانتماء • والبرهان على ذلك نجده لدى عالم الزراعة الاشبيلي ابن العوام، الذي شرح منهجه في تجميع مواده مبيناً أنه جمع في تضاعيفه ثلاث خطوات : المعرفة القديمة ، والملاحظة التجريبية ، والبحث، هو ما نجده في فترة لاحقة عند عالم الزراعة الفرنسي O. de Serres . وقد اعترف هذا الأخير بتوفره على دراسة علماء الزراعة في جميع البلدان ، وخاصة القدماء منهم ؛ على أننا نجهل بالمقابل من أين استمد معرفته ـ الأكيدة قطعاً ـ لعلم الزراعة عند العرب • يقول من جانبه بأنه قرأ دراسات عديدة في أكثر من لغة • ونعلم بأن الدراسات الزراعية في عصره كانت متوفرة بسبع لغات تضم فيما تضم اللاتينية والأندلسية والاسكندينافية • وكانت الكتب تنتقل بغزارة ووفرة ، وهذا ما يشير اليه المؤرخ المشهور في القرن الرابع عشر ابن خلدون قائلاً : « وكُتُب المتأخرين في الفلاحة كثيرة »(٥) •

ونعلم علاوة على ذلك أن التراث الأندلسي العظيم لم يترجم ترجمة مباشرة الى اللاتينية؛ وقد كتب العالم الزراعي الاسباني Alphones de Herrera في بداية القرن السادس عشر(٦)، وبناء على طلب من الكردينال Ximenés، دراسة كاملة عن علم الزراعة باللغة الدارجة ، والسبب في رأيه : « أن الاسبان أضاعوا ذكرى مؤلفات المغاربة العميمة الفائدة ••• » •

يبدو ، رغم ذلك ، أن أولئك الزراعيين كانوا مطلعين على مؤلفات باللغة القشتالية ، وهي لمؤلفين دخل التحريف على أسمائهم فبات من الصعب تحديدهم حصراً ، علماً بأنها ترجمات عن اللغة العربية(٧) •

وتعالوا بنا الآن نلقي نظرة على محتوى « تلك المؤلفات العميمة الفائدة ••• » :

كانت تلك المخطوطات الزراعية الشرقية والغربية تعالج كل ما يمت بصلة الى الزراعة وتربية الحيوان • وقد التزمت مخططاً كلاسيكي التسلسل يتحدث عن **المناخات والرياح** ، ومختلف أنواع التربة ، **والسماد** المصنّع والمستخدم لتحسين مردود الأراضي والأصناف المزروعة ، **والمياه** ، من حيث تحديد مواضعها وتوزعها ، **وأنظمة السقاية ، والفلاحة ، والغرس** في الأراضي المروية والبعلية ، **والعناية بالحدائق والبساتين** ، والتطعيم ، وأمراض النبات ، **والبذار والحصاد** ، وحفظ وتحويل المنتجات ، ومواضيع مختلفة ••• وكان علماء الزراعة يتخصصون كل في مجال مستقل ، فالبيزنطي Qustus خبير في الكرمة ومتخصص في التطعيم • وابن بصّال من طليطلة متخصص بجمع الأنواع البرية وتوطينها ، أما أبو الخير الاشبيلي ، من اشبيلية ، فكان مهتماً باجراء التجارب على الأشجار المثمرة وخاصة الزيتون والتين••• وجاء ابن العوام بعد قرن من الزمان فجمع

تلك التجارب بأكملها، واهتم بتنويع وتحسين ما يقرب من /٢٠٠/ صنفاً من أصناف النباتات المزروعة وأحصى ثمانياً من طرائق التطعيم، وحدد أكثر من /٣٠/ نوعاً من أنواع التربة، وأجرى تجارب في تنويع ألوان الزهور، وزاد من قوة عطورها، وغيَّر من ألوان الورود، وسعى للحصول على أنواع نادرة، تماماً مثلما يفعل علماء البستنة في أيامنا هذه.

تلك الدراسة، بما فيها من ترتيب ومن تماسك، تقترب كثيراً من دراساتنا الحديثة في علم الزراعة. ففيها التسلسل ذاته الذي نجده في كتاب مدرسي لا على التعيين، من كتب القرن العشرين، مما هو متوفر بين أيدي الطلبة، وهي بالتأكيد أحدث بكثير من كتاب Olivier de Serres المنشور في عام ١٦٠٠، والذي عنوانه: « مسرح علم الزراعة أو معالجة الحقول ».

نعم، كانت الدراسات العربية حديثة بمناهجها وبطريقة العرض فيها، مثلما هي حديثة بطريقة تناول ومعالجة ذلك العلم الزراعي. فكان هاجس العلماء « زيادة غلة » المساحة الصالحة للزراعة، وكانوا يدرسون طبيعة الترب ويحللونها كي يسندوا اليها المهام المناسبة. اذ لا توجد أرض غير صالحة، وليس هناك، فيما كانوا يرون، غير أراض تستخدم استخداماً سيئاً ولم تتوافر بعد المعلومات الكافية لاستثمارها على الوجه الأفضل: فالأرض المالحة تصلح للنخيل والفول والسلق، وهي زراعات تخلصها من الملوحة، أو تحضرها وتستصلحها من أجل زراعات أخرى. وللحكم على نوعية مثل هذه الأراضي، كانت تجرى اختبارات ما يزال بعضها صالحاً حتى يومنا هذا: تفحّص اللون، والرائحة، والقوام، والوزن، والنبات النامي فيها، وكائناتها العضوية، وقدرتها على حفظ الماء، الخ...

وسعياً منهم لعدم انهاك الأرض بزراعة كثيرة الاحتياجات، كانوا يقترحون تنويع الزراعات المختلفة على التناوب. وفيما يتعلق بزراعة الخضار كانوا يرون انتقاء موضع كل صنف تبعاً لاحتياطي الماء المتجمع فيما تحت التربة، أو لسير القنوات الناقلة للماء. وأصبح الاعتناء بالأرض قائماً على الماء وعلى امكانيات السقاية. لا شك أن الزراعة في المناطق الجافة استمرت، وهي الزراعة التقليدية التي تأخذ بعين الاعتبار نظام الأمطار، أو توفر الاحتياطي الطبيعي الذي يتم اكتشافه بصورة منظمة ودقيقة، ولكن الى جانب ذلك تطورت وتشعبت زراعة المناطق الرطبة أو المروية، وأصبح هذا الهاجس في مركز الصدارة، عندما ادخلت عقب الفتح الاسلامي تشكيلة متنوعة من الزراعات الجديدة المتعطشة للماء.

وقام عالم الزراعة في العصر الوسيط، بعد معرفة التربة، وبعد الاستخدام العقلاني للماء، بادخال تطورات ملموسة على العلم الذي يدرس العناية بالأراضي، وأنواع الأسمدة المناسبة لكل تربة بما يصلحها ويستدرك ما فيها من نقص، ولكل صنف بما يحقق له المردود الأمثل. وكان الحصول على السماد لكل نبات يتم من ذلك النبات بالذات أو من نباتات أخرى مماثلة أو مكملة، مما يساعد على النمو.



■ سوق قديم في مدينة القلعة Alcala في اسبانية ■

ويستخلص من قراءة تلك النصوص أنعالم الزراعة كان يسعى أيضاً الى تحديد العلاقة المثلى للطبيعة مع عناصرها ، وللانسان مع الطبيعة · فلم يقتصر دوره على مجرد مناقشة أفضل الطرائق لاستنبات التربة ما يناسب غذاء الانسان، وصحته، واحتياجاته الصناعية والتجارية ، وانما وجه اهتمامه أيضاً الى زيادة انسجام وتناغم تلك العلاقة الى الحد الأقصى ، وصولاً الى تحسين اطار حياته ، وتطوير وتنمية حساسيته ، والارتقاء بروحه بتوفير أسمى المشاعر والأحاسيس لنفسه · اننا نجد في المؤلفات القديمة ، لدى Columelle مثلاً أو لدى Caton أن الحديقة انما وجدت لغاية نفعية ·

واحتج Columelle على العادة المتبعة باقامة التماثيل فيها ، وأقصى ما كان يسمح به ، حسب رأيه ، تمثال صغير لتخويف الصبية الأشقياء واللصوص(٨) ·

ولكننا ، بالمقابل ، نكتشف في علم الزراعة عند العرب أنهم وجهوا عناية كبرى الى الحدائق لأنها بمثابة اطار للعلاقات الاجتماعية : فهي مقر الاستقبالات ، مثلما هي مطارح العشق والغرام · وكل شأن في « أرض الاسلام » كان مصيره أن يبدأ وينتهي في حديقة · ولذلك وقف الزراعيون مطولاً بغية تنظيمها على الوجه الأكمل مع مراعاة أدق التفاصيل · فاختير موضعها بعناية ،وزينت بأنواع تجريبية غالية الثمن ، واهتموا فيها بايجاد منظر غير مألوف فكأنها المسرح المشخص ، وجرى ذلك بترتيب رائع متدرج ، تتعاقب فيه الأشجار الدائمة الخضرة مع الأشجار المتساقطة الأوراق ، مما هيأ توفر الاخضرار على مدار السنة · وكانوا يريدون تحريك مكامن الاعجاب والروعة ، أو خلق عنصر المفاجأة ، وذلك بايجاد نباتات ذات ألوان غير معروفة ، وبتقوية أثر العطور ، واعطاء الثمار أو النباتات أشكالاً غريبة كل الغرابة أثناء النمو ، مستمدين من عبقريتهم الفذة الوسائل اللازمة(٩) ·

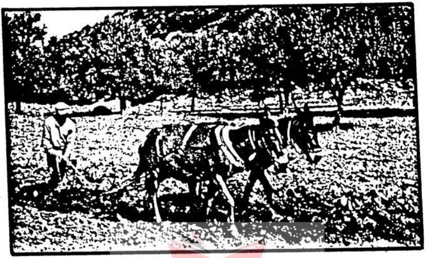
اننا لدى قراءة تلك البحوث المغرقة في الاعتناء بأدق التفاصيل ، لا نستطيع الا أن نتذكر اهتمام أوروبا الكبير بعد مضي أربعةقرون ، بالحدائق ، وتلك الأبصال الخيالية القادمة من تركية ، والتي أجرى عليها خيرة علماء البستنة الهولنديين تجاربهم العديدة حتى أوجدوا الخزامي ذات اللونالأزرقالغامق، والأسود ، والتي بيعت في المزادات بأسعار خيالية ٠

وهكذا قدم عالم الزراعة العربي الىأوروبا فيما قدمه ، النزوع الى المتعة المرهفة، واللذة الرفيعة ، ودغدغة الحواس : النظر ، والشم ، واللمس ، والذوق ٠ وتضافر على ارضاء ذلك النزوع كل من الفلاح ، والبستاني ، وعالم الحدائق ، وحائك الخيوط الثمينة القادمة من الشرق ٠ وانها لتسليةحقيقية أن نقرأ روايات الفروسية عندنا وهي الروايات العائدة الى العصر الوسيط ، وأن نتصفح كتب التاريخ حول ذلك العصر، حيث نرى مدى انبهار العقول الأوروبيةبسحر الشرق ، وبالأبهة الشرقية : أي بنعومة الحياة ، اختصاراً وتحديداً ٠ ومن حقنا أنتساءل عن نتائج ذلك الانبهار على بلاطات أوروبا في العصر الوسيط ، ومدى تأثيرهعلى تفكير : Fréderic de Mohenstanfen على سبيل المثال ، ثم على حاشية كل بلاط ،وبشكل أعم وأشمل على مجمل أنماط الحياة في المجتمع بأكمله ٠

وننهي هذه الفقرة باستعراض فكرتين أو ثلاث أفكار ، قريبة الى أفكارنا الحديثة قرباً يدعو الى الدهشة ، وهي من نتاج علمالزراعة العربي ٠ وهنالك على سبيل المثال التعريف بعلاقات التقارب والتنافر فيما بينالنباتات أو بين النباتات والانسان ٠ من ذلك أن هذه الشجرة تميل للضمور والذبول اذا زرعنا الملفوف بالقرب منها ، وأن تلك اخرى تميل الى جذع شجرة قريبةمعانقة اياها ، لشدة الميل الذي يشد كلاً منهما نحو زميلتها ٠ وكان عالم الزراعةالعربي يعلم أيضاً أن بعض النباتات جنسية التكوين ، كشجرة التين مثلاً ، وأنه بالتالييستطيع التأثير في اخصابها ٠ بل وكان على المزارع أن يشعر بعلاقة شخصية تربطهبأرضه وما فيها من نباتات ، ويفترض فيه على ذلك أن يدخل الى حقله وقد تطهر عقلهوجسده من كل درن فيجب عليه التحدث مع نباتاته، وتشجيعها ، وحتى تهديدها كي يهبها قوة اضافية لمزيد من الانتاج ٠ ولا بد لنا من الاشارة الى أن تلك الأفكار مستمدة من نصوص ما بين النهرين المتأثرة بالمعتقدات الفارسية السابقة للاسلام ٠ مثلما كانتبعض الأفكار ثمرة معرفة تجريبية دقيقة لوقائع أثبتها البرهان العلمي حديثاً ، مثلظاهرة التقارب والتنافر بين النباتات ، على وجه الخصوص :

لقد اخترنا أن نستعرض هذه الجوانبمن التراث الزراعيالعربي العائد الىالقرون الوسطى لأننا بذلك سوف نتمكن الآن منتناول طبيعة مساهمة وتأثير ذلك التراث في الحضارات الغربية تناولاً أدق وأوضح ٠

ومن المفارقات المثيرة للدهشة والاستغراب أن المؤلفين لا يشككون اطلاقاً بمقدار ونوعية تلك المساهمات ولكنهم لا يخصونهاالا بفصل واحد غالباً ما يكون قوامه الاختصار



■ الفلاحة في اليونـان القديمـة ■

والتكرير في مؤلفاتهم عـن تأثير الحضـارةالعربية الاسلامية في أوروبا ، بينمـا تراهم يشككون ، وغالباً في الكتاب ذاته ، بامكانيةاهتمام العرب بالزراعة ، وبجدية وحقيقـة ذلك العلم الزراعي لديهم !...

واليكم مثـلاً W. Montgomery Watt في مجموعة محاضرات له عن تأثير الاسلام في أوربا إبَّان العصر الوسيط ، اذ يمهد لفصلقصير حول : « الاستثمار الزراعي واستثمار المناجـم » بالعبـارة التـاليـة :

« لم يكن للعرب مشاركة تذكر على وجهالعموم في التقدم الزراعي ٠٠٠ ومع ذلك ، كـان هنالك زراعـة مزدهرة نسبياً في أغلبالبلدان الاسلامية التي كانت الزراعة ممكنة فيهـا ٠ وهذا ما يفسر لنا كيف تمكن العربمنالارتقاء ارتقاءً ملحوظاً بمستوىالاستثمار الزراعي في بلد مثل اسبانيا » !..

وأما المؤكد فهو أن العرب قـد ساهموامساهمة فعلية في تطوير علم الزراعـة ، ولم يقتصر دورهم على مجرد التحريض ٠ اننا ،بادىء ذي بدء ، حيال مجتمع قائم في جوهره علىالزراعة، في حوض البحر الأبيض المتوسطكافة ٠ ولو أردنا تناول طبيعة الأرض في آية منطقـة لا على التعيين ـ فلسطـين مثـلاً ـفسوف نرى ، وفي جميع الحقب ، أن المساحة الزراعيـة بأكملها كانت حافلـة بالحيـاة ،تستـوي في ذلـك البساتـين ، والسـهول ، والهضـاب الموزعـة في مصاطب ، والمساحات نصف الصحراوية حيث تنتشر أنشطة تربية الحيوان ، والقطاف ، والمحاصيل الموسمية ،ونقل وتبادل المنتجات المحلية ٠٠٠

ويتحدث ابن جبير(١٠) عن رحلته الى صقلية حيث يذكر أكثر من مرة أن المسلمين الذين استقر بهم المقام في ايطاليا ، حتى بعد الفتح الاسلامي ، ما زالوا في معظمهم من المشتغلين بالأرض ، وقد اطمانوا الى العيش في مزارعهم ، فوق أراض ما فتئوا يزرعونها ويدفعون ضريبة عنها الى المسيحيين . وعندما أقدم Fréderic de Mohenstanfen على اعادة توطين أولئك المسلمين لدى تمردهم على سلطته في جنوب الجزيرة الايطالية ، في منطقة les Pouilles ، كان أول ما وجهوا اليه اهتمامهم تمهيد الأرض ، ومتابعة زراعة الأصناف التالية : القطن ، الأرز ، الحبوب ، الأشجار المثمرة ، الخ ... وهي الزراعات التي أدخلها العرب الى الغرب ، والتي سوف نتحدث عنها حديثاً مفصلاً .

لقد تعرضت زراعة حوض البحر الأبيض المتوسط لانقلاب جذري ، وتمايز علم الزراعة تدريجياً عن بحوث الطب والنبات، ليصبح في اسبانيا(١١) علماً يتمتع باستقلال كامل . ويعود الفضل الأكبر في ذلك الى اهتمام الامراء الشرقيين الذين ألّفوا ، هم أنفسهم ، دراسات في الزراعة ، كما كانوا يستحصلون على مثل تلك الدراسات لمكتباتهم ، ويبذلون ما وسعهم من جهد للاستفادة من خدمات ومعارف أشهر الزراعيين آنذاك . ولكن من الواضح مع ذلك أن تطور الانتاج الزراعي ، وتقدم التقنيات ، كان مردهما كما سبق أن أشرنا توحيد المناطق الشاسعة التي أصبحت تخضع لقانون واحد ، وتتكلم لغة واحدة ؛ وداخل تلك الرقعة الجغرافية المترامية كان هناك تبادلات كثيفة : اقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ؛ وزاد من فعالية التطور امتداد تلك الرقعة شرقاً حتى الصين ، وغرباً باتجاه العالم الأوروبي المشبع بتراثه الاغريقي أو اللاتيني .

على أن القسم الشمالي من أوروبا الغربية ، في العصر الوسيط وما بعد الوسيط ، لم يتيسر له مع ذلك الانفتاح على تلك التأثيرات الثورية نتيجة لوضعه الخاص القائم على التخلف الزراعي ، وغياب الدول المركزية ، وفقدان الأمن في الأرياف والقرى بسبب التنافس الاقطاعي ، والاجتياحات العسكرية المختلفة ، وهيمنة قطاع الطرق ومحصلي الأتاوات من كل نوع وصنف . ويصدق ذلك أيضاً على بعض المناطق التي كانت على تماس كبير ومباشر مع البلدان الاسلامية ، كجنوب فرنسا ، وكانت تعرف آنذاك باسم بلاد الاوكستيان ، حيث نشبت حرب أهلية داخلية هي نوع من الحملة الصليبية على شيعة الألبيجيين ، مما سبب الخراب والدمار في تلك الرقعة من فرنسا . فكان لا بد من انقضاء أربعة قرون قبل أن تتمكن أوروبا الشمالية من الاعتماد على منتجات ، وتقنيات جديدة ، ومن تقبّل الانفتاح في الحياة ، وهو ما كانت أوروبا المتأثرة تأثراً مباشراً بالاسلام قد اعتمدته أصلاً قبل قرنين من الزمان ، في أدنى تقدير .

لقد انتشرت بعض الأصناف انتشاراً فعلياً ، مثل الذرة ، والقمح القاسي ، والأرز باتجاه الغرب ، ودخلت تدريجياً في صلب الاستهلاك اليومي للشعب ، وأصبحت في نهاية الأمر رائجة رواج حبة البطاطا . ثم جاء قصب السكر ترافقه صناعة واستهلاك السكاكر والمعجنات لدى الفئات الغنية الموسرة ؛ فراجت جميع أنواع السكريات ، محشوة وغير محشوة ، كما راج الفستق واللوز من جميع الأصناف ، والعديد من الأشربة والسوائل مما جاء به

الصليبيون دون أدنى شك • ونرى على سبيل المثال أن مشتريات المطبخ البابوي أيام يوحنا الثاني عشر ، في القرن الرابع عشر الميلادي ،في البروفنس ، سجلت ارتفاعاً ملحوظاً في طلبات السكر : سكر بابل ، وسكر — Caphetin — ، والسكريات الوردية ، الخ••• على اي حال ، كانت افضل انواع السكر هي المستوردة من مدينتي Madère و Palerme . واما العسل فكان للفقراء ، كما استمر استعماله في صناعة بعض الادوية •

وبالرجوع الى المخطوطات الزراعية اليونانية واللاتينية نلاحظ ظهور عدد من الخضار المزروعة : الخس ، الملفوف ، الثوم ، البصل، الحرشف ، الكراث ••• وأما النصوص البابلية القديمة فتتحدث عما يقرب من ٤٠٠/ صنف من أصناف النبات ، بينها عدد من الخضار هي على وجه التقريب مما يمكننا تعداده بالرجوع الى الترجمة العربية في القرن التاسع الميلادي للزراعة النبطية : على انها بالتاكيد قد اصبحت اغنى بما اضيف اليها من اغراس جديدة تم استيرادها وتوطينها ،وذلك امر كان معروفاً ورائجاً منذ أقدم العهود(١١) • ونذكر على سبيل المثال لا الحصر : الباذنجان ، وكان معروفاً باسم : « الفارسي » ، ومنه ستة أصناف مزروعة آنذاك ، والملفوف والقرنبيط وهما منذ القدم ، وعلى امتداد مساحات كبيرة ، بمثابة ملوك الخضار، اما السبانخ فكان أهالي نينوى يلجؤون اليه دائماً لمقاومة اوجاع الحنجرة والتهاب القصبات ؛ والسلق المستورد من اليمن ، والهندباء وكانت تعرف باسم : « بقل الجن » ، وهو نبات صحراوي تأقلم مع زراعة البستنة ؛ والسعتر البري المستورد من مصر ،وهو من انواع الكراث ، وكذلك البصل الذي كان يباع في بلاد بابل وقد تظم في سبحات ،والثوم وقد دأبت بابل باستمرار على زراعته ثم استقدمه المصريون من هناك: وفيما يتعلق بالبصل وبالكراث الاندلسي — وقد اشتق اسمه لدينا من اسم مدينة عسقلان — فكانت شهرة الأصناف السورية والمصرية منهما كبيرة، وهو ما اشار اليه Pline l'Ancien (١٣) •

قام عالم الزراعة الأندلسي ابن العوام فيما بعد بمقارنة هذه النصوص مع ما لديه من معارف عن زراعة ما يقرب من ٦٠٠/ نبتة، من بينها نباتات خضرية جديدة : الخيار، البطيخ ، الحنظل ، اليقطين ، الباذنجان ،بالاضافة الى نباتات أخرى مثل الأرز، وقصب السكر ، وكان يلزمهما الكثير من الماء مما تطلب ايجاد أنواع جديدة من السقاية، وتغيير المواسم التقليدية في الزراعة •

وهكذا ازداد البستان الأوروبي غنى بما وفد اليه من أشجار المشمش ، والخوخ والكرز المستورد من ضفاف الأردن، وبالزراعات النبطية المختلفة كالعنّاب الوافد من العراق، والخروب من المشرق ، والموز من شبه الجزيرة العربية ، والرمان الذي يذكر ابن العوام منه عشرة أصناف متنوعة ، من بينها الصنف المسمى : الرمان الوبري ، وقد أرسل الى عبدالرحمن الداخل في اسبانيا « من بين هدايا عدة أرسلت اليه من بغداد والمدينة » ولذلك أطلق على هذا الصنف من الرمان اسم :« سافاريا » أي : « المسافر » ؛ وجوز الهند ، القادم من الهند ، والقليل التأقلم في منطقة البحر الأبيض المتوسط لأسباب مناخية ، فلم تنجح زراعته خارج البساتين التجريبية ؛وشجرة اللوز ؛ وشجرة التوت التي قدر لها

أن ترتبط زراعتها لاحقاً بصناعة الحرير ؛ونخيل البلح الذي خصّه « كتاب الفلاحة النبطية » بفصل كامل ، وقيل انه قادم من بلاد الفرس ، من جزيرة Harak في الخليج العربي؛ ثم شجرة البرتقال طبعاً ، والحامض،والكبّاد ، واليوسفي ، وكان من شأن الحمضيات أن تسود لفترة طويلة في أوربا باعتبارها من منتجات الترف والبذخ ، فهي كالتوابل والافاويه كانت تقدم أثناء الأعياد كهدايا الى البلاطات الملكية ، والاميرية ، والبابوية ٠ وبين أيدينا وثيقة هي عبارة عن طلب لـ « ١٠٠ » برتقالة سوف توضع في مأدبة احتفالية في بلاط أثينون ؛ وأما أشجار البرتقال والليمون الحامض ، الخ ٠٠٠ فكانت بمثابة حلية توشى بها الحدائق الملكية في قصور فرساي ، على سبيل المثال ٠

وفي تلك الحدائق أيضاً ، كانت تزهو وتتالق النباتات القادمة من الشرق بألوانها الحارة ، وروائحها العابقة ، وهي بسبب خواصها تلك تحديداً ، كانت تزرع من أجل صناعة العطور ومن أجل التزيين على حد سواء (والاشارات الى طرق التقطير عديدة جداً في جميع المؤلفات التي تتناول موضوع الزراعة والنبات بالبحث) ٠ فهناك العصفر وكان يستخرج منه زيت عطري ، ومصدر النبتة من بلاد الرافدين (لكن أصحاب البساتين في بلاد الرافدين كانوا يستوردون تلك النباتات بدورهم من فلسطين ، والبونت ، والهند ، ومن الصين عن طريق أفغانستان وايران) أما ابن العوام فقد عمل من جانبه على تنويع ألوان العصفر ، وكانت تلك الالوان قد أجريت تجاربها في سورية ، قرب دمشق ـ في الغوطة ـ ٠٠٠ وهناك أيضاً الوردة ذات الأصول الصينية البعيدة ، والتي عرفت باسم الوردة الشامية أو الدمشقية ، وسميت فيما بعد بوردة بلدة Proviny ، ومعها أصناف عديدة غزت أسماؤها الادب العذري للعصر الوسيط ، حيث أصبح من واجب كل فارس أن يقدم تلك الوردة الى محبوبته؛ وابن العوام ذاته بيّن كيف يمكن تغيير لونها بادخالها تحت لحاء الزعفران أو أية مادة نباتية أخرى ذات تأثير ملون ؛ وكان هناك أيضاً الياسمين ، والزنبق الذي تحول ، وهو الوافد من سورية ، ليصبح شعار ملوك فرنسة ، والنيلوفر القادم من الشرق الأقصى ، والسوسن ، ثم النباتات البصلية : كالزعفران ، والنرجس ، والاقحوان الذي سبق وزرعه الأنباط ، الخ ٠٠٠

ولا ننس بهذا الصدد العديد من النباتات العطرية والطبية التي صنّفت في مؤلفات ضخمة على أيدي العلماء العرب ، وبقي لنا من تلك المؤلفات كتاب ابن بيطار : كتاب المفردات ٠

ونعلم أن الأسواق في مدينة Murcie كانت في القرن الخامس عشر حافلة مثلما هي عليه اليوم ٠ ففي ذلك السهل المروي الذي بات يسقى من مياه Ségura بشبكة قنوات أنشأها العرب ، نمت وازدهرت بغزارة ووفرة وفي ظل مناخ شبه صحراوي ، خضار متنوعة : من خس ، وكرّاث ، وحرشف ، وحمص ، وفول ، وخيار ، وباذنجان ، ويقطين ، وأرز ، وقليل من قصب السكر ، رغم أن استعمال العسل استمر في الصناعات الصيدلانية ؛ أما الفواكه فكان منها : التين ، والعنب ـ الطري منها والمجفف ـ ، والبطيخ ، والبرتقال ، والمشمش ، والتفاح ، والأجاص ، والخوخ ، والرمان ، والسفرجل ، والكبّاد ، وحب الصنوبر ، والبندق ، واللوز ،

والزيتون ، والتوابل المشهية : مـن ثوم ، وبصل ، وكرات أندلسي ، وثوم معمّر ، وبقدونس(١٤) ٠٠٠

في الوقت ذاته ، وفي مقاطعة البروفنس،كان أصحاب البساتين ـ وقد أطلق عليهم اسم Ortolans ـ قـد وسعوا مساحة الأراضي المزروعة بشكل ملحوظ في ضواحي مونبلييه مثـلاً(١٥) ، واصبحوا ينتجون كـل ما يمكن العثور عليه في Murcie ، ويبيعون في أسواق مـدينـة Lyon الأعشاب الطبيـة ، والموادالنباتية الملونة ، والعطور ، الخ ٠٠٠ وأنواع الحلويات ، والمربيات ، والرقائق المصنوعـةبالسكر وماء الورد، والمعجنات المحشوة بالجوز، والفستق، واللوز؛ والسكاكر المحلاة والمعطرةبالأنيسون ، والقرفة ، وفتيت المسك ٠ نعم ، وكانت سلة الطباخ البروفنسي ، ابان القرن الرابع عشر مزينة ٠ ومليئة ، تماماً مثل سلة تلك الصبية البغدادية الوارد ذكرها في كتاب« ألف ليلة وليلة » ، والتي طـافت تشتري ما تحتاج اليه ومن ورائها الحمال ٠٠٠ تقول الحكايـة : « ٠٠٠ فوقفت على دكان فكهاني اشترت منه تفاحاً شامياً ، سفرجلا عثمانياً ،وخوخاً عمانياً ، وياسميناً حلبياً ، وأبو فروة دمشقياً ، وخياراً نيلياً ، وليموناً مصرياً ،وتمرحنا ، وشقائق النعمان ، وبنفسجاً ٠٠٠ ووضعت الجميع في قفص الحمّـال »(١٦) ٠

وكان باستطاعتنا أن نجد السلة ذاتها في Avignon ابان القرن الرابـع عشر ، وقـد توافر في داخلها : التين السوري ، والبطيخ ،والبرتقال ، والبلح ، والزبيب ، والرمان ؛ والبهارات على أنواعها: من قرفة ، وعصفر ، وزنجبيل ، وانيسون ، وناردين ، وكافور ، وشبث ، وكزبرة ؛ وأصناف عـديـدة مـن الحلويات كما في سلة الصبية الجميلة ؛ وفواكه حقيقية مطبوخة بالسكر ، وأنواع من الخبز مثل الكعك مثلاً ، وهو ما يصنع حتى اليوم في افريقيا الشمالية وبلدان الشـرق الأوسط ، وأنواع طبخت في قـدور مغلقـة ، ومعجنات محشوة بالفستق أو اللوز كانوا يسمونهـا : "Turcae placentae" ـ أي: الكعك التركي ـ وفطائر محشية باللحم، تماماً مثل تلك اللذائذ الشهية التي اختارتها صبيـة الحكاية(١٧) :

« ٠٠٠ واشترت طبقاً وملأته من مشبك وقطـائف وميمونـة ، وأمشاط ، وأصابـع ولقيمات القاضي ٠٠٠ » ٠

تلك المنتجات الجديدة القادمة من الشرق التي أصبح لهـا مكان الصدارة على موائـد الأغنياء ، وكانت تستدعي ايجـاد أصحـاب بساتـين ذوي خبرة ، وطبـاخـين مهرة ٠٠٠



■ بئـر صحـراوي ■

وكانوا أول الأمر من العرب للتعليم ،والتدريب · وهكذا فقد ساد العرب بالتالي وأصبح لهم الكلمة الفصل في بساتين ومطابخ القصور ، والأديرة ، ومقر بابوات آڤينيون ، مثلما كان الطباخون العرب ذوي الامر والنهي على أفواه الآكلين في صقلية بعد أن فازوا بثقة أمراء البلاط هناك(١٨) :

« ··· كان موقف ملك صقلية Guillaume de Manteville مثيراً للاستغراب حقاً ، وخارجاً عن المألوف ، اذ كان يتعامل مع المسلمين دون أي تحفظ ، ويعتمد عليهم في أعماله، حتى ان المشرف على مطبخه «اننذير» ،كان مسلماً ··· وكان يقرأ اللغة العربية ويتكلمها ··· بل وحتى جميع نساء ومحظيات قصره كنّ من المسلمات ··· » ·

وذا كان شأن بلاط الامبراطور الجرماني النورماندي Fréderic de Mohenstanfen كما كانت النساء المسلمات في مقاطعات عديدة جنوب أوروبا(١٩) يشرفن على صناعة الفطائر والشعيرية » ·

وفي مونبلييه أيضاً كانت تصنع بطريقة سرية لم يعلن عنها خمور عاطرة ، وسوائل محلاة بالبهارات والتوابل ، واشربة صيدلانية، وخمور ممزوجة بالعسل والسكر(٢٠) · هذه الاشربة وما يتصل بامور صناعتها شغلت حيزاً هاماً في الكتابات الزراعية عند العرب قديماً ···وبالاحتكاك والتعامل مع العلماء والاطباء العرب الذين كانوا يترددون على « المعهد الطبي » ، تطور ذلك الانتاج النوعي الذائع الصيت متيحاً المجال أمام كروم البحر الأبيض المتوسط لتتفرد وتقف في وجه منافسة كروم شمال فرنسا وأوروبا · وأصبحوا يتناقلون تلك الخمور بتكاليف باهظة وصولاً الى اسواق الحوض الباريسي ، وأوروبا الشمالية ··· حتى آنفر ، بل وحتى البلاط الانكليزي(٢١) ·

وحتى نختتم حديثنا عن جنوب فرنسة نقول بأن مقاطعة الرون الأدنى في القرن الرابع عشر تحولت الى ما يشبه البستان المروي حيث ازدهرت الأشجار المثمرة من كرز ودراق ، وخوخ ، وبرتقال ، وخضار جديدة··· كالبطيخ(٢٢) الذي زرع في مقاطعة آڤينيون خلال القرن الرابع عشر ، ومنذ عام/ ١٥٠٠/ تأثرت جميع مناطق البروڤنس بتلك الزراعات الجديدة · وفي عام ١٤٧٠ ضرب الملك René de Provence المثل حين أمر بغرس أول بستان تجريبي ؛ وانتشرت من ثمّ موجة بساتين النباتات العطرية ، وغدت سيدات الوسط الراقي تتنافس على طلب الغراس ؛ وانطلاقاً من تلك الرقعة المروية في سهل الرون الأدنى انتشرت الأصناف الجديدة نحو الشمال(٢٣) ·

كما يشير مؤرخو ذلك العصر الى أن الريف قد عمر بالطواحين المستخدمة في السقاية وفي أعمال زراعية أخرى (طواحين الحبوب ،واللباد ، الخ ···) وفي القرن الخامس عشر، وبعد أن تعلم ذلك القسم من أوروبا في نهاية المطاف صناعة الورق ، وهي الصناعة التي كان العرب قد طوروها منذ القرن الثامن الميلادي فابتكروا الورق المسمى Chiffe وتركيبه من ألياف نباتية جديدة أو مستصلحة ، وارتفعوا به الى المستوى الذي لا يضاهى، فان الطواحين تلك تكاملت مع الصناعات الورقية الجديدة ؛وكانت الطواحين ، المائي منها والهوائي ، مقامة على ضفاف الأنهار العالية أو في مجاريها،حيث كانت أوتاد خشبية كبيرة آنذاك تقسم المجرى النهري الى حجر مائية يطلقون عليها اسم Fuernas .

نصل في بحثنا الآن الى تقنيات السقاية والى الطرائق الزراعية ، وكان هذان الموضوعان مثار دراسات عديدة مفصلة ، ممايحدونا للحديث عنهما بسرعة وايجاز ٠

وأما الطرائق الزراعية فقد أشرنا في الفصل الاول الى الأهمية التي أولاها اياها علماء الزراعة العرب ، وخاصة ما كان ذا صلة بطبيعة التربة ٠٠٠

لقد اعتمدوا ، بالجهد الكبير والدقة المتناهية ، على أقل التقنيات الزراعية أذى لانواع التربة التي درسوها ٠ وجلية الأمر أنهم كانوا يبغون ، قبل كل أمر ، العناية بالتربة وعدم انهاكها بوسائط غير مناسبة ٠ذاك كان شغلهم الشاغل ٠٠٠ وكانت تستخدم طريقتان في الفلاحة ؛ أما الاولى فهي **الفلاحة العميقة** ، والغاية منها تهوية التربة وتنظيفها ، وتهيئتها لاستقبال بعض الأصناف ـ الحبوب خاصة ـ ، وبالنسبة لزراعة الأشجار، كانت تلك الطريقة لخدمة أشجار : التين ، والتوت ، والزيتون ، والكرمة ، لأن تلك الطريقة تحفظ للأرض رطوبة السقاية ٠ وكان فلاح البحر الأبيض المتوسط يستخدم محراثاً رومانياً تقليدياً مزوداً بقاعدة ثقيلة ومجرفة ٠ وقد ورث تلك الأدوات من الأزمنة القديمة ، فجاءته مع الحصادة الصوانية التي قوامها لوح من الخشب مسلح بأحجار صوانية حادة لدراس الحبوب ٠ وكانت من أكثر الأدوات تلاؤماً مع ما خصّت به من عمل ٠ ولقد وصف عالم الزراعة العربي، في الحقيقة، تلك الأدوات وصفاً مفصلاً ، وبين المواد التي تربط بينها ، كما شرح أفضل الوضعيات لاستخدامها الاستخدام الأمثل ٠

وكانت الفترة الزمنية الملائمة لكل عمل هي أيضاً موضع مقارنة مع ما تقوله مجمل الدراسات الزراعية ، مع أن المرجع المعتمد عليه أولاً وأخيراً كان تجربة الزراعيين المعاصرة وما تبينه الممارسات المحلية من حقائق ٠

وأما الطريقة الثانية فهي **الفلاحة السطحية** ، وهي معروفة منذ القدم ، وقد قصُرت على أعمال غرس وتجذير الأغراس الجديدة ٠ على أن علم الزراعة العربي ساهم في هذا المجال بمادة علمية وافية حول الوسائل الممكنة، والدراسة المنهجية للوسائل والطرائق ، والتجريب المنظم المستمر ، وقد عرض كل ذلك عرضاً دقيقاً وشاملاً في كتابات العرب ؛ وهناك خاصة الهاجس المسيطر باستمرار ألا وهو هاجس ايجاد ما يناسب كل صنف وكل تربة ، تحديداً وعلى وجه الدقة ٠ ويتضح لنا بجلاء لدى قراءة الكتابات الزراعية العائدة الى عصور مختلفة ، سواء منها ما كان من العصر الوسيط أو من اسبانيا المسلمين ، أن علم الزراعة قد أصبح بفضل المدرسة الأندلسية علماً مستقلاً كل الاستقلال ، وأصبح موضع تقدير واحترام على غرار العلوم الأخرى ،كعلم النبات مثلاً ٠ **لكن** ، وكما أشارت Lucie Bolens في أطروحتها المخصصة للطرائق الزراعية ابان القرون الوسطى في اسبانيا(٢٤)، فان العلمين ــ الزراعة والنبات ــ مترابطان ٠ لذلك ، ولأن علماء **الفلاحة الأندلسيين** كانوا هم أنفسهم علماء نبات ، فقد أمكنهم تطبيق« معارفهم حول النباتات من أجل اغناء الطرائق الزراعية، وعلى وجه الخصوص نظام الدورة الزراعية » ٠ ان العلماء الشرقيين ، بفضل التقدم في أكثر من مجال ، وبفضل تطوير المعارف في ميدان علم النبات ، عملوا على توسيع أفق علم الزراعة المتوارث منذ العصور الأولى للحضارة المسيحية بحيث بات فيما بعد

وقد اكتسب تدريجياً شكله كعلم مستقل عمّاسواه كالطب، والصيدلة، وعلم النبات خاصة؛ وأكد نفسه حيال تلك العلوم علماً أصيلاً يقف وقفة الند للند حيال الشقيق الذائع الصيت ــ أي حيال علم النبات ــ ، ويزداد قوةورسوخاً كلما تقدم نحو الغرب ·

لنتوقف الآن عند النظام المشار اليه في الدورة الزراعية · فالأمور التي نوه اليها علماء الزراعة العرب في اسبانيا هي أولا ضرورة الاعتناء بالأرض المخصصة لزراعة الحبوب مثلاً · اذ لا يجوز في فترة راحتها أن تتعرض لتقلبات وقسوة الطقس ، كما لا يجوز انهاكها بزراعة صنف واحد فقط ينمو، لنقل، في العمق · انهم يعتمدون على اراحة الأرض، كما هي الحال تقريباً في أيامنا هذه ، على أساس تشغيلها المستمر بحيث تزرع حتى في فترة الراحة ولكن بأصناف « خفيفة » ،كالخضار ذات الجذور القصيرة ، أو بنباتات أخرى تستطيع علاوة على ذلك حماية التربة،فاذا ما أحسن اختيار تلك الأصناف أصبحت الأرض أجود ، وازداد غنى التربة السطحية ·فمن المعلوم اليوم امكانية زيادة الآزوت دون المساس بالتربة العميقة · وبالتالي فان تلك النباتات : من ترمس ، وعدس ، وفاصولياء ، وفول ، وكرسنة ، كانت توفر وضع أسمدة اضافية ، كما أن مثل هذه الزراعات توفر للأرض تهوية جيدة بحيث تتهيأ لموسم حبوب جديد ·

تلك المعارف التي تطورت عبر العصور، أو قل ذلك التركيب المتأني، الواعي والتجريبي، والمستند الى جمع المعلومات من دراسة التربة ومعاينتها ، ومن استخدام الأسمدة ، وحاجات كل نبات ، وامكانيات كل صنف من جهة الاشتداد والمتانة ، أو من جهة التلف التلقائي أو الضرر المتبادل · ولكن ذلك التركيب المتكامل ضاع على ما يبدو وفقد بعد استعادة اسبانيا من أيدي العرب · ولو أردنا اليوم اقتراح نظرية حديثة لاستدراك تخرب التربة، واضمحلال مدخرات الماء في الأندلس المعاصرة،كان لا بد لنا من الرجوع الى تلك التقنيات والمعارف التجريبية ذات المصدر الاغريقي اللاتيني الموغل في التاريخ ، والتي اغتنت وتحولت وتشذبت بفضل العلوم الشرقية ،وتجربة علماء الزراعة ، والمزارعين العرب ، والعرب الأندلسيين ·

نقف في النهاية لنتعرض الى تقنيات السقاية ، وعند هذه النقطة بالذات سوف نوقف جولتنا الشاملة في دنيا علم الزراعة عند العرب وتأثيراته في أوروبا · فنحن نعلم حق العلم ما أتاحه الغزو العربي من تناقل للأدوات ولوسائط استخدامها على الوجه الأمثل ، عبر التاريخ وعبر المدى الجغرافي · ان المؤلفات والنصوص المتنوعة تتيح لنا احصاء عدد وفير من الأدوات ، ومن الطرائق المختلفة حول : ايجاد الماء ، وحجزه وتجميعه في سدود أو مستودعات ، ونقله في قنوات مفتوحة أو مطمورة تحت الأرض ، ورفعه بواسطة طريقتين رئيسيتين : الناعورة أو دولاب الماء ، والشادوف · هذه الأساليب التي تحسنت تحسناً ملحوظاً قد اعتمد عليها في جميع أنحاء البلاد الاسلامية وفيما جاورها من بلدان · وكانت مسيرتها صعوداً باتجاه شمال أوروبا تمضي ببطء شديد حتى وصلت الى بلجيكا وهولندا (القرون ١٤، ١٥، ١٧) · ومن المفروغ منه أن تطور السقاية كان يمضي

جنباً الى جنب مع تطويع وتوطين أصناف جديدة سبق أن عددنا من بينها قصب السكر، واليقطين ، والبطيخ ، والباذنجان ، وغيرها من النباتات المتعطشة للماء في الفصل الذي ينحبس فيه المطر ؛ وترسّخ هذا التطور مع الزراعة الواسعة الانتشار : الحبوب والأرز؛ ومع توسع مناطق الزراعات الخضرية ، وازدهار الحدائق والبساتين سواء ما كان منها تزيينياً أو استهلاكياً .

واليكم ما قاله عالم الزراعة الكندي Andrew Watson عن ذلك التقدم :

« كان الأثر المشترك لجميع أنواع التقدم تلك خلق نسيج متنوع في العالم الاسلامي برمته قوامه الأراضي المروية قطعاً صغيرة أومساحات مترامية والتي كان بامكان الزراعة الجديدة التطور فيها وتبديل المحيط الخارجي الذي كان ، على وجه العموم وبصورة جذرية، محيطاً غير ملائم للعديد من تلك الزراعات الجديدة ، ولكنها ترسخت فيه مع ذلك وتوطنت — لفترة بسيطة من الزمن على الأقل — وتمكنت من أن تتطور بنجاح يدعو الى الدهشة »(٢٥) .

* * *

☐ خلاصة :

نريد أن نخلص في نهاية بحثنا هذا الى التذكير بأهمية ما ساهم به علم الزراعة عند العرب في الحضارة الأوروبية ، والاشارة الى أن تلك المساهمة تتناسب مع الانبهار الذي كان يختلج في نفوس الرحالة ، والحجاج ، وجميع الميسورين في رقعة كبيرة من أرجاء العالم المسيحي في العصر الوسيط ، وهو الانبهار المتجلي أمام معاينة ودراسة أساليب المعيشة في المناطق الاسلامية .

فمن تلك الأرض المزدهرة كان كل ماله صلة بالأبهة ونعومة العيش . وقدّر للعالم الاسلامي أن يظل لفترة طويلة في أذهان الغربيين عالماً منفتحاً ،وحضارة مزدهرة مترفة ، وحياة مثلى في البلاطات أو في المدن حيث يعرف المرء كيف يحسن تصريف شؤون الزمان والمكان بما يحقق له المتعة والتلذذ . ومما يروى بهذا الصدد أن ملوك صقلية النورمانديين والأمير العالم Fréderic de Mohenstanfen ما كان ليعادل سرورهم أي سرور عندما ينعمون باستقبال ضيف وافد من الشرق ، أو بتلقي الهدايا القادمة من سورية . بل وحتى Guillaume d'Orange وكان خشن الطباع ولكنه شجاع في الوقت ذاته ، لم تطمئن جوارحه الا بعد أن فاز بما كان أثيراً الى قلوب الأمراء العرب منذ أمد بعيد : جواد أصيل من دم عربي خالص ، وبعد الفوز بقلب Oriabel الأميرة الشرقية الجميلة ، والتي كان جمالها قد ملك على Orange نفسه ، وكانت تجمع الى ذلك الجمال الماماً مدهشاً بجميع النباتات الطبية . لقد سحرت الأبهة الأمير مثلما سحرته النعومة والرقة، فهب يغافلها على حين فجاة في قصرها الاقطاعي ، فوق البرج الكبير حيث ... كانت قد رتبت حديقة سطح عابقة بالقرفة ، والزوفى ، والغار ؛ مظللة ومزينة بالزهور باللون النيلي أو الأحمر القاني(٢٦) .

ويظل أثر باق على الأيام ، من ذاك السحر ، ومن ذاك المدى المترامي ، مفتوح الذراعين ، عامراً بوشوشة الحياة ، في ملاءته الخضراء ، وضحكته الصافية ، ووفرة ثماره وزهوره من كل صنف ونوع؛ ونجد كل ذلك في الوصف الذي قدمه Washington Irving لسهل غرناطة فور عودتها الى الاسبان . وأجمل ما ننهي به عرضنا هذا تلك السطور القليلة الرائعة :

« ... مجد مدينة غرناطة سهلها الرائع . فيهجنات حافلة بالمسرات ؛ تنعشك فيها ينابيع وغدران ونهر Xenil وقد لمعت صفائح الفضة فوقصفحته ، وتبهرك عبقرية المغاربة الذين وزعوا مياه ذلك النهر في آلاف الجداول والسواقي ، في ترتيب بديع عبر السهل . انهم ، والحق يقال ، قد سموا بتلك الرقعة السعيدة الى درجة مثلى من الازدهار البادي للعيان ، وعملوا على تزيينها مندفعين من أعماق قلوبهم كما لو كانوا يزينون عشيقتهم الأثيرة،فالتلال تكتسي حلة من البساتين والكروم ، والوديان مطرزة ببديع الحدائق ، أما السهول فتتموج بسنابل القمح . والبرتقال ، والليمون ، والتين والرمان جنباً الى جنب مع أشجار التوت السامقة والتي بفضلها كانت تحاك وتنسج أرق وأغلى الحرائر . والكرمة المتعربشة تمضي من شجرة الى شجرة ،وعناقيدها المثقلة معلقة بعرائش البيوت القروية الصغيرة ، وكانت الخمائل تتهلل لغناء الكروان الذيلا يمل ولا يتعب . بكلمة واحدة ، جميلة وصافية تلك الأرض ، نقية سماء تلك البقعة اللذيذة ، فلاعجب اذا تخيل المغاربة أن الفردوس الذي وعدهم به النبي في الأعالي ، انما كان في مكان ما من تلكالسماء ، فوق أراضي غرناطة الزاهرة ... »(٢٧) .

* * *

☐ الحواشي :

1 — Braudel F., La Méditerranée, lespace et l'histoire, Flammarion, Paris, 1985.

2 — Vr. Doc. annexes : يقدر de Serres النفقات : باربعة آلاف قطعة ذهبية .

3 — Ibn Baitar : Ch. vers à soie, B. 976, ed. Leclerc, BN Paris, 1810.

4 — Vr. Doc. annexes : سوق الحبوب في نيم ، صعودا الى ليون والى اوروبا الشمالية

5 — Ibn Kaldoun, Discours sur l'Histoire universelle, Sindbad, Paris, 1978, p. 1082, vol. 3.

مقدمة ابن خلدون ، التعريف بعلم الفلاحة .

6 — Alfonso de Herrera, Obra de Agricoltura, Copilada da diversos autores, 1513.

7 — Butler Corinne. Un chapiter de la sensibilité collective : La littérature agricole en Europe Continentale au XVIème siècle, Annales E.S.C. 28ème Année, n° 5, 1973.

8 — Columelle, De l'Agriculture, livre X, les Belles Lettres, Paris, 1969.

9 — Ibn al^cAwwam, Kitab al Filàha, art. XXVI, culture du rosier

ابن العوام ، كتاب الفلاحة ، الفصل ٢٦ ، زراعة شجرة الورد .

10 — Ibn Jobair, Voyages, — La Sicile — Paris Genthner, 1956. ابن جبير ، الرحلة .

11 — Cf, L. Leclerc, introduction à l'édition du traité des Simples, d'Ibn Baitàr :

تميزت المدرسة الاسبانية : تميزا استثنائيا بالعناية التي أولتها للعلوم الطبيعية والنباتية ... الخ ...
ص . ٢ و ٣ »

12 — Campbell Thompson, The Assyrian herbal, Londres, 1924.

13 — « أطلق على هـذا النبـات اسم ascalonia نسبة الى مدينة عسقلان في فلسطين ، وهي مستوردة من هناك » .

Isidorus Hispalensis, Etymolgiae XVII, de l'Agriculture, trad. J. André, les Belles Lettres, 1981.

14 — Albornz S. La España musulmana, España Calpe, Madride, 1973.

15 — Histoire de Montpellier, PH. Wolff, Ed. Privat, Montpellier, 1984.

١٦ـ « الف ليلة وليلة » ، حكاية الحمال والبنات الجزء الاول .

17 — Stouff L. Ravitaillement et alimentation en Provence au XIV et XVème siècles.

١٨ـ ابن جبير ، المصدر ذاته .

19 — Bowrrilly et Busquel, R, "La Provence au Moyen Age", Paris 1924.

20 — Caster Gilles, "Commerce du pastel et de l'épicerie à Toulouse au XVème. S.", Toulouse, 1962.

21 — Montpellier, ap. cité.

22 — Le melon, vr. O. de Serres, Annexes.

٢٣ـ نستطيع ايضا التنويه الى انتشار الإعلاق الشائعة في بلدان المشرق وكانت غير مستخدمة في اوروبا حتى القرن السادس عشر . ونذكر على سبيل المثال الشعير الذي زرعه de Serres لتحسين اراضيه ، وكان قد جلب حبوبه من منطقة Danphiné عام (١٦٠٠) م .

24 — Lucie Bolens, ap. cité, p. 135.

25 — Watson, A. The arab agricultural révolution and its diffusion", 700-1100, Journal of Economic History, 34/1974, 8-35.

26 — La Légende de Guillaume d'Orange, Piazza, Paris, 1965.

27 — The conquest of Granada, by Washington Irving, E. P. Dutton and Co., New York, 1910.

* * *

علماء الزراعة القدماء

القرن السادس ق.م. Hésiode .

القرن الخامس ق.م. أفلاطون

القرن الرابع ق.م. Théophraste . ارسطو

القرن الثاني ق.م. Magon (Carthage) , Bolos Démocritos , Attal III , (Pergame)

القرن الأول ق.م. Varron (Rome) . Pline l'Ancien

القرن الأول م. Virgile (Mantoue) , Calumelle (Cadix) , Appolonios de Tyane , (Edesse) كتاب سر الخليقة

القرن الثاني م·	Julius Africanus	
القرن الثالث م·	Florentinus كتابات نبطية (؟)	
القرن الرابع م·	Palladius .	
القرن الخامس م·	Anatolius de Béritos (?) .	Didyme , (الاسكندرية)
القرن السادس م·	Cassianus Bassus Scolasticus	
القرن السابع م·	علوم الفلاحة(١) Costhus	(?) Pergame ,
القرن التاسع م·	(كتاب الفلاحة الرومية) الترجمة العربية بقلم سرجيوس MSS 414 , Leyde	الترجمة الفارسية (؟) (الرزنامة) مفقود
القرن العاشر م·	تقويم قرطبة ، منتخبات بيزنطية ،	ابن وحشية كتاب النبات
القرن الحادي عشر م·	ابن وافد (طليطلة) ابن بصال (طليطلة) أبو الخير (اشبيليا) ابن حجاج (اشبيلية)	نسخة عربية للرزنامة (؟) Berlin n° 6204
القرن الثاني عشر م·	ابن العوام (اشبيليا)	نسخة عربية للرزنامة MSS 540 et 439
القرن الثالث عشر م·	ابن بيطار (عالم نبات) (مالقة)	P. Crescenz (Bologne)
القرن الرابع عشر م·	جاد الدين وطواط (مصر : من الموسوعيين)	الـ · ج · الأميري (سورية)
القرن الخامس عشر م·	G. A. de Herrera (Espagne)	دراسة يمنية (أو القرن الرابع عشر) (بغية الفلاحين)
القرن السادس عشر م·	Ch. Estienne , O. de Serres (فرنسة)	ترجمات عديدة للدراسات الزراعية القديمة
القرن السابع عشر م·	Cassianus Bassus	
القرن الثامن عشر م·	مختصر (جامع الفلاحة) للأميري بقلم عبد الغني النابلسي (سورية)	

١ ـ وهو مهدى الى سليل الملوك ، قسطنطين السابع ·

مسيرة علم النبات عند العرب
من مرحلة التدوين اللغوي الى مرحلة الملاحظة العلمية المحض

ابراهيم بن مراد
(تونس)

نعتقد أن ليس من باب المبالغة القول بأن علم النبات لم يلق من الحظوة والاهتمام عند الأمم السالفة مالقيه عند العرب في القرون الوسطى ، وان المباحث فيه لم تشهد عند أمة من الأمم السابقة ما شهدته من تطور على أيدي علماء النبات العرب • وليس ذلك في الحقيقة بدعا فهم ـ بعد مرحلة بداوتهم في الجزيرة العربية ـ قد انتشروا في الأرض انتشارهم الواسع وتكونت أجيال عربية تلتها أجيال تمكنوا من الاطلاع على مواليد الطبيعة في الأمصار المختلفة والبيئات المتنوعة • وحصلت لهم من ذلك خبره كبيرة بالنباتات ومعرفة جيده بها •

وقد تحققت لهم من ذلك كله تجربة فذة في علم النبات جعلت منهم السباقين الى الاهتمام بعلم النبات المحض • ذلك ان غيرهم من الأمم قد اهتموا بعلم النبات ضمن اهتمامهم بعلوم ومباحث أخرى • ونذكر من تلك الأمم خاصة اليونانيين والرومان ، وأهم علماء النبات عند اليونان اثنان : هما تيوفراسطس (Theophrastos..) وديوسقوريدس (Dioscorides) . وقد اهتم الأول بالنبات ضمن اهتمامه بالفلسفة واهتم به الثاني ضمن اهتمامه بالطب والصيدلة • وأهم علماء النبات عند الرومان اثنان أيضاً : هما بلينوس (Plineius) وابليوس المادوري (Apuleius) ، وقد اهتم به الأول ضمن اهتمامه بعلوم الطبيعة عامة واهتم به الثاني ضمن اهتمامه بالطب والصيدلة • والحقيقة أن العرب أيضاً لم يعنوا طوال مدة لا يستهان بها من تجربتهم العلمية ـ بالنبات لذاته ، بل اهتموا به ضمن مباحثهم في اللغة في البداية ثم ضمن مباحثهم في الطب والصيدلة • الا انهم ـ في القرنين السادس والسابع للهجرة خاصة ـ قد جعلوا منه علماً مخصوصاً لذاته وعنوا به عناية خاصة فقاموا بالرحلة من اجله بحثاً عن أعيانه في مظانها داخل البلاد العربية الاسلامية وخارجها ، وتدقيق البحث في أنواعه وأجناسه على اختلافها ، حتى تهيأ لهم من معرفته ما لم يتهيأ

لغيرهم من الأمم السابقة ، وذلك ما جعل من تجربتهم في علم النبات تجربة فذة تتنزل منزلة متميزة في التراث العلمي الانساني ٠

وسنحاول في هذا البحث أن نستجلي بعض أوجه تلك التجربة بالحديث عن أربع مراحل من اهتمامهم بعلم النبات : أولاها مرحلة التدوين اللغوي وثانيتها مرحلة النقل والترجمة التي مكنتهم من الاطلاع على مباحث اليونان في علم النبات، وثالثتها مرحلة الاهتمام الطبي والصيدلي بالنبات ورابعتها مرحلة الملاحظة العلمية المحض(١) ٠

١ ـ مرحلة التدوين اللغوي :

لقد نشطت حركة التدوين اللغوي في القرنين الثاني والثالث للهجرة خاصة ٠ فقد سعى علماء اللغة في هذه الفترة من تاريخ اللغة العربية الى جمع المتفرق من مفردات اللغة وخاصة منها الدالة على الاشياء وصفاتها ٠ وتجمع لهم من ذلك عدد كبير من الرسائل في مواضيع شتى كالحيوان ـ مثل الابل والشاء ـ والانسان والمطر والسحاب والبئر ٠٠٠ الخ وقد كان النبات من أهم المواضيع التي شغلتهم فأفردوه برسائل مستقلة غلب فيها الجمع وقل فيها الترتيب المنهجي الدقيق ٠ واللغويون الذين ألفوا في النبات كثيرون(٢) ٠ نذكر منهم خاصة **الأصمعي** (ت:٢١٣ هـ/٨٢٨م) مؤلف « كتاب النبات » و أبا زيد الانصاري (ت ٢١٥ هـ/٨٣٠ م) الذي ينسب اليه كتاب «النبات والشجر» وابن الاعرابي (ت٢٣١هـ/ ٨٤٥ م) الذي نسب اليه كتاب « النبات » وكتاب « النبت والبقل » ، وابن السكيت (ت : ٢٤٦ هـ/٨٦٠ م) الذي نسب اليه كتاب «النبات والشجر» وأبا حاتم السجستاني (ت : ٢٥٥ هـ /٨٦٨ م) الذي نسب اليه كتاب « العشب والبقل » وكتاب « الشجر والنبات » ٠٠٠ الخ ٠

والغالب على مؤلفات هذه الفترة ـ النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجريين ـ صفة الرسائل، والغالب على مؤلفيها الرغبة في جمع اللغة وتدوين مفرداتها المتصلة بالنبات وصفاته ٠ فعمل هؤلاء يمثل اذن ـ في أساسه ـ مرحلة جمع مفردات « المعجم النباتي » العربي ٠ ولما كانت غايتهم لغوية محضاً لم يعنوا بالبحث عن النباتات في مظانها ولم يهتموا بالبحث في أصناف النبات وأنواعه وأجناسه ولم يحاولوا استيعاب ما في البيئة العربية من نباتات بل اكتفوا بتدوين ما بلغهم من الرواة وذكره الشعراء في قصائدهم ٠ وكمثل لمؤلفات هذه الفترة كتاب « النبات » للأصمعي ، وهو رسالة صغيرة(٣) جمع فيها مؤلفها حوالي ثلاثمائة اسم من أسماء النباتات العربية ٠ ولكن معظم هذه المفردات قد ذكر غفلا من التعريف ٠ ويبدو أن غاية المؤلف الأساسية من رسالته هي جمع « مادة نباتية » مما تنبته أرض الجزيرة العربية ٠ وغلب عليه في ذلك الجمع ثلاثة اهتمامات بارزة : أولها التعريف اللغوي بالأرض المنبتة(٤) ، وثانيها التفريق بين النبات والشجر(٥) وثالثها التوزيع الجغرافي لبعض أنواع النبات(٦) على أن حديثه عن هذه الأغراض الثلاثة كان متداخلا غير خاضع لترتيب معين ، غالباً عليه الاستطراد اللغوي والشواهد الشعرية على طريقة أهل العصر في التأليف وذلك ما يجعل ـ في نظرنا ـ قيمة

هذه الرسالة وأمثالها لغوية محضة، ولاتتجاوزما ابتغاه واضعوها من جمع اللغة وتدوين متفرقها في موضوع مخصوص هو النبات ٠

على أن القرن الثالث الهجري قد شهدظهور كتاب آخر جليل القدر عظيم الخطر في تاريخ علم النبات عند العرب ، هو « كتاب النبات » لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت : ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) وهذا الكتاب لم يكن مجرد رسالة في صفات النبات وأسمائه بل كان موسوعة نباتية في حوالي ستة أجزاء أربعة منها في موضوع النبات عامة واثنان في أسماء النباتات مرتبة على حروف المعجم ،وقد ضاع معظم هذا الكتاب ولم يبق منه الا بعضه نخص بالذكر منه قسماً مهماً من الجزء الخامس يحتوي معجم أسماء نباتية(٧)، الا أن معظم مواد هذا المعجم قد بقي لنا في كتب العلماء اللاحقين في الزمن لأبي حنيفة، فقد كان « كتاب النبات » مصدراً أساسياً لمن اهتم بعد أبي حنيفة بالنبات فاقتبس منه مؤلفو المعاجم اللغوية والأطباء والصيادلة المؤلفون في الأدوية المفردة ، وقد قام العالم الهندي محمد حميد الله بجمع المتفرق من مواد الكتاب في تلك المصادر(٨) وقد حصل له من ذلك ٦٣٨ مادة أضافها الى ما نشره من قبل المستشرق برنارلوين ٠

والناظر في هذا المعجم يتبين بيسر انتماءه الى المرحلة اللغوية فالمصادر الأساسية التي اعتمدها فيه أبو حنيفة لغوية، وخاصة الرواة من الأعراب ، وعلماء اللغة ، مثل أبي زياد الاعرابي يزيد بن عبدالله الكلابي(٩) الذي يتنزل بين مصادره منزلة خاصة ، والفراء (ت : ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) وأبي عبيدة (ت: ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م) والأصمعي (ت: ٢١٤ هـ / ٨٢٨ م) وأبي زيد الانصاري (ت: ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) وأبي عبيد (ت: ٢٢٤ هـ/ ٨٣٩ م) وابن الاعرابي (ت : ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م) وأبي نصر أحمد بن حاتم (ت : ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م) ٠٠٠ الخ ثم انه قد نحا نحو سابقيه من علماء اللغة في التمثيل بالشواهد ، فهو يكثر من ايراد الشواهد اكثاراً ظاهراً(١٠) ومعظمها من الشعر – ديوان العرب – وبعضها من القرآن والحديث النبوي الشريف(١١) ٠ وهو يكثر من الاستطراد اما لتفسير شاهد شعري أو للبحث في اشتقاقات المفردة المتحدث عنها أو للتعليق على قول مروي بقول مروي آخر ، بل ان الاستطراد عنده قد يكون بالاسترسال في الحديث عن موضوع جديد يقحمه في المادة التي يتحدث عنها اقحاماً دون أن يكون له بها علاقة ، مثل الذي فعل في مادة (أثل) حيث تحدث عن « الأواني والصحاف » مبتدئاً استطراده بقوله :

« واذ قد جرى ذكر الأواني والصحاف فسنصف منها ما يحضرنا ذكره »(١٢) ٠ على ان أبا حنيفة قد تجاوز سابقيه من المؤلفين في المادة النباتية تجاوزاً كبيراً فهو ينتمي الى مدرستهم اللغوية بدون شك ، ولكنه قد أضاف الى مناهج سابقيه اضافات مهمة أخرجت كتابه من حيز الاهتمام اللغوي الضيق الى ميدان الدراسة العلمية الشاملة ٠ ولا شك أن لتبحر أبي حنيفة دوراً في ذلك ٠ فهو لم يكن مجرد جامعة للاخبار والنوادر والأشعار والمتفرق من شتات مفردات اللغة مثل الذي كانه معظم سابقيه ، بل كان عالماً موسوعياً قد

عني ـ اضافة الى علوم اللسان ـ بعلوم أخرى مستجدة في عصره ، وخاصة الحساب والفلك والطب والتاريخ والجغرافيا وعلم النبات(١٣) • وهذا التعدد في المعارف قد جعل أبا حنيفة في نظرنا أوسع أفقاً من سابقيه وأعرف منهم بموضوع النبات • وظهر ذلك واضحاً في كثير من الجوانب الجديدة التي تميز بها كتابه على الكتب التي ألفها اللغويون من قبله • وتتلخص تلك الجوانب فيما يلي :

أ ـ حجم الكتاب : فهو كتاب كبير الحجم متعدد الأجزاء بينما كان معظم المؤلفات الأخرى رسائل صغيرة •

ب ـ ترتيب المادة فقد كانت المؤلفات السابقة غير خاضعة في معظمها لترتيب معين ، على حين أخضع أبو حنيفة كتابه لنوعين من الترتيب :

أولهما : الترتيب الموضوعي ، فهو قسم الأجزاء الأربعة الأولى من كتابه الى أبواب مستقلة خص بكل باب موضوعاً مستقلاً من مواضيع النبات والمواضيع المتصلة به • أحال في القسم الأول من معجمه الى عدد كبير من تلك الأبواب نذكر منها « بات النبات العام »(١٤) باب وصف العشب (١٥) وباب ذكر جماعات الشجر (١٧) وباب الزرع(١٨) وباب الزرع مع القطاني(١٩) وباب النخل(٢٠) وباب الكرم(٢١) وباب الكمأة(٢٢) وباب النبات الطيب الرائحة(٢٣) وباب العلوك (٢٤) وباب اللثا والصموغ(٢٥) وباب ما يصنع من النبات(٢٦) • الخ •

ثانيهما : أسماء أعيان النبات على حروف المعجم في الجزأين الأخيرين الخامس والسادس من الكتاب •

أشار الى هذا الترتيب في مقدمة معجمه ـ وحذفها المحقق لسبب لم يبين عنه واكتفى بذكر مقتطف منها في تمهيده ـ بقوله :« وتجعل تصنيف ذلك على توالي حروف المعجم كما تواليها العامة ان شاء الله ، وتصنيفها على حروف أوائلها أحب الي من تصنيفها على حروف أواخرها • وانما آثرنا هذا التصنيف لأنه أقرب الى وجدان المطلوب وأهون مؤنة على الطالب من كل تصنيف سواه فيما نرى(٢٧) • الا أن هذا الترتيب المعجمي شديد الاضطراب كثير الاختلال المنهجي ، ذلك أن المؤلف لم يراع الا الحرف الأول من الكلمة وأهمل تتابع الحروف التالية له ، وهذا ترتيب المواد العشرين الأولى من حروف الألف : ١ ـ اراك، ٢ ـ أسحل، ٣ ـ أثاب، ٤ ـ اثل، ٥ ـ أرز، ٦ ـ أشكل، ٧ ـ آء، ٨ ـ ألاء، ٩ ـ ارطي، ١٠ ـ آس، ١١ ـ أستن، ١٢ ـ اخريط ، ١٣ ـ افان ، ١٤ ـ اقحوان، ١٥ ـ ايهقان ، ١٦ ـ اسليح، ١٧ ـ اعليط، ١٨ ـ احريض ، ١٩ ـ اغريض ، ٢٠ ـ أجرد •

ج ـ **التعريف العلمي :** فقد تجاوز ظاهرة التعريف بالترادف أو بنسبة النبات الى نوعه أو الى موضع منبته الى التعريف العلمي الدقيق بوصف النبات وصفاً دقيقاً ووصف ثمره وطعمه ورائحته • وهذا النوع من التعريف دال في رأينا على أن أبا

حنيفة يمثل بداية الاهتمام بالملاحظة العلمية المحض في دراسة النباتات · ونذكر من أمثلة هذا النوع من التعريف قوله في مادة « حلمة » ترتفع الحلمة دون الذراع ، ولها ورقة غليظة، وأفنان كثيرة وزهرة مثل شقائق النعمان الا أنها أكبر وأغلظ والحلمة كثيرة البراعم والافنان كأن براعيمها حلم الضروع والفرق بينها وبين شقائق النعمان ان نورة شقائق النعمان ترتفع في رأس قضيب طويل أجرد ،وليس بشجرة الشقائق من كثرة البراعم مثل ما للحلمة (٢٨) ، وقوله في مادة « رقع » :الرقع شجرة عظيمة كالجوزة ، ساقها كساق الدلبة ، ولها ورق كورق القرع أخضر فيه صهبة يسيرة ، ولها ثمر أمثال التين العظام كأنه صفار الرمان ، لا ينبت في أضعاف الورق كما ينبت التين ولكن من الخشب اليابس يتصدع عنه ، وله معاليق وحمل كثير جداً (٢٩) ·

د ـ **حديثه عن منافع النبات :** وهي صنفان ، عامة وخاصة · أما المنافع العامة فمتصلة باستعمال النبات المتحدث عنه في الحياة العامة · وقد خص المؤلف تلك المنافع بأبواب مستقلة في الأجزاء الأولى من الكتاب ، مثل « باب السواك »(٣٠) و « باب الدباغ »(٣١) و « باب القسي »(٣٢) و « باب ما يصبغ به من النبات »(٣٣) ··· الخ وقد أعاد الحديث عن تلك المنافع ـ وكثير غيرها ـ عند تعريفه بأعيان النبات في معجمه · أما المنافع الخاصة التي اهتم بها **أبو حنيفة فمتصلة بالمداواة والعلاج خاصة** · وهو باب جديد قد أدخله هو في كتب اللغة اذ لا نعرف الى حد الآن عالماً لغوياً آخر ممن ألّفوا في النبات قد اهتم به على أن اهتمام أبي حنيفة أيضاً لا يتجاوز بعض الاشارات الصغيرة· نذكر من ذلك مثلا قوله عن « أسحار » أن له حباً يؤكل ويتداوى به ، وفي ورقه حروفة لا يأكله الناس ولكنه ناجح في الابل »(٣٤) وقوله عن « الايدع » أنه « تداوى به الجراحات »(٣٥) ، وقوله عن « أم وجع الكبد » أنها سميت بهذا الاسم «لأنها شفاء من وجع الكبد والصفراء· اذا غص بالشرسوف يسقى من عصيرها » (٣٦) ، وقوله عن « الاسحفان » أنه غير صالح للرعي « ولكن يتداوى به من النسا »(٣٧) ·· الخ ·

وما يمكن استنتاجه مما سبق هو أن أباحنيفة قد طور التأليف في كتب النبات اللغوية وأدخل عليه منهجاً جديداً لم يكن متعارفاً من قبله عند علماء اللغة · وأهم سمات ذلك المنهج الجديد احلال أبي حنيفة في كتابه ما نريد تسميته بـ « الفقرة النباتية » ونعني بالفقرة النباتية التعريف المتكامل بالنبات ، وهي مما اختصت به كتب الأطباء والصيادلة المؤلفة في الأدوية المفردة وقد ركزها هؤلاء على أركان قارة متفاوتة العدد من عالم لآخر ، وقد ظهر منها في كتاب أبي حنيفة أربعة أركان : أولها التعريف اللغوي المحض ، وثانيها التعريف العلمي بخصائص النبات ، وثالثها التعريف بمنافعه ، ورابعها التعريف بمواضع نباته · ونذكر من الفقرات « التامة » عنده ما أورده في مادتي « ثيل » و « حناء » : فقد عرف النبات الاول بقوله قال أبو عمرو : الثيل يقال له النجم ، والواحدة نجمة (···) ، وقال بعض الرواة : الثيل نبات يشبك الأرض (···) ورقه كورق البر الا أنه أقصر ونباته فرش على الأرض يذهب ذهاباً بعيداً ، ويشتبك حتى يصير على الأرض كاللبدة ، ولذلك سمي الوشيج (···) وله عقد كثيرة وأنابيب قصار، ولا يكاد ينبت الا على ماء أو في موضع تحته

ماء ، وهو من النبات الذي يستدل به على الماء(٣٨) ، وعرف النبات الثاني بقوله : « حناء » : واحدته حناءة ، وبه سمي الرجل حناءة ، وأصله الهمز (٠٠٠) وشجر الحناء شجر كبار مثل شجر السدر ، وللحناء فاغية وهي نورته ، وبزره عناقيد متراصفة اذا تفتحت أطرافها شبهتها بما ينفتح من الكزبرة الا أنها طيبة الرائحة ، واذا تحات نوره بقيت له حبة غبراء صغيرة أصغر من الفلفلة (٠٠٠) وشجره يورق في العام مرتين، أي يؤخذ ورقه، والحناء بأرض العرب كثير • فاما الخضاب فقد وصفناه في باب ما يختضب به من النبات »(٣٩) •

على أن هذه الطريقة لم تكن ــ فيما يبدو لنا ــ من ابتكار أبي حنيفة • فهي قد ظهرت لاول مرة في كتب الأدوية المفردة، وأول كتاب ــ حسب علمنا ــ عرف فيه العرب هذه الطريقة هو كتاب «المقالات الخمس» ــ ويسمى أيضاً « كتاب الحشائش » لديوسقريدس ، وقد نقل هذا الكتاب الى العربية في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة ، وقد كان له أثر واسع فيما الف العرب في الأدوية المفردة منذ القرن الثالث• وليس غريباً من عالم موسوعي مثل ابي حنيفة أن يسعى الى الاطلاع على تلك المؤلفات وأن يقتبس منها • ولعل أصدق دليل على ذلك ميله الى ذكر الخصائص العلاجية لبعض النباتات ، ثم اشارته في احدى مواد كتابه الى « المتطببين » ــ وهم الأطباء ــ فقد قال عن « العنصل » ــ فيما رواه عنه ابن البيطار ــ : « ويعظم حتى يكون مثل الجمع ، ويقع في الدواء ، ويقال له العنصلان أيضاً ، واصوله بيض (٠٠٠) والمتطببون يسمونه « الاشقيل »(٤٠) الا أن هذا الاقتباس من الكتب الاخرى لا ينقص من أهمية أبي حنيفة وكتابه في تاريخ علم النبات عند العرب ، ولو لم يكن له الا فضل جمع المادة النباتية العربية وتبويبها تبويباً علمياً منهجياً لكفاه ذلك فخراً •

٢ ــ مرحلة الترجمة :

لقد عني العرب من بين ما عنوا به من العلوم الأعجميه بعلم النبات ، ولكن عنايتهم به تعتبر ضئيلة اذا قيست بما أولوه للطب والفلسفة من عناية• فالكتب النباتية الأعجمية التي وصلتنا ترجماتهم لها نادرة جداً ، ولا يبلغ عددها الخمسة وهي :

أ ــ **كتاب « النبات » لأرسطو :** قد وصفه اليعقوبي (ت : بعد ٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م) في « تاريخه » وقال عنه انه « في الابانة عن علل النبات وكيفياته وخواصه وعوامه وعلل أعضائه والمواضيع الخاصة به وحركاته »(٤١) ولكن يبدو أن العرب لم ينقلوا هذا الكتاب بل نقلوا تفسيره الذي وضعه نيقولاوس الدمشقي، وقد نقل هذا التفسير اسحاق بن حنين وأصلحه ثابت بن قره(٤٢) بعنوان « تفسير كتاب أرسطاطاليس في النبات » •

ب ــ **كتاب « أسباب النبات لثاوفراسطس » :** (٣٧٢ ــ ٢٨٧ ق.م) وهو كتاب يبحث في الفروق بين النباتات ، اعتماداً على فلسفة أرسطو ، وقد عرب هذا الكتاب ابراهيم بن بكوس(٤٣) •

ج ـ كتاب « في النبات » لجالينوس : ولا نعرف عن هذا الكتاب وترجمته العربية شيئا لانه قد ضاع ولم يبق الا في ترجمة لاتينية موضوعة عن النص العربي(٤٤) ٠

د ـ كتاب « الحشائش » لديوسقريدس : (من القرن الأول الميلادي) ويسميه العرب كتاب « الخمس مقالات » ايضا ، لانه مقسم الى خمس مقالات ، وهو في الحقيقة ليس كتاباً خالصا في النبات بل هو في الادويه المفردة قد تحدث فيه مؤلفه عن المنافع العلاجية لعدد هائل من المواد المنتميه الى المواليد الثلاثة ، النبات والحيوان والمعادن ، الا أن حظ المادة النباتيه كان أغلب ، ولذلك سمي بكتاب الحشائش ٠ ومؤلفه ـ ديوسقريدس ـ قد عرف نباتيا قبل اي شيء آخر ، فقد احتوى كتابه على حوالي ٥٠٠ نبات جديد ٠ وقد اعانه على اكتشاف هذا العدد الكبير من النباتات ترحاله الطويل وخاصة في رفقة الجيش الروماني الذي عمل معه ـ فيما يبدو ـ جندياً طبيبا حوالي ثلاثين سنة (٤٥ـ٧٥م) ٠ وقد حظي كتابه بمنزلة رفيعة بين اليونانيين أنفسهم ، فقد قال فيه جالينوس : تصفحت أربعة عشر مصحفا في الأدوية المفردة لأقوام شتى فما رأيت فيها أتم من كتاب دياسقوريدس (٠٠٠) وعليه احتذى كل من اتى بعده وخلد فيه علماً نافعاً واصلاً جامعاً »(٤٥) ٠

لقي الكتاب حظوة كبيرة عند العرب ، فنقله حنين بن اسحاق (ت : ٢٦٦ هـ ـ ٨٧٣ م) الى اللغه السريانية ، ثم اعتنى به اصطفن بن بسيل ـ وهو أحد تلاميذ حنين ـ فنقله الى العربية من اللغة اليونانية مباشرة ، الا أن ترجمة اصطفن لم تكن جيدة فأعاد فيها حنين نفسه النظر وأجازها ، وقد كان ذلك في زمن الخليفة جعفر المتوكل (٢٤٢ هـ/٨٤٧ م ـ ٢٤٧ هـ/٨٦١ م)(٤٦) ، الا أن هذه الترجمة ـ رغم مراجعة حنين لها ـ قد بقيت تثير مشاكل جمّة ، وخاصة في مستوى المصطلحات ذلك أن كثيراً من الأدوية المفردة التي تضمنها الكتاب يونانية محض ليس لها مقابلات في اللغة العربية فكان نقلها الى العربية ـ لذلك ـ غير ممكن ٠ ثم ان من مصطلحات الكتاب ما له مقابل في العربية لكن المترجمين يجهلانه فكانا في مواضع كثيرة من الترجمة يكتفيان برسم المصطلح اليوناني بأحرف عربية راجين أن ياتي بعدهما من يستطيع اكتشاف المصطلحات العلمية العربية المؤدية للمصطلحات اليونانية المستعصية عليهما(٤٧) ٠ وقد لخص ابن جلجل الأندلسي ، فيما رواه عنه أبي أصيبعة ، هذه المشكلة بقوله : ان كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام في الدولة العباسية في أيام جعفر المتوكل وكان المترجم له اصطفن بن بسيل الترجمان من اللسان اليوناني الى اللسان العربي ٠ وتصفح ذلك حنين بن اسحاق المترجم فصحح الترجمة وأجازها ٠ فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية في وقته له اسما في اللسان العربي فسره بالعربية ، وما لم يعلم له في اللسان العربي اسماً تركه في الكتاب على اسمه اليوناني ، اتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربي »(٤٨) ٠

فالكتاب ـ اذن ـ في ترجمته العربية لم يكن سهل التناول لما يثيره من مشاكل في المستوى اللغوي الاصطلاحي خاصة ٠ فقد بقي فيه عدد هائل من النباتات مجهولاً ٠ وقد بقي تأثير الكتاب ـ لذلك ـ محدوداً في كتب الطب والصيدلة العربية طيلة القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وكان المؤلفون في الأدوية المفردة حذرين في الاعتماد عليه خشية الوقوع في

الخطأ • وذلك يعني أن نباتات كثيرة مما دخل الثقافة العربية عن طريق الترجمة بقيت غريبة مجهولة لم ينتفع بها ولم تأخذ حيزها في المعجم النباتي العربي الذي كان أبو حنيفة قد وضع أسسه • الا أن العلماء العرب لم يقفوا موقف العجز امام تلك المشاكل بل واصلوا الاهتمام بالكتاب وبترجمته البغدادية خاصة ، لرفع قناع العجمة عما بقي فيه مجهولاً من أعيان النبات خاصة • وقد كثرت ــ من أجل ذلك ــ مراجعات الترجمة البغدادية وشروحها ــ اعتماداً على الأصل اليوناني أحياناً ــ منذ النصف الاول من القرن الرابع للهجرة(٤٩) • وأهم تلك المراجعات اطلاقاً هي المراجعة التي تمت في الأندلس بعد أن أهدى ملك القسطنطينية الى الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م نسخة يونانية محلاة بالرسوم والصور من «كتاب الحشائش» ثم أرسل نفس الملك بطلب من الخليفة الأموي عالماً اسمه نقولا الراهب يجيد اللسانين اليوناني واللاتيني لاعانة علماء قرطبة على الاستفادة من تلك النسخة اليونانية الجيدة للكتاب وقد أقبل أولئك العلماء على الترجمة البغدادية يعيدون النظر فيها ويصححون أخطاءها ويزيلون العجمة عما بقي فيها مجهولاً من أعيان النبات خاصة • وقد لخص ابن جلجل ــ وقد كان أحد المراجعين ــ فيما رواه عنه ابن أبي أصيبعة النتائج التي انتهت اليها تلك الجماعة بقوله : « فصح ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما أزال الشك فيها وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف الا القليل منها الذي لابال به ولاخطر له، وذلك يكون في مثل عشرة أدوية(٥٠) الا أن هذه المراجعة ــ على أهميتها ــ لم تحل القضايا الاصطلاحية المتبقية في الترجمة البغدادية حلاً جذرياً وفعلياً ، لأن أصحابها ــ وان لم يستعص عليهم الا حوالي عشرة مصطلحات يونانية كما ذكر ابن جلجل ــ كانوا يلجأون في معظم الحالات الى «تعريب» المصطلحات الأعجمية اليونانية بمصطلحات أعجمية أخرى لاتينية بربرية ذلك ما جعل الانتفاع بها محدوداً لا يتجاوز بلاد الأندلس والمغرب وجعل الكتاب في حاجة الى مزيد من الشرح والتعريب •

وقد تصدى لتلك المهمة ــ فعلاً ــ ثلاثة من جلة علماء الأندلس هم **ابن جلجل** (ت : بعد ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م) في كتابه « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريديوس » وقد استفاد فيه من المراجعة الأندلسية خاصة فكان صدى لها ، ثم أبو العباس **أحمد بن محمد النباتي** (ت : ٦٣٧ هـ/٢٣٩ م) في كتابه « شرح أدوية دياسقوريدوس وجالينوس والتنبيه على أوهام مترجميها » ، ثم **ابن البيطار** (ت : ٦٤٦ هـ/٢٤٨ م) في كتابه « تفسير كتاب **ديسقوريدوس** » وآخر هذه الكتب الثلاثة كان أهمها لأسباب ثلاثة : **أولها** تمكن ابن البيطار من مادة « كتاب الحشائش » تمكناً لم يبلغه أحد من قبله بشهادة تلميذه ابن أبي أصيبعة الذي قال فيه « وأتقن دراية كتاب ديسقوريديس اتقاناً بلغ فيه الى أن لا يكاد يوجد من يجاريه فيما هو فيه »(٥١) ، وثانيها وقوفه على أعيان النباتات التي ذكرها ديوسقريديس في مواضعها وتحققه من أسمائها العربية في البلاد العربية نفسها أثناء رحلته العلمية الطويلة التي زار فيها بلاد اليونان وآسيا الصغرى وبلاد فارس ، اضافة الى كامل البلاد العربية ، وثالثها كونه آخر الشارحين، وذلك يعني استفادته من أعمال سابقيه الذين تناولوا « كتاب الحشائش » بالمراجعة والشرح • والمقدمة التي وضعها ابن البيطار لكتابه تبين

أن المشاكل التي يثيرها كتاب ديوسقريديس قد بقيت قائمة حتى القرن السابع الهجري ، فقد قال : « لما وقفت من كتاب الفاضل ديوسقوريدوس على ما تقصر عنه همم جماعة من المتشوفين ورأيت استعجام أسماء أشجاره وحشائشه على كافة المتعلمين وعامة الشادين وتواري حقائقه على غير واحد من الشجارين والمتطببين عزمت بعون الله تعالى على تقريب المرام في ترجمته وتسهيل المطلب في تفسير أسماء أدويته لأكشف عن وجه مقاصده قناع **« عجمته وابرزه كالبدر في هالته »**(٥٢) وقد تمكن ابن البيطار ــ فعلاً ــ اعتماداً على تجربته العميقة في دراسة النبات ومعرفته الواسعة بأعيانه من كشف قناع العجمة عن جلّ المصطلحات اليونانية التي بقيت مجهولة في ترجمة اصطفن وحنين بعد أن اكتشف تلك النباتات في البلاد العربية فعربها بالأسماء العربية التي تعرف بها ، ولم يستعص عليه الا عدد ضئيل من النباتات لا يتجاوز الخمسة ٠

وأهم النتائج التي نخرج بها عن مرحلة الترجمة هذه :

أ ــ أنها كانت مرحلة اتصال بين الثقافة النباتية العربية والثقافات الأعجمية ممثلة في الثقافة اليونانية ، وقد أفادت منها الثقافة العربية ايما افادة بالأخذ عن الثقافة اليونانية والاقتباس منها ، فتعرّف العرب أثناءها على نباتات جديدة اضافوها الى زادهم النباتي الذي كان أبو حنيفة من قبل قد عرف به ، فهي اذن مرحلة اقتباس واضافة ٠

ب ــ ان هذه المرحلة لم تتوقف في القرن الثالث للهجرة بترجمة كتاب ديوسقريديس بل تواصلت حتى القرن السابع بتناول هذا الكتاب بالمراجعة والشرح حتى أصبح على صورة مثلى في القرن السابع على يد ابن البيطار ٠

ج ــ ان هذه المرحلة كانت علمية لأن العرب قد تعرفوا ــ اعتماداً على ديوسقريديس ــ على الخصائص العلمية والمنافع الطبية لنباتات كثيرة توجد على أرضهم ، الا أن الجانب اللغوي الاصطلاحي فيها كان كبيراً أيضاً لا يستهان به ، ولذلك يمكن اعتبارها مواصلة للمرحلة الأولى ــ اللغوية ــ التي كان أبو حنيفة أحسن ممثل لها ٠

٣ ــ مرحلة الاهتمام الطبي بالنبات :

يعتبر النبات أهم المواليد الثلاثة في صناعة الأدوية لأنه أكثر تعدداً وتنوعاً وأيسر منالاً ٠ ولذلك كبر اهتمام الأطباء والصيادلة العرب به ٠ **فلم يخل كتاب من كتبهم من الحديث عن منافعه** ، وخاصة فيما أسموه **بالأدوية المفردة** ٠ الا أن الحديث عن الأدوية المفردة لم يكن دائماً مستقلاً عن الحديث العام في الطب والصيدلة بل كان جزءاً منه يفرد بباب خاص ضمن أبواب أخرى تتصل بالطب والصيدلة عامة ٠ وقد بدأت هذه الطريقة عند العرب منذ القرن الثالث الهجري وتواصلت حتى القرن الثاني عشر ٠ فهي الطريقة التي **اتبعها علي بن ربن الطبري** (ت: بعد ٢٤٠هـ/ ٨٥٥ م) في كتابه « **فردوس الحكمة** » الذي خصص الباب الأول من **المقالة الثانية** من النوع السادس منه للأدوية المفردة والمقاقير النباتية ، وأبو بكر محمد بن **زكرياء الرازي**(ت : ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م) في « الكتاب

الحاوي » الذي جعل القسم السابع منه « في صيدلة الطب » وأبو القاسم الزهراوي (ت: ٤٠٢ هـ/١٠١٣ م) في كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » الذي خصص بابه التاسع والعشرين للأدويه المفردة ، وأبو علي بن سينا (ت: ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) في كتابه « القانون » الذي خصص الباب الثاني منه للأدوية المفردة • وقد تواصلت هذه الطريقة حتى وقت متاخر اذ نجدها متبعة في « تذكرة أولي الألباب » للشيخ داود الانطاكي (ت: ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م) الذي خصص الجزء الأول من كتابه للأدوية المفردة ، وفي كتاب « الجوهر المكنون من بحر القانون » لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (ت: ١١٦٨ هـ /١٧٥٤ م) الذي تحدث في الجزء الرابع من كتابه عن الأدوية المفردة •

وهؤلاء العلماء وأمثالهم ممن عنوا بالأدوية المفردة عناية جزئية ـ لم يكونوا صيادلة ولا علماء نبات • لذلك غلب عليهم في أحاديثهم عن النباتات الاقتباس من غيرهم، والاهتمام بمنافع النباتات العلاجية أكثر من الاهتمام بالنباتات في حد ذاتها •

على أن الكتب المستقلة المؤلفة في الأدوية المفردة كانت أكثر عدداً ، وقد بدأت في الظهور هي أيضاً منذ القرن الثالث للهجرة • ويبدو أن أول من ألف كتاباً مستقلا فيها هو اسحاق بن عمران (ت : ٢٩٤ هـ/٩٠٧ م) العراقي ثم الافريقي التونسي ، فقد وضع هذا العالم الفيلسوف كتاباً بعنوان « الأدوية المفردة »(٥٣) ، وقد ضاع هذا الكتاب ولم تبق منه الا شواهد أخذها عنه أحمد الغافقي في كتابه « الأدوية المفردة » وابن البيطار في كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » وجملة الشواهد الواردة منه عند بن البيطار ١٨٠ في ١٦١ مادة ، ثلاثة عشر منها في التعريف اللغوي أو التعريف بخصائص الأدوية واثنان وعشرون في النبات والمداواة وستة وثلاثون في النبات ، وأربعة عشر ومائة في المداواة والعلاج(٥٤) • وأهم ما يستنتج من تلك الشواهد : ان ابن عمران كان يبني مواد كتابه على اركان أساسية : أولها التعريف اللغوي وثانيها ذكر طبيعة النبات من حيث القوة والدرجة من الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة وثالثها وصف النبات وصفاً علمياً دقيقا ، ورابعها ذكر خواصه العلاجية من حيث المنافع والمضار ، وخامسها ذكر ابداله في حال انعدامه • ثم ان ابن عمران أدخل في كتابه نباتات جديدة كثيرة ما تعرف عليه في بلاد المشرق قبل مجيئه افريقية ، ولم يعرفه اليونانيون من قبله ، مثل الاذريون والبهمن والحماحم والخيارشنبر والريباس والشاهسفرم والصندل والقاقلي والقرنفل والمحلب ••• الخ الا أن هم ابن عمران الأكبر من حديثه على النباتات ـ القديمة والجديدة ـ كان البحث في منافعها الطبية فغلب على تعريفاته النباتية الايجاز والاختصار •

وقد تواصل التأليف في الأدوية المفردة والحديث عن النبات فيها في القرون التالية للقرن الثالث ـ حتى القرن السادس ـ على طريقة اسحاق بن عمران وخاصة في بلاد المغرب والأندلس • ومن أهم الكتب التي ظهرت في هذه المدة كتاب « الاعتماد في الأدوية المفردة» لابن جعفر أحمد بن الجزار القيرواني (ت : ٣٦٩ هـ/٩٨٠ م) وكتاب « الأدوية المفردة » لحامد بن يمحون (ت: ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م) وكتاب « الصيدلة » لأبي الريحان

البيروني (ت: ٤٤٠هـ / ١٠٤٨ م) وكتاب« الأدوية المفردة » لأبي المطرف عبد الرحمن بن وافد (ت: بعد ٤٦٠ هـ/١٠٦٨ م)والكتاب الأول من بين هذه الكتب أي كتاب « الاعتماد » ـ يستحق أن نقف عنده قليلا لأهميته التاريخية والعلمية ٠ فقد ألفه ابن الجزار قبل سنة (٣٣٤ هـ/٩٤٥ م) وكان غرضه من تاليفه اتمام أوجه النقص عند سابقيه ممن تحدث في الأدوية المفردة ، من القدماء ـ أي اليونانيين ـ والمحدثين ،ويعني بهم العرب وقد لخص ابن الجزار أوجه النقص عند سابقيه في مقدمة كتابه بقوله: «ان معرفة الأدوية المفردة ومنافعها باب عظيم القدر جليل الخطر في صناعة الطب ولم ار لاحد من الأوائل المتقدمين ولا لمن تشبه بهم وقفا آثارهم من المتعقبين في ذلك كتاباً جامعا مرضيا ولا كلاما شافيا بحسب ما يجب أن يؤلف في هذا الباب الكريم المنفعة العظيم الفائدة في معالجة الأسقام والأدواء الا الرجل الذي يسمى دياسقوريدوس ، وجالينوس ، فان هذين الرجلين لا نهاية وراءهما ولا حجابة بعدهما فيما عانياه من هذا الفن ٠ غير ان وجدنا ما عانيا من ذلك قد لحقه التقصير عن بلوغ نهاية المدح في ثلاثة أوجه : أحدها ان دياسقوريدوس ذكر أكثر منافع الأدوية ومضارها ومناسبها والمختار منها ، ولم يذكر طبائعها ولا كميتها وقوة كل واحد منها في أي درجة هو من حرارة أو برودة أو رطوبة أو يبوسة ٠ فأما جالينوس فانه ذكر قوى أكثرها ولم يبالغ في ذكر منافعها ومضارها وخواصها المخصوصة بها (٠٠٠) والوجه الثاني : ان كثيراً من الأدوية التي ألقاها في كتبهما مجهول غير معروف في اللسان العربي وكثير منها معدوم غير موجود ٠ والوجه الثالث : انهما تركا ذكر كثير من الأدوية المفردة التي لا غناء لأحسن الأطباء عن عملها ومعرفتها لعموم منفعتها وكثرة الحاجة الى استعمالها ، فانما يوجد القول عليها مفرقاً في كتب كثيرة وأماكن مختلفة ٠ فلما كان الأمر في هذا الفن من العلم على ما بينا حملنا على العناية بتأليف كتاب أذكر فيه الأدوية التي عليها اعتماد الأطباء في معالجة الأدواء » (٥٥) ٠

قسّم ابن الجزار كتابه الى اربع مقالات، ورتب الأدوية المفردة فيه حسب قواها ، فجعل أدوية الدرجة الأولى في المقالة الأولى وأدوية الدرجة الثانية في المقالة الثانية ، وأدوية الدرجة الثالثة في المقالة الثالثة وأدوية الدرجة الرابعة في المقالة الرابعة ، وهو ترتيب صعب يدل على مدى خبرة ابن الجزار بطبائع الأدوية وقواها٠ وجملة الأدوية التي تحدث عنها ٢٧٨ دواء تتنزل الأدوية النباتية بينها المنزلة الأولى ، اذ يبلغ عددها ٢١٩ دواء ، أما بقية الأدوية فمعظمها معدني(٥٦) ٠

وعند النظر في مواد هذا الكتاب النباتية نلاحظ بلوغ مرحلة الاهتمام الطبي بالنبات عند العرب درجة من النضج كبيرة ، ذلك ان معرفة العرب بالنباتات الطبية قد بلغت مع ابن الجزار درجة فائقة من الدقة والوضوح ،فهم قد خبروا قواها وطبائعها خبرة جيدة جعلت ابن الجزار يرتب مواد كتابه حسب تلك القوى والطبائع ، ثم انهم قد أجادوا معرفة منافع النباتات العلاجية وذلك ما جعل ابن الجزار يطيل الحديث في تلك المنافع ويتوسع فيه توسعاً ظاهراً(٥٧) الا أن تلك المعرفة الدقيقة بالخصائص الطبية لم تصحبها معرفة

تماثلها بتجنيس النبات وتصنيفه • فالخلط بين الحشيش والشجر مثلاً ما زال قائماً وكل نبت يمكن أن يسمى شجراً وحشيشا في نفس الوقت ، ونورد من هذا الخلط عند ابن الجزار مثالين : أولهما قوله عن« الاسطوخودوس » أنه حشيشة ذات ورق وقضبان تعلو عن الأرض ذراعين واكثر وأقل،وهي شجرة تشبه شجرة « الاكليل »(٥٨) ، وقوله عن « الشيلم » وشجرته حشيشة تعلو على الأرض الذراع وآكثر وأقل(٥٩) ثم ان التصنيف النباتي قد بقي عندهم على ما كان عليه عند ديوسقوريديس من قبلهم فلم ينتبهوا ــ مثله ــ الى تصنيف النباتات حسب فصائلها (Familles) بل بقيت عندهم مصنفة حسب أنواعها (Especes) وضروبها (Varietes) على أنهم قد تمثلوا في الحقيقة هذا النوع الأخير من التصنيف تمثلاً واضحا وان لم يخل عندهم من التشويش والاضطراب • وأنواع التصنيف حسب الضروب التي يقدمها لنا ابن الجزار في كتاب « الاعتماد » تبلغ التسعة: وهي التصنيف حسب اللون ، كأن يكون من النبات أحمر وأبيض(٦٠) ، وحسب لون النوار ، كأن يكون من النبات أصفر النوار وبنفسجيه وأبيضه(٦١) وحسب هيئة النبات، كأن يكون من النبات طويل ومدور(٦٢) ،وحسب هيئة الورق أو الحب أو الأغصان ، كأن يكون من النبات كبير الحب، وصغيره(٦٣)،أو كبير الورق صغير الأغصان ، وكبير الورق والأغصان(٦٤) وحسب حجم النبات كأن يكون منه كبير وصغير(٦٥) ، وحسب المنبت ، كأن يكون من النبات بري وبستاني(٦٦) أو بري وبستاني وجبلي(٦٧) أو بستاني وجبلي ومائي(٦٨) ، وحسب زمن ظهور النبات ،كأن يكون منه صيفي وشتوي(٦٩) ، وحسب المنطقة الجغرافية التي يكثر النبات فيها ومنها يستجلب ، كأن يكون منه عدني وحبشي(٧٠) وحسب « جنس » النبات ، حسب التذكير والتأنيث ، فيكون منه الذكر والأنثى(٧١) •

لقد أخذ ابن الجزار هذه الأنواع من التصنيف عن ديوسقريديس ثم عن اسحاق بن عمران • ولكنه لم يحفل في الغالب بالبحث عن ضروب أخرى من النباتات التي تحدث عنها ، بل انه على عكس ذلك كان في أحيان كثيرة يلجأ الى حذف ضروب نباتية ذكرت قبله معتبراً الحديث عنها غير مجد ، اما لأنها مجهولة عند العرب ، أو لأنه هو ذاته يجهلها • ومن أهم الأمثلة على هذا المنحى عند ابن الجزار نبات « اليتوع » الذي ذكر له ديوسقريديس سبعة ضروب(٧٢) وفصل الحديث عنها • ولم يذكر له ابن الجزار الا الضربين الأول والثاني فقط عند ديوسقريديس ، أي الذكر والأنثى(٧٣) • ولا شك أن سبب هذا الاهتمام الضئيل بالنبات في حد ذاته عند ابن الجزار هو كونه طبيباً وصيدلياً تهمه من النبات منافعه العملية العلاجية ، وليس عالم نبات يستهويه البحث في خصائص النبات العلمية المحض •

ولم يشذ عن ابن الجزار في الحقيقة الأطباء والصيادلة اللاحقون له طيلة القرنين الرابع والخامس الهجريين ، في اتباع هذا المنحى • على أننا نريد أن لا نغمط هؤلاء حقهم في تحقيق بعض التقدم في دراسة النباتات الطبية • الا أن ذلك التقدم لم يتجاوز في نظرنا اكتشاف بعض النباتات الجديدة ـ وخاصة في البيئة الأندلسية ــ التي أضيفت الى الرصيد القديم • أما البحث فيها فلم يخرج عن نطاق الاهتمام بالمنافع الطبية •

وقد ظل هذا المنحى سائداً حتى النصف الأول من القرن السادس الذي شهد ظهور كتاب جليل بحق في تاريخ « النباتات الطبية » عند العرب، ونعني به كتاب « **الأدوية المفردة** » **لأبي جعفر أحمد بن محمد الغافقي** (ت : ٥٦٠ هـ/١١٦٥ م) .

ان المطلع على القسم المتبقي من هذا الكتاب(٧٤) يتبين لمؤلفه ميزة لا نعرف أن أحداً من الأطباء والصيادلة العرب السابقين له قد توفرت له وهي كونه نباتياً وعشاباً ، اضافة الى كونه طبيبا وصيدلانياً . وقد نتج عن تلك الميزة عنده تفوق ظاهر على سابقيه من العلماء ، وخاصة في معرفة المادة النباتية القديمة ، والبحث عن النباتات الجديدة والكشف عنها ، والاهتمام في دراسة النباتات بالخصائص العلمية المحض أكثر من الاهتمام بالمنافع العلاجية . ويبرز الجانب الاول عند نقده الشديد للأطباء والصيادلة السابقين له، لعدم تحريهم ولتقليد بعضهم البعض(٧٥) ثم المامه الدقيق بالمادة النباتية في كتاب « المقالات الخمس » لديوسقريديس ، وقد مكنه ذلك من ادراج معظمها في كتابه والكشف عن الكثير من أسماء النباتات التي بقيت مجهولة في ترجمة الكتاب العربية(٧٦) . ويظهر الجانب الثاني عنده في اضافته نباتات جديدة أو ضروباً جديدة من نباتات كانت معروفة من قبل ، وقد وقف على ذلك جميعاً في بلاد الاندلس(٧٧) . والنباتات التي اضافها في أبواب الكتاب السبعة الاولى (أ – ز) أحد عشر نباتاً ، هي « الامليس »(٧٨) « اذن الأرنب »(٧٩) و « الأطرمالة »(٨٠) و « الانجبار »(٨١) و « الريشانة »(٨٢) و « البلغتة »(٨٣) و « البشنة »(٨٤) و « البدد »(٨٥) و « البربيلة »(٨٦) و « الهذيلية »(٨٧) و « الوطم »(٨٨) .

وأما الضروب الجديدة التي أضافها في تلك المواد نفسها من كتابه فسبعة ، ثلاثة منها للأسارون(٨٩) واثنان للأصوخ(٩٠) واثنان للأشنان(٩١) . ويدل على المظهر الثالث عنده احتفاله الكبير بوصف النباتات – التي أضافها خاصة – وصفا دقيقاً مركزاً على الملاحظة العلمية المحض واهماله الظاهر منافع النبات العلاجية التي لا يشير اليها الا لماما في بعض الأحيان(٩٢) أو يهملها اهمالاً كلياً في أحيان أخرى(٩٣) . الا أن الغافقي – رغم أهمية مساهمته في التقدم بالبحث النباتي عند العرب – لم يكن بمنجاة من الخطأ(٩٤) ولم يبلغ مستوى عالم آخر لاحق له ، هو أبو محمد عبدالله بن احمد ابن البيطار .

لقد شغل الطب والنبات ابن البيطار (ت : ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م) لكن النبات كان عليه أغلب حتى نسب اليه فسمي « النباتي »(٩٥) و « العشاب »(٩٦) . وابن البيطار يستحق في الحقيقة هاتين الصفتين عن جدارة لأننا لا نعرف عالماً آخر – عدا أستاذه أبي العباس النباتي – قد خص النبات بمثل ما خصه هو به من العناية والبحث فطلبه في مظانه وارتحل من أجله لاحكام معرفته به .

وقد ابتدأ اهتمام ابن البيطار بالنبات منذ شبابه الأول فعشب في بلاد الأندلس وتعرف على محيطها الطبيعي النباتي وخاصة صحبة أستاذه أبي العباس أحمد بن محمد النباتي ، ثم غادر الأندلس في رحلة علمية نباتية طويلة لم يعد بعدها الى الأندلس كان يقيم أثناءها في كل بلد يحل به وينصرف الى دراسة نباتاته وأعشابه والبلدان التي مرَّ بها وأقام فيها هي – تباعاً – المغرب الأقصى والمغرب الأوسط (الجزائر) وافريقية (تونس) وطرابلس الغرب

(ليبيا) ثم بلاد اليونان التي أخذ اليها طريق البحر من برقة، ثم تركيا فبلاد فارس والعراق وبلاد الشام والجزيرة العربية ومصر حيث انتهى به الترحال وعين رئيسا على سائر العشابين والصيادلة • ولم يتوقف في هذه المدة عن التعشيب ، فقد كان ينتقل بين القاهرة ودمشق للغرض نفسه ولأغراض أخرى ، وكان له تلاميذ يصطحبونه في التعشيب منهم ابن أبي أصيبعة الذي قال انه شاهد « معه في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه »(٩٧) • وقد جعل هذا الاهتمام البالغ بالنبات وهذا البحث الدؤوب عنه من ابن البيطار « أوحد زمانه وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها » كما يقول ابن أبي أصيبعة(٩٨) ، بل لعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان ابن البيطار كان شيخ علماء النبات عند العرب القدامى وأعلمهم على الاطلاق بالنباتات وأحوالها ، رغم أن اهتمامه بها في كتاباته كان موظفاً لغايات صيدلية وطبية وليس للبحث في النبات في حد ذاته •

ويتبين صحة ما ذكرنا كل من اطلع على أربعة من كتب ابن البيطار ، هي « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ـ وهو أهمها ـ و « المغني في الأدوية المفردة » ـ وقد اطلعنا على الجزء الثاني منه فقط ـ و «تفسير كتاب ديسقوريدوس » وكتاب« الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام » • والمطلع على هذه الكتب الاربعة يخرج بثلاثة استنتاجات أساسية تبين أهمية اسهام ابن البيطار في تطوير المباحث العربية في علم النبات •

أولها : اطلاعه الواسع المعمق على ما كتبه سابقوه ومعاصروه ـ من أعاجم وعرب ـ في النبات ، وهو لم يطلع على ما كتبه أصحاب صناعته فقط من أطباء وصيادلة وعلماء طبيعة ، بل على ما كتبه علماء اللغة أيضاً ، وقد بلغ عدد العلماء الذين اعتمدهم في كتب « الجامع »مثلاً حوالي مائة وخمسين عالما من أمم مختلفة • وقد غربل ما كتبه أولئك العلماء ونخله وسجل منه في كتابه ما صح عنده ـ كما يقول ـ بالمشاهدة والنظر «وثبت عنده بالخبرة لا بالخبر »(٩٩) • ويسترعي الانتباه عند النظر في هذه الظاهرة هو اتقان ابن البيطار الدراية بالنباتات التي ذكرها ديسقريديس في مقالاته الخمس ويظهر تلك الدراية عنده أمران : هما استيعابه المادة النباتية الواردة في مقالات ديوسقريديس استيعاباً كلياً في كتابه « الجامع » وافراده كتاباً مستقلاً لتفسيرها وكشف قناع العجمة عنها • ويمكن لنا القول ـ انطلاقاً مما ذكرنا ـ أن معارف العرف والعجم في النبات ـ وخاصة في النباتات الطبية ـ قد بلغت عند ابن البيطار في القرن السابع الهجري حداً أقصى من « الهضم » والتمثل العلميين •

وثانيها : وهو متصل بالأول ـ وهو معرفته الفائقة بدقائق أعيان النبات وأحواله وخصائصه وأهم ما يعبر عن ذلك عنده نقده العلمي المنهجي الدقيق لأخطاء العلماء العرب الذين أخذ عنهم والتراجمة الذين نقلوا كتب الطب الأعجمية الى العربية • ومن العلماء الذين انتقدهم وأصلح أخطاءهم حنين بن اسحاق(١٠٠) واصطفن بن بسيل(١٠١) واسحاق ابن عمران(١٠٢)، والرازي(١٠٣) واسحاق بن سليمان الاسرائيلي(١٠٤) وأحمد بن الجزار(١٠٥) وابن جلجل(١٠٦) وابن سمجون(١٠٧) وابن سينا(١٠٨) وابن وافد(١٠٩) والشريف

الادريسي(١١٠) والغافقي(١١١) • والعالم الذي نال منه النصيب الأوفر من النقد هو ابن جزلة ، فقد انتقده في مواضع عديدة من كتاب « الجامع »(١١٢) وخصه بكتاب مستقل هو « الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام »(١١٣) • والانتقادات التي وجهها ابن البيطار للعلماء السابقين له مهمة جداً لأنها دالة على مدى قدرته على التمييز الصحيح بين أصناف النبات وأنواعه وفصائله. ونكتفي بالاشارة من ذلك الى ثلاثة أمثلة مما خلط فيه السابقون وأزال هو اللبس عنه ،**أولها** : تمييزه بين الأذخر والأسل وقد خلط بينهما الرازي وابن سينا وابن جزلة(١١٤) ،**وثانيها** : تمييزه بين أصناف « لوطوس » الثلاثة وهي الحندقوقى البري والحندقوقى البستاني والبشنين ، وقد خلط بينهما حنين ابن اسحاق ثم تواصل الخلط بعده حتى عصر ابن البيطار(١١٥) ، **وثالثها** : تمييزه بين الطباق والغافث ، وقد خلط بينهما أطباء المشرق والمغرب على السواء حتى عصر ابن البيطار أيضاً(١١٦) • وابن البيطار يلح على ضرورة التمييز بين أنواع النبات وأصنافه حتى لا يعطى نبات خصائص نبات آخر ، ولا يقع الطبيب في الزلل ويوقع من يأتي بعده فيه، وهو زلل لا يغتفر في نظر ابن البيطار(١١٧) • والاستنتاج الثالث ــ وهو الأهم ــ هو اضافة ابن البيطار نباتات جديدة من محض اكتشافه الى النباتات التي عرفها العرب من قبل سواء عن طريق الترجمات أو نتيجة التجارب الخاصة. اضافاته صنفان : **أولهما** ــ تمثله النباتات الجديدة جدة كلية باعتبارها نباتات مستقلة،**وثانيهما** ــ تمثله أصناف جديدة لنباتات قد عرفت قبله• أما النباتات الجديدة التي أضافها فعددها عشرة، هي آطريلال(١١٨) وأرجان(١١٩) وصفيراء وعاقرقرحا الحقيقية وكتسون وكثيله ومستعجلة • وأما الأصناف النباتية الجديدة التي أضافها فتبلغ سبعة عشر صنفا: صنفان للاقحوان وصنف للانتله هو الانتله البيضاء وصنفان للبشنين وصنف للبلوط هو البهش(١٢٠) وصنف غير شائك للحرشف هو الخريع وصنف للزقوم وصنف لشجرة مريم هو العبهر وصنف للقستوس هو الشقواص وصنف للغافث العراقي وصنف للقنب هو القنب الهندي وصنفان للمخلصة وصنفان للمشكطرامشير وصنف للبيش هو الطوارة • والجدير بالملاحظة عند النظر في هذه النباتات أو الأصناف النباتية الجديدة جميعها هو غلبة الحلية النباتية المحض على المنافع الطبية العلاجية • فالمهم الأول عنده هو التعريف بالنبات تعريفاً علمياً يرافقه في الغالب وصف معظم أجزاء النبات وخصائصه المخصوصة به من أصل وجمة وساق وعيدان وقضبان وأوراق وزهر وثمر وحجم وامتداد ولون وطعم وزمن وموضع • الا أن هذا التعريف عنده غير خاضع في الحقيقة لمنهج دقيق مضبوط لأنه قد يصف النبات من الأعلى الى الأسفل أو من الأسفل الى الأعلى ، كما أنه قد يبتدىء بوصف أجزاء النبات لينتهي بوصف خواصه أو يبدأ بوصف الخواص ليتدرج في وصف الأجزاء ، وقد يمزج في أحيان أخرى بين الأجزاء والخواص فترد متداخلة • وابن البيطار لم يشذ في هذا المنحى في الحقيقة ــ عن الأطباء والصيادلة الذين عنوا قبله بالنباتات الطبية ، فهو مثلهم لم يخلص العناية بالنبات لذاته بل لغرض أعم هو الطب والصيدلة فنظر مثلهم الى النبات

باعتبارها أدوية وأغذية، ولكن الذي ميزه عنهم هو أنه لم يكتف بالنقل والاقتباس كما فعل معظمهم بل بحث عن النباتات الطبية في مظانها فوقف على أعيانها وأشخاصها في مواضعها فشخصها وتحقق من ماهياتها فكانت خبرته لذلك بالنبات أكبر وكان علمه به أغزر وأوفى.

٤ ـ مرحلة الملاحظة العلمية المحض :

قد رأينا أن الاهتمام بالنبات في المراحل السابقة كان موظفاً لأغراض ثانوية غير النبات في حد ذاته . فلم تتكون لذلك مدرسة يمكن تسميتها بمدرسة علم النبات العربية. فلم يتح لتلك المدرسة أن تنشأ الا في النصف الأول من القرن السابع الهجري في الأندلس على يدي عالم فذ لكنه لا يزال مغموراً خامل الذكر هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الاشبيلي (٥٦١ هـ/١١٦٥ م ـ ٦٣٧ هـ /١٢٣٩ م) الذي اشتهر باسم أبي العباس النباتي في كل المراجع التي تحدثت عنه لغلبة الاهتمام بالنبات عليه . ومن طرائف هذا العالم أن اجتمع عنده علمان تميز فيهما قل أن اجتمعا عند غيره من قبل: هما علم الحديث ـ حتى سمي بأبي العباس الحافظ وأبي العباس المحدث ـ وعلم النبات . وقد كان في الفقه ظاهرياً متعصباً لمذهب أبي محمد علي بن حزم . ويبدو ان هذا الميل الى الأخذ بالمظاهر في الفقه قد غلب عليه في مباحثه النباتية ، فتخلص من طريقة الرواية والاسناد ـ وقد أجادها في علم الحديث ـ والاعتماد على أقوال السابقين ليخلص الى البحث الميداني المحض ، بحثاً عن النباتات الجديدة التي لم يقع عليها سابقوه ورغبة في الكشف عن حقائق النباتات التي اشتبه أمرها على سابقيه فتناقلها بعضهم عن بعض دون تحلية أو وصف علمي دقيق . وقد حصلت له من ذلك البحث نتائج على غاية من الأهمية لم يسبقه أحد اليها وهو ما جعل أحد مترجميه يقول عنه : « ولم يزل باحثاً عن حقائقه ـ أي النبات ـ كاشفاً عن غوامضه حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ممن تقدم في الأمة الاسلامية ، فصار أوحد عصره في ذلك فرداً لا يجاريه أحد فيه باجماع من أهل ذلك الشأن » (١٢١) .

أخذ أبو العباس علم النبات « عن أبيه وعن جده وكانا قدوة في العلم به » ، ثم طاف بلاد الأندلس ـ شرقاً وغرباً ـ للتعشيب . ثم أخذ طريق المشرق سنة ٦١٢ هـ/١٢١٥م بنية الحج ورواية الحديث ودراسة النبات . وقد كان مسلكه في هذه الرحلة بطيئاً لأنه كان ينصرف في كل بلد يحل بـه الى ملاقاة العلماء ـ علماء الحديث خاصة ـ ودراسة النبات .

ومشاهداته النباتية التي وصلتنا تثبت أنه قد أقام بالمغرب الأقصى والمغرب الأوسط وافريقية وطرابلس الغرب وبرقة ومصر ـ حيث استبقاه ملكها الأيوبي ولكنه رفض ـ والحجاز ـ حيث أدى فريضة الحج سنة ٦١٣هـ/١٢١٦ م ـ والعراق وبلاد الشام التي عرج منها على صقلية ثم عاد الى الأندلس سنة ٦١٥ هـ /١٢١٨ م وبعد عودته جمع مختلف مشاهداته النباتية أثناء رحلته في كتاب سماه « الرحلة المشرقية » يبدو انه رتب مادته على

حروف المعجم • والمؤسف حقاً أن هذا الكتاب قد ضاع ولم يبق لنا منه الا مائة وثلاثة مواد في كتاب ابن البيطار - تلميذ أبي العباس - «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» والحقيقة أن سبعة وتسعين مادة فقط مـن تلك المواد نباتية، أما المواد الست الباقية ففي غير النبات

وعند النظر في هذه المواد النباتية المتبقية من الكتاب نلاحظ انها جميعها في الحقيقة جديدة ومظاهر الجدة فيها أربعة :

أولها طريقة التناول بالبحث والدرس• ذلـك أن أبا العباس هو أول مـن اعتنى اعتناء حقيقياً بالوصف الظاهري والتحلية العلمية الدقيقة للنباتات المدروسة وهـو يمعن في وصف أجزاء النبات المتحدث عنـه وذكر خصائصه المخصوصة به بامعان يدل على اهتمامه النباتي المحض فهو - عند الحديث عن النبت الواحد - غالباً ما يحيط بوصف الأصول والجمة والساق والعيدان والأغصان والقضبان والشوك والزغب والصمغ والرأس والورق والزهر والبزر وذكر الشكل والحجم والطول أو العرض والامتداد واللون والطعم وموضع الانبات وزمانه • وذلك الوصف الدقيق ليس له من هدف الا الاخبار عن ماهية النبـات المتحدث عنه مـن حيث هو نبـات فحسب، وليس غايته تعريف الناس بماهيته حتى يحسن اختياره ويصح استعماله في الطب• **فابو العبـاس من هذه الناحيـة كان أول من أخضع دراسة النبـات للملاحظة العلمية المحض المباشـرة** • على أنـه في الحقيقـة كثيراً ما يقـع في هنـة كانت غالبـة عند سابقيـه ، وهي الوصف بالتشبيه ، فيصف ورق نبات ما - مثـلا - أو زهرة أو ثمرة بتشبيهها - من حيث الخصائص خاصـة - بزهر نبات آخر أو ورقة أو ثمرة• مثال ذلك قوله في وصف النبت المسمى « اسـرار » : « ••• وهو على قدر ماصغر من شجر الرند، ورقه وزهره (كورقه) وزهره ويثمر ثمراً على قدر البندق كانه ما صغر من ثمر الخوخ، أزغب الى الطول ما هو ، وفيه يسير بشاعة (•••) ولهذه الشجرة صمغة لدنـة فيهـا بعض شبه بالكندر يضاف الى هـذا أن أبا العباس لم يخلص دائماً من ذكر منافع النبات في اشارات تتخلل أو تعقب الحديث عن صفات النباتات• الا أن تلك الاشارات عنده لاتتجاوز في أغلب الحالات الجملة الواحدة أو الجملتين وتلك المنافع عنده صنفان : قليلا ما تكـون طبية وغالباً ما تكون اجتماعية مثل استعمال النبات في الطعام أو الصباغة أو التزيين أو الغراء ••• الخ الا أن هاتين الظاهرتين لا تقللان من قيمة السبق الذي كان له في الاهتمام بالنبات في حد ذاته باعتباره علماً مستقلا غير موظف لغايات أخرى• وقد كان هذا الاهتمام عنده بالنبات المحض متعمداً اذ كان بامكانه أن يوظف دراسة النبات لغايات طبية محض لأنه كان طبيباً مشهوراً أيضاً ، جيد العلاج • وقد كان المستشرق الفرنسي لوسيان لكلرك (L. Leclerc) مترجـم ابـن البيطـار الى الفرنسية - وقد تفطن الى السبق منذ أواخر القرن الماضي ، فقال عنه : « لقد كان أبو العباس بين العـرب عالم النبات الأحق بهذا الاسم • فقد كان العلماء قبله يعتمدون عادة النقل والرواية ، وهو أول من صرف حياته الى دراسة النبات دراسة (ميدانية) مباشرة فتجاوز نظرة السابقين الى النباتات باعتبارها مجرد مفردات طبية • فابن جلجـل كان قد

كشف عن نباتات جديدة لم يذكرها ديوسقريديس ، ولكن اعتماده في ذلك كان على الكتب . والغافقي والشريف الادريسي كانا قد ادخلا في قائمة النباتات الطبية عدداً غير قليل من النباتات الجديدة . ولكن همهما لم يكن توسيع ميدان علم النبات المحض(...)

باختصار فان أبا العباس بين العرب لم يكن أول من عني فحسب بالملاحظة العلمية المحض في ميدان النبات ، بل كان أخصبهم اكتشافاً .

ومظهر الجدة الثاني عند أبي العباس النباتي هو تحليته لأول مرة نباتات قديمة كانت معروفة من قبل بأسمائها فقط أو كانت ماهياتها وخصائصها مثار اشتباه فقد كان أبو العباس ذا اطلاع واسع على ما ألف قبله في النبات . واذ كانت غايته نباتية محضاً فانه لم يهتم بالنباتات المعروفة التي أصبحت لا تثير شبهة أو اشكالا ، ولم يثقل كتابه بالنقول عن سابقيه مثل الذي يفعل المؤلفون في الأدوية المفردة ، بل سعى الى الوقوف على أعيان النبات بنفسه للتحقق من ماهياتها لوضع مدونة في النبات يضيف فيها جديداً . وقد أتاحت له تلك المعاينة المباشرة التعرف على ماهيات نباتات كثيرة كانت من قبل منقوصة الحلية أو مثاراً للاشكال ، وقد بلغ عدد هذه النباتات عنده خمسين نباتاً من جملة سبعة وتسعين . وهذه النباتات تنقسم الى ثلاثة أصناف : الأول ــ وهو الأقل عدداً ــ تمثله نباتات مغربية ــ بربرية بالخصوص ــ قد اكتشفها قبل القرن السابع بعض المؤلفين في الأدوية المفردة فتحدثوا عن منافعها الطبية وأبقوا حليتها العلمية منقوصة ومن هذه النباتات مثلا نباتا « آاكثار » و « ارجيتقنة » وقد كانا من اكتشاف الشريف ادريسي (ت : ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) في القرن السادس . والصنف الثاني تمثله نباتات قديمة ــ وعددها حوالي العشرة ــ معظمها قد ذكر في الكتب اليونانية وبعضها قد ذكر من قبل في كتب الأدوية المفردة العربية ، ولكن الاهتمام بمنافعها قد جعل المؤلفين السابقين يقصرون في وصف ماهياتها .

وقلة عدد هذا الصنف تعود بدون شك الى كون أبي العباس كان قد أفرد لشرح مفردات ديوسقريديس وجالينوس كتاباً مستقلا سماه « شرح أدوية ديسقوريدوس وجالينوس والتنبيه على أوهام مترجميها » ومن أمثلة هذا الصنف نذكر « سموط » و « عشرق » و «غبراء » و « قضاب مصري » و « ماميثا » وهذا المثال الأخير من أحسن الأمثلة للتدليل على نزعة أبي العباس في التحقيق ورغبته في اضافة الجديد . فلقد كان الأطباء والصيادلة في معرفتهم للماميثا عالة على ديوسقريديس ، فلم يصفوها في كتبهم اتكالا على وصف هذا العالم اليوناني لها . ولكن الماميثا من النباتات التي تثير الانتباه لموافقتها في ماهيتها موافقة كبيرة نباتاً آخر هو الخشخاش الساحلي أي الخشخاش المعروف بالمقرن ، وقد أدى هذا التوافق بين النباتين الى الخلط بينهما . وقد ناقش أبو العباس هذه المسألة نقاشاً علمياً دقيقاً نورد منه هذه الفقرة :

الفرق الثابت الذي لا يشكل ولا يحتاج معه الى فرق آخر ــ وقد خفي على من مضى من المحدثين ولم يعلمه كثير من المتاخرين ــ ان الخشخاش الساحلي فيه الحبة المتكتة وغير

المنكتة والماميثا المحققة النابتة في البرمستانمةالكون في كل سنة وتنحطم عند انتهاء الصيف. والمزدرع من الخشخاش الساحلي بالبساتين المسمى ماميثا عند أهل اشبيلية فان الذي ينبت منه على الأصل تنحطم أغصانه وتبقى ارومته ينبت منها في المقبل (...) واعلم أن الخشخاش المقرن والماميثا لا فرق بينهما في صورة الورق والزهر والثمر ولون الأصل من الصفرة التي فيها الا ما أنباتك به أولا وآخراً من اختصاص الماميثا بالبراري والأرض الطيبة واختصاص الخشخاش بالسواحل البحرية برمليها وبحجريها .

وكذا قد أعلمتك أن من الماميثا ما يكون في أسفل ورقه نكتة دكنة اللون ومنه ما لا نكتة فيه وكذا من أنواع الخشخاش ما يشبهه الا أن زهر هذا أحمر وسنفته قائمة فصار فيها خشونة بخلاف سنفة الخشخاش المقرن والماميثا فان زهر ثمرها معوج كالقرون .

والصنف الثالث من هذه النباتات نباتات عربية - وعددها الأغلب - من جزيرة العرب خاصة ، كان أبو حنيفة قد ذكرها في كتاب « النبات » لكنه لم يصفها ولم يحلها ، وقد اتكل المؤلفون في الأدوية المفردة بعده عليه فاكتفوا في الغالب بالقليل الذي عنده . وهذا الصنف في الحقيقة على قدر كبير من الأهمية لأن نباتاته في معظمها تنتمي الى أرض الجزيرة العربية والى ساحل البحر الأحمر بالخصوص ولولا تعريف أبي العباس بتلك النباتات تعريفاً علمياً دقيقا لبقيت في المؤلفات العربية مجهولة مثل نباتات أخرى كثيرة لم تصلنا الا في معاجم اللغة ومتونها . وقد جعل هذا المظهر المستشرق الفرنسي لوسيان لكلرك يشيد بقيمة كشوف أبي العباس ويعتبرها سبقاً مهماً وتكملة أساسية لمباحث العالم السويدي بطرس فورسكال - من القرن الثامن عشر - النباتية في أرض مصر والجزيرة(١٢٢) . ومن أمثلة هذا الصنف نذكر « ايهقان » و « بكا » و « تنوم » و « تمتم » و «جثجاث» و « حدق » ... الخ .

ومظهر الجدة الثالث عند أبي العباس هو اضافته أصنافاً جديدة لنباتات قديمة معروفة . وهذا المظهر يعتبر توسيعاً في ميدان علم النبات والمعارف السابقة فيه . وعدد الأصناف الجديدة التي أضافها سبعة عشر ، هي الاشراس وهو صنف من الخنثى والاكراز وهو الصنف الكبير غير المثمر من الطرنشولي والبابونق و هو الصنف الصغير من البابونج والصنف الصقلي من البردي والربل وهو صنف من البرنجاسف والصالبية وهو صنف صغير من الناعمة - الالالسفاقن والزيزفون وهو الصنف الذكر غير المثمر من الغبيراء والغبارية وهو صنف من مسبلس (Mespilus) اليوناني وسبعة أصناف من القرصعنه هي الأبيض الزهر والأخضر والمستدير الورق والأزرق والأبيض والساحلي والمر واللوفا وهو صنف من القوطوليودون والمثنان اللبني - أو البرقي ، نسبة الى برقه - وهو صنف من المثنان النابت في مصر وبلاد الشام .

وأما مظهر الجدة الرابع عند أبي العباس فاضافته نباتات جديدة اكتشفها هو ولم تكن معروفة قبله ، وعددها الجملي عشرون نباتاً من جملة سبعة وتسعين وهو عدد يعتبر مهماً جداً بالقياس الى عدد المواد المتبقية بين أيدينا من كتاب « الرحلة المشرقية » . وتلك

النباتات العشرون موزعة على أماكن مختلفةمن المواضع التي عشب فيهـا أبو العباس ٠ اثنان منها اندلسيان هما « بطرة »وعديسة،ونبـات واحـد رآه في المغـرب الأقصى هـو « القشروا » ، وخمسة نباتات رآها في افريقية هي « اكر البحر » و « زقشته » و« قزاح »و « قللجه » و « قلنجونة » وأربعـة رآهـا في الحجاز ـ وخاصة على ساحل البحر الأحمر هي « اسرار » و « شوره » و « عكرش » ـوهو غير الذي ذكره أبو حنيفة ـ و «علقم » وهو أيضاً غير النبات المعروف بهذا الاسـمن قبل ، وخمسة مشتركة قد شاهدها فيأكثر من موضع ، هي « بلان » وقد رآه في برقةوبيت المقدس و « ذنب الخروف » ـ وهـو نبات غير المعروف من قبل بهذا الاسم ـ ،وقدرآه في افريقية وبلاد الشام و « ششتره »وقد رآه في الأندلس وبلاد المغرب و « شطيبة » وقـد شـاهـد نباتـه في الأندلس وافريقيـة و « ليفيه » وقد وقف عليه في مصر والحجاز٠ أما النباتات الثلاثة الباقية فانه لم يصـرح بموضع معين شاهدها فيه ، وهي«شبرم آخر »و « صنين » و « غلقى » والمظنون عندنا أنه شاهد الشبرم والغلقي في الحجاز ففيحديثه عنها ما يوحي بذلك ٠

تلك أهم المظاهر الجديدة في تجربة هذاالعالم الطبيعي النباتية ٠ ولو وصلنا كتابه « الرحلة المشرقية » كاملا لأمكننا بدون شكتبين مظاهر جديدة أخرى فيه الا أن هـــذه المظاهر الجديدة الأربعة كافية في نظرنالتنزلأبا العباس المنزلة الأولى بين العلماءالطبيعيين العرب الذين اهتموا بالنبات وتجعلنا نعتبرهصاحب مذهب ومدرسة في تاريخ علم النبات عندالعرب ٠ الا أن المذهب الذي ذهبـه أبوالعباس والمنهج الذي سنه في دراسة النبـات قد توقفا بعده ولم يكن لهما حظ من الوجود،الا ما رأيناه عند تلميذه ابن البيطار وقد كان له معاصراً ، الا أن عمل ابن البيطـار كان نباتياً محضاً ولقد غلب بعد النصف الأول من القرن السابع مذهب التلميذ علـى مذهـب الأستاذ فاقبل العلماء على كتاب ابن البيطار ـ « الجامع » ـ يلخصونه ويختصرونـه وينتجعون منه لغايات طبية علاجية ، ونسـي كتاب « الرحلة » لأبي العباس وأهمل المنهج الجديد الذي أدخل لأول مرة في المباحث النباتية العربية ٠

خاتمـــــة

تلك هي المراحل الأساسية التي مر بهـا علم النبات عند العرب ٠ فقد بدأ الاهتمـام بالنبات عند العرب في اطار لغوي محض ثـم في اطـار التماس بين اللغات والثقافات عـن طريق الترجمة ثم في اطار الاهتمامات الطبية العلاجية وقد تخلل ذلك كله اهتمام من نوع آخر في اطـار المباحث الفلاحيـة ، لكن هـذا الاهتمام أيضاً لم يكن بعلم النبات المحض بل لغرض آخر غيره ٠ ولم تخلص العناية بالنبات المحض الا في النصف الأول من القرن السابع الهجري في محاولة فريدة وتجربة فذة من المؤسف أن لم يكن لها تواصل،وبعد هذا العرض الذي قدمنا لمختلف تلك المراحل ليس لنا الا أن نؤكد ما كنا ذكرناه في مقدمة هـذا البحث : فالتجربة العربية في علم النبات تجربة رائـدةليس لها سابق أو مثل في تاريخ علم النبات ، وهي تجربة متميزة في التراث العلمي الانساني سواء من حيث عـدد العلمـاء الذين اهتمـوا

بالنبات أو من حيث المذهب الذي ذهبوه فيدراسته والمنهج الذي سلكوه في مباحثه٠ فالأمم السابقة تشاركهم في الاهتمام بـه لأغـراض طبية وفلاحية ولكنهـم يمتازون على غيرهـم باخلاصهـم العناية به لذاتـه اذ جعلوا منـه علماً مستقلاً ٠

ولكن أين نحن اليوم من التجربة النباتية العربية القديمة ومن التجربة العالمية ؟

أول ما تجدر ملاحظته هو أنه لا يوجد عـالم عربي واحـد اليوم يمكـن أن ينعت بالنباتي كأبي العباس الاشبيلي أو تلميذه ابن البيطار في القرن السابـع الهجري ٠ وأبـرز الدلائل على ذلك ان معظم الدراسات الأساسية التـي وضعت في وصف المحيط النبـاتي العربي ـ مشرقية ومغربية ـ كانت من عمل أعاجم ، وبلغات غير العربية وأولئك الأعاجم هم الذيـن اكتشفوا النباتـات والأصنـاف النباتية الجديدة التي لم يعرفها العلماء العرب والعلماء السابقون لهم من قبل ٠ ثم ان التراث العلمي النباتي العربي القديم يكاد يكون اليوم في جملته مجهولا ، اذ لا يعرف الناس منه الا النـزر القليـل مما وصلنـا في « جامع » ابن البيطـار خاصة ٠ وأسباب ذلك الجهـل كثيرة نكتفي منها بأربعة :

أولهـا : بقاء ذلك التراث الى يومنا هـذا مخطوطاً مهملا لا ينتفع به، ولو اهتم به ونشر للناس لتـم استقراؤه استقـراء علمياً ومنهجيـاً والاستفادة منـه في مباحثنـا النباتية العربية الحديثة ٠

ثانيهـا : غياب المعجـم التاريخي الموسوعي العربي الذي يدون من اللغة العربية في كـل العصور وكل الأمصار العربية وفي كل مستويات اللغة ٠

ثالثهـا : عائق اللغـة ، ذلك ان معظم نباتيينا انما هم مهندسون درسـوا علم النبـات بلغات أجنبية في جامعات أجنبيـة والقطيعـة بينهـم وبـين التـراث النبـاتي العـربي كبـيرة ٠

رابعهـا : اهتمامنا ـ الى حـد الآن ـ في المجامع العلمية والجامعـات خاصة بالنقـل والترجمة من اللغات الأخـرى ، حتى انك تكاد لا تجد اليوم كتاباً عربياً واحداً في وصف النباتات العربية وغير العربية ، ولو على مثـال كتـاب « الرحـلة المشرقية » لأبي العباس النباتي ٠ وجل ما نجده معاجم مزدوجة اللغة أو متعددة اللغات منزلة العربية فيها ثانوية ٠ ثم هي في الغالب معاجـم اصطلاحيـة لغويـة وليست نباتية علمية تعنى بوصف ماهيات النبات وتحليته وتصنيفه ، يضـاف الى ذلك كونها موسوعات في علم الطبيعة ليست خالصة في النبات ، الا النادر منها ٠ وأهم تلك الأعمال « معجم العلوم الطبية والطبيعية » للدكتور محمد شرف (طبع سنة ١٩٢٦) وهو انكليزي عربي « ومعجم أسماء النبات » للدكتور أحمد عيسى (طبع سنة ١٩٣٠) وهـو لاتيني فرنسي انكليـزي عـربي ، ومؤلفـا هذين المعجمـين طبيبـان وثاني المعجمين في النبـات المحض لكنـه في المفردات النباتية ، وقد قام فيه مؤلفه بجهد كبير في استقراء ما توصل اليه ـ وهو قليل ـ من كتب التراث النباتي العربي ، ثم « معجم الألفاظ الزراعية » للأمير مصطفى

الشهابي (طبع سنة ١٩٤٣) وهوفرنسي عربي في النباتات الزراعية والحيوان خاصة و « الموسوعة في علوم الطبيعة » لادوار غالب (طبع سنة ١٩٦٥ في ثلاثة أجزاء) ، وهو معجم عربي لاتيني فرنسي انكليزي ٠٠٠٠ في مصطلحات مواليد الطبيعة الثلاثة : النبات والحيوان والمعادن ، فهو اذن في غير النبات المحض ٠ الا أنه يمتاز على المعاجم السابقة بخصلتين : ترتيب مواده على حروف الهجاء العربية ، وتعريف المواد فيه تعريفاً موجزاً علمياً دقيقاً بماهية المولود المتحدث عنه وخصائصه ٠ وآخر هذا الصنف من المعاجم « معجم مصطلحات النبات » (طبع سنة ١٩٧٨) ٠ وهو الجزء الخامس من « المعجم الموحد للمصطلحات العلمية في مراحل التعليم العام » ، من وضع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وهذاالمعجم انكليزي فرنسي عربي ، صغير الحجم ، لغوي اصطلاحي أساساً ٠ وميزته هي كونه في النبات المحض ٠ الا أن فيه عيباً كبيراً ظاهراً لكل عين ، هو احتكام واضعيه الى الاجتهاد الشخصي في ترجمة المصطلحات الانكليزية والفرنسية واهمالهم اهمالا يكاد يكون كلياً أعمال سابقيهم من محمد شرف حتى ادوار غالب ٠ أما العلماء العرب القدامى فكان بينهم وبين واضعي هذا الكتاب جدار سميك(١٢٣) ٠

وخلاصة القول : ان المرحلة التي يمر بها علم النبات عند العرب في العصر الحديث تشبه الى حد كبير المرحلة الثانية التي تحدثنا عنها في هذا البحث ، أي مرحلة النقل والترجمة ٠ ولسنا ندري الى متى ستتواصل هذه المرحلة ٠ وهي على كل حال متواصلة باقية ما دام علم النبات في البلاد العربية يدرس بلغات أعجمية ، وما دامت اللغة العربية في المؤلفات التي توضع في النبات ذات منزلة ثانوية ، وما دام نباتيونا لا يعرفون التراث العلمي النباتي العربي معرفة حقيقية جيدة ،ولا يعرفون طريق الرحلة داخل البلاد العربية وخارجها بحثاً عن النباتات في مظانها لمعرفة المتعارف منها معرفة أدق تفوق ما يصلهم عن طريق الترجمة واكتشاف الجديد الذي لم يكتشف بعد ، حتى يحيوا سنة اندثرت ، ومذهباً في العلم كان العلماء العرب القدامى السابقين اليه ٠

★ ★ ★

□ الحواشي :

١ ـ لقد اهتم العرب بالنبات ضمن اهتمامهم بعلم الفلاحة أيضا ٠ وقد أهملنا الحديث عمدا عن هذا الجانب متوقعين أن يتناوله غيرنا بالبحث في هذه الندوة ضمن البحث في علم الفلاحة عند العرب ٠

٢ ـ انظر حول الرسائل المؤلفة في هذه الفترة : Sezgin : GAS, 3/330-338 .

٣ ـ نشرها هفنر بعنوان « كتاب النبات والشجر لأبي سعيد الأصمعي » (ط ٢ بيروت ١٩٠٨ ، في ٤٨ ص) وأعاد نشرها عبدالله يوسف الغنيم وعلى هذه النشرة الثانية اعتمدنا في هذا البحث ٠ والملاحظ ان نسبة هذه الرسالة الى الأصمعي قد أثارت جدلا : انظر حسين نصار : دراسات لغوية ص ص ٦٩ ـ ٧٠ ٠

٤ ـ الأصمعي : كتاب النبات ، ص ص ٣ ـ ١٣ ٠

٥ ـ نفس المصدر : ص ص ١٣ ـ ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ و ٢٧ ـ ٣٣ ٠

٦ ـ نفس المصدر ، ص ص ١٩ ـ ٢٤ و ٣٦ ـ ٣٧ ٠

٧ ـ قد نشره برنارلوين (B. Leewin) وفيه مواد الحـروف(أ ـ ز) وسيكون على هذا الجزء اعتمادنا الأكبر في هـــذا البحث ، وعدد المواد فيه ٤٨٢ مادة ٠

٨ ـ أضاف مواد الحروف (س ـ ي) ، وسنعتمد هذا الجزءاعتمادا قليلا ٠

٩ ـ يذكر ابن النديم في الفهرست (ص ٤٤) انه قدم بغدادايام المهدي (١٥٤ هـ/٧٧١ م ـ ١٦٩ هـ ـ ٧٨٥ م) واقام بها أربعين سنة وقد كان شاعرا وألف في اللغة الا انه لم ينسب اليه كتابا في النبات ٠

١٠ـ المادة الأولى وحدها ـ أراك ـ فيها ثلاثون شاهدا : كتاب النبات ، ٢/١ ـ ١٠ ٠

١١ ـ من المواد التي ذكر فيها شواهد قرآنيـة : « أب » ،٣٨/١ ، و « جنا » ٩٢/١ « وحصاد » ١١٤/١ ، وحطام ١٤/١ و « خضر » ١٥٠/١ ، ومن المواد التي ذكر فيها شواهدمن الحديث « شبرم » ٦١/٢ و « غبيراء » ١٦٧/٢ و « غرقـد » ١٧١/٢ ٠

١٢ـ أبو حنيفة : كتاب النبات ، مادة « اثل » ١٧/١ ٠ وقداستغرق هذا الاستطراد أربع صفحات : ١٧ ـ ٢٠ ٠

١٣ـ انظر الثبت المفصل لمؤلفات أبي حنيفة في مقدمة حميـدالله الفرنسية للقسم الثاني من كتاب النبات، ص ص ٥٣ـ٥٦ ٠

١٤ـ انظر في القسم الأول من الكتاب المواد ٩٣ ص ٦٢ ،١٠٧ ص ٦٤ ، ١٠٩ ص ٦٥ ٠٠٠ الخ ٠

١٥ـ نفس المصدر ، المادة ١٠٥ ، ص ٦٤ ٠

١٦ ـنفس المصدر ، المادة ١٠٥ ص ٦٣ ٠

١٧ـ نفس المصدر ، المواد ١ ، ص ٤ ، ٤٢ ص ٤٠ ، ٤٤ ص ٤٠ ٠

١٨ـ نفس المصدر ، المواد ٤٥ ص ٤٠ ، ٩٩ ص ٦٣ ، ١٠٦ ـ١٠٧ ص ٦٤ ٠

١٩ـ نفس المصدر المادتان ٧٠ ص ٤٥ و ٨٧ ص ٥٤ ٠

٢٠ـ نفس المصدر ، المواد ٣٤ ص ٣٨ ، ٣٥ ص ٣٨ ، ٣٦ ص٣٩ ، ٣٧ ص ٣٩ ٠٠ الخ ٠

٢١ـ نفس المصدر ، المادة ٦٧ ص ٤٥ ٠

٢٢ـ نفس المصدر ، المادة ٤١ ص ٣٩ ٠

٢٣ـ نفس المصدر المواد ٣٩ ـ ٤٠ ص ٣٩ ، ٩١ ص ٦٠ ،٩٤ ص ٦٢ ٠٠٠ الخ ٠

٢٤ـ نفس المصدر ، المادة ٧٤ ص ٤٧ ٠

٢٥ـ نفس المصدر ، المواد ٣٨ ص ٣٩ ، ١١٨ ص ٦٨ ، ١٢٨ص ٧٢ ٠٠٠ الخ ٠

٢٦ـ نفس المصدر ، المواد ٩ ص ٢٥ ، ٩٣ ص ٤٠ ، ٨٠ ص٥٢ ٠٠٠ الخ ٠

٢٧ـ نفس المصدر ، تمهيد المحقق ، ص ٦ ٠

٢٨ـ نفس المصدر ، المادة ٢٢١ ، ص ١٠٢ ٠

٢٩ ـنفس المصدر ، المادة ٤٤٦ ، ص ١٩٨ ٠

٣٠ـ قد أحال اليه في المواد ١ ص ٣ ، ٧٢ ص ٤٦ ، ١٤١ ص٥٧ ٠٠٠ الخ ٠

٣١ـ نفس المصدر ، المادة ٨ ص ٢٣ ٠

٣٢ـ نفس المصدر ، المادتان ١ ص ٦ ، ١١٧ ص ٦٧ ٠٠٠ الخ ٠

٣٣ـ راجع التعليق ٢٦ ٠

٣٤ـ أبو حنيفة : كتاب النبات ، ٣٦/١ (المادة ٢٧) ٠

٣٥ـ نفس المصدر ، المادة ٣٨ ص ٣٩ ٠

٣٦ـ نفس المصدر ، المادة ٥٩ ص ٤٣ ٠

٣٧ـ نفس المصدر ، المادة ٦١ ص ٤٤ ٠

٣٨ـ نفس المصدر ، المادة ١٤٩ ص ٨٢ ٠

٣٩ـ نفس المصدر ، المادة ٢٢٧ ص ١٠٦ ٠

٤٠ـ انظر كتاب « الجامع » لابن البيطار ١٣٨/٢ ، وقد نقل حميد الله هذه الفقرة : كتاب النبات ، ١٥٦/٢ ـ ١٥٧ ٠

٤١ـ اليعقوبي : التاريخ ، ١٣١/١ ٠

٤٢ـ انظر الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٤ ، وعبد الرحمن بدوي ٠
Transmission de la philosophie grecque, p. 58 et 108.

٤٣ـ ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٥٢ ، وكذلك : ٣/٣١٣ ٠

٤٤ـ انظر سزكين في نفس المصدر السابق ، ٣١٤/٣ ٠

٤٥ـ عن « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل ، ص ٢١ ٠

٤٦ـ قد نشر هذه الترجمة قصير دبلار (C. Dublar) في الجزء الثاني من أطروحته :
"La Materia Medica de Dioscorides : transmission medieval y renacen tista" por Cesar E. Dubler (6 vol.) Iereed, Barcelona - Tetuan, 1952 - 1959.

٤٧ـ نذكر من تلك المصطلحات ـ مستخرجة من طبعة دبلار ـ مثلا : اسارون (ص ١٨) اصبالاتش (ص ٢٩) ، اغلوخن (ص ٣١) ، الانيون (ص ٣٤) ، اقاقليس (ص٨٧) ٠اليمون (ص ٨٨) ، اقاقيا (ص ٨٦) ، اطا (ص ٩٩) ، اغريالا (ص ١٠٠) ٠٠ الخ ، وكلها أسماء نباتات ٠

٤٨ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ٤٦/٢ـ٤٧ ٠

٤٩ـ انظر حول ترجمة الكتاب ومراجعاته وشروحه : « انتقال مقالات ديوسقريديس الى الثقافة العربية : ترجمة ومراجعة وشرحا » لابراهيم بن مــراد في مجلة « الصيدلي التونسي » ، ٦ (١٩٨٢) ، (ص ص ٤٤ ـ ٤٨) ٠

٥٠ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ٤٨/٢ ٠

٥١ـ نفس المصدر ، ١٣٣/٢ ٠

٥٢ـ ابن البيطار : تفسير كتاب ديسقوريدوس ، ص ١ ظهر ٠

٥٣ـ انظر : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ٣٦/٢ ٠

٥٤ـ انظر تفصيل الحديث عن تلك الشواهد في : « المصادر التونسية » ، لابراهيم بن مراد : ١٢٦/١ ـ ١٢٨ ٠

٥٥ـ ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص ص ١١٣ ظ ـ ١١٤ و، وانظر نص هذه المقدمة محققا في بحثنا « المصادر التونسية » ١٣٢/١ ـ ١٣٣ ٠

٥٦ـ عدد المواد المعدنية ٤٥ ، أما بقية المواد وعددها ١٤ فمختلفة الأنواع ٠ والملاحظ أن عدد الأدوية التي تحدث عنها ابن الجزار قليل اذا قيس بما انتهت اليه معارف عصره ،ولكن ذلك كان منه متعمدا ، فهو لم يتحدث عن الأدوية الحيوانية لأنه قد خصها بكتاب مستقل ولم يتحدث عن الأغذية ضمن الأدوية النباتية لأنه ألف فيها كتابا هو « مصالح الأغذية » وقد أوجز هو بنفسه أسباب اختصاره في كتابه بقوله : « واقتصرنا من كثير على قليل لوجوه : أحدها حب الاختصار وترك الآثار ، والثاني ان أبينا ذكر الأدوية التي هي مجهولة في بلدان العرب وان كانت عند أطباء العجم معروفة لقلة منفعتنا نحن بذلك ، والثالث ان ما كان منها مشهورا معروف والقول فيه يسير » ـ الاعتماد ص ٢١٦ وجه ٠

٥٧- انظر مثلا حديثه عن منافع « السوسن » (ص ص ١٥١ و - ١٥٢) و « السقمونيا » (ص ص ١٧٨ و - ١٧٩ و)، و « الغار » (ص ص ١٨١ و - ١٨٢ و) و « الكرفس »(ص ص ١٩٩ ظ - ٢٠١ و) « اليتوعات » ، (ص ص ٢٠٨ و - ٢٠٩ و) ٠

٥٨- ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص ١٢٩ ظ ٠

٥٩- نفس المصدر ، ٢٠٢ و ٠

٦٠- انظر مثلا : « الاشقيل » ص ١٦٢ و ، و « الحرف » ،ص ٢٠٤ و ٠

٦١- مثل « الخيري » ، ص ص ١٥٠ و - ١٥٠ ظ ٠

٦٢- مثل « الزراوند » ، ص ١٤٤ و ٠

٦٣- مثل « الابهل » ، ص ١٧٤ و ٠

٦٤- مثل « الخطمي » ، ص ١٦٣ و ٠

٦٥- مثل « لسان الحمل » ، ص ١٤٢ ظ ، و « الخروع » ،ص ١٥٩ و « القنطوريون » ص ١٦٣ و ، و « حي العالم » ص ١٨٩ و ٠

٦٦- مثل « السوسن » ، ص ص ١٥١ و - ١٥١ ظ ، و «النمام » ص ١٥٣ و ، « الرازيانج » ص ١٦٦ ظ ، و « السذاب » ، ص ٢٠٤ و ٠

٦٧- مثل « السعتر » ، ص ١٠٤ ظ ، ويضيف اليها صنفا رابعا هو « السعتر الكرماني » ٠

٦٨- مثل « الكرفس » ، ص ص ١٩٩ ظ - ٢٠٠ و ، والبستاني منه صنفان ، ثانيهما أرق وأصغر من الأول ٠

٦٩- مثل « الهندباء » ص ١٣٦ ظ ٠

٧٠- مثل « الابنوس » ص ١٦٧ ٠

٧١- مثل « اليتوع » ، ص ٢٠٨ و ، ٢١٠ و ٠

٧٢- ديوسقريديس : « المقالات الخمس ، ص ص ٣٦١ - ٣٦٤ ٠

٧٣- ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص ص ٢٠٨ و - ٢١٠ و ٠

٧٤- لم يبق - حسب علمنا - من أصل الكتاب الا النصف الأول ، من حرف الألف حتى نهاية حرف الكاف حسب الترتيب الأبجدي ، ويوجد لدينا منه صورتان شمسيتان لمخطوطتي الخزانة العامة بالرباط (رقم ق ١٥٥) ومكتبة اسلر في مونريال بكندا (رقم ٧٥٠٨) ٠ والمخطوطة الأولى تنتهي بنهاية حرف الزاي والثانية هي التي تنتهي بنهاية حرف الكاف ٠ وقد وصفنا هاتين المخطوطتين وحققنا منهما مقدمة الكتاب في بحثنا « أبو جعفر أحمد الغافقي في كتاب الأدوية المفردة ، دراسة في الكتاب وتحقيق لمقدمته » في مجلة « الصيدلاني العربي » (دمشق) و ٢ (١٩٨٢) ، ص ص ٧٠ - ٨١ ٠ ويوجد للكتاب أيضا مختصر كامل وضعه أبو الفرج غريغوريوس ابن العبري (ت : ٦٨٤/١٢٨٦م) وقد حقق منه ماكس مايرهوف وجورج صبحي وترجما الى الانقليزية الحروف الستة الأولى من الألف حتى نهاية حرف الواو ٠
The Abriged version of "the book of simple drugs" of Al-Ghafiqitranlated and published by Max Mayerhof and G. P. Soghy, Ist ed, Cairo, 1932 - 1940 (4 vol).

٧٥- يقول الغافقي في ذلك : « ومن نظر في كتبهم وجد فيها من الاختلاف ما لا مزيد عليه حتى يتحير ولا يعرف الحق من الباطل ٠ وترى أكثرهم متبعين بعضهم بعضا مقلدين في غلطهم لأقدمهم ، اذا غلط واحد منهم رأيت جماعة تتبع غلطه وتخطيء بخطئه وهذا دليل على أنهم لم يكتبوا ما كتبوه في كتبهم ببحث وطلب ولكن انتسخ بعضهم ممن تقدمه من كتابه نسخا ، فما أخطأ فيه تابعه على خطئه وما أصاب وافق فيه معه ، فليس ينبغي أن يلام أحدهم ان أخطأ ولا يحمد ان أصاب ٠ بل ينبغي أن يلام الكل منهم لوما واحدا على توانيهم في البحث وقلة فحصهم على الحقائق (٠٠٠) ومنهم من غلط في الجمع بين الاقاويل كما فعل ابن وافد حيث يجمع بين كلام ديسقوريدوس في دواء ويضيفه الى كلام جالينوس في دواء آخر وهو يظن أنهما واحد ٠ وهذا الى ما حرف من كلام جالينوس وأفسده وأخرجه

عن معناه وأساء العبارة عنه وصحف عليه مما يطول ذكره . ومنهم من يكذب كما فعل ابن سينا في مواضع كثيرة من أدويته حيث يحكي عــن ديسقوريدوس وعن جالينـوس‌ما لم يقولاه . وبالجملة ما من احد تكلم في أحد هذين الغرضين المذكورين في صدر هذا الكتاب الا وقد غلط الغلط‌الفاحش ، من الرازي الذي كان أولهم الى زماننا هذا » ـ الأدوية المفردة ص ص ٢ ـ ٣ (من مخطوطة الرباط) .

٧٦ـ قسم الغافقي كل باب من أبواب كتابه الى قسمين : الاول علمي يذكر فيه الأدوية ومنافعها ، والثاني لغوي تفسيري يشرح فيه الإسماء الواردة على ذلك الحرف في متن كتابه. وأغلب الأسماء المفسـرة من اليونانيـة ، فالعـدد الجمـلي للمصطلحات المفسرة في الأقسام التفسيرية من أبواب الكتا ب الاولى (أ ـ ز) يبلغ ١٤٨٨ منها ٦٦٥ مصطلح يوناني . أما البقية فمصطلحات عربية وفارسية وهندية ولاتينية.

٧٧ـ أشار الى ذلك في مقدمة كتابه بقوله « والحقت عـلى‌ذلك أيضا (أي الأدويـة التي تحدث عنها سابقـوه) بعض الحشائش الموجودة عندنا التي يستعملها أهل بلادنا ممالـم يذكرها احد ممن تقدمنا » ـ الأدوية المفردة ، ص ٤ .

٧٨ـ الغافقي : الأدوية المفردة ، ص ٦٠ .

٧٩ـ نفس المصدر ، ص ٦٤ .

٨٠ـ نفس المصدر ، ص ٦٤ .

٨١ـ نفس المصدر ، ص ٦٧ .

٨٢ـ نفس المصدر ، ص ١٥٥ ، وقد ذكره ضمن حديثه عـن« البهمن» .

٨٣ـ نفس المصدر ، ص ٧٦ .

٨٤ـ نفس المصدر ، ص ١٨٦ .

٨٥ـ نفس المصدر ، ص ١٨٧ .

٨٦ـ نفس المصدر ، ص ١٨٧ .

٨٧ـ نفس المصدر ، ص ٣١٠ .

٨٨ـ نفس المصدر ، ص ٣٢٤ .

٨٩ـ نفس المصدر ، ص ٨ .

٩٠ـ نفس المصدر ، ص ٦٣ .

٩١ـ نفس المصدر ، ص ٨٣ .

٩٢ـ انظر مثلا حديثه عن « الامليلس » و « اذن الارنب » و« الاطرمالة » و « البلختة » و « البشنة » و « البدد » و « البربينة » . وهذا مثال من مادة « اطرمالة » هـونبات له ساق تعلو نحو الذراع ، ليس عليها شعب ، ولـه ورق في أربعة صفوف متوازية ، والورق يشبه ورق الشهدانج الا أنه أصغر منه بكثير وله سنبلة نحو شبر منظومـة مرصفة بغلف ملتصقة بعضها فوق بعض مرتفعة والغلف‌مدورة مفتوحة الأفواه في شكل غلف البندق التي يكون فيهـا البندق الا انها أصغر بكثير داخلها ثمر كالبندق أيضا في‌شكله وهو في قدر الحمص في داخله بزر دقيق جدا أحمر الى السواد وعلى أعلى النبات لزوجه تدبق كالعسل وله‌زهر أبيض دقيق وربما كان أصفر ونباته في الأرض الجدبـة والقفر . وبزر هذا النبات يكتحل به فينفع من الجرب‌والسلاق ومن ابتداء الرمد البارد » ـ الأدوية المفـردة ، ص ص ٦٤ ـ ٦٥ .

٩٣ـ انظر مثلا حديثه عن الصنفين الأول والثالث من الاسارون ، الصف الثاني من الاشنان .

٩٤ـ قد ألف أبو العباس النباتي كتابا في نقده سماه «التنبيه‌على أغلاط الغافقي ذكره ابن عبد الملك المراكشي في الذيـل والتكملة ، ٥١٣/١ ، وابن الخطيب في الاحاطة ٢١٢/١ ،وانتقده ابن البيطار في مواضع كثيرة من كتابه « الجامع » انظر مثلا : ٤٠/٢ ، ٧٧/٢ ، ١٧٣/٣ و ٧٥/٤ .

٩٥ـ بذلك سماه ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ، ١٣٣/٢ ، وبذلـك سمي في بداية كتابيـه « التفسير » ، س ١ ظ و « الابانة والاعلام » ص ١ ظ .

٩٦- بذلك سمي في بداية كتابه « الجامع » ١/١ ٠

٩٧- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٣٣/٢ ٠

٩٨- نفس المصدر ، ١٣٣/٢ ٠

٩٩- ابن البيطار : الجامع ، ٣/١ ٠

١٠٠- نفس المصدر ، ٢٦/١ ، ٤٠/٢ ، ٤٥/٢ ، ١٣/٣ ، ٨٦/٤، ١٠٥/٤ ٠

١٠١- نفس المصدر ، ١٧٣/١ ٠

١٠٢- نفس المصدر ، ١٤٤/٣ ، ٢٠١/٤ ٠

١٠٣- نفس المصدر ، ١٦/١ ، ٤٠/٢ ، ٨٢/٤ ٠

١٠٤- نفس لمصدر ، ١٦٨/١ ٠

١٠٥- نفس المصدر ، ١٤٤/٣ ، ٢٠١/٤ ٠

١٠٦- نفس المصدر ، ٢٠/١ ، ٤٩/١ ، ١٧٣/٣ ٠

١٠٧- نفس المصدر ، ٤٠/٢ ٠

١٠٨- نفس المصدر ، ١٦/١ ، ١٤٣/١ ، ٤٠/٢ ٠

١٠٩- نفس المصدر ، ٩١/١ ، ١٤٨/١ ، ٤٠/٢ ، ٤٥/٢ ٠

١١٠- نفس المصدر ، ٥١/١ ، ٩٢/١ ٠

١١١- راجع التعليق ٩٤ ٠

١١٢- انظر في الجامع : ١٦/١ ، ١٤٣/١ ، ٤٠/٢ ، ٦٨/٣ ، ١٧٢/٣ ٠

١١٣- على صفحة هذا الكتاب الأولى عنوان آخر أعم هو« الابانة والاعلام بما في كتب المفردات من الأغاليف والأوهام » ولكن التسمية الأولى هي الصحيحة لأنهـا مذكورة في الصفحة الأخيرة من الكتاب ثم لأن ابن البيطار نفسه قد ذكره بهذا الاسم في مادة « حند قوقى بري » في كتاب « الجامع »، ٤٠/٢ ، و « المنهاج » هو « منهاج البيان فيما يستعمله الانســان » ٠

١١٤- انظر « الجامع » ١٦/١ ، ٢٦/١ ، و « الابانة » ص ص٥ أ - ٦ أ ٠

١١٥- الجامع ، ٤٠/٢ و ١١٦/٤ ، والابانة ، ص ص ٢٧ أ- ٢٩ أ ٠

١١٦- الجامع ، ٩٧/٣ و ١٤٤/٣ والابانة ، ص ص ٥٨ أ - ١٥٩ ٠

١١٧- يقول في ذلك : واعلم ان العالم أولى الناس بالتثبت والاحتياط لنفسه ولغيره ، وقد قالت الحكماء : لا تقال زله العالم لأنه يزل بزلته العالم » الجامع ، ٤٠/٢ ٠

١١٨- ابن البيطار : الجامع ، ٤/١ ٠

١١٩- نفس المصدر ، ٢٢/١ و ١١٢/٤ ٠

١٢٠ـ نفس المصدر ،١٢٢/١ ، وقد ذكر البهش قبله أبو حنيفة(كتاب النبات ٤٧/١ ، المادة ٧٣) لكن البهش عند أبي حنيفة هو « المقل ما دام وطبا وشجره الدوم » ٠

١٢١ـ ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، ٥١٢/١ ـ ٥١٣ ٠

١٢٢ـ Leclerc : Histoire de la medecine arabe, 2/246.
وكتاب فرسكال المشار اليه هو "Flora A Egyptica - Arabica" Hanniae 1775 .

١٢٣ـ الأمثلة الدالة في هذا المعجم على تجاهل واضعيه أعمال القدماء من العلماء العرب كثيرة نكتفي بذكر نوعين منها : أولهما الميل فيه الى تعريب مصطلحات أعجمية قدانتهى القدماء الى ايجاد مقابلاتها العربية أو المعربة ، من ذلك تعريبهم مصطلح « Allium » ب « اليوم »(ص ٧) عوض « ثوم » ومصطلح « Arum »ب « اروم » (ص ١٥) عوض « لوف » و « Cassier »ب « كاسيا » (ص ٣٤) عوض « سنا » و « Galbanam » ب « جلبانون » (ص ٨٧) عوض « خلباني » و Guaiacum . « جياك » (ص ٩٨) عوض « عود الأنبياء » أو «عود الصليب» و« Heliotrope »ب «هيليوتروب»(ص ١٠٢) عوض « رقيب الشمس » أو « اكرار » أو « تنوم » أو « شجرة اليمام » أو « صامريوما » أو« حشيشة العقرب » ـ وقد وردت هذه المصطلحات كلها عند ابن البيطار في كتاب « الجامع » ـ و « Solanum »ب « سولانم » (ص ١٣٨) عوض « مغد » و « Sorbus » ب « سوريس » (ص ١٣٩) عوض « غبيراء » و Orobos »ب « اروبس » (ص ١٤٩) عوض « كباد » او « Pamplemouses » « ليمون هندي » و « Pyrethre » ب « بيرثرم » (ص ١١٦) عوض « عاقرقرحا » ٠٠٠ الخ ، وثانيهما الميل الى تعريب مصطلحات أعجمية محرفة من مصطلحات عربية بالفاظها الأعجمية الحديثة دون اعادتها الى أصولها العربية ، من ذلك تعريب مصطلح « Laque »ب « لاك » (ص ٩٨) وهو محرف من العربية « لك » و « Caquiller »ب « كاكلي » (ص ١٧٨) وهو محرف من العربية « قاقلى » و « Sumac » ب « سماك » (ص ١٩٢) وهو محرف من العربية « سماق » و « Usnea » « باسنيا » (ص ٢٠٢) وهو محرف من العربية « أشنه » ٠٠٠ الخ ٠

* * *

مصادر البحث ومراجعه

أ ـ العربية :

١ ـ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين) : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » تحقيق اوغست مللر ط ١٠ ، القاهرة ، ١٢٩٩ هـ/١٨٨٢ م (جزءآن) ٠

٢ ـ ابن البيطار (أبو محمد عبد الله بن أحمد) : « كتاب الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام » مخطوطة مكتبة الحرم المكي رقم ٣٦ (١) طب (٨٠ ورقة) ٠

٣ ـ ابن البيطار : « تفسير كتاب ديسقوريدوس » مخطوطة مكتبة الحرم المكي رقم ٣٦ ، (٢) طب ، (٢٨ ورقة) ٠

٤ ـ ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ط ١٠ ، بولاق (القاهرة) ١٢٩١ هـ/١٨٧٤ م (أربعة أجزاء في مجلدين) ٠

٥ ـ ابن الجزار (أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد)« كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة » مخطوطة المكتبة الوطنية بالجزائر ، قطعة خامسة ضمن مجموع ، رقم ١٤٧٦ (من الورقة ١١٣ ظ ـ ٢١٦ و) ٠

٦ ـ ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان) : « طبقات الأطباء والحكماء » تحقيق فؤاد سيد ، ط ، ١ بالقاهرة ، ١٩٥٥ (١٣٨ ص) ٠

٧ ـ ابن الخطيب :(لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله) : « الاحاطة في أخبار غرناطة » تحقيق عبدالله عنان ، نظرنا في الجزء الأول ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٨ ـ ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمد) : « كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » نظرنا في السفر الأول ، تحقيق محمد بن شريفة ط ١ ، بيروت ، (بدون تاريخ) .

٩ ـ ابن مراد ، (ابراهيم) : « المصادر التونسية في كتاب« الجامع » لابن البيطار » بحث صدر في مجلة «الحياة الثقافية» (تونس) ، ٨ (١٩٨٠) ص ص ١١٧ ـ ١٥٨ ، ١٠(١٩٨٠) ، ص ص ١٠٧ ـ ١٤٤ .

١٠ـ ابن النديم (محمد بن اسحاق) : « الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم » ، تحقيق غوستاف فلوغل ط ١ ، ليبزيغ ١٨٧٢ (٣٥١ ص نص عربي + ٣٥١ ص تعاليق ومقدمات وفهارس) .

١١ـ أبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود بن وَنَند) : « كتاب النبات » الجزء الأول (أ ـ ز) تحقيق برنار لوين ، ط ١، ليدن ، ١٩٥٣ (١٥ ـ ٢٣٦ + ٥١ ص) ، والجزء الثاني : (س ـ ي) ملتقطات ما نسب اليه عند المتأخرين اعتنى بجمعها محمد حميد الله ، ط ١ ، القاهرة ١٩٧٣(٤٤٧ + ٥٧ ص) .

١٢ـ الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب) : « كتاب النبات » تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، ط ١ ، القاهرة ١٩٧٢ (٢٣ + ١١٠ ص) .

١٣ـ ديوسقريدس (بدانيوس ـ العين زربي) : المقالات الخمس وهو « هيولى الطب » وترجمة اصطفن بن بسيل واصلاح حنين بن اسحاق ، تحقيق قيصر دبلر والياس تراس ، ط ١ ، تطوان ـ برشلونة ، ١٩٥٧ (٦٥٦ + ١٨٠ ص) .

١٤ـ الغافقي (أبو جعفر أحمد بن محمد) : « كتاب الأدوية المفردة » مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ، رقم ق ١٥٥ (٢٠٠ ورقة) .

١٥ـ المقري (أحمد بن محمد ـ التلمساني) : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » . تحقيق احسان عباس ، (في سبعة أجزاء) نظرنا في الجزء الثاني ، ط ١ بيروت ،١٩٦٨ .

١٦ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : « معجم مصطلحات علم النبات » ط ١ (لم يذكر الموضع) ، ١٩٧٨ (٣٩٧ ص) .

١٧ـ نصار (حسين) : « دراسات لغوية » ، ط ١ بيروت ،١٩٨١ ، (٢٣٥ ص) .

١٨ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) : « التاريخ » ، ط ٠ بيروت ١٩٧٠ (جزءآن) .

★ ★ ★

ب ـ الأعجمية :

19 — Badawi (Abdurrahman) : "La transmission de la philosophie grecque au monde arabe". Iereed, Paris, 1968 (199 p.).

20 — Leclerc (Lucien) : "Histoire de la medecine arabe", Iereed, Paris, 1876 (2 vol.).

21 — Sezgin (Fuad) : "Geschichte des Arabischen Schriftums" Iereed, Leiden - Brill 1967-1974 (5 vol.).

من بساتين الشّام
سلام
لتفّاح الشّام*

نادية الغزي

كانت بلاد الشام ٠٠ ومازالت موصوفة بأنها بلاد تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى ،فمناخها الجيد المعتدل واختلاف مواقعها بين سهول كبرى ترويهاأنهار وسواحل عريضة ممتدة شديدة الخصب ٠٠ جبال مكتسية بحلل قشاب منشجر الزيتون والتفاح والرمان ٠٠ كل ذلك، جعل من بلاد الشام بلادا متعددةالمحاصيل متنوعة الانتاج ، جمة الغضار والفواكه والبقول ٠

ومن الطبيعي أن طبيعة البلاد كانت ، قبل مئات السنين أكثر خصباً ٠٠ وليس ذلك تابعاً للعوامل الطبيعية من مطر وثلج وحر ورياح ، فحسب ، بل لأن الاتجاه الأول للانسان كان الحفاظ على الأرض ،وزراعتهاواستنباتها والعناية بها ، في سبيل الرزق ، وللتجارة ، وللمتعة والفن والابداع ٠٠

ولقد أظهر العرب قدرة كبرى في المجالات الزراعية ، وفي ذلك مؤيدات ومستندات في كتب الفلاحة على مر الحقب والأعوام ٠٠أمدتنا بمعلومات أكيدة مذهلة عناكتشافات رائعة في نظم الري والعناية بالشجر وحفظ الثمر ٠٠ وفي التقليم والتركيب والادخار ٠

ولقد ثبت أن العرب كانوا يلجؤون الى نظام [التنقيط] في السقاية ٠٠ وقد ورد ذلك في كتاب الشيخ عبدالغني النابلسي « عَلَم الملاحة في علم الفلاحة » وقبله كتاب العلامة رضي الدين الغزي [جامع فوائدالملاحة ، في الفلاحة] ٠

★ اعتمد هذا البحث على كتابي « جامع فوائد الملاحة في الفلاحة » و « علم الملاحة في الفلاحة » ٠

وفي هذه النظم حفظ للماء من الهدر .. كما في ذلك فائدة كبيرة للمزروعات ... والمعروف في يومنا هذا .. أن الأساليب الزراعية الحديثة في القرن العشرين تعتمد على نظم الرش والتنقيط .

وسنلجأ الى كتاب الغزي وكتاب النابلسي المختصر عن كتاب الغزي .. لنذكر بعض المعلومات الجميلة والطريفة بما يتعلق « بالتفاح » والعناية به وخزنه .

حاولنا جمع المعلومات المذكورة في الفلاحتين ، عن فاكهة التفاح ، فرتبنا تلك المعلومات .. ونضدناها . وأدرجناها « بتصرف لغوي واضح » وذلك لمنع الرتابة، ولتقريبها الى التذوق الفكري الأدبي لأواخر القرن العشرين ..

هذه المعلومات كلها كتبت قبل التوصل الى معرفة الأسمدة الكيماوية ، وأمراض الشجر وأدواتها .. وسجلت جميعها في القرن التاسع من الهجرة .. ثم اختصرت من قبل النابلسي في القرن الحادي عشر للهجرة .

تعريف بصاحب [جامع فوائد الملاحة في الفلاحة] .

هو الشيخ رضي الدين ، أبو الفضل ، محمد بن محمد [رضي الدين] بن أحمد [شهاب الدين] الغزي العامري الشافعي .

ولد عام ٨٦٢ هجرية الموافق لعام ١٤٥٧ ميلادية ، وتوفي عام ٩٣٥ هـ الموافق ١٥٢٨ م عن واحد وسبعين عاماً هجرياً .

ابنه هو الشيخ بدر الدين الغزي صاحب (المراح في المزاح) .

وحفيده نجم الدين الغزي .. المؤرخ المشهور وصاحب « الكواكب السائرة » .

تعريف بصاحب [علم الملاحة في علم الفلاحة] .

هو الشيخ عبدالغني النابلسي

ولد عام (١٠٥٠) هـ ١٦٤٠ م وتوفي عام (١١٤٣ هـ) ١٧٣١ م .

ولقد أتم الشيخ النابلسي كتابة مخطوطه اختصاراً عن مخطوط الغزي صبيحة نهار الاثنين الثامن من شوال سنة (١١٢٧) هجرية .

★ ★ ★

☐ التفاح في كتابي الغزي والنابلسي :

ملاحظة : المعلومات مكتوبة بتصرف لغوي .

الأمور نسبية للانسان والزرع ..
فما يفيد الواحد . قد يضر بالآخر ..
وقد قيل : التفاح يهلكه الزبل ..
فشجر التفاح غير قادر على تحمل حرارة (العمارة) ونيرانها ..

☐ الماء :

والتفاح شجر حنون كريم ..
يغدق على أغصانه أحمالا تكاد تعجزعنها الأغصان ..

فاغدق عليه من الماء أيها المزارع ...
فما شيء أحب الى هذا الشجر المبارك من الماء ..

☐ الغرس :

حين تبدو علامة الاخضرار ..
وينبت الورق الزمردي على أذرعة الشجر ..
يتوقف موسم الغرس ..
فما يغرس شجر بعدأوان ظهور ورقه..
يستثنى من ذلك الرمان ..
أما التفاح .. فموسمه قبل أن ينبت الورق ..

أما الخلوف والملوخ والأصول.. فتغرس بعروقها وقضبانها .. وقد يغرس الوتد والبذور ..

☐ تطعيم الغار بالتفاح :

في الصباح السعيد .. يجري المزارعون عمل التطعيم ..
وشجر يركب في شجر آخر .. فينبت..
ومما يركب في شجر الغار .. السفرجل والتفاح ..
وفي صباح سعيد آخر ..
ينبت غصن متجاوب من التفاح .. من خلق جديد في شجرة الغار ..

☐ التفاح والقمر :

والليل ساكن النسيم ..
والقمر زائد الضوء ..
يصل الموكب .. ويحمل الرجال والنساء بذور التفاح .. أو ملوخه وقضبانه..
ليزرعوا التفاح في ضوء القمر الزائد الضوء ..
والليل ساكن ..
والقمر بدر في أواسطه ..
ازرعوا .. فقد آن الأوان .. والقمر مستدير القرص .

☐ التفاح والكمثرى :

التفاح والكمثرى .. فاكهتان قريبتان .. متقاربتان .
تنتميان الى نفس الفصيلة ..

واذ تفتح شجرة التفاح ذراعها..لتركب فيها تطعيماً شجرة الكمثرى ..
فان الكمثرى يجود ويجود .. وهو منبثق (طعماً) عن ذراع التفاح ..

☐ التفاح البري :

في الحقول الشريدة ..
ينبت الزعرور ..
هذا الصغير الأحمر ..
وقديماً . كانوا يدعون هذا الزعرور . (بالتفاح البري) ..
سائغ .. جميل .. ورشيق .. هو تفاح البراري ..

☐ **سنة حمل التفاح :**

هل رأيتم ذات سنة .. نور التفاح يبرز قبل ورقه ..

اطمأنوا اذا .. فتلك السنة تكون سنة حمل التفاح ..

☐ **بصل الفار :**

فلنحاول المستحيل .. كيلا يسقط الثمر الصغير ..

ولنحاول الا يلحق بتفاحنا عنكب أو دودة أو مرض ..

ولنحاول أن نعلق (نوّر بصل الفار) على أغصان التفاح ..

فيستمسك الثمر ..

☐ **الدود :**

هجم الدود ونخر الشجرة ..

بدأ يلتهم اللب .. فيكاد يجنح التفاح الى الذبول .. والخشب الأخضر الى اليبوسة ..

قام الرجل وثقب أصل التفاح .. الذي لم يصب بأذى الدود بعد

ثم سمر فيه عوداً طرياً من صنوبر ..

ليفر الدود .. وينجو التفاح ..

بل كان الصنوبر .. ذكارة .. للشجرة فحمل ..

☐ **حمل التفاح :**

شجر السرو كثير ومحيط كالسياج بالبساتين ..

يحمي السرو البساتين من هجوم الرياح.

وورق السرو مفيد أيضاً للبساتين ..

جففه القدماء .. دقوه ناعماً غباراً..

ثم ذروه على أشجار التفاح .. في وقت نوارها ..

ثلاث مرات أو خمس مرات ذروا السرو الناعم الغبار ..

ثلاث مرات خلال خمسة عشر يوماً ..

فما عاد حمل التفاح يسقط .. عندما

★ كان حمل التفاح يسقط كثيراً ..

كانوا يثقبون أصل التفاح ويدخلون في الأصل حجراً ..

ويضرب هذا الحجر قوياً حتى يغيب في الأصل ..

ويطين أبيض يطين الثقب ..

فما يعود حمل التفاح يسقط أبداً ..

★ والحبة السوداء التي تنبت بين سنابل القمح ..

كانت تُصر في خرقة ..

وتعلق في عنق الشجرة مبلولة بالماء ..

فتمسك الشجرة حملها ..

ولا يسقط التفاح ..

★ وغريب الكلام .. أنه كان يطوق عنق الشجرة (شجرة التفاح) من الأسفل ..

بدرع من الرصاص ..

يغطى هذا بالتراب ..

فيستمسك الثمر .. على الشجر ..

☐ **التركيب :**

تسطع الشمس ..

ينتظرها الفلاح ..

يقطع أغصان التفاح البارزة ... للشمس .. من ناحية المشرق ..

أو من طرف الجنوب ..

أقوى الأغصان يقطع .. وغالباً ماينتقي الفلاح أكثر الأغصان ثمراً في العام المنصرم ..

يقطع الفلاح مقدار شبر أو أكثر ··
ويترك في آخر الأغصان من الأسفل مقدار شبر وأربعة أصابع ·· يبريها بريا غير فاحش ·· فتصير الأغصان أقلاماً ··
وتوضع في الماء لئلا يصيبها الهواء ··
ثم يعيد الفلاح (أقلامه) الى الشجرة التي يريد تقليمها ··

فيقطع الشجرة بمنشار ·· ثم يشق فيها شقان ··

ويدخل القلم المبري ·· ويوضع القشر مع القلم على الشق وضعاً محكماً يلصق المظم بالعظم ··
ويدخل في الشق الثاني ·· قلم آخر ·· شقان ·· وقلمان ··
يطين عليهما بطين معجون بتبن ··
وتشد خرقة من الكتان تصون هــذا الطعم المصون ··
تصونه من الهواء اوالماء ··

ويكون ذلك في أول جريان الماء في العود حين يدفأ كل مبرود ··
أما التراب الأحمر فلا يصلح لمثل هذه الأشياء ···
لأنه يحرق الشجر اذا طين به ··

☐ وكان التطعيم :

لا يحمد التطعيم في طرف الشجر ··
ولا في منتصف الساق ··
كي يظهر الأثر ·· وينبت الطعم ··

☐ الخوخ والتفاح :

ينشب الخوخ والتفاح ··
فتحمل التفاح خوخاً ··
وتثقل الأغصان بجنسين من الفاكهة ··
كل غصن يحمل نوعاً ··

☐ الــــورد :

والورد ينشب في التفاح ··
فاذا حمل الشجر ··
تورد التفاح ·· وازدهر ··

☐ ذوات المياه الخفــاف :

والتفاح شجر من ذوات (المياه الخفاف)·
التي يسقط ورقها من البرد ··
ولا يقف عليها طائر غرد ··

أما في الصيف ·· فعليها من كل غريد زوجان ·· وفيها من الثمر مهرجان ·

☐ الرمان والكمثرى :

في الكمثرى والرمان ·· ينشب التفاح الريان ··

وقد يركب في اللحاء دون الأصل ··

فيكــون للتفاح الاثمــار ·· والقــول الفصل ··

☐ الأجاص والتفاح :

فاذا أنشب التفاح في الأجاص ··

و (الأجاص) هو (الدراق) في هــذه الأيام ··

اكتسب التفاح لوناً محمراً ··

وطاب للريق ·· وما عاد مصفراً ··

☐ الصداقة :

ومثلما يألف شجر الزيتون ·· الكروم ·
يألف الكمثرى التفاح ··

يتقاسمان الليالي والقمر ··

وكل منهما يبعث زهراً يعقد ثمراً ··
طيب الأثر ··

التفاح والرمان :

أما اذا رُكِّب التفاح في الرمان ..
فعلى التفاح كل الأمان ..
فهو يكتسب منه الحلاوة ..
والطعم .. واللون .. والنداوة ...

النبق المستفيد :

اذا ركب النبق في التفاح .. فانه يستفيد ..

وتصير النبقة قدر التفاحة في حلاوتها . وتستفيد ..

الكمثرى والتفاح والأترج :

كما يحب الكمثرى التفاح .. يألف الاترج التفاحَ والكمثرى ..

فتتصادق الأشجار .. ويزدهر النوار .

ويكثر الازهار .. والعقد.. والأثمار.

أعداء التفاح :

السلق :

أما نبات السلق الأخضر ..
فهو عدو للتفاح ..
عدو لا يقهر ..

الدود :

أما اذا سرى الدود في الأغصان كالوباء.
فما للمزارعين من حيلة الا بتقشير العروق ..

واخراج الدود بواسطة القضبان الرقاق.
ثم تطلى الشقوق بعد فراغها .. باخثاء البقر الرطبة ..

ويفزع الدود من اللعبة ..

علاج الآفات من شجر التفاح :

بول الماعز :

ودود التفاح يقهره بول الماعز ..
فاذا كشف عن الأصل وصب عليه منه..
حتى يروى ..
وترك أربعة أيام .. ثم سقي في اليوم الخامس والسادس ..
وكان ذلك عند غروب الشمس ..
تراجع الدود ..
انكمش هذا وانفصل .. وعلى التفاح مات .. أو ارتحل ..

مرارة البقر :

لحماية التفاح من الدود.. عندالغرس.
يطلى بمرارة البقر .. فما يهاجم الدود الثمر ..

أسكروا الدود :

بعر الغنم مع نبيذ عتيق .. يُصبَّان..
في أصل شجر التفاح .. فيقتل الدود .
ومن بعر الغنم .. من هذا النبيذ ..
يعظم الشجر ويحمر الثمر ..
كذلك ينفعه زرق الحمام .. مع الماء..

الترياق :

مما يزيل جميع أمراض التفاح .. وهو دواؤه ..
أن يؤخذ قشر اللوز وورقه .. أو لبه وهو أجود ..
أو يؤخذ الكل معاً ..
يسحق كل هذا ناعماً ..
مخلوطاً بأخثاء البقر ..
ثم يلطخ به شقوق الشجرة ..
وغليظ الأغصان ..
لتزول عن التفاح كل الأمراض والأدران.

الدردي :

ومما يجعل التفاح أكثر حلاوة ••
صب دردي الشراب العتيق •• على العروق ••
فيصبح التفاح شهياً •• ويروق ••

روث الحمير :

ومن العلاج العام للشجر ••
اذا عرضت له آفة أو رض ••
أن يؤخذ روث رطب لحمار ••
فيجعل في اناء •• ويصب عليه الماء ••
ثم يسقى به الشجر سبعة أيام •• كل مرة بقدر جرة ••
ثم يرمى عليه ماء عذب ••
فيسلم من الآفات •• ومن كل مرض صعب ••
قال القدماء •• والعهدة على الراوي••
كي يحمر التفاح والخوخ ••
يجعل حول الشجرة أربع مرات في العام •
من أبوال الناس ••
بقدر ما يكون تحت الأرض شبر من الأصل ••
والعهدة على الراوي ••

صغر الثمر :

أما صغر الثمر فاذا كان يعزى لكثرة الحمل ••
فعلاجه التخفيف عنه قبل ادراكه ••
أما اذا كان من داء ••
فيكشف عن أصله مقدار ثلاثة أشبار •
ويلقى فيه حجارة صغار ••
حتى يرتفع الموضع ••
ويعاد التراب عليه ••
ثم يسقى كل أربعة أيام •••
فالحجر يترك للهواء •• مكاناً •• قرب الجذوع ••

تفاح في غير وقته :

اذا أردت التفاح في غير وقته ••
فعطّش شجر التفاح طول مدة الحر ••
ثم اسقه في أول آب •• بالماء ••
وكرر عليه فانه يلقح تفاحاً جيداً ••
سيما اذا كان الخريف رطبا ••

الفن والكتابة :

قديما •• كانوا يكتبون على التفاح ••
يزخرفون •• ويرسمون ••
أما كيف كان يحدث ذلك ••
فقد كان التفاح يقصد عند تناهي خلقته
قبل أن يحمر أو يصفر ••

فيكتب عليه ما شاء أو ينقش أو يصور•
ويكون ذلك بواسطة (حبر فجل) أو
(مداد أسود) أو (بوشق محلول) أو
(جص محلول) أو (بغراء محلول) •
أو (بقير مذاب) •

يكتب عليه بقلم غليظ •• ثم تستر الحبة لئلا يغسل ذلك الندى أو المطر
فيمحو ما كتب •• أو يتأثر من مجاورة بعضه لبعض ••
ويترك على الشجر حتى يحمر وتعتدل حمرته ••
أو يصفر فتشتد صفرته ••
فيمسح ماكتب عليه أو صور•• ويغسل بالماء ••
فاذا موضع الكتابة يبقى أبيض أو أحمر أو أصفر ••
لا يحمر •• ولا يصفر بأية طريقة ••
أما بقية التفاحة •• فيظهر فيها الصفرة أو الحمرة ••
فيشتد عند مشاهدتها العجب ••
ويزداد الطرب ••

□ خـزن التفاح :

لمدة طويلة .. لأيام بعيدة ..
اخزنوا التفاح .. لفوه في ورق التين .
أو لفوه في ورق الجوز .. أو وسط الطين ..
واتركوه تحت الأرض ..
يبقى التفاح زماناً طويلا ..

(القزويني)(١)

□ الخزن عند الغزي والنابلسي :

★ خذ التفاح من شجرته برفق .. وهو سليم من الآفات ..
وليكن في مؤخرة أيام النضج ..
ولتكن الحبة بمعلاقها ..

لف كل حبة في ورق الجوز .. أو في مشاقة كتان ..
واربط عليها بالخيوط ..

ثم طين فوقها بطين من تراب أبيض حلو ..
وبجص معجون بماء ..
يبقى التفاح زماناً طويلا ..

★ جفف التفاح في الظل ..

ارفعه على لوح معلق ..
أو علق التفاحات بمعاليقها في موضع بارد ..

لا تصيبه شمس .. ولا ريح .. لا دخان
ولا حرارة نار ..
يبقى التفاح زماناً طويلا ..

★ ادفن التفاح في الشعير ..
يبقى زماناً طويلا ..

١ ـ هو زكريا القزويني صاحب كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » .

★ فاذا أردت أكل التفاح المخزون ..
فانقعه في ماء .. حتى ينحل عنه ما علق .. من أشياء الحفظ ..

★ فاذا جففت التفاحة في طين الفخار .. ورفعتها
فمتى أردت أكلها .. فتحتها فوجدت التفاحة صحيحة القوام ..
معافاة .. ولذيذة على الدوام ..

★ فان شئت .. فاجعل ذلك الطين في ظرف ..
أو في فخار من طين يابس ..
وغيب فيه التفاح بحيث لا يلصق بعضه ببعض ..
وارفعه ..
فاذا جف
أخرج منه تفاحاً رطبا متى شئت .. وأردت ..

★ في خابية .. ألق التفاح ..
وصب عليه صعتراً ..
فانه يبقى زماناً طويلا ..

★ في نشارة خشب ..
أو في ملح جريش ..
اجعل فراشاً في أسفل اناء جديد ..
وأوقف عليه التفاح ..
فان ذلك يحفظه ..
فيبقى زماناً طويلا ..

★ وفي أيام العسل الكثير ..
احفظ تفاحك في العسل ..
فانه يبقى زماناً طويلا ..

★ فاذا جعلت تفاحك في جرة فخار جديدة .
وشددت على رأسها جيداً ..
ودفنتها في التراب ..
تكون قد قمت بعمل حسن ..
فمتى أردت أكل التفاح ..

أخرج جرتك المدفونة ..
فاذا تفاحتك صحيحة .. مضمونة ..
★ فان كان في بيتك بركة واسعة ..
فادفن جرارك الى حلقها بالماء ..
فان ذلك يحفظ التفاح الى الشتاء ..
وبامكانك فعل ذلك في الكمثرى والتمر .

☐ خل التفاح :

يعتبر خل التفاح من أعظم وأروع أنواع الخل .. وأحسنها للصحة العامة ..
وفي خل التفاح مؤلفات ومؤلفات ..
وقبل أن نتحدث عن طريقة صنعه ..
نتحدث عن حديث القدامى ..
(كان الخل يصنع من الخروب والاجاص والسفرجل والتين والمشمش اليابس والجميز والتمر أو التفاح) ..
وكان خل التفاح يعمل يوم السبت(٢) ..

☐ طريقة عمل الخل في بيوت الشام :

لا شيء يهدر في بيوت الشام ..
لا قشر التفاح .. لا بذوره ..
لا التفاح القديم .. ولا التفاح الفاسد .
تصل المرأة الشابة .. الى كميات التفاح المتروكة ..
تقسمها شرائح بالسكين ..
وتكدسها في وعاء زجاجي يدعى (القطرميز) ..
ترش على التفاح قليلا من السكر ..
ومتى امتلأ الوعاء ..
تسكب فوقه قليلا من الماء ..
ثم تحكم اغلاقه بحيث لا ينفذ فيه الهواء .
وتلفه لفاً محكما ..
وتتركه في مكان أمين .. ومظلم ومكين .
أربعين يوماً .. وليال أربعين ..
وعندما تفتحه يكون التفاح قد انقلب خلا ...
فتهرسه وتصفيه بمصفاة من قماش ..
أو بمنخل ناعم .. ثم تضعه في (القناني)
ويوضع في (الجواني) ..
للصحة .. للمائدة .. وللفائدة ..

☐ أنواع التفاح في كتاب نزهة الأنام في محاسن الشام

للبدري

مسكي — فتحي — صيني — شتوي — بلدي — صيفي — قاسمي — فاطمي — سكري — فضي — حديثي — جناني — جرستاني — لبناني — حلواني —دهشاوي — اخلاطي — بربري — قبطي — ماوردي بطيخي — مجهول .
وبهذا يكون البدري قد عدد اثنين وعشرين نوعاً من أنواع تفاح الشام .

☐ أنواع التفاح الموجودة حاليا في بلادالشام:

التفاح السكري
التفاح السكارجي [وهو كبير حامض]
التفاح الغولدن [العاجي] بأنواعه وهو أميركي الأصل
التفاح الستاركن [الأحمر] بأنواعه وهو أميركي الأصل
التفاح الفضي
التفاح الفاطمي [هو كبير له شكل حجر الطاحون .. وهو حامض الطعم]
التفاح الزبداني [أخضر اللون ... حجمه كحجم التفاح السكري لكنه مفلطح قليلا ولا تنجح زراعته في الغوطة]
(معلومات من د. مظهر العجلاني)
تفاح لبناني [اهدني]
تفاح عرنة [كبير أحمر]

---

٢ — كل المعلومات السابقة ماخوذة من كتاب رضي الدين الغزي وكتاب عبدالغني النابلسي .

خصائص اللحم وذبائح الحيوانات

في مخطوطة نزهة النفوس والأفكار في خواص النبات والحيوان والأحجار

د. محمد مروان السبع

لعل ما كتبه زين الدين الدمشقي عن خصائص اللحم في ذبائح الحيوانات الزراعية يعتبر من أهم ما كتب في هذا الموضوع في تراثنا العلمي العربي . بل يمكن القول ان الشرح الوافي والمستفيض لخصائص اللحم في مختلف ذبائح الحيوانات الزراعية لا نجده البتة في المصادر التراثية المعتمدة ، وما سبقه اليه أحد من العلماء العرب المسلمين الذين لهم القدح المعلى والمشهود لهم بالباع الطويل في علوم الحيوان عامة .

وزين الدين الدمشقي عالم معروف عند الأوساط العلمية . اذ نجد له ترجمات وافية لدى كل من الزركلي(١) وكحالة(٢) والسخاوي(٣) وابن العماد(٤) والنعيمي (٥) وحاجي خليفة(٦) والبغدادي(٧) وبروكلمان(٨) وغيرهم . واسمه الكامل عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود الدمشقي الصالحي الحنبلي القادري ويعرف بابن داود (زين الدين أبو الفرج) صوفي مشارك في علوم (كثيرة) . ولد بجبل قاسيون بدمشق عام ٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) ونشأ بها وتوفي بالقدس في ٢٩ ربيع الآخر عام ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) . من تصانيفه شرح الدر المنتقى المرفوع في أوراد اليوم والليلة والأسبوع لوالده وسماه تحفة العباد والكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجلدين . وتسلية الواجم في الطاعون الهاجم ، وفتح الاغلاق في الحث على مكارم الأخلاق ، وكتابنا المخطوط هذا « نزهة النفوس والأفكار في خواص النبات والحيوان والأحجار » ، الذي نحن بصدد تحقيق المواضيع الخاصة باللحم فيه .

ولعل غالبية المواضيع التي تخص الحيوان ومنافع أعضائه قد استقاها المؤلف ابن دادو من المصادر التي كتبها من سبقه من علماء عرب مهتمين بعالم الحيوان وعلى الأخص الدميري(٩) في كتابه « حياة الحيوان الكبرى » . اذ نجد أن الترتيب الأبجدي

للحيوانات وما تمتلكه من منافع وفوائد يتطابق كثيرا مع المعلومات التي يوردها الدميري. الا أن التوسعة الواضحة والشرح المستفيض عن ذبائح الحيوانات الزراعية وخصائص اللحم فيها لا نجده عند غيره كالجاحظ(١٠) والقزويني (١١) والدميري والطبري(١٢) وغيرهم . بل نؤكد جازمين بأنه قد تفرّد عنهم بهذا العمق العلمي الشامل الذي جعل من معلوماته ذات أهمية كبيرة وسبقا علميا تميز به من العلماء السابقين لعصره .

والمخطوط مؤلف من ٢٧١ ورقة ٢٣ س وبحجم وسط . وقد كتب بخط واضح مقروء . ويوجد المخطوط في دار الكتب المصرية ـ الخزانة التيمورية ـ ٤٦(١٣) ، وبطبيعة الحال لن نتعرض الى ما كتب في المخطوط عن خواص النبات والأحجار والحيوان بل سنقصر تحقيقنا على خواص اللحم فقط .

□ ما قيل عن فضل اللحم :

يبدأ زين الدين الحديث عن اللحم في الضأن فيقول : اللحم جمعه لحام ولحمان ولحوم . قال تعالى « وأمددناهم بفاكهة ولحم ممايشتهون(١٤) » . وفي حديث للرسول ﷺ قال : فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام(١٥) . فالثريد المرق . وكل طعام أفضل من مرقه . ورويعن الرسول ﷺ أنه قال « سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم(١٦) » . وفي حديث آخر ما دعي ﷺ الى لحم الا أجاب ولا أهدي اليه لحم الا قبله(١٧) » . وعن ابن عباس قال : كان أحب الطعام الى رسول ﷺ الثريد واللحم(١٨) . والثريد من الحيس ، والحيس طعام يتخذ من السمن والأقط . وفي الصحيحين حديث عن أنس قال : أن رجالا اجتمعوا وقرروا أن يذهبوا ومن جملة ما قالوا اعتزال النساء وقيام الليل وصوم الدهر وعدم أكل اللحم . فعلم ﷺ فقال : « ... وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني(١٩) » . وعن علي رضي الله عنه قال : «كلوا اللحم فانه يصفي اللون ويخمص البطن ويحسن الخلق» . وقال محمد بن واسع أكل اللحم يزيد في البصر . وقال محمد بن شهاب : يزيد سبعين قوة . وقال نافع . كان ابن عمر رضي الله عنهما اذا كان رمضان لم يفته اللحم، واذا سافر لم يفته أكل اللحم. يعني للمحافظة على بقاء القوة والصحة وللتقوي على العبادة . واختلف العلماء في فضليته على الخبز . وقال ابن مفلح :ويتوجه أن اللحم أفضل لأنه طعام أهل الجنة، ولقوله تعالى « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير(٢٠) » . لأنه أشبه بجوهر المعدن . فاللحم سيد الأدم والخبز أفضل القوت .

□ فضائل لحوم الحيوانات :

ينتقل زين الدين ابن داود بعد تلك الاستهلالة العطرة للحديث عن خصائص لحوم الحيوانات وفضائلها فيقول : « ولحوم الحيوانات التي لها فضل جرارة بالطبع (أي تمتلك خاصية الاجترار) (٢١) ليست تغذو البدن فقط بل تسخنه مع ذلك والتي لها

فضل يبس تجففه . (وهي أن الحيوانـات الهرمـة ذات لحوم قاسيـة جافـة) (٢٢) . والأهلي أرطب من البري . (نظراً الى حياة الدعة والاستقرار وقلة الجري والعدو التي تسبب صرف الطاقة فتسوء نوعية اللحـم) (٢٣) . ولحم الضأن أفضل لحوم المواشي حار في الدرجة الثانية رطب في الأولى . (ان هذاالتعميم الذي يطلقـه ابن داود زين الدين مقبول في بـلاد المشرق العربي عامـة لأنسلالات الأغنام الموجودة في تلك المناطق ذات ألية ولذلك تمتاز بانفصال الدهن عن الهبر وتجميعه في منطقة محـددة . وتعطي هـذه الميزة نكهة جيـدة للحم تستطيبهـا شعـوبالمشرق العربي . أما في البلـدان والمناطـق الأخرى فان أذواق الشعوب تتفاوت في استهلاكها للحم الأغنام . فأوروبا مثلا تفضل لحوم الخنازير بالدرجة الأولى ثـم لحـوم الأبقار فلحوم الأغنام . أمـا في أمريكا فان اللحـم المفضل هو لحم الأبقار بالدرجة الأولى نظراالى وجود سلالات متخصصة وراثيا في انتاج اللحم المرمري الممتاز) (٢٤) . ويتابـع ابن داود فيقول : « قال ابن سينا اللحوم الفاضلة هي لحوم الضأن وهو مع حرارته لطيف وهوغذاء مقو للبدن ومولد دماً صالحاً لمن أجاد هضمه ويمنع المرة السوداء ويزيد في المني ويحد الذهن ويقوي الحفـظ وينفـع مـن السمـوم » . (وفي الحقيقـة فان القيمـة الغذائية والحيوية للحم تتوقف على مقـدار ما يحتويـه من المواد الغذائية الضروريـة للانسان لكي ينمو ويجـدد الخلايا ويرمـم التالف منها . فاللحم يحتوي على الدهـون والبروتينات والشعريات والأملاح المعدنيـة والفيتامينات وجميع المواد الضرورية للجسم بكميات كافية . والبروتين في اللحم بصورة خاصة عالي القيمة الغذائية لاحتوائـه على جميع الأحماض الأمينية الضرورية للجسـم وعلى مركبات الميوجين والميوجلوبـين والالاستين والكولاجين وغيرها) (٢٥) .

☐ تاثير الجنس والنوع على اللحم :

يقول ابن داود « لحم الذكر أفضل لاسيما الخصي فانه أخف وألـذ وأعـون على الباه » . (ولا شك أن لحم الذكـور أفضل نظرا لكثرة ترسب الهبر وقلة الدهن بفضل امتـلاك الذكـور لهرمـونات الذكـورة التستسترون والأندروجـين . ويبـدو أن الذوق العام لمجمـوع الشعب العربي فيمـا يتعلق بلحوم الذكور قد بقي ثابتاً على حاله عبر الأجيال والسنين . اذ نجد في عصرنا هذا أن المجتمع يفضل لحوم الذكور على لحوم الاناث أيضا . أما فيما يتعلق بموضوع الخصي فان اجراء عملية الخصي قبل النضـج الجنسي يعطي اللحم نكهة ألذ وعصيرية أعلى بفضل ارتفـاع مستوى هرمونـات الأنوثـة الاستروجـين والبروجسترون . أما اذا جرى خصي الذكور بعد النضج الجنسي فان اللحم يصبح رطباً أكثر وتزداد فيه الدهون) (٢٦) .

ويتابع زين الدين هذا العرض الجميل فقول « ولحم الخرفان تالٍ للحم الأجدية في الجودة وأسخن وأرطب من النعاج . لكنـه أغلظ وأكثر فضولا من لحم الأجديـة » . (في الحقيقة أن لحم الجدايا أفضل خاصة في مرحلة الرضاعة وما بعدها بقليل . أما فيما بعد هذه المرحلة فان الأفضلية تعود الى لحم الخرفان لأن وجود الالية يعطي اللحم ميزة

تفوق لحم الجدايا التي تفتقر الى الالية)(٢٧)٠« واذا كان مشويا أضر بالقولنج ويصلحه السكر ٠ ولحوم النعاج أكثر فضولا وأردأ خلطا من من الخرفان » ٠ (وهذا طبيعي لأن لحم النعاج يمتلك خاصيتين غير مرغوبتين من وجهة نظر الشرقي ـ الأولى أنه لحم اناث ، والثانية أن النعاج بالغة كبيرة في السن ٠لذلك تكون لحومها أكثر دهنا وأردأ نوعية ، وأقل سعرا في سوق القصابين) (٢٨) ٠

« واللحم الأحمر من الحيوان السمين أخف وأقل فضولا وأجود غذاء ، لكنه أبطأ نزولا ٠ وقيل أجوده المتوسط بين السمين والهزيل ، وأفضله وأمرأه العائذ بالعظم » ٠ (ان هذا الشرح يدل على فهم عميق بخصائص اللحم ومطابقتها لأذواق الناس ٠ فاللحم المتوسط في درجة السمنة يعتبر الأفضل بالمقارنة مع لحوم الحيوانات السمينة الكثيرة الدهن المترهلة اللحم والحيوانات العجفاء الهزيلة التي لا تكسب هبراً ولا تنز دهناً) (٢٩) ٠

« ووسط العضل أنقى اللحم من العيب وأبعد اللحمان عن التعفن أقلها دهناً ٠ والسمين أرطب من الأحمر وسريع الاستحالة الى الدخانية والمرار ، والبعيد العهد بالذبح أسرع انهضاماً من الطري » ٠ (وهذا صحيح تماماً ٠ لأن من الضروري جداً أن يمر ٢٤ ساعة على الأقل من ذبح الحيوانات لأن ذلك يجعل اللحم أكثر نضجاً خاصة اذا وضعت الذبائح في أمكنة مبردة (٠ ـ ٤°م) حيث يستمر السكر الحيواني (الغليكوجين) بالتحلل البطيء حتى يصل الى جزيئات السكر (الجلوكوز) ، وتتحلل أحماض اللبن المتركزة في العضلات ويصبح اللحم أكثر حلاوة ٠ ومن هذا المنطلق يُحتفظ بالذباح يوماً كاملاً في برادات المجازر الفنية ثم تسلم الى أصحابها) (٣٠) ٠

« الا أن القريب العهد أوفق لأصحاب المعدة الحارة ٠ وهو من أغذية الأصحاء » ٠

□ خصائص أقسام الذبيحة :

ينتقل زين العابدين ابن داود للحديث عن تقسيم الذبيحة فيقول « والمقدم أفضل من المؤخر ٠ وكان أحب الشاة الى رسول الله ﷺ مقدمها ٠ رواه الجوزي(٣١) ٠ فكلما علا من الحيوان كان أجود خلا الرأس ٠ ولحم العنق جيد لذيذ الانهضام ٠ ولحم الذراع خفيف » ٠ (ان تقسيم أجزاء الذبيحة في الحيوان يختلف في التفضيل بين شعب وآخر ومنطقة وأخرى ٠ الا أن من المعروف لدى القصابين أن توزيع أجزاء الذبيحة على الزبائن يتوقف على نوع الطعام الذي سيعد مع اللحم ٠ ووفقاً لكل طبق من الطعام ينتخب له جزء من الذبيحة) (٣٢) ٠

عن أبي هريرة قال « أتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع اليه الذراع فنهش منها »(٣٣) ولحم الظهر كثير الغذاء يولد دماً محموداً ٠وعن عبد الله بن جعفر قال: قال رسول الله ﷺ « أطيب اللحم لحم الظهر »(٣٤) ٠ولحم الضأن أكثر غذاء من المعز وأكثر اسخاناً وترطيباً

وفضولا ، وأوفق لذوي الأمزجة المائلة عن الاعتدال الى برودة ، ومن يعتريهم الرياح ، وفي الأزمان والبلدان الباردة ولمن يكد ويرتاض ويحتاج الى قوة وجلد ، والدم المتولد عنه أميز وألزج وأسخن من المتولد من لحوم المعز .

□ صفات اللحم في أطباق الطعام :

يتابع زين الدين الكلام فيقول : « واللحم المطبوخ أنفع وأرطب وأخف على المعدة من الشواء والمطجن » . (وهذا صحيح لأن طهي اللحم في المرق يزيد من نضجه ويحلل كثيراً من المركبات البروتينية المعقدة الهضم كالآلانين والالاستين والغضاريف والأربطة وغيرها . أما في عملية الشواء فان النار لاتنضج من اللحم سوى الأجزاء الظاهرة فقط وتبقى بقية المركبات والأجزاء الباطنة دون طهي أو انضاج فيصعب هضمها في المعدة) (٣٥) . « وينبغي لمن أكل لحم الضأن أن يأكل عليه كل ما يبرد . ويكثر من أكل الفواكه المزة والحامضة ويقل عليه أكل الحلوى . (حتى لا يعسر هضم اللحم) . « والشواء من أغذية الأقوياء والمرتاضين . وأنفعه شواء الضأن الحولي ثم العجل السمين وذلك سنة ابراهيم عليه السلام . قال تعالى« فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » (٣٦) يعني المشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة . وعن عبد الله بن حارث قال « أكلنا مع رسول الله ﷺ في المسجد لحماً قد شوي » (٣٧) . وهو يقوي البدن ويغذوه بسرعة ويصلح لمن استفرغ بدنه والمشوي على الجمر خير من المشوي على اللهب وأرداه المشوي في الشمس . وينبغي أن يترك مكشوفا بعد اخراجه ولا يغم فتحدث منه أمراض . (وهذا طبيعي فان تغطية اللحم المشوي فترة طويلة تتسبب في فساده وتكاثر الجراثيم فيه) . وهو عسر الهضم لا تستمريه الا المعدة الحارة القوية . ولا ينبغي أن يؤخذ على طعام ولا يؤخذ معه غيره . ومطجن اللحم ومشويه أيبس من المطبوخ بالمرق . وغذاء المطجن رديء يصلح لمن تجشأ جشاء حامضا . وأما القديد فانه أنفع من الالية المكسودة حار يابس أجوده السمين يقوي الأبدان الرطبة الرهلة . ومن حديث بلال رضي الله عنه قال : « ذبحت لرسول الله ﷺ شاة ونحن مسافرون فقال :أصلح لحمها فلم أزل أطعمه منها الى المدينة » (٣٨) . ومن حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « لقد كنا نرفع الكراع فيأكله رسول الله ﷺ بعد خمسة عشر يوماً من الأضاحي » (٣٩) . وقال الأطباء والقديد يناسب اللحم الطري الذي عمل منه الا أن التمليح يزيده فضل يبس وحرارة وطول انهضام، ويزيده مع ذلك كيفية أخرى بحسب الأبازير (أي التوابل) التي طرحت عليه . فان كانت شديدة الحرارة كان أزيد حرارة وان نقع في الخل قبل ذلك كان أقل حرارة وأسرع هضما وألطف ، وينفع المستسقي المنهزل . وهو بالجملة قليل الغذاء بالاضافة الى اللحم الطري ، لكن ادمانه يورث الحكة والجرب ويجعل الدم سوداوياً غليظاً ، لاسيما اذا كان يفعل ذلك من لحوم الصيد . وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال : أكل القديد اليابس بالليلة معين على الغثا واصلاحه بأن يطال نقعه في الماء ثم يطبخ في البقول اللزجة كالاسفاناخ وغيره . ويطرح عليه من الشحوم الطرية والأدهان كالسيرج ودهن اللوز والسمن واللبن وغير ذلك .

لحوم الأجنّة :

« وأما لحوم الأجنّة فغير محمودة ويجوز أكلها بغير تزكية كما روي من حديث للترمذي « ذكاة الجنين ذكاة أمه » (٤٠) ومنع أهل العراق أكله الا أن يدرك حياً فيذكى · وأما لحم الهرم فرديء · ولا يجمع بين لحم وسمك ولا طري وقديد ولا يشرب الماء عقيب أكل اللحم المشوي فانه يضعف المعدة» · (لا شك أن لحوم الحيوانات البالغة الهرمة سيئة الطعم والنوعية ، نظرا لأن كبر الحيوانات في السن يسبب قساوة اللحم وقلة العصيرية وصعوبة الهضم) (٤١) ·

ماء اللحم (المرق) :

يقول ابن داود واصفاً ماء اللحم « انه يدخل في علاج ضعف القلب وهو ما يخرجه الطبخ من اللحم المدقوق حتى يسيل منه في القدر وينغلي ثم يصفى ويشرب · وأحمده في ذلك لحوم الحولي من الضأن والثني وبعده لحم الخرفان والجدايا · وماء لحم الضأن المحرق يبرىء التوثة ضماداً ، وكذلك ينفع للبهق والقوابي ونهش الحيات ولذع العقارب لاسيما الخرفان · ورماد البيض منها ينفع بياض العين اكتحالا · واذا طبخت العظام بالخل وصب طبيخها على الرأس قطع الرعاف فقوة الحرق منها بالخل تجفف تجفيفاً كثيراً وينفع من القروح التي في الأعضاء اليابسة المزاج مثل الذكر والانثيين ضمادا · (من المعلوم أن ما يصفه زين الدين من طبخ العظام بالخل صحيح علمياً · لأن الخل يتفاعل مع الكالسيوم والفوسفور الموجودين في العظام وتتشكل مركبات خلات الكالسيوم والفوسفور التي تساعد في وقف الرعاف) (٤٧) · « واذا سحقت وعجنت بماء الشعير وطلي بها آثار الجدري وغيره أذهبها· وليست ادامة أكل اللحم من هدي النبي ﷺ ولا من طريقة أصحابه ·

وقد روى الامام مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب قال : اياكم واللحم فان له ضراوة كضراوة الخمر وان الله يبغض أهل البيت اللحمين · قال العلماء وهم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه · وكان عمر رضي الله عنه يتعاهد المجزرة فمن رآه يشريه أياما متوالية علاه بالدرة · وقال الامام أحمد أكره ادمان اللحم وقيل له في كم ياكل الرجل اللحم قال في أربعين يوما · قال بعضهم ولعل مراده أكل ما ينبغي تركه أو ما لم يحتج اليه · وقال بقراط لا تجعلوا أجوافكم مقبرة للحيوان · يعني ادمانه · وقال الأطباء اللحوم لا تصلح للمقلي وادمانه يورث أمراضاً دموية وامتلائية والحميات الحادة ولا يؤكل البيّت ولا المهزول ولا ماولد في أقل من شهر وما ضربه سبع والمريض والغريق · وقال بعضهم أكل اللحم بائتاً من مواد الأسقام ·

وأما الرؤوس فيقال انها فاكهة اللحم وأجودها من حيوان معتدل الرطوبة وهي رطبة ورؤوس الضأن أرطب من رؤوس المعز والرأس كثير الغذاء مسخن مقو للبدن

الضعيف اذا انهضم زائد في المني ولحم العينين أسرع نزولا فتؤكل بالملح الكثير وأغذى ما فيه لحم الخدين لأنه مركب من لحم رخو وعروق وعضل وجلد رطب سريع الانهضام معتدل الغذاء وادمان أكله يثقل الرأس الضعيف المرتعش ويضعف البصر ويسرع نزول الماء في العين لكن قد يتولد عن أكل الرؤوس في البدن حمى وقولنج شديد وأكثر ما يتولد ذلك من الجلود والغضاريف التي فيه كما على الخدين والأذنين والنحف من الجلود والغلصمة والمنخرين ، والامتلاء منه يعرض ضيق التنفس والقيء وغير ذلك » .
وهنا أحب أن أعلق نقطتين :

الأولى : أن غالبية العلماء والكتاب العرب يزجّون في وصفاتهم وشروحاتهم دائما أن المادة الفلانية أو الشيء الفلاني يزيد في المني ويقوي الباه . وأحسب ان اتجاهم هذا عائد الى رغبتهم في زيادة التشويق عند قراءة مؤلفاتهم والاقبال على تطبيق وصفاتهم لعلمهم بأن هذا الموضوع أساسي ومهم في حياة الناس . والحقيقة أن هناك بعضاً من العقاقير والأعشاب والمواد والوصفات تقوي الباه لكن زيادة المني صفة ناتجة عن أمر وراثي في خلقة الكائن يختلف بين فرد وآخر . وافراز المني كافراز أية مادة أخرى في الجسم كالمخاط أو الدمع أو حمض كلورالماء في المعدة لا يحتاج الا الى مواد معينة بسيطة من السكريات والأملاح وبعض الدهون والبروتينات(٤٣) .

الثانية : أن لحم الرؤوس يأتي في الدرجة الأخيرة بعد لحوم الاعضاء الأخرى لكثرة الأربطة والغضاريف والأوتار فيه وقلة العصرية والدهن فيه . ولذلك فان هضمه في معدة الانسان يكون أصعب من أنواع اللحوم الأخرى(٤٤) . « وأعطى الفرزدق لرجل درهمين يشتري له لحماً . وقال له خذ المقدم واياك والرأس والبطن فان الداء فيها ومن أمسك عن الشبع منه لم تعرض له تلك الأعراض وتؤكل في زمن البرد لأنها مسخّنة . وينبغي أن تجتنب الرؤوس والكوارع في شهر أيار والصيف والبلدان الحارة ويستعمل معها الدارصيني ومضغ المصطكى واذا احتقن بطبيخ رأس ضأن رطب المعا السفلي (الأمعاء الغليظة) والكلى أخصب البدن وزاد في الباه . والأدمغة التي هي داخل قحوف الرأس باردة رطبة لأنها تأخذ الرطوبات التي تكون في أبدان الحيوان ولو كان الدماغ حاراً مع حرارة القلب لالتهب الحيوان . وكل واحد منها يعدل حرارة الآخر **ودماغ** الحيوان السمين سمين وهو في عضو رئيس فكان حكمه حكم اللحم وهو يولد غذاء بلغمياً غليظاً بطيء الانحدار عن المعدة والمعا ويلطخها ويربطها ويذهب شهوة الطعام ويولد دماً بارداً لزجاً والمشوي منها أبطأ نزولا من المطبوخ وأقل تلطيخاً للمعدة وكل دماغ صار الى المعدة غثّى وهيج القيء وأفضلها أدمغة الطير وينبغي أن يؤكل بالملح المطيب بالأفاويه والنعنع والصعتر والخردل والدارصيني » .(ان الدماغ كجزء من ذبيحة الحيوان يعتبر من الأجزاء الثانوية من حيث القيمة الغذائية بعد اللحم . ولا يمكن الاعتماد عليه كغذاء أساسي للانسان) (٤٥) .

« وأما **الالية** فمن الشحوم وهي عبارة عما ركب العجيزة من اللحم والشحم ومقصودي هنا التي يكون على أبدان الحيوان ولو كان الدماغ حاراً مع حرارة القلب فان عجز الضأن وهي حارة رطبة أحر من الشحم • ومن حديث أنس مرفوعاً « شفاء عرق النسا الية شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ثم تشرب على الريق في كل يوم جزءاً » (٤٦) • ولفظه الية عربي أسود ليس بالعظيم ولا بالصغير • فنعت ذلك لكثير فبرؤوا باذن الله • وهذا الخطاب للعرب • لأن هذا المرض يعرض من يبس وقد يحدث من مادة غليظة لزجة فعلاجها بالاسهال والالية فيها الخاصيتان الانضاج والتليين • وتعيين الشاة بالاعرابية لأنها ترعى أعشاب البر الحارة كالشيح والقيصوم ونحوها • لكن الالية أردأ من اللحم السمين رديئة الهضم والغذاء تفسد المعدة فتصلحها الأفاويه الحارة كالزنجبيل والفلفل والدارصيني ، ويستعمل بعدها الجوارشنات وهي ضماد جيد للعصب الجاسي وتنضج الدمامل والخراجات والالية المكسودة تناسب اللحم الطري الذي تعمل منه الا أن التمليح يزيدها فضل يبس وحرارة فهي حارة يابسة الانهضام والمكسود يولد خلطاً غليظاً مائلاً الى السواد ولا ينبغي لأحد أن يكثر استعماله لاسيما من الغالب على بدنه السواد ودمه غليظ رديء لأنه يزيد الدماغ غلظاً ورداءة • (**الالية صفة وراثية تختص بها سلالات أغنام الشرق العربي والقفقاس وايران • وهي منطقة تتجمع فيها** الدهون فتتخلص الهبر من نكهة الزنخ المعروفة في الأغنام العديمة الالية • وتعتبر الالية علامة على اكتناز الجسم ودرجة سمنته ومقدار التحويل الغذائي في سنوات الخير أو القحط • وفي التزاوج بين ذات الالية مع عديماتها ينتج الجيل الأول وسطاً بين الصفتين أي ذيل دهني عريض • وتترسب في الالية الدهون الصلبة) (٤٧) » •

« **والثرب** شحم رقيق قد غشى الكرش والمعي • وفي حديث عن أنس قال : أن يهودياً قد أضاف النبي فقدم له خبزاً واهالة سخنة (٤٨) » • والاهالة الشحم المذاب وأجود الشحم ما كان الشحم أسرع جموداً لكنه رديء الغذاء مطف للطعام فيدفع ضرره الليمون المملوح والزنجبيل • وقال بعضهم اللحم ينبت اللحم والشحم لا ينبت اللحم » (وهذا صحيح علمياً لأن اللحم يتكون من البروتينات والبروتين يضم في تركيبه الهيدروجين والاوكسجين والفحم والآزوت • بينما تفتقر الشحوم الى الآزوت ولذلك لا تستطيع الشحوم بناء البروتينات • بينما يمكن في بعض العمليات البيوكيميائية أن تتحول بعض البروتينات الى شحوم ودهون، وهذه تعتبر خسارة لدى المربين عند تسمين الحيوانات(٤٩) » • والضرع اذا كان مملوءاً لبناً فغذاؤه اذا استمرأه جيد قريب من غذاء اللحم ويغزر اللبن والمني • وهو بارد يابس للعصبية فيه واذالم يستحكم هضمه تولد خلط بلغمي • وينبغي أن يؤكل بالأفاويه ليسرع انهضامه عن المعدة » •

« وأما **الأكارع** فهي أطراف الأيدي والأرجل بل أطراف الأيدي يقال لها المقادم وهي أجودها صالحة للانهضام عديمة الفضول حسنة الكيموس • وقال بعضهم أطراف الحيوان لزجة عصبية تغذو غذاءاً يسيراً وتسهل الطبيعة نافعة من السعال المتولد من الحرارة وخاصة اذا طبخت مع الشعير المقشور وتلين الحلق صالحة للمحمومين ولمن يحتاج

الى غذاء قليل ولمن به نفث الدم من أفواه البواسير وسحج الأمعاء والاغتذاء بها ينفع من شقاق الشفتين واللسان وقد ينفع بادمان أكلها من يحتاج الى أن ينجبر منه عضو مكسور • وقال بعضهم قليلة الغذاء والفضول وتولد دماً بارداً لزجاً وان عملت بالأفاويه والخل قلت فضولها وبردها واندفع منها توليد القولنج الثفلي » • (ان منافع الكوارع قليلة ولا تستخدم الا في بعض الأطعمة الشعبية مع الثريد) •

« **وخصى** المواشي من جنس اللحم الرخو الا أنها ليست في جودة الخلط المتولد عنها كاللحم الرخو مثل الثديين وهي دون اللحم الرخو في سرعة الهضم وجود تهوخصى الفتي من الحيوان أفضل • وأما خصى الكباش والتيوس والثيران فتاباها النفوس وهضمها عسر وخلطها رديء وأكلها مشوية ينفع من البول في الفراش » • (تصنف الخصيتان مع الأجزاء الثانوية المأكولة من الذبيحة بعداللحم • أي تدخل في فئة الدماغ والكبد والكليتين • ونفعهما كمادة بروتينية انمـاباعتبارهما تحتويان على هرمونات الذكورة فلها تأثير منشط على الحياة الجنسية(٥٠) » ••

☐ منافع الأحشاء الداخلية :

ينتقل ابن داود بعد ذلك للحديث عن الأحشاء الداخلية للذبيحة فيقول : « وأما ما تحويه بطون المواشي فنبتدىء أولا **بالقلب** وأجودها ما كان من حيوان فتي وهي حارة صالحة لأصحاب الكبد واذا استحكم انهضامها غذت غذاءاً كثيراً جداً وأكلها من كل حيوان فتي ينفع من الربو وضيق النفس لكنها تضر بالأنف الهضم (الرهيف) لصلابتها وعسر انهضامها • ولذلك ينبغي أن تعمل بالكمون والخل والصعتر والفلفل • وقال بعضهم ليس بجيد الغذاء والأولى ألا يؤكل وان أكل فمع شحم الكبش مطجناً بالزيت» • (يعتبر القلب من الأجزاء الثانوية المأكولة انما من الفئة الثانية كاللسان والرئتين والطحال والمعدة والأمعاء) (٥١) •

وأما **أكباد** المواشي والحيوانات المألوفة الأكل حارة رطبة والدم المتولد عنها محمود وأجودها أكباد الجدايا والخرفان وخير منها أكباد الدجاج المسمنة والديوك ولكن الأكباد كلها عسرة الهضم بطيئة الانحدار عن المعدة والنفوذ في المعى• لذلك ينبغي الا يكثر منها وينبغي أن تؤكل مطجنة بالزيت أو مشوية بعد شرحها وتؤكل بالملح والدارصيني وقد تصلح أن يتخذ منها للمحمومين بالخل والكراوية اليابسة بعد أن يجاد شيُّها وان لم يكثر منها ولم يدمنها لم يخف مكروها لأن الدم المتولد منها صحيح جيد • (الكبد كما ذكرنا من الأجزاء الثانوية المأكولة ذات الدرجة الأولى وذات نفع محدد بامداد الجسم بمادة الحديد المتكونة داخل الكريات الحمراء (٥٢) • ويقبل الناس على أكل أكباد الطيور أيضاً(٥٣) • » والرية (أي الرئة) حارة سهلة الهضم تحبس الطبع (أي الامساك) يغذى بها الناقهون لسرعة انحدارها والمختار رئات الخرفان والجدايا ولاتصلح أن تطبخ الرئة بل تنقع في الخل والكراوية وتشوى ولكن غذاءها قليل تضر بأصحاب الكد وقيل هي يابسة عسرة الهضم • واذاشويت رئة الخرفان بلا ملح وأخذت الرطوبة

السائلة منها وطليت بها الثآليل الجافة الناتئة وتمودي (أي استمر) على ذلك قلعتها. واذا طليت بها القوباء اليابسة لينتها. ومرارة الضأن تصلح لما تصلح له مرارة الثور غير أنها أضعف فعلا . واذا اكتحل بها مع العسل منعت نزول الماء في العين. **والكليان** جمع كلية وكلوة معتدلة الحر واليبس وقيل باردة رطبة تحبس الطبع وكلى الخرفان أحمد لا سيما اذا أكلت حارة وكذلك كلى الجدايا. لكن الكلى غير محمودة بل خلطها وهي عسرة الهضم فتنضج بالخل ونحوه وقيل ادامة أكل كلى الغنم يعقر المثانة ولا ينبغي أن تؤكل كلى الحيوانات العظام . (كما ذكرنا فان الكليتين تدخل في فئة الأجزاء الثانوية المأكولة من الدرجة الأولى) . « وأما **الطحال** فقال ابن سينا فخيرها طحال الخنزير ومع ذلك فهو رديء الكيموس وفيه بعض القبض ويولد دماً سوداوياً وهو بطيء الهضم . ودم الطحال المتولد منه أسود غليظ لا يؤمَن على مدمنه الأمراض السوداوية . (الطحال من الأجزاء الثانوية الفئة الثانية . وعادة لا يؤكل الا من بعض الاسر الفقيرة) » . **والكروش** قليلة الغذاء بالنسبة الى اللحم وكذا المعى وما كان من المعى أدسم وأكثر شحماً كان أسخن وأكثر غذاء . والكروش عصبية باردة صالحة لمن يتدخن غذاؤه ولكنها عسرة الهضم رديئة الكيموس وقد يلطفها ويسرع هضمها الخل الثقيف اذا طبخت به مع السذاب والكرفس والأفاويه والأبازير الملطفة الطيبة الرائحة ولا بد من أن يتولد من ادمانها بلاغم كثيرة يعسر خروجها ودوالي في الساقين . **والمعى** المسماة بالمصارين لا تصلح لطبخ الاسفيدباجات بل تستخدم في النقانق فاذا حشيت ينبغي أن يكثر شيها من الأبازير اللطيفة الطيبة الرائحة ولا بد أن يتولد من ادمانها بلاغم كثيرة الغذاء عسرة الهضم والخروج من البطن لاسيما اذا حشيت باللحم الأحمر فينبغي أن يجاع بعدها » . (تدخل المعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة مع الأجزاء الثانوية المأكولة من الذبيحة ذات الدرجة الثانية ، اضافة الى بعض الاستعمالات التصنيعية كالأوتار والخيوط وغيرها) (٥٤).

☐ النواتج التصنيعية للذبائح :

ينتقل زين الدين بعد ذلك للحديث عن النواتج الأخرى للذبيحة والتي لا تؤكل بل تستخدم استخدامات تصنيعية فيقول : « **والدم** حار رطب ينفع وهو حار للاورام السرطانية طلاء واذا طلي الوضح بدم الضأن ساعة ذبحه غير لونه. (يستخدم الدم كغذاء مجفف للدواجن والمجترات نظراً لغناه بالبروتينات والدهون والأملاح المعدنية) (٥٥) . وأما **جلود** الضان فنفع الناس بها كثير جداً لا يمكن حصره . والفراء المتخذة من جلود الخرفان حارة رطبة لمشاكلتها طبيعة الانسان موافقة معتدلة المزاج نافعة للظهر والكليتين واذا سلخ جلد كبش ووضع من ساعته على موضع الضرب المنسلخ من يد الانسان نفعه » . (عادة تستخدم جلود الأغنام بعد تمليحها ودباغتها لتوضع في البيوت فوق الأرض فقط . لأن تلك الجلود رقيقة لاتصلح للاستخدامات التصنيعية كجلود الأبقار) . وخواص **الصوف** كثيرة ومنافعه غزيرة لقوله تعالى ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين » (٥٦) . وأجود ما كان ليناً من رقبة الشاة وأفخاذها واذا أخذ كما هو بوسخه وبلّ بخل وزيت وضمد به وافق الخراجات في ابتدائها

والفسخ وكسر العظام فهو ملين من أجل الوسخ الذي فيه واذا بلّ بخل ودهن ورد كان صالحاً للصداع البارد ووجع العين وسائر الأعضاء . واذا تحملت المرأة بصوف النعجة قطعت الحَبَل . واذا غطي اناء العسل بصوف الضأن الأبيض لم يقربه النمل . واذا شد حبل صوف في ركبة ثور صعب ذلّ وسهل انقياده . واذا أحرق صارت قوته حارة مع شيء يسير من اللطافة حتى أنه يسرع في اذابة اللحم المترهل في الجراحات ويقع في الأضمدة وغيرها فيسخن ويجفف شديداً وصفة احراقه أنه يملأ قدر فخار جديد ويُغطى رأسها سوى ثقب يخرج منه الدخان ثم تطلق فيه النار وقيل يمشط قبل ذلك وقيل بعد غسله . وقد يغسل هذا الرماد ويستعمل في أدوية العين **واللباد** المتخذ من صوف الحملان مندمج الأجزاء يمنع الهواء أن يصل الى الأبدان ويمنع البخارات أن تتفشى فيكون اسخانه بيّناً . وأما الثياب المتخذ من الصوف فقد لبسه ﷺ والأنبياء قبله كموسى وغيره . قال ابن العمري وهو شعار المتقين ولباس الصالحين واختبار الزهاد والعارفين . وقال ابن الجوزي ان الأنبياء أحرموا من الجعرانة لبسهم الصوف . وهو يلبس خشناً ولينا ورديئاً وجيداً واليه ينسب جماعة الصوفية لأنه لباسهم في الغالب وهو لباس الشتاء وباردي المزاج وأصول الأبدان الرهلة . وقال بعضهم الصوف والشعر حاران خشنان منهكان للجسد وخاصة في الصيف ومن لبس ثوبين من صوف شاة افترسها ذئب أمن القولنج وقد تورثه حكة في جسده . والوسخ المجتمع في صوف الغنم يقال له زوفا رطب أجوده ما كان من صوف الفخذ والرقبة فيوضع في أواني فخار في شمس حارة ويصب عليه الماء ويحرك ثم يجمع ما يطفو على الماء من الودك ويترك حتى يجمد ويعمل كثيراً بأرمينية » . (الصوف هو الغطاء الذي يغطي أجسام الأغنام . ويصنف الى ثلاث فئات رئيسة . **ناعمة** :ويصنع منها أفخر الثياب الصوفية والأقمشة الجوخية على الاطلاق . **نصف ناعمة** : وهي أردأ نوعاً من سابقتها الا أن معظم الأجواخ والأقمشة الصوفية تصنع منها . **خشنة** : هي أردأ الفئات بسبب امتلاكها للحراشف على أليافها الصوفية وغلاظة أقطارها وسهولة تقصفها . ويصنع منها البسط والسجاد واللباد وبعض الألبسة اليدوية والفروات وتحشى بها الفرش واللحف وتنتج من أغنام الشرق العربي بصورة خاصة(٥٧) . والصوف نوعان خام ويباع بوسخه وشوكه ودهنه . ومغسول وتجري عليه عمليات غسيل متوالية حتى يصبح نظيفاً صالحاً للصناعة . وتختلف نعومة الصوف بين مناطق الجسم المختلفة فأنعمها البطن والأفخاذ . وتختلف النعومة أيضاً تبعاً لتقدم الحيوان في العمر(٥٨) . وأما الشعر فهو أردأ من الصوف بكثير لسهولة تقصفه وغلاظة أقطاره وعدم مقدرته على حفظ الحرارة ولا ينسج بسهولة . وهناك فروق كثيرة بين النوعين لا مجال لذكرها هنا) (٥٩) . « والودك حار رطب ينضج ويحلل الأورام الصلبة وينفع من برد الكبد شرباً وطلاءاً ويحلل الصلابات في ناحية المثانة والرحم وينفع من برودتها ومن برودة الكلى . وذلك كله بعد غسله ويغسل عدة مرات حتى يطفو الدسم .

□ لبن الضأن :

ينتقل زين الدين بعد ذلك للحديث عن لبن الضأن فيقول : « وأما لبن الضأن فهو أغلظ الألبان وأرطبها فيه من الدسومة ماليس في لبن البقر والمعز (وهذا صحيح لأن نسبة الدسم في حليب الأغنام يزيد عن ٦ ٪ بينما لا تزيد هذه النسبة في حليب الأبقار والماعز عن ٤٪ في أحسن الأحوال ، اضافة الى غناه بالأملاح المعدنية ولونه الأبيض المصفر) (٦٠) • » يزيد في جوهر الدماغ والنخاع وفي الباه لا سيما عند حلبه ويصفي اللون ويكسب اللحم وينفع أصحاب الدق والسل جيد للسعال والربو نافع من نفث الدم وعلل الصدر وينبغي أن تعلف النعجة لذلك هندباء وكزبرة رطبة ويابسة ولسان الثور والبقلة الحمقاء (٦١) • ويسقى العليل من ذلك اللبن زنة أربعين درهماً الى سبعين برب سوس وصمغ لوز • لكن لبن الضأن بطيء الانحدار غير ملائم للبدن يلهب البطن ويولد فضولا بلغمية ليس بجيد للمعدة والاكثار منه يهيج الفواق ويورث بياضاً في الجلد، فينبغي أن يشاب بالماء ليكون ما نال منه البدن أقل (وهذا صحيح علمياً لأن معدات بعض الناس لا تتحمل شرب لبن الغنم الطازج ويسبب لها ارباكات معدية لغناه بالدسم والمواد الصلبة الجافة الأخرى • واذا كان لا بدمن شربه فيمكن مذقه بالماء لتخفيف مكوناته قليلا) (٦٢) »• وتسكينه للعطش أسرع وتبريده أكثر • وأما اللبأ فهو أول اللبن في النتاج يخصب البدن واذا أكل بالعسل انهضم سريعاً واذا لم يؤكل بالعسل كان أبطأ هضماً وأبطأ في تولد الخلط الغليظ وأبطأ في الانحدار على المعدة والنفوذ في الأمعاء وماؤه ينقي العروق ويصلح مزاج الكبد الحارة وتقول لبأت تلبيئاً بالتسكين اذا حلبت الشاة لبأت قاله الجوهري ويسمى المسلكة بارد رطب • لكن اللبأ يضر المرطوبين ويهيج القولنج والفواق ويولد الحصاة ووجع المعدة ويحدث جشاء دخانياً وسدداً وهو أذهب لشهوة الطعام من الجبن غير أنه أسرع نزولا وأقل تسديداً» • (اللبأ له تسميات مختلفة الصمغة والرسوب وهو أول ما ينزل من قطرات الحليب بعد الولادة يكون غنياً جداً بالبروتينات الهامة لبناء جسم المولود الجديد خاصة بالغلوبيولين والألبيومين ومرتفع في نسبة الدهن أيضاً ومفعم بالأجسام المضادة المانعة التي تحمي المولود الحديث من هجوم الجراثيم والأوبئة الفتاكة ويستمر نزول اللبأ في الأغنام بين ٧ ــ ١٠ أيام وفي الأبقار والماعز بين ٣ ــ ٥ أيام ، يعود بعدها الحليب الى وضعه العادي وتركيبه الطبيعي ولذلك من المهم جداً أن ترضع الأم وليدها الحديث باللبأ لأنه مهم جداً له في أيامه الحرجة الأولى) (٦٣) •

□ لحم الماعز :

ينتقل ابن داود بعد ذلك للحديث عن لحم الماعز فيقول : « أما لحم المعز فهو رديء لمن لم يعتده لاسيما التيس فانه شديد اليبس عسر الانهضام مولد للخلط السوداوي والمسن من الاناث يولد خلطاً ردياً • ولحم كل هرم من الحيوان رديء الحال في انهضامه وفيما يتولد منه من الدم » • (وهذا صحيح لأن للهرم دوراً في سوء نوعية اللحم وقساوته

وقلة عصيريته) . « وقال بعضهم واياك ولحم المعز فانه يولد الغم والنسيان ويحرك السوداء ويفسد الدم وقال بعضهم وان كان مذموماً فليس مطلقاً وانما هو للمشايخ والبارديي المزاج ولمن لم يعتده » . (وفي الحقيقة فان لحم الماعز ليس سيئاً أو مذموماً وانما هو أقل نوعية من لحم الضان وفيه رائحة زنخة عند الطبخ) (٦٤) . ولحم الجدايا أرطب من لحوم الماعز معتدل في الحر والبرد والرطوبة واليبوسة . والدم المتولد عنه معتدل هو أقرب الأغذية استحالة الى الدم بريء من كل داء لا سيما الرضيع غير قريب عهد بالولادة فهو أسرع هضماً لقلة فضوله وقوة اللبن فيه ، موافق لأكثر الناس في غالب الأحوال لأنه لا يسرع بالامتلاء ولا تضعف عليه القوة ولا ينهك البدن لا سيما في الصيف والبلدان الحارة بتليين البطن ، يغذى بهصاحب السوداء المحترقة ينفعه نفعاً عجيباً» . (لا شك أن لحوم الحيوانات الرضيعة يعتبر أطيب اللحوم وألذها بسبب العصيرية والطراوة والنكهة المحببة لرائحة الحليب التي تفعم بها اللحوم . ويطلق على هذه الفئة من اللحوم لحم العجول الأبيض White calf beef . الا أن عدم استخدام هذه الطريقة في تسمين الجدايا والخرفان بشكل شائع يرجع الى التكاليف الباهظة التي تتطلبها هذه التربية وخسارة ثمن الحليب الذي تشربه العجول على امتداد ٦ ـ ٨ أشهر بعد ولادتها) (٦٥) .

وينتقل ابن داود للحديث عن **شحم** المعز فيقول : « وشحم المعز أقبض في الصيف ويرطب البدن اليابس نافع من قروح الحلق والسعال اليابس ونفث الدم ويحبس النوازل » .

وأما **لبن** المعز فمعتدل لطيف يطلق البطن ويجلو الآثار القبيحة من الجلد وهو أقل ضرراً للبطن من غيره لأنها ترعى أشياء قابضة كشجر البطم والبلوط والزيتون . ولذلك صار جيداً للمعدة ويدر البول وينفع من الحمى العتيقة واستطلاق البطن . لأن المعز كثير المشي قليل الشرب ، الحامض منه بطيء الاستمراء » . (لا شك أن حليب الماعز مقبول شربه طازجاً لأن نسبة الدسم فيه منخفضة بين ٢ر٣ ـ ٥ر٣ ٪ . ومركباته الصلبة الجافة قريبة ـ نسبياً ـ من حليب المرأة ولذلك ينفع الأطفال الرضع ، اضافة الى قلة احتوائه على الغازات . وعادة لا يصنّع من حليب الماعز سوى اللبن فقط . ويشرب طازجاً أو يخلط مع حليب الأبقار أو الأغنام أحياناً لتخفيف نسبة مركباته الكيميائية ، وتمتاز حبيبات الدهن فيه بأنها أصغر من مثيلتها في دهن الأبقار لذا فهي أسهل هضماً ، ويمتص بسهولة من جدر الأمعاء . لذا ينصح بشربه للأشخاص ذوي المعدات الرهيفة كالأطفال والشيوخ والمرضى . وكذلك فان الماعز نادراً ما يصاب بالسل . ولذلك لا يشكل شربه طازجاً خطورة على الانسان من العدوى كما هو الحال في حليب الأبقار . وأخيراً يمتاز حليب الماعز بأن تفاعله (PH) يميل للقلوية ولذلك يعطى طازجاً وبصورة دائمة للأشخاص الذين يعانون من زيادة في حموضة المعدة) (٦٦) .

★ ★ ★

الحواشـي :

١ ـ الزركلي ٠ الأعلام ٠
٢ ـ عمر رضا كحالة ٠ معجم المؤلفين ، جزء ٥ ـ ٦ ٠
٣ ـ السخاوي : الضوء اللامع ٤ : ٦٢ ، ٦٣ ٠
٤ ـ ابن العماد : شذرات الذهب ٧ : ٢٨٨ ، ٢٨٩ ٠
٥ ـ النعيمي : الدارس ٢ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ٠
٦ ـ حاجي خليفة كشف الظنون ٣٦٩ ، ٧٢٣ ، ١٥١٣ ٠
٧ ـ البغدادي ايضاح المكنون ١ : ١٣٢ ، ٢٧٨ ، ١٦٢ ، ٣٨٤ ، ٦٠٠ ٠
٨ ـ بروكلمان Brockelmann g. II 121 S. II 151, 171 .
٩ ـ الدميري حياة الحيوان الكبرى ٠
١٠ـ الجاحظ ٠ الحيوان ٠
١١ـ القزويني عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات
١٢ـ الطبري : فردوس الحكمة ٠
١٣ـ نسخة مصورة بالميكروفيلم عن المخطوط ـ مكتبة معهد التراث العلمي ـ جامعة حلب ٠
١٤ ـسورة الطور الآية ٢٢ ٠ القرآن الكريم ٠
١٥ـ البخاري في الفضائل ٠
١٦ـ ابن ماجة ، قال العراقي سنده ضعيف ٠
١٧ـ ابن ماجة ٠
١٨ـ أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق النبي ص ٢٠٩ ٠
١٩ـ البخاري النكاح ، مسلم النكاح ٠
٢٠ـ سورة البقرة ٠ الآية ٦١ القرآن الكريم ٠
٢١ـ الاجترار : هو ارجاع الكتلة الغذائية من الكرش الى الفم لاعادة مضغه جيدا ٠ وتحصل هذه الظاهرة في المجترات ذوات الغرف الأربع في المعدة كالأبقار والأغنام والماعـز والجاموس والابل والغزلان وغيرها ٠
٢٢ـ محيو عادل ٠ تكنولوجيا انتاج اللحم ٠ جامعة حلب ١٩٨٤ ٠
٢٣ـ المصدر نفسه ٠
٢٤ـ السبع ومزيد ٠ تربية (المجترات) ٠ جامعة حلب ١٩٨٧ ٠
٢٥ـ المصدر نفسه ص ٣٣١ ٠
26 — Cole, Beef Cattle Univ. of Caliv. Davis.
27 — Zelenski G. Goat Husbandary, 1981.
٢٨ـ صقال محمد علي ٠ أساسيات تربية حيوان ٠ جامعة حلب ٠
29 — Dairy Cattle Etgen. New York 1978.
٣٠ـ السبع ومزيد ٠ أساسيات انتاج حيواني ١٩٨١ ٠
٣١ـ الطبراني في الأوسط ٠
٣٢ـ السبع مروان ، تربية حيوان ـ جامعة حلب ٠
٣٣ـ أبو الشيخ ص ٢١٧ ٠
٣٤ـ أبو الشيخ ص ٢١٦ ٠
٣٥ـ السبع ومزيد ٠ تربية حيوان (مجترات) ـ جامعة حلب ٠
٣٦ـ سورة هود الآية ٦٩ ٠

٣٧- ابن ماجة .
٣٨- أبو الشيخ .
٣٩- النسائي الجزء السابع ٢٣٦ .
٤٠- الترمذي وأحمد وابن ماجة والدارقطني وابن حيان .
٤١- السبع ومزيد تربية حيوان (المجترات) ١٩٨٧ .
٤٢- مزيد . فيزيولوجيا الحيوانات الزراعية ١٩٨٣ .
٤٣- السبع . علم الحياة الحيوانية ١٩٧٦ جامعة حلب .

44 — Cole. Feef Cattle Univ. of Caliv.

٤٥- السبع مروان . تربية حيوان ١٩٧٧ جامعة حلب

٤٦- أحمد وابن ماجة والحاكم .

٤٧- السبع مروان . الوراثة الحيوانية . جامعة حلب ١٩٨٩ .

٤٨- طبقات ابن سعد .

٤٩- كرزة أحمد . الكيمياء الحيوية . جامعة حلب ١٩٨١ .

٥٠- درويش محمد يحيى حسين . انتاج اللحم . ١٩٦٣ .

٥١- المصدر نفسه .

٥٢- السبع . علم الحياة الحيوانية . جامعة حلب ١٩٧٦ .

٥٣- غادري غسان . الدواجن جامعة حلب ١٤٠٢ هـ .

٥٤- معيو عادل . تكنولوجيا انتاج اللحم ، جامعة حلب ١٩٨٤ .

55 — Cartwright. T. Beef Production : Tex. A & M 1979.

٥٦- سورة النحل - آية ٨٠ .

57 — Wool Production Tex A & M. Pol. 1983.

58 — El-Sabeh. Tech. & Physic. Charact. of Wool of Awassy Sheep. J. Res. of Alep. Univ. 8-1986.

٥٩- السبع ومزيد تربية حيوان مجترات - جامعة حلب ١٩٨٧

٦٠- حيدر ، كيالي ، معيو . الألبان . جامعة حلب ١٩٨٤ .

٦١- نباتات برية ذات طعوم حريفة تستخدم كتوابل .

٦٢- السبع ومعيو انتاج الحليب . جامعة حلب ١٩٨٩ .

63 — Dairy Cattle. Etgen. New York 1978.
64 — Sheep & Goat. Tex. A & M. Pul. 1983.
65 — Beef Production. Tex. A. & M. Pul. 1983.
66 — Dairy Goat. Tex. A. & M. Pul. 1982.

★ ★ ★

□ مصطلحـات :

١ ـ الدارصيني Cannellierd ceylan • من الفارسية بمعنى خشب الصين • يعد قشرهـا من أجود أنواع القرفـة التجاريـة •

٢ ـ السـذاب Rue (Rata) • نبات من فصيلة السذبيات • قوي الرائحة أزهاره صفيرة قلما ترى ، يزرع في أوروبا وآسيا ، له بعض الفوائد الطبية لكن استعماله خطر للغاية •

٣ ـ الزنجبيـل Gingembri officinal • نبات هندي الاصل له عروق تسري في الأرض ويتولد فيها عقد حريفة الطعم ، وتتفرع هذه العروق من نبت كالقصب وهي كلمة فارسية ـ هاضوم طارد للرياح •

٤ ـ الأفاويه : جمع الأفواه والواحد فوه • وهي التوابل •

٥ ـ الأباريز : التوابل وهي ما يطيب به الغذاء •

٦ ـ جوارشنات : الجوارش نوع من الحلاوات •

٧ ـ الاسفيدباجات : جمع اسفيدباجة وهي صنف من أصناف الطبيخ لا يخلو من لحم وتوابل • انظر كتاب الطبيخ لمحمد بن حسن البغدادي ص ٣١ ، وقاموس الأطباء للقوصوني ١ : ٩٠ ، والمعجم المساعد للكرملي ١ : ٢٢١ •

□ المـراجـع :

١ ـ الزركلي : الأعلام •

٢ ـ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين جزء ٥ ـ ٦ •

٣ ـ السخاوي : الضوء اللامع ٤ : ٦٢ ، ٦٣ •

٤ ـ ابن العماد : شذرات الذهب ٧ : ٢٨٨ ، ٢٨٩ •

٥ ـ النعيمي : الدارس ٢ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ •

٦ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون : ٣٦٩ ، ٧٢٣ ، ١٥١٣ •

٧ ـ البغدادي : ايضاح المكنون : ١ : ١٣٢ ، ٢٧٨ ، ١٦٢ ، ٣٨٤ ، ٦٠٠ •

٨ ـ البغدادي : هبة العارفين : ١ : ٥٣٠ ، ٥٣١ •

٩ ـ 9 — Brockelmann g. II, 121. S. II. 151, 171.

١٠ـ الدميري : حياة الحيوان الكبرى •

١١ـ الجاحظ : الحيوان •

١٢ـ القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات •

١٣ـ الطبري : فردوس الحكمة •

١٤- القرآن الكريم •

١٥- الاحاديث النبوية الشريفة •

١٦- محيو عادل : تكنولوجيا انتاج اللحم • جامعة حلب ١٩٨٤ •

١٧- السبع ومزيد تربية حيوان (محترات) • جامعة حلب ١٩٨٧ •

18 — Cole. Beef Cattle. Univ. of Calif. Davis. 1980.

19 — Zelenskig. Goat Husbandary 1981.

٢٠- صقال محمد علي : أساسيات تربية حيوان ، جامعة حلب١٩٧٤ •

21 — Dairy Cattle. Etgen. New York, Toronto 1978.

٢٢- السبع ومزيد • أساسيات انتاج حيواني • جامعة حلب ١٩٨١ •

٢٣- السبع مروان • تربية حيوان • جامعة حلب ١٩٧٧ •

٢٤- مزيد محي • فيزيولوجيا الحيوانات الزراعية • جامعة حلب ١٩٨٣ •

٢٥- السبع مروان • علم الحياة الحيوانية • جامعة حلب ١٩٧٦ •

٢٦- السبع مروان • الوراثة الحيوانية • جامعة حلب ١٩٨٩ •

٢٧- كرزة أحمد • الكيمياء الحيوية • جامعة حلب ١٩٨١ •

٢٨- درويش محمد يحيى حسين • انتاج اللحم القاهرة ١٩٦٣ •

٢٩- غاردي غسان • الدواجن • جامعة حلب ١٤٠٢ هـ •

30 — Cartwright. Beef Production. Tex. A. & M. Univ. 1979.

31 — Wool Production Tex. A. & M. Univ. Pul. 1983.

32 — El-Sabeh M. Technical & Physical Characters of Wool of Awassy Sheep. J. Res. of Alep. Univ. Ser. Agr. 8-1986.

٣٣- حيدر ، كيالي ، محيو الالبان • جامعة حلب ١٩٨٤ •

٣٤- السبع ومحيو • انتاج الحليب • جامعة حلب ١٩٨٩ •

٣٥- الخطيب درية ، ومعجوب سليمى • الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب• تاليف ابن العديم•جزء ١ ، ١٩٨٦ جزء٢ ، ١٩٨٨ • منشورات معهد التراث العلمي العربي-جامعة حلب - مصادر ودراسات في تاريخ العلوم العربية •

36 — Beef Production. Tex. A. & M. Univ. Pul. 1983.

37 — Sheep & Goat. Tex. A. & M. Univ. Pul. 1983.

38 — Dairy Goat. Tex. A. & M. Univ. Pul. 1982.

التعريف بكتاب

كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار - لابن غانم المقدسي

دراسة وتحقيق

أحمد عبد القادر صلاحية ، صبحي حباب

ترجمة المؤلف :

هو عز الدين عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي ، وثمة اختلافات عديدة في تحديد اسمه وفي سلسلة نسبه وخصوصا في المصادر المتأخرة التي ترجمت له ، وفي شعره ما يثبت أن اسمه كما أوردناه من ذلك قوله بعد أن سئل عن السماع :

واذا قيل من أباحك هذا   قل بفتوى الفقير عبد السلام

لم يذكر المؤرخون سنة ولادته غير أن اليونيني قد ذكر أنه لم يبلغ الخمسين سنة من العمر وأنه توفي سنة /٦٧٨ / هـ كما اتفق على ذلك أغلب من ترجم له ، فهذا يعني انه ولد سنة / ٦٢٨ / هـ أو بعدها بقليل .

ولم يتسع المؤرخون في عرض أحداث حياته فقد اقتصر أغلبهم على القول « أحد المبرزين في الوعظ والنظم والنثر » وهذه السمات الثلاث صور أساسية بارزة تجمل سيرته نكتفي بها في هذا التعريف المقتضب .

□ عرض كتاب كشف الأسرار وتحليله ونقده :

هذا الكتاب رحلة خيالية بديعة قام بها هذا الشيخ العالم في رحاب الطبيعة ونظر بعين الفاحص المتفكر في عناصرها فوجد فيها عالما آخر يعج بالحركة والنشاط يشبه العالم الانساني غير أنه ما يزال على فطرته فينطقه ويحادثه ليتعرف خصائصه وأوصافه الدالة على عظمة الخالق وحكمته في خلقه ثم يحكي لنا قصة الحياة الدنيا والآخرة ويظهر سرها كما يراه ويركز مجمل أفكاره في الاشارة الأخيرة من اشارات الكتاب التسع والثلاثين .

يبدأ المؤلف عمله الابداعي هذا ـ على عادة الكتاب والمؤلفين والمصنفين ـ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على نبيه ورسوله محمد أفضل خلقه ولكن حمده لم يكن مجرد تقليد أو سنة متبعة بل كان يحوي في ثناياه سر الحياة الدنيا والآخرة كما يراه، وليس هذا فحسب بل كان يحملنا على التفكير في كل كلمة قالها منذ استهلاله البارع حيث يقول : « الحمد لله البعيد في قربه ، القريب في بعده » مشيرا الى أن الله سبحانه بعيد عن التصور مهيمن بقدرته على البشر على شدة قربه وقريب أقرب من حبل الوريد في رحمته واحاطته بنا مع استحالة تصور قربه ثم يردف بنعت آخر لله جل وعلا فينتقي صفة التعالي يقول « التعالي في جده عن هزل القول وجده » ملمحاً الى انتفاء الهزل من كتابه ويتلوه بنعت ثالث فيقول : « المقدس في رفيع مجده عن حصره وعده » مشيرا بطرف خفي الى عدم مقدرة الانسان على ايفاء الله حق قدره لأن رفيع مجده ـ سبحانه ـ لا يعد ولا يحصى . واذا تجاوزنا هذه القوالب البديعية التي كان ابن غانم صائغاً ماهراً لها متمكنا من أدواتها فاننا واجدون نفحات فكرية معطرة بخواطر صوفية معتدلة تعلي من قيمة العقل الانساني وقدرته على النفاذ في بواطن الأشياء وتحاول تنميته بالتفكير في خلق السموات والارض ومنذ البداية نستشف رأيه في مسألة القدرية والجبرية فنجده يقف موقفا رائعا مفاده أن الانسان مخير في الدنيا في أكثر الأشياء لما سير له في الأزل وكان دقيقا في انتقائه الألفاظ وسبكه العبارات فالله سبحانه وتعالى أوجد ما كان عدما وأودع كل موجود حكما وجعل العقل بينهم حكما ليميز بين الشيء وضده ولكن من « فكر في صحيح قصده ونظر بتوفيق رشده علم أن كل مخلوق موقوف في قبضتي شقائه وسعده مرزوق من خزائن نعمه ورفده » ثم ينتقل الى فكرة فلسفية ثانية مهمة وهي مقدرة الفطرة الانسانية على الوصول الى الحقائق السرمدية للحياة وما يعتريها من شحوب وطفرات تشوب صفاءها وتنقص لمعانها فتحجبها عن أنوار الحقائق « فلو صفت عين بصيرتك وانجلت مرآة سريرتك وأصغيت بسمع يقظتك لأسمعك كل موجود ما يجده من فقدان وجده وما يكابده من وجدان فقده » واذا اتفقنا على أن ابن غانم كان سيد الكلمات ولم يكن سهلا تلعب به لججها وتوجه مركبة فنونها البلاغية حيث تريد ، عرفنا الى أي مدى كان يحسن مسك زمامها، ويعتصرها في جمل مكثفة تعبر عن أفكاره المشوبة بالنزعة الصوفية وبحالات الحنين الدائمة الى العودة الى المنبع الأصلي للحياة .

وتشع الرموز التي انتقاها ابن غانم بمعان كثيرة الندم على الخطيئة التطهير والتفكير .. فالنسيم يتنسم أو يتنفس في رواية أخرى ـ أسفا على بكاء السحاب وينتظر المزيد من الدموع فيتأوه « لهفا على تبسم البرق لما سمع قهقهة رعده » المنبئة عن نزول المطر الواعد بالخضرة أي الحياة الدنيا التي نزل اليها سيدنا آدم وذريته ويصبو الى العودة الى جوار ربه في الحياة الآخرة ومن ثم تزداد الرموز تنوعاً لتنوع أفراد البشر ـ قدوم الربيع ـ ورد الورد ـ انقلاب الشتاء ـ شرود البرد ـ تمايل البان ـ فرح الأقحوان ـ قيام النرجس بورده ـ تشقيق الشقيق برده ـ شكوى الجلنار جل نار هجره

وصده – نوح العندليب – ثم أخيراً ذلك العاشق الكئيب الذي باح « بما يكابده من هوى زينبه وهنده ، وهام في خلوات فلواته طربا بما سمعه عن طيب نجده ، وفر هاربا الى من يعلم خفايا ماأبداه ومالم يبده »وهنا يتضح الرمز كثيرا فليس هذا العاشق سوى الانسان وليس هيامه في خلوات فلواته الا تعلقا بمحبوبه وايثاره له على كل شيء ليصل الى طيب نجده التي سمع عنها الكثير تلك الأرض التي فيها « ما لا عين رأت ولا اذن سمعت » كما يختم ابن غانم مؤلفه الابداعي هذا بحديث رسول الله ﷺ ، ويعود ابن غانم الى التعبير اللفظي المباشر بعد جنوحه الى الرمز العميق المعبر وهذا دأبه وسمة بارزة في أسلوبه ويقرر ما يريد تقريره باللفظ والصورة فيقول « فالعارف من شكر سوابغ النعم ، واحتقر معادن الحكم ، ولم يقنع من اللبن الا بزبده ومن الطيب الا بنده، وعلم أن الله تعالى ما أحدث حدثاً وأهمله عبثاً ، بل كل واقف عند حده باق على حفظ ميثاق عهده مقر بتصديق وعيده ووعده ﴿ وان من شيء الا يسبح بحمده ﴾ – » • والاقتباس من القرآن آيات على السجعة نفسها ببراعة وسهولة مأخذ هو أيضا سمة أساسية في أسلوبه • ثم يحمد الله مرة أخرى ويسأله التوفيق والرشاد ويصلي على الرسول ﷺ وينتقي له من صفاته الكريمة ومعجزاته التي حباه الله بها صفة الاسراء فيقول : « وأصلي على نبيه محمد ورسوله الذي أنزل عليه في محكم مجده ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ » ، ليبدأ ابن غانم نفسه في خياله بالاسراء في العالم الأرضي ثم العروج الى العالم السماوي في نهاية هذا العمل الابداعي الذي يحمل بذور القصة أو المسرحية الفلسفية الرمزية الرائعة • يبدو أننا قد بحنا ببعض الأسرار :

بالسر ان باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح

ولكن لا بأس ، لأجلكم يهون كل شيء وحسبنا من تفتيق أكمام هذه البراعم التي تزداد بطول تدبرها شذاء وأريجا لئلا نحرمكم من فرحة النصر ونشوة خمره • ولنمض معكم في قراءة بعض معاني وأسلوب ابن غانم في هذه القصة بايجاز •

ما زلنا في خطبة الكتاب ولئن كنا قد حاولنا استشفاف بعض ما أوحى الينا قسم حمد الله والصلاة على نبيه ، فانه بعدها يذكر مباشرة سبب تاليف الكتاب وغرضه الأصلي وهو عبارة عن خلوة فكرية تأملية فلسفية في رحاب الطبيعة الصامتة والحية لأنها ما زالت على طهرها وصفائها وفطرتها ففضل أن تكون موعظاته نابعة من لسان الحال لأنه أصدق من لسان المقال ثم يذكر سبب وضع الكتاب فيقول « وقد وضعت كتابي هذا مترجما عما استفدته من الحيوان برمزه ومن الجماد بغمزه وما خاطبتني به الأزهار بلسان حالها والأطيار عن مستقرها وارتحالها »أما الغرض من تاليفه فهو كما قال « وجعلته موعظة لأهل الاعتبار وتذكرة لذوي الاستبصار فاعتبروا يا أولي الأبصار » • أما أسلوبه الأساسي فهو الرمز « فمن طالع مثالي وفهم ضرب أمثالي فهو من أمثالي ومن أعجم عليه اشكالي فليس من أشكالي » مستمدا من الفلسفة التي تقول ان الانسان يأخذ قسما كبيرا من طباعه من الطبيعة فمن هنا نقول : وديع كالحمل أو ماكر كالثعلب

أو صابر كالجمل ولا يكتفي ابن غانم بالرموز الحيوانية المستعملة بل يلجأ الى الرموز النباتية مستمدا من خصائصها ليعبر بها عن طباع الناس المختلفة ، فالرمز عنده ليس تسترا من الأوضاع السياسية أو الاجتماعية بل لأجل الابتعاد عن التقريرية والمباشرة وارسال المواعظ في شكل قصصي يؤمن لها سهولة المدخل ودوام التأثير فتحث على المزيد من التفكير في مخلوقات الله لمعرفة عظمة الله سبحانه وتعالى وجليل حكمته .

يبدأ ابن غانم عمله الابداعي هذا بتحديد المكان فينتقي جزءا جميلا من الطبيعة مسرحا لأحداث قصته وهو الروض ، أما الزمان فيتركه ابن غانم دون تحديد كي تبقى أحداث قصته حية في كل زمان فيخرجه الفكر من ضجيج الحضر الى هدوء الرياض متنزها متفكرا فيسحره جمالها ويبهره تلألؤها فيحجبه عرضها عن جوهرها وينزع الى اللهو فيتمنى لو كان معه صديق ينادمه فيناديه ضميره أو كما يسميه لسان الحال في الحال أو يسأله أن يتخذه نديما ويدعوه الى أن يغوص في بواطن الأشياء ليرى أن هذه الطبيعة الزاهية البهية لم تخلق الا لخدمة الانسان ونفعه ويطلب منه أن يصغي بسمع يقظته ليسمع لسان حالها يندب دنو ارتحالها وارتحال جميع البشر ويختم هذه المقدمة بأبيات شعرية في الموضوع نفسه وهذا منهجه في جميع اشارات الكتاب وفي بعضها يزين ثناياها بالأشعار ، ثم يبدأ بعرض فصول الكتاب القصار التي يسميها « الاشارات » ليحملنا على تأمل ما تشير اليه فصول الكتاب ورموزه فيبدأ بالقسم الأول من الكتاب باشارات الأزهار والنباتات وما يحيط بها ، وهذه بداية منطقية فيستفتح باشارة النسيم لأنه أول ما قابله في خروجه من رهج المدن الى نقاء الطبيعة فيبث فيه الحياة وينطقه ليعرفنا بكنهه وخصائصه ودوره في الحياة مبرزا عظمة الخالق وحكمته لتكون الاشارة في مجملها تذكرة وعظة وعبرة الى جانب قيمتها الفنية ثم ينهي بأبيات يكون فيها صاحب الاشارة عنصرا أساسيا أو رمزا في أغلب الأحيان .

وهكذا تتوالى الاشارات الأربع عشرة على هذا الترتيب : اشارة النسيم – الورد – المرسين – البان – النرجس – النيلوفر – البنفسج – المنثور – الياسمين – الريحان – الأقحوان – الخزام – الشقيق – وأخيرا السحاب .

ونلمح خيطا دقيقا واصلا بين جميع الاشارات اذ يستأنف بالورد مؤثرا له على جميع الأزاهير مانحا اياه صفتي الحكمة والتعقل ثم يأتي بمشهد المرسين رمز اللهو والطيش فيرد الورد عليه وينصحه في المشهد نفسه ثم يأتي مشهد اشارة البان ، الذي يتمايل طربا وزهوا فتلومه سائر الأشجار فيبسط عذره ونجد الكثير من عبارات الوصل بين الاشارات مثل « فلما سمع المرسين كلام الورد قال .. » « فلما سمع الورد كلام المرسين قال .. » « فأجابه النرجس من حاضره وهو ناظر لمناظره قال .. » « فناداه النيلوفر .. » « فناداه منظوم المنثور .. » فصاح بفصاحته الياسمين » وكل هذا في مشاهد حوارية متتابعة أشبه بمائدة أفلاطون – وأخيرا يختم السحاب الكلام ببيان فضله على جميع النباتات والمخلوقات .

أما القسم الثاني الموسوم باشارة الأطيار فانه يحتوي الكثير من الاشارات مما لا تدخل في قسم الطير وكان الاولى تسميته اشارات الأطيار والحيوانات والحشرات ولا تنتهي المشكلة اذا قبلنا بهذا التقسيم لانه وضع اشارة النحلة واشارة الشمع واشارة الفراش واشارة الشمع الثاني واشارة النار بين اشارات الأطيار ولم يضع كلا من اشارتي النحلة والفراش في قسم الحشرات بل وضعهما لكونها تطير في قسم اشارة الاطيار فلذلك من الأفضل ان نسمي هذا القسم اشارات ذوات الأجنحة .

في القسم الأول ابتدأ ابن غانم باشارات الطبيعة الصامتة واستطاع أن ينطقها ويسمع همسها وضجيجها وان يستنبط منها خصائصها وصفاتها الدالة على حكمة الخالق ومن ثم سلوكها تجاه مبدعها وتأرجحه بين الجحود والشكر وأن يجعل منها مجتمعا نباتيا له صفات المجتمع الانساني نفسه أو بعبارة أخرى أن يسقط واقع مجتمعه الصاخب على المجتمع النباتي الصامت - فيما يبدو ظاهراً - اذا كان استطاع ان يستنتج كل هذا من ذلك المجتمع الصامت فانه بلا شك أقدر على الاستقراء والاستنتاج والاستنباط في مجتمع الحيوان الذي يعج بالحيوية والنشاط .

ويحاول أن يربط القسم الأول بالقسم الثاني ويمد بينهما جسرا منطقيا فيقول « فبينما أنا مصغ الى منادمة ازهارها على حافات أنهارها اذ صاحت فصاحة أطيارها من أوكارها فاول ما صوّت الهزار .. » وهنا تبدأ اشارة الهزار ومن ثم تتوالى اشارات الأطيار أو كما اتفقنا على تسميتها « اشارات ذوات الأجنحة » السبع عشرة على هذا الترتيب : اشارة الهزار - الباز - الحمامة - الخطاف - البوم - الطاووس - الدرة - الخفاش - الديك - البط - النحلة - الشمع - الفراش - الشمع الثاني - النار - الغراب - الهدهد .

وبعد أن تنتهي اشارات الأطيار تبدأ اشارات الحيوانات ومن ثم اشارات الحشرات دون أي فاصل بينها فيقول في بداية اشارة الحيوانات « فبينما أنا مصغ الى رد الجواب متفكر في هذا الخطاب اذ ناداني كلب من الكلاب » وانتقى من الحيوانات أربعة ، هي : الكلب - الجمل - الفرس - الفهد .

ويقول في بداية اشارة الحشرات « ثم التفت فاذا دودة القز ممدودة وليست في الجملة معدودة فقالت تالله ليست الرجولية بالصور والهياكل .. » وانتقى من الحشرات ثلاثا هي : دودة القز - العنكبوت - النملة .

ولعل ابن غانم لم يشأ أن يجعل حدودا فاصلة بين اشارات الأطيار والحيوانات والحشرات لأنه يختم مؤلفه هذا بقصة رمزية رائعة تلخص من وجهة نظره - الحياة الدنيا والآخرة ، جعل أبطالها من الأطيار . واذا حاولنا أن نستفسر لماذا جعل القسم الأكبر من الاشارات للأطيار ومن ثم جعل ختام كلامه اشارة العنقاء ملك الطير وحملها مجمل أفكاره في الحياة ومنحها صفات انسانية حقيقية وآثرها على سائر المخلوقات فاننا

نجد أنه فعل ذلك لأنها المخلوقات الأرضية الوحيدة القادرة على التحليق والوصول الى السماء فهي لذلك أشرف المخلوقات كما أن النفس البشرية في التصور العربي تصعد الى ربها على شكل طائر نوراني ٠

ولن نقف عند هذه الاشارات بالبحث والتحليل ـ كما قلنا ـ ولكن لا بد لنا من تسجيل بعض الملاحظات من حيث المنهج والأسلوب ٠

تتصف اشارات هذا الكتاب في القسم الأول منه قسم اشارات الأزهار بالقصر عامة وبالطول النسبي في القسم الثاني منه وخصوصاً اشارة الغراب، ومن حيث الأشعار الموجودة في الكتاب فان أغلبها من نظم ابن غانم وان اختلفت من نسخة مخطوطة الى أخرى ، فتجد للاشارة أكثر من شاهد شعري وكذلك تختلف الشواهد الشعرية من حيث عدد الأبيات ومن حيث عدد المقطوعات في الاشارة الواحدة فيتراوح عدد الأبيات من بيت مفرد كما في اشارة الفهد النسخة « أ »أو بيتين كما في اشارات الورد والياسمين والريحان والخطاف والنملة الى ثلاثة عشر بيتاً كما في اشارتي البان والغراب وكذلك يختلف عدد المقطوعات في الاشارة الواحدة فجميع الاشارات ـ خلا اشارة الشمع الثاني ـ تنتهي بأبيات مناسبة لها ولكن بعض الاشارات يتخللها الشعر أيضاً فاشارتا المنثور والديك يتخللهما مقطوعتان من الشعر بالاضافة الى الشعر الذي في نهايتهما واشارتا الخفاش والنملة يتخلل كل منهما مقطوعة من الشعر ٠

أما عن أسلوبه فيعتمد اعتمادا كبيرا في اشاراته على المناظرات العقلية والحجج الكلامية والجدال المنطقي ويكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم والاقتباس منه ومن الحديث النبوي الشريف على مدى صفحات الكتاب ويبدو هذا جلياً واضحاً في اشارة العنقاء ٠ أما التضمين من الأشعار فهو قليل لأنه شاعر مطبوع الشعر ومع هذا فاننا نجده يضمن شطراً للمتنبي وبيتاً لفضالة بن شريك وبيتين لأبي العتاهية ٠ ومن ثم يكثر من استخدامه للأمثال العربية القديمة والمولدة ومن توظيفه للأخبار الدينية الكثيرة كما في اشارة الهدهد مثلا وتتبدى اللمحات الصوفية الممزوجة بالزهد والوعظ في جميع صفحات الكتاب ولكن كما تتبدى الحسناء تحت خمار، كما نلحظ أن الوعظ أكثر بروزاً في قسم اشارات الأطيار والحيوانات والحشرات منه في قسم اشارات الأزهار وتمتاز ألفاظ الكتاب بالسهولة والدماثة وتبرز عنايته باختيار ألفاظه وتجويدها والاهتمام بجرسها الموسيقي وقد بث فيها الكثير من ألفاظ العشق وبعض المصطلحات الصوفية والدينية وتتصف معانيه أيضاً بالرمزية حيناً وبالمباشرة حيناً آخر وفي كلتا الحالتين بالسهولة وقرب المأخذ والشعبية في اظهارها العادات الاجتماعية والاخلاق السائدة في عصره ٠

ولعل من نافلة القول أن نقول ان اسلوبه الفني تطغى عليه السمة البديعية من حيث استخدامه الدائم السجع البسيط والمركب وركوبه جميع المحسنات اللفظية والمعنوية حيث يعج كتابه بالطباق والجناس والموازنة و ٠٠٠ ، غير أن النوع البديعي الأثير لديه هو الجناس حيث استعمله في أغلب حالاته ٠ وقد وظف هذه الأنواع البديعية كلها في خدمة

الخيال حيث اعتنى عناية فائقة بالتشخيص وبرع كثيراً في الوصف وأكثر من التشبيه كثرة واضحة ورسم بريشته الساحرة صوراً بسيطة حيناً ومركبة حيناً آخر تأخذ بالألباب ووفر لها ما استطاع من ظلال وألوان وحركة ولعلنا نكتفي بقوله « ولمع السراب وضياء الضباب » وهذا كله قد وسم أسلوبه بطغيان العنصرين الأدبي والتخيلي طغياناً كبيراً على عنصر الوعظ المباشر الجاف ٠

وللانصاف يجب أن نذكر ما على الكتاب من مآخذ تنحصر في نزعته الشعبية كاستعماله بعض الأمثال العامية مثل « الخلطة غلطة » والأسماء العامية مثل «مرسين» بدلا من « آس » والاستعمالات العامية للألفاظ مثل «حداي» والألفاظ الدخيلة مثل «مارستان» ، وأخيراً بعض الأخطاء النحوية مثل « الفصول الأربع » والصواب « الأربعة » غير أن هذه الهفوات قليلة لا تقدح في أهمية الكتاب ولاتنقص منه وتدل حضارياً على حلقة من حلقات التطور للغة العربية ٠

وتبقى في القلب كلمة ترجو الخروج وتخشاه يدفعها الاقدام ويشدها الاحجام كعاشق يبتعد خطوة ويرده الغرام فتبقى كدمعة لا تفيض ولا تسيل ترى ماذا نسمي هذه الغادة ذات الحسن الفريب ؟ هل نتجاوز الحد في الاطراء ونرمقها بما لا تستطيع حمله من الجواهر والعقود ونسميها (قصة رمزية فريدة) أم ننفض منها ونجحد فضلها ونسمها بأنها (مقالات وصفية) كما يَسمُها بعض الباحثين ، ولعل الأفضل من هذا كله أن نعرضها على مقومات القصة / المكان ـ الزمان ـ الحدث / ولو بايجاز شديد لنضعها في موضعها الصحيح ، أما المكان أو مسرح الأحداث فهو الروضة برحبها واتساعها وأما الزمان فهو زمان نفسي غير محدد لأن عمله الابداعي هذا ذو صبغة فلسفية رمزية وأما الحدث فهو متنوع يعتمد غالباً على الحوار الثنائي بين الاشارات أو بينه وبين احدى الاشارات ويتسم بالتلون والحركة وأما طريقة عرضه الأحداث فاننا نجد تسلسلاً وتتابعاً ٠ ونلمح تجمعات عنقودية في بعض الاشارات ولكننا لا نجد تناميا ولا عقدة حتى اشارة العنقاء القسم الأخير من الكتاب فابن غانم لم يستطع أن يتدرج بالأحداث ولا أن ينميها ولم يوظف هذه الحواريات في خدمة اشارة العنقاء التي يمكن أن نعدها بحق نواة الأقصوصة الرمزية الفلسفية ٠

★ ★ ★

علم النبات في كتاب عجائب المخلوقات لزكريا القزويني

د. أنس خالدوف

تعد المخطوطات المزينة بصور النباتات والزخارف النباتية من المصادر المهمة لدراسة مدى علم النبات ومكانته في المجتمع العربي والثقافة العربية • ويتزايد الاهتمام بزينة المخطوطات في أيامنا مع نمو أهمية الفنون الجميلة وعلوم الطبيعة في حياة العرب المعاصرة • بيد أنه على الرغم من كثرة الكتب الخطية العربية لا نجد عدد المزينة منها الا نزراً يسيراً • ومن المؤلفات القليلة التي كثيرا ما كانت تزين نسخها بالصور كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني •

ومن المعلوم أن هذا الكتاب انتشر انتشاراً واسعاً بروايات مختلفة ، منها الروايات العربية الأصلية ومنها المترجمة الى الألسنة غير العربية مثل الفارسية والتركية الخ ، ونسج على منوال القزويني من جاء بعده من المؤلفين واختصر كتابه أو زاد عليه حتى صار في القرون السبعة الأخيرة من أشهر الكتب عند المثقفين المسلمين وكان يشكل آراءهم عن الكونيات • وقد ألّف كتاب عجائب المخلوقات في النصف الثاني للقرن ١٣/٧ في العراق المنضمة وقتئذ الى المملكة الايلخانية •

وينحصر ما نعرفه عن أحوال المؤلف ، في أن أبا يحيى زكريا بن محمد بن محمود القزويني كان عربي الأصل ، ولد في سنة ٦٠٠ تقريباً في الأسرة التي أقامت بقزوين منذ زمن وألمت باللغة الفارسية ، وبعد دراسته الابتدائية في المدينة نفسها زار بغداد ودمشق وسنجار وجنابة ولقي بعضاً من مشاهير عصره منهم ضياء الدين ابن الأثير وابن العربي وابن سعيد الغرناطي ، وفي عهد الخليفة المستنجد بالله صار قاضياً لواسط والحلة وبعد حصار بغداد وسقوطها سنة ١٢٥٨/٦٥٦ اختص بالأدب والعلم • وأما كتابه عجائب المخلوقات

فقد أهداه الى عطا ملك الجويني وزير هولاكو ، ويبدو أن هذا الوزير كان يلطف به ويجيره ، وقد توفيا كلاهما في سنة واحدة هي سنة ١٢٨٣/٦٨٢(١) ٠

لقد صار كتاب عجائب المخلوقات من الكتب الأولى الأصلية في الكونيات وسلك مؤلفه فيه مسلكاً جديداً ، وسبق الى فن بديع في الأدب العربي الاسلامي مع أنه تبع من كان قبله من العلماء الجغرافيين والطبيعيين الأقدمين واستفاد من مؤلفاتهم كثيراً ٠ وكتابه أشهر من أن نطيل الكلام في تركيبه ومحتواه ، وان كان يلاحظ أن نصه لم ينشر بعد بتحقيق علمي ولننتقل الى ما يخبر فيه عن النبات ٠ يشكل النظر الثاني في النبات ثمن كتاب عجائب المخلوقات تقريباً أي ٥٦ صفحة من الطبعة الأوروبية(٢) ٠

ويتكون من مدخل قصير ومن مائتي مقالة عن مائتين نبات ٠ وأما النسبة بين مواد الكتاب وبين مواد علم النبات عند القدماء فتبين من المقارنة التالية : ذُكر في كتاب ديسقوريدس ووُصِف نحو ٤٠٠ نوع من النباتات ، ونحو نفس الكمية في الكتاب الثاني من القانون في الطب لابن سينا ونحو ٧٥٠ في كتاب الصيدنة للبيروني(٣) ٠

وتنقسم النباتات عند زكريا القزويني الى فصيلين : أشجار ونجوم ويبتدىء الفصيل الأول بوصف عام ويتلوه الأوصاف المنفردة لكل نوع من الأشجار مرتبة على حروف المعجم من آس الى ياسمين وهي ٦٦ نوعاً بالجملة ٠ والفصيل الثاني يبتدىء بكلمات المؤلف « النجم كل نبت ليس له ساق صلب مرتفع » ٠ ويحتوي الاخبار عن ١٣٤ نجماً وأسماء النجوم مرتبة أيضاً على حروف المعجم ، بينما نجد أسماء النباتات في كتب أخرى مرتبة على الأبجدية بلا تفريق بين شجر ونجم ٠

ويقول المؤلف : ان الله تعالى أجرى عادته في كل سنة أنه يحيي الأرض بعد موتها فيجري يابس أنهارها وينشر رفات نباتها حتى ترى من الأوراق مخضرة ومن الأزهار محمرة ومصفرة ٠٠ ومن الأمور العجيبة القوة التي خلقها الله تعالى في نفس الحب أنها اذا وقعت في بطن الأرض جذبت بواسطة تلك القوة الرطوبة التي تصلح أن تكون لها غذاء من نفس الأرض ٠٠٠ ثم ان عقول العقلاء متحيرة في أمور الحشائش وعجائبها وأفهام الأذكياء قاصرة عن ضبط خواصها وفوائدها وكيف لا مع ما يشاهد من تنوع كل لون منها كالحمرة مثلا ٠٠٠ ولعل تكرر عبارات الاعجاب ، والتحير تكمن فيه الرغبة في اثارة اهتمام القارىء ولفت انتباهه ولعله يحدد انتخاب المواد من قبل المؤلف ٠ وأما اخباره عن النباتات بعينها فأكثره جدي اعتيادي ولا تجد فيه ما تنتظره من العجائب والغرائب الا نادراً وكذلك قليلا ما يتكلم المؤلف من عنده ، بل انه يصوغ قوله من مقتبسات الكلام المنضدة ٠ ويمكن أن نحسب المقالات المنفردة مركبة من جزأين هما وصف النبات وتعداد فوائده ، ويزاد عليهما أحياناً ملاحظة حول اشتقاق الكلمة أو عن زرع الشجر أو النجم ٠

ومن الملاحظ أن جزأي المقالة المذكورين ليسا متساويين فأحياناً ينحصر الوصف في عبارة واحدة مثل « بطم شجرة جبلية معروفة ، أو بيش نبت ينبت بأرض الهند ، أو جرجير هو الايهقان ، أو حرشف ذو شوك له بالفارسية كنكر • وأحياناً نلتقي وصفاً أطول كمثل أم غيلان شجرة من عضاه البادية كثيرة الشوك، أو خلاف شجرة الصفصاف ويقال لها بالفارسية بيد خشبها خفيف جداً ولذلك يتخذ منه الصوالج ورقها على شكل الخنجر • وتثبت بيانات المؤلف انه كان يجيد اللغة الفارسية •

وأما الجزء الرئيسي في كل مقالة فيتكون من تعداد خصائص وفوائد طبية لشجر أو نجم فمثاله « بنفسج هو النبت المشهور ينبت في مواضع ظليلة حسنة زهره اذا شرب بالماء نفع من الخناق وأم الصبيان قال الشيخ الرئيس انه يسكن الصداع الدموي شرباً وطلاء وينفع الرمد الحار ودهنه طلاء جيد للجرب ،وقال غيره : شمه مضر لصاحب الزكام » • ويظهر أن المرجع الأساسي للقزويني في هذا الجزء من مقالاته هو الكتاب الثاني في الأدوية المفردة من القانون في الطب لابن سينا المذكور دوماً بلقبه وهو الشيخ الرئيس • فاختار القزويني نبذاً من كتاب ابن سينا ورتبها من جديد • ويبدو أيضاً أن مقتبساته من ابن سينا أوسع بقليل مما أشار اليه أنه قوله(٤) وحتى ان بعض استشهاداته بمصادر أخرى تدل على نقلها بوساطة القانون •

والمرجع الثاني الذي يعتمد عليه مؤلف الكتاب هو « صاحب الفلاحة » ونحسب أنه يعني بلا شك كتاب الفلاحة النبطية الذي نقله الى العربية ابن وحشية ولهذا الكتاب صيت كبير في الأدب العربي ، وقد اهتم بدراسته كثيرون ومنهم الأستاذ • د• خفولسن من بطرسبرج ولكن لم يتضح الى الآن الكثير من مسائل نشأته ، وتركيب نصه ، ومؤلفه ، وزمان تأليفه ، وترجمته العربية(٥) •

وتوجد الاشارات الى صاحب الفلاحة في ٤٤ مقالة •

وأما المرجع الثالث فهو كتاب الخواص(٦) لبليناس الحكيم المذكور في ١٣ مقالة • وبه يتم تعداد أهم مصادر النظر في النبات من كتاب عجائب المخلوقات فما عدا ذلك نجد فيه بعض الاشارات المشتتة الى الحديث الشريف والقرآن الكريم وقول علي بن أبي طالب وأقوال كعب الأحبار والمأمون والأصمعي ومعمر بن المثنى والجاحظ والتنوخي وابن الفقيه وديمقريطس وديسقوريدس وجالينوس وابن ماسويه ومحمد بن زكريا وأبي الفرج الطبيب ، أو أقوال بعض الأطباء والفقهاء غير المسلمين ويذكر كل واحد منهم مرة أو مرتين أو خمس مرات على الأكثر • واشارة المؤلف الوحيدة الى معاصريه هو « ومن الحكايات العجيبة ما حكى لي بعض أصدقائي أنه كان ينبت ببعض جبال مدينة اربل من الهيليون شيء كثير » الخ •

وقع كتاب القزويني في أيدي العلماء من أوربا منذ قرنين فنشروه وكتبوا عنه أبحاثاً ، وترجموا منه أقساماً الى لغاتهم •ورغم ذلك لا تزال مشكلة مصادره غير مبحوثة كما كتب الأستاذ كراتشكوفسكي وكرره الأستاذ لفيتسكي • لقد رأينا أن هذه المشكلة تتضح بسهولة بالنسبة للقسم الخاص بالنبات،ومصادره تحدد محتواه الذي لا يختلف عن

كتب النبات والأدوية المفردة الا قليلا ، بل يتميز بصورته الموجزة • ويحفظ في خزانة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي في لينتجراد ٤ مخطوطات لكتاب عجائب المخلوقات للقزويني ،ومخطوطان منها مزودان برسوم وهما كبيرا الحجم • أحدهما هو من مجموعة ايطالينسكي ،عدد أوراقه ٢١٥ وفقد منه ورقة واحدة ، لا يُعرف تاريخ نسخه ويمكن أن ننسبه الى القرن الثامن الهجري ورقمه E ٧ • وأما ثانيهما فقد اقْتُني في سنة ١٩١٤ من أثينا ،وأتمّ نسخه سنة ٩٨٨/١٥٨٠ غياث الدين ابن مجد الدين الأصبهاني ورقمه D ٣٧٠(٧) • ويحتوي كلاهما نفس الرواية المنتشرة من نص الكتاب وفي كل منها أشكال ٦١ شجراً(من ٦٦) • وأما الأنجم فعدد رسومها في E ٧ ١٣٣ وفي D ٣٧٠ ـ ١٢٦ • فاذا لم يتساو عدد المقالات وعدد الرسوم وكانت أوصاف النباتات قصيرة وتقليدية كتابية، صعُبَ ايجاد التناسب بينهما ، وان ساعدتنا مجاورة النص والرسم . ويظهر في الرسوم بعض تبسيط ، حتى بعض تخيل •

من المعروف أنه توجد صعوبات في تعيين الأدوية النباتية حسب المقاييس المعاصرة الدقيقة وقد اتضحت هذه الحال عند الترجمة المفسرة لكتب ابن سينا والبيروني الى اللغة الروسية في طاشقند ، وكتب المتخصص م كاراسك: «ان تعيين النبات بمجرد اسمه لا يزال شرطياً عند قصر وصفه أو عدمه وكانت معايير الأدوية غير موحدة وكان من الممكن أن يعني الاسم الواحد أدوية مختلفة أو يسمى نفس الدواء بعدة أسماء أو تسمى أجزاء النبات الواحد بكلمات شتى من غير الاشارة الى منشاها العام »(٨) • فلذلك كان لرسم النبات في الكتب العلمية غرضان : عملي وفني ، وهما يساعدان في تعيين نوعية النبات وتزيين الكتب الخطية •

ولم تكن المصادر المذكورة لكتاب عجائب المخلوقات مصورة على حد معرفتي ، فاذن ارتبط الحديث والرسم في مخطوطات كتاب القزويني ، وكتبت أقدم نسخه في سنة ٦٧٨/١٢٨٠ وما زال المؤلف على قيد حياته وتحفظ النسخة الآن في مدينة مونخن تحت رقم ٤٦٤ ، وفيها رسوم ملونة وقد افترض أحد الباحثين ف• بودنهايمر(٩) بأن رسم الصور قد تم بمراقبة المؤلف ، ولا سبيل الى اثبات هذا التخمين مع عدم الخبر عنه •

والآن نتساءل عن منبع رسوم النباتات في المخطوطات العربية ؟ لقد نشأ علم النبات عند العرب في البداية مع نشاط اللغويين الذين قاموا بجمع أسماء النباتات وأجزائها ووصف ميزاتها وخواصها • فمن هؤلاء اللغويين أبو عمرو الشيباني وأبو زياد يزيد الكلابي والنضر بن شميل وأبو زيد الأنصاري والأصمعي وابن الأعرابي وأبو نصر أحمد الباهلي وابن السكيت(١٠) وأشهرهم وأجمعهم للخبرة أبو حنيفة الدينوري مؤلف كتاب النبات وهو في سبعة أجزاء ، فقد اعتمد عليه من كتب في هذا الموضوع بعده • ومخطوطات كتب النبات عديمة الرسوم •

ومن جهة أخرى ترجع مبادىء علم النبات في اللغة العربية الى جذور أغريقية ـ يونانية واليها يرجع الاعتياد في تزويد الكتب برسوم النباتات ، ويتعلق قبل كل شيء برواية

عربية لكتاب ديسقوريدس في الأدوية المفـردةوقد ألف في سنة ٧٨ ميلادية ٠ فنقله الى اللغة العربية أصطفن بن بسيل للمتوكـل على اللهوأصلح ترجمته حنين بن اسحاق وأما النسخة المزودة بالرسوم فيخبر عنها ابن أبي أصيبعةويقول : « قال ابن جلجل ورد هذا الكتاب الى الأندلس وهو على ترجمة اصطفن منه ما عرفله أسماء بالعربية ومنه ما لم يعرف له أسماء فانتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق وبالأندلس الى أيام الناصر عبد الرحمن بن محمد ٠٠ فكاتبه أرمانيوس الملك ٠٠٠ وهاداه بهدايا لهاقدر عظيم فكـان في جملـة هديتـه كتـاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب ٠٠٠ وكتب أرمانيوس في كتابه الى الناصر أن كتاب ديسقوريدس لا تجتنىمنه فائدة الا برجل يحسن العبارة باللسـان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الأدوية ٠٠٠فبعث ٠٠٠ براهب يسمى نيقولا فوصل الى قرطبة سنة ٣٤٠ وكـان يومئذ بقرطبـة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهـل من أسـماء عقاقير كتـابديسقوريدس الى العربيـة ٠٠٠ فصـح بحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتـابديسـقوريدس تصحيـح الوقـوف عـلى أشخاصها(١١) ٠ ولا يذكر أيضاً عن الصور فيالرواية العربية وعلى كل حال من المعـروف أن نسخ كتاب ديسقوريدس الموجودة في أياماأكثرهـا مصـورة ٠

ثم أصلح الترجمة القديمة مرة ثانية أبوعبدالله الحسين بن الحسـن الناتلي وأهـدى روايته في سنة ٣٨٠/٩٩٠ الى أبي علي بنسمجور عامـل الدولة السامانية في آسـيا الوسطى(١٢) ٠ واشتهر هذا الناتلي كمؤدبأبى علي بن سينا في حداثة سنّه ولكن المصادر صامتة عن كون مخطوط روايته مزوداً بالرسوم أم لا ٠

وأما الترجمة الأخرى لكتاب ديسقوريدسفأخرجها مهران بن منصور بن مهران بتولية نجم الدين البي بن تيمور تاش (١١٥٢/٥٤٧ ــ ١١٧٩/٥٧٥) واعتمد على رواية حنين ابن اسحاق باللغة السريانية والمخطوط الفريدلهذه الترجمة يحفظ بمكتبة الرضى بمدينـة مشهد في ايران وفيـه رسوم ملونة لنبـاتاتكثيرة ، وسـبق الى استكشافه صـلاح الدين المنجد في سنة ١٩٦٠(١٣) ٠

وخلاصة الكلام أن الاعتياد في تزويـدكتب النبات بالرسوم يتتبع من القرن الرابع على الأقل وصار الاعتياد تقليـداً متواتراً ،وأساس حكمنا هذا هو مراجعات نادرة ونماذج قليلة ، ويبدو أن تطوراً معيناً في صناعة الرسمعند العرب جرى في القـرن السابع الهجـري وتؤكد هذه الملاحظة بضع نسخ مصورة للمقامات الحريرية من نفس المكان والزمان ٠

ونرى استمرار تلك الخطة التقليدية فينسخ كتاب عجائب المخلوقات للقزويني اذ أنها زودت بالرسوم ٠ ومن الممكن أن مخطوطنا VEصنع في العراق وأما D ٣٧٠ فصنع في شـرقي ايران أو غربي بلاد الهند والنماذج منهمـانشرت في كتاب كراتشكوفسكي (رسوم ٤٨ ــ ٥٣) ، من بينها صورة ورق ١٤٣ آ مـن D٣٧٠ مـع أشـخاص الأشجار الثلاثة وانـه ليسرني أن يثير تقريري هذا عناية الباحثـين في مثل هذه الدراسات ٠

في مثل هذه الدراسات .

I M.Streck. Al-Kazwīnī. - EI, II, Ss.900-904; И.Ю.Крачковский. Избранные сочинения, т.IУ. Арабская географическая литература. М.-Л., 1957, с.358-366; T.Levicki. Al-Kazwīnī. - EI, New Ed., IV, pp.865-867.

2 Zakarija Ben Muhammed Ben Mahmud el-Cazwini's Kosmographie..., hrsg. von F.Wüstenfeld. Göttingen, 1849, Ss.245-301.

3 Абу Райхан Беруни (973-1048). Избранные произведения, IУ. Фармакогнозия в медицине. Исследование, перевод, примечания и указатели У.И.Каримова. Ташкент, 1973, с.37.

4 وقد استفدنا للمقابلة طبعة Абу Али Ибн Сина (Авиценна). Канон врачебной науки. Книга II. О простых лекарствах. Ташкент, 1956.

5 F.Sezgin. Geschichte des Arabischen Schrifttums. Bd IV, Leiden, 1971, Ss.318-329.

6 ومن الممكن ان هذا الكتاب كان يسمى بكتاب الفلاحة انظر Sezgin, op. cit., IV, p.316.

7 Каталог арабских рукописей Института народов Азии Академии наук СССР. Вып.2. А.И.Михайлова. Географические сочинения. М., 1961, с.23-26, №№ 13-14.

8 Абу Али Ибн Сина. Канон. Книга II, с.700-701.

9 Крачковский, уп. соч., с.361.

10 Sezgin, op. cit., IV, pp. 331 - 343 .

11 Ibn Abi Useibia. Hrsg. von A.Müller, Königsberg i. Pr., 1884, 2, S.47.

12 Каримов, уп.соч., с.68-69; Sezgin, op. cit., III, p.315.

13 Каримов, уп. соч., с.69, прим.285; Sezgin, op. cit., III, p.60.

ترجمات القرآن الكريم

في يوغسلافيا

المستشرق: فتحي مهدي*

ترجمة: د. محمد موفاكو

إن الاهتمام بترجمة القرآن يعتبر ظاهرة طبيعية اذا أخذنا بعين الاعتبار أن السكان أخذوا منذ القرن الخامس عشر، أي منذ قدوم الأتراك الى البلقان، باعتناق الاسلام الذي يعد القرآن بالنسبة له كالأساس. وبعبارة أخرى ان ترجمة لوبيبراتيتش للقرآن الى اللغة الصربوكرواتية لا تعني أن الاهتمام بترجمة هذا الأثر العظيم للثقافة والحضارة العربية قد تأخر الى هذا الحد (١٨٩٥)٠ ففكرة ترجمة القرآن تعود الى زمن أقدم، على الأقل الى سنة (١٨١٩) كما نعرف الآن ٠ ففي تلك السنة قام يان تشابلوفيتش بنشر «ملاحظات عن الأتراك ومقطع من القرآن»(١) في الجزء الثاني من كتابه "Slavonien und zum Theil Croatien".

وفيما يتعلق بدوافع ترجمة القرآن الى اللغة الصربوكرواتية يمكن أن نحدد اثنين، الأول سياسي والثاني ديني ٠

ففيما يتعلق بالدافع الأول لدينا حقيقة بارزة، الا وهي أن الترجمة الأولى قد قام بها قائد الانتفاضة في الهرسك (١٨٧٥)، ميتشا لوبيبراتيتش، الذي أثار الشعب ضد السلطة التركية ٠ ومن المعروف أن الأحداث التاريخية في البلقان، وخاصة بعد الانتفاضة الثانية في صربيا (١٨١٥) قد تطلبت جهداً جدياً لتوحيد الشعب في هذه المناطق ضد العدو الأجنبي المشترك ٠ وفي هذه الحالة كان الأمر يتعلق بتوحيد «المحمديين من القومية الصربية» ٠ وقد أكد على هذا لوبيبراتيتش نفسه حيث يقول: «لقد كانت تهدئة المحمديين

---

* أستاذ في فرع الاستشراق بجامعة بريشتينا /كوسوفا -يوغسلافيا ٠

من القومية الصربية هي فكرتي ، وكنت أعمل على تحقيقها منذ (١٨٦١)، فمنذ قدومي الى بلغراد سنة (١٨٦٧) كنت أعرض هذه الفكرة على كل الحكام الصربيين حتى (١٨٧٤)(٢) ٠

أما فيما يتعلق بالدافع الثاني ، وهو الديني ، الذي ساهم بدوره في التوجه نحو ترجمة القرآن ، فلدينا افضل دليل في الترجمات اللاحقة الموجهة للسكان المسلمين ٠ ومن أمثال هذه الترجمات « ياسين الشريف » لسليمان كمورا ، وابراهيم آمشيروفيتش ، و « تفسير القرآن » حسين جوزو ، بالاضافة الى جهد « المشيخة الاسلامية العليا » التي أصدرت ثلاثة كتيبات فقط من « ترجمة القرآن مع التفسير » قبل أن تتوقف عن متابعة هذا العمل(٣) ٠

وكان يان تشابلوفيتش قد أراد في (١٨١٩) أن يوفر لقرائه الفرصة بأن يقرؤوا الانجيل التركي (القرآن) !! في حوالي عشر صفحات(٤) ٠

الا أن الأمر تطلب أن تمر ست وسبعون سنة لكي نشهد صدور الترجمة الكاملة للقرآن في اللغة الصربوكراتية ، تلك التي قام بها ميتشو لوبيبراتيتش ٠ وفي الواقع ان تأخر ترجمة القرآن الى لغات المسلمين الأخرى ليس صدفة ، كما أنه ليس من المصادفة أن يقوم شخص غير مسلم بترجمة القرآن في وسط مسلم كالبوسنة ٠

ان السبب في ذلك يعود الى الفهم الخاطىء لعلماء الدين المحافظين الذين كانوا يعتقدون ان القرآن لا يمكن أن يترجم الى أية لغة أخرى ، لأن ترجمة القرآن في حد ذاتها ذنب عظيم ٠ وفي الواقع ان هذا الفهم الخاطىء لم يكن يقتصر على يوغسلافيا ، بل ان الأمر كان يتعلق بكل العالم الاسلامي حيث كانت قد أثرت مناقشات كثيرة وحادة ، ولكن دون أساس علمي أو ديني حين كان الامر يتعلق بالقرآن ذاته(*) ٠

وقد جاء أول رد سليم على هذا الفهم الخاطىء في سنة (١٩٣٦) حين حطم مدير مجلة الأزهر محمد فريد وجدي كل تلك النظريات حول استحالة ترجمة القرآن وذلك بالاستناد الى القرآن ذاته في قوله تعالى : « **ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** »(٦) ٠

وبعبارة أخرى لقد أتى محمد فريد وجدي بفكرة أن ترجمة القرآن ليست واردة وحسب بل ان الترجمة « أصبحت في عصرنا أمراً لا بد منه ولا يمكن تأجيله لأن الناس اليوم تبحث عن الينبوع الأصلي »(٧) ٠ وفي دفاعه عن هذا كان وجدي يرد على رأي الشيخ

★ الذي اتفق عليه علماء المسلمين أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية لا تجوز لعدم استطاعة أي من اللغات العالمية الأخرى التعبير عن الاعجاز البياني للقرآن الكريم كما عبر اللفظ القرآني العربي بصورته الرائعة ، اضافة الى عجز الكثير من اللغات العالمية عن التعبير الحرفي في الترجمة لأن هناك الكثير من الألفاظ القرآنية لا يمكن للغات الأخرى محاكاتها بشكل أو بآخر ٠ أما ترجمة معاني الكلمات الى اللغات العالمية من القرآن الكريم على هامش المصحف فذلك ما أقره الكثير من العلماء من المسلمين في عدد كبير من الأقطار ، على أن يحظى المترجم بثقة المسلمين في بلاده على الأقل ، ومن هؤلاء العلماء الأستاذ محمد فريد وجدي الذي سيشير اليه كاتب المقال بعد قليل (هيئة التحرير)

محمد سليمان(*) بان القرآن روح والروح لا تترجم، ان القرآن نور والنور لا يترجم »، ويحذر من ان البعض يمكن بحق ان يسأل هذا الشيخ : « النور والروح لا يمكن ان تكتب او تقرأ ، فكيف يمكن ان تكتب وتقرأ في العربية ولا يمكن أن تترجم ؟ »(٨) ٠

وهكذا مع ترجمة لوبيبراتيتش للقرآن عندنا انهار الوهم القائل باستحالة ترجمة القرآن ، وبدأت بهذا لحظة فاصلة : بداية الاقبال الكبير على ترجمة القرآن وذلك من قبل الأفراد الذين اقبلوا على نشر ترجماتهم في المجلات المختلفة ٠ وفي غضون ذلك أثرت نقاشات متحيزة حول ترجمة القرآن ٠ وكان ممن تميز بهذا الموقف كُتّاب مجلة «حكمت»، التي كانت تصدر في مدينة توزلا تحت اشراف ابراهيم حقي تشوكيتش ٠

وفي البداية كان الناشرون لترجمات القرآن هم المترجمون أنفسهم : ألاغيتش ، تشاوشيفيتش الخ ٠ أما من طرف المؤسسات فقد برز كناشر لترجمات القرآن الى الصربوكراتية : « المعهد الصحي » في سراييفو سنة (١٩٢٢) بمختارات من ترجمة لوبيبراتيتش ، « المشيخة الاسلامية العليا » في سراييفو سنة (١٩٦١) التي أرادت أن تصدر كل القران في ثلاثين جزءاً ، دار النشر « فوك كاراجيتش » من بلغراد التي نشرت مختارات من ترجمة « لوبيبراتيتش » سنة (١٩٦٧) ، ودار النشر « ستفارنوست » من زغرب التي نشرت سنة (١٩٦٩) ترجمة بانجا ــ تشاوشيفيتش ٠

لقد زادت ترجمات القرآن الى اللغة الصربوكرواتية بشكل ملفت للنظر ٠ فمنذ (١٨١٩) الى (١٩٦٩) ظهرت ترجمات كثيرة ، كاملة او جزئية ، بعضها نشر وبعضها لم ينشر ، بعضها ترجم مباشرة من العربية وبعضها ترجم من لغات أخرى كالفرنسية ، والتركية ، والروسية ، والالمانية ، والانكليزية ٠ ونظراً لان هذه الترجمات لم تحظ برعاية حتى الآن ، فان مهمة هذا البحث هي تقصي هذه الترجمات بشكل كامل ومنسق ٠

☐ الترجمات الكاملة للقرآن :

ليس هناك من شك في أن القرآن ، باعتباره الكتاب المقدس للمسلمين ، قد ترجم وفسّر حتى منذ انتشار الاسلام في بلادنا ٠ ولكن بسبب الفهم الخاطىء حول قدسيته واستحالة ترجمته الى لغة أجنبية لم تتم أية ترجمة مكتوبة للقرآن حتى القرن التاسع عشر ٠

الا آن هناك حقيقة لا يمكن لأحد أن يرفضها : أن القرآن مكتمل من الناحية اللغوية والأسلوبية الى ذلك الحد ، حتّى انه من الصعب ، اذا لم نقل من المستحيل ، ترجمته الى أية لغة دون أن يفقد قوة التعبير القرآني العظيم(٩) ٠

---

* هو محمد سليمان ابراهيم عتارة ٠ قاض مصري ، ولي القضاء الشرعي في « ببا » من أعمال بني سويف ، ثم كان نائباً في المحكمة العليا الشرعية في القاهرة ٠ من مؤلفاته العديدة رسالة في ترجمة معاني القرآن ــ وهي التي رد عليها محمد فريد وجدي ــ مات سنة ١٣٥٥ هـ ــ ١٩٣٦ م٠ انظر ترجمته ومصادرها في « الأعلام » للعلامة الزركلي (١٥٣/٦) الطبعة الرابعة (هيئة التحرير)

وعلى كل حال فقد أصبح من المؤكد أن ترجمة القرآن الى أية لغة عالمية ليست ذنباً . وأكثر ما في هذا فقد اصبح في حكم المقرر أنه من الضروري ترجمه هذا الكتاب وذلك بهدف الاكتشاف والتعرف على حضارة كبيرة ومد صلات مع عالم جديد تماماً بالنسبة لأوربا من خلال الاستفادة من الينبوع الاصيل لتلك الثقافة والحضارة . وفيما يتعلق ببلادنا فقد اخذ المسيحيون على عاتقهم هذه المبادرة .

ان سنة (١٨٩٥) تعتبر تاريخية في التاريخ الثقافي ليوغسلافيا نظراً لأنها شهدت صدور الترجمة الأولى الكاملة للقرآن في اللغه الصربوكرواتية ، تلك التي جاءت لتلبي حاجات علمية من ناحية ودعائية من ناحية اخرى . لقد كانت تلك ترجمة ميتشو لوبيبراتيتش(١٠) ، التي نشرت بعد وفاته سنة (١٨٦٥) مع أن فكرة نشر الطبعة الصربوكرواتية للقرآن تعود الى سنة (١٨٦٨) كما يذكر سكيرليتش(١١) .

لقد كانت تلك مفاجأة كاملة ، خاصة للعلماء المحافظين في البوسنة والهرسك . وقد قوبلت هذه الترجمة بنقد مُرٍّ من العلماء المحافظين اذ ان « ترجمة القرآن الى لغة الكافرين »(١٢) كانت تبدو كحدث مشين . وقد وجدت كل تلك الانتقادات ضد المترجم مكاناً لها في مجلة « حكمت »(١٣) ، حيث كان يسود الرأي بان القرآن لا يمكن ترجمته الى أية لغة ، بل يجب على الجيل الجديد أن يتعلم العربية لكي يفهم ما في القرآن ، الشيء الذي كان يعبر في الواقع عن تزمت المشايخ . ومن المتوقع أن جذور هذا الموقف تعود الى النقاشات التي جرت في ذلك الوقت بالضبط في صحف القاهرة بين المحافظين من جهة وبين مدير « مجلة الأزهر » من جهة أخرى(١٤) . ففي تلك المناقشات برز الرأي الذي يقول بتعلم العربية كبديل لترجمة القرآن لأنه يخشى ــ كما كان يدعي ــ أن يأتي وقت تتناقص فيه هيبة الأمة العربية حين يدعي ذلك الشعب الذي ترجم القرآن الى لغته بأن القرآن قد أوحي به الى الرسول في تلك اللغة وليس في العربية(١٥) .

١ ــ الترجمة الأولى للقرآن :

بغض النظر عن كل هذا ، فقد أصبح أخيراً في متناول القراء الترجمة الكاملة للقرآن في اللغة الصربوكرواتية في نهاية القرن التاسع عشر . كانت هذه الترجمة تحمل على غلافها ما يلي : القرآن ، ترجمة ميتشو لوبيبراتيتش ــ هرسكوفاتس، بلغراد (١٨٩٥) ، وفوق اسم المترجم كانت هناك اشارة الصليب دلالة على أن المترجم قد توفي . الا أن لوبا ستويانوفيتش كان قد أوصى حينئذ بنزع ذلك الصليب لأن ذلك يمكن أن يكون « فضيحة بالنسبة للمسلمين وفرصة مناسبة للاثارة ضدنا نحن المسيحيين »(١٦) . وحول هذا يقول د. محمد حاجيأهيتش : « على كل نسخة يمكن ملاحظة أثر الصليب المنتزع فوق اسم المترجم ، ولكن وجدت نسخة واحدة فقط أعيد طبع غلافها من جديد »(١٧) .

ان هذه الترجمة ــ وكما يبدو من صفحة الغلاف الداخلي ــ قد طبعت على نفقة وقف ايليا ميلوسافليفيتش ــ كولاراتس في بلغراد وذلك في المطبعة الحكومية لمملكة صربيا .

وقد امتدت هذه الترجمة على (٤٧٦) صفحة بالاضافة الى ثلاث صفحات خصصت لـ « معجم بعض الأشياء والأسماء التي تذكر في القرآن ومكان ورودها » • وتجدر الاشارة هنا الى أن هذه الترجمة قد طبعت بالأبجدية الكيريلية (١٨) •

لقد انحصرت ترجمة القرآن من صفحة (٣) الى صفحة (٤٧٦) دون أن يكون هناك مقدمة او تفسير • وعوضاً عن « سورة » يلجأ المترجم لوبيبراتيتش الى تعبير « رأس » ، كما أنه لا يقدم اسم السورة في الأصل العربي بل يترجمه فقط • وهكذا بعد اسم السورة تأتي الآيات مرقمة ، وكل آية تبدأ دائماً من اول السطر •

لقد حاول لوبيبراتيتش أن يترجم القرآن حرفياً • والقصد هنا أن ترجمته لم تكن مثقلة بالتفسيرات داخل النص الأصلي كما في ترجمة بانجا وتشاوشيفيتش • ولكن في بعض المواضع كان المترجم يعطي بعض التوضيحات في أسفل الصفحات دون أن يُغْرِقَ في التفاصيل (١٩) •

ان ترجمة لوبيبراتيتش يمكن اعتبارها حرة ، ويبدو هذا أولاً في ترقيمه للآيات وفي ترجمته لها (٢٠) • فمثلاً نجد أن آية « إن اللهَ عَليمٌ بذاتِ الصدُور » قد ترجمها كما يلي: « خافوا من الله لأنه يعرف داخل قلوبكم » الخ •

في أواخر هذه الترجمة (ص ٤٧٧ــ٤٧٩) يقدم لوبيبراتيتش « معجم بعض الاشياء والأسماء التي تذكر في القرآن ومكان ورودها » • وهنا يظن لوبيبراتيتش أن لفظ « جِبت » هي اسم لأحد الأصنام ، ولكن يبدولي أن هذا اللفظ يراد به « القبط » أي المصريون القدماء •

وبعد الطبعة الأولى لهذه الترجمة (١٨٩٥) أعيد نشر مختارات منها مرتين متتاليتين ، ففي المرة الأولى لدينا مختارات بعنوان « الحياة والصحة والمرض والموت في القرآن »، تلك التي اختارها د.م. يوفانوفيتش ونشرها « المعهد الصحي » في سراييفو سنة ١٩٢٧ • وقد نُشرت مختارات أخرى في بلغراد سنة (١٩٦٧) بعناية ميودرا مكسيموفيتش ، حيث نشرت معها دراسة المستشرق د. حسن كلشي التي نشرت سابقاً في مجلة « أزرار »(٢١) •

٢ ــ الترجمة الثانية للقرآن :

في سنة ١٩٣٧ ظهرت ترجمة جديدة لاثنين من علماء المسلمين المعروفين في البوسنة والهرسك : محمد بانجا وجمال الدين تشاوشيفيتش • وقد صدرت هذه الترجمة في سراييفو تحت عنوان : القرآن الكريم ــ ترجمة وتفسير (٢٢) •

وفي مقدمة هذه الطبعة يذكر تشاوشيفيتش أن « هذا العمل قد تم على غرار ذلك الذي قام به العالم التركي العظيم عمر رضا • وبالاضافة الى هذا يضيف تشاوشيفيتش لاحقاً الدافع الذي أثاره للقيام بهذا العمل : « اني آمل من كل قلبي أن يصل هذا الكتاب الجميل

والمقدس الى آيدي الناس لدينا • وبهذا العمل آمل آن يتمكن المسلمون من الاهتداء بيسر الى المعاني السامية للقرآن العظيم الكريم ، الشيء الذي كان هدفي الأساسي »(٢٣) •

ان هذا يعني أن تشاوشيفيتش كانت له أهداف أخرى أيضاً : أن يبين للعالم « أننا نحن المسلمون أيضاً في هذا الجزء من أوربا ، وعلى الرغم من قلة عددنا ، نقدر ونرغب أن نترجم ونفسر المنبع السامي لديننا ، أي كما يمكن ان تفعل أيضاً المراكز الرئيسية للعالم الاسلامي •

لقد أردت من هذا أن أثبت أنه لا يمكن قياس روحيتنا بعددنا الصغير في هـذا الركن مـن أوربا »(٢٤) •

بعد هذا نجد في هذه الطبعة « الكلمة الأولى عن ترجمة وتفسير القرآن للعالم الكبير عمر رضا » • وهنا يتفق عمر رضا وتشاوشيفيتش ، الذي نقل هنا كلمته لهذا الغرض، مع بقية مترجمي القرآن في أن القرآن لا يمكن أن يترجـم • وهكـذا ، بالاستناد الى رأي المستشرق بيكثال Picthal ، نقرأ حرفياً مايلي: « ان القرآن لا يمكـن أن يترجم • لقـد كان علماء المسلمين القدامى مع هذا الرأي وأنا أيضاً أتفق معهم كلياً • ولذلك لا أستطيع أن أؤكـد أنني نجحت في ترجمة القرآن • انني أحاول وأجتهد في نقل المعاني القرآنية • واذا نجحت في هـذا فانني سأكون سعيداً • ولكن هذا العمل، وبالتحديد هذه الترجمة ، لا يمكن أن تكون بديلاً عن القرآن الأصيل الصحيح ، ولا يمكـن أبـداً أن يتم هـذا في يوم مـن الأيام »(٢٥) •

وفي الوقت الذي يعـد فيه « بيكثال » نفسه سعيداً اذا نجح فقط في نقـل المعـاني القرآنية الى اللغة الانكليزية ، فان عمر رضا يبدو أشد تواضعاً في هـذا المجـال ، ولذلك نجده يقول : « ونحن لا نؤكد أيضاً بأننا نجحنا في ترجمة القرآن • أننا نحاول ونجتهد في نقل وتفسير المعـاني القرآنيـة • وبالنسبة لنـا سنشعر بأكبر سعادة اذا نجحنا في ذلك ، بـل حتى اذا تمكنا فقط مـن التقدم عدة خطوات الى الأمام »(٢٦) •

بعـد هذا ، تأتي الصفحات التي تحمل الأعداد الرومانيـة VII - LXVIII لتعرّف ببعض الأمور مـن تاريخ القرآن وذلك تحت عناوين منفصلة : ما القرآن ، ترتيب القرآن وتقسيمه ، جمـع القران ، توزيـع القرآن الكريم ، القرآن والكتب المقـدسـة ، حفظ القرآن الكريم • وفي القسم الثـاني لدينا عناوين أخرى : الوحدة الالهيـة ــ الآخرة ــ العالم الخالد ــ الجنة والجحيم ــ الوحي الالهي وحيـاة محمد (ﷺ) •

وبعد هـذه الايضاحات العامة تأتي ترجمة القرآن، القرآن الكريم ــ ترجمة وتفسير (ص ١ ــ ٩٥٧) • وهنـا تتضح لدينا فروق بارزة بـين هـذه الترجمـة وبـين ترجمـة لوبيبيراتيتش سواء فيما يتعلق بالأسلوب أو بالمضمون • ففي بداية كل سورة نجد ملخصاً لمضمونها ومكان نزولها وعدد آياتها • وفي هـذه الترجمـة ترد السور مرقمـة بالأرقام العربية ، وتحمل كل سورة عنوانها الأصيل في العربية • وبعد هذه المعطيات نجد محتوى كل السورة ، بينما نجد أن حجم هذا المحتوى أو المضـمون يختلف حسب طـول السورة •

فالسور الطويلة كانت تقسم الى أجزاء ،كسورة البقرة التي قسمت الى (٤٠) جزءاً وسورة الهجرة الى (٦) أجزاء الخ • وبعدكل هذا تأتي الترجمة تبدا ب « بسم الله الرحمن الرحيم » مرة في اللغة الاصلية ومرةمترجمة في الصربوكراتية •

ان الترجمة في هذه الطبعة تتميز بكونهامتطابقة باياتها المرقمة من الاصل القرآني ، الشيء الذي ينسجم مع معايير الطبعةالنقدية • فالقارىء أصبح في وسعه أن يجري مقارنة مع الأصل ، وأن يعطي رأيه في هذه الترجمة •

أما فيما يتعلق بالترجمة ، فيمكن القولانها غير حرفية وليست مثقلة بالتوضيحات الموضوعة داخل قوسين ( ) • ونجد هنا أنالترجمة تصاحبها أحياناً تعليقات تتعلقبآيةما في بعض السُوَر •

ومع انه يُعتقد بأن بانجا وتشاوشيفيتش قد استندا في ترجمتهما وتعليقاتهما على عمر رضا ، الذي بدوره استند على ترجمةمحمد علي زعيم الأحمدية في لاهور ، الا أن الأمر لا يمكن أن يعتبر حقيقة مطلقة لأننانجد في ترجمتهما توضيحات قليلة بالمقارنة مع ما نجده لدى محمد علي(٢٧) •

في نهاية هذه الطبعة ، ص ٩٥٨ـ٩٧٦ هناك الفهرس والكشاف ، بينما نجد في الصفحة (٩٧٧) متى ولدى أي الآيات يجبالقيام بالسجود حين يقرأ القرآن ، وتنتهي الطبعة أيضاً بكلمة على امتداد صفحة لمترجم القرآن الى التركية عمر رضا •

لقد حظيت هذه الترجمة بطبعة جديدة فيزغرب(٢٨) • وفي هذه المرة قام بمراجعة الترجمة الحافظ عمر موشيتش ، بينما تولى علي ناميتاك المراجعة الأسلوبية بالاعتماد على الأصل العربي • وفي مقدمة هذه الطبعة نجدأن الناشر يقرر بأنه « لا توجد هناك ضرورة لترجمة جديدة تماماً ، نظراً لجودة الترجمةالتيقامبها م.بانجا و ج.تشاوشيفيتش»(٢٩)•

وتجدر الاشارة هنا الى الأمر المتعلقبالتحضيرات الضرورية لترجمة جديدة تماماً يختلف عما ورد هنا • فليس من المعقول أنالناشر كان يجهل أن بسيم كركوت قد قام بترجمة جديدة وأن هذه الترجمة كانتجاهزةللطبع ، في الوقت الذي ظهرت فيه هذه الطبعة في زغرب • ويبدو لنا أن الدافع وراء هذا هوالتهرب من حقوق التأليف ونفقات الطبع • ومن المؤكد بالنسبة لنا أن ترجمة كركوتكانت معروفة لأن مجلة « غلاسنيك » كانت تعلن عنها •

أما فيما يتعلق بالتأكيد على عدم الحاجةلترجمة جديدة فان الأمر لا يبدو مقنعاً على الاطلاق ، خاصة اذا عرفنا أن ترجمة كركوتكانت الوحيدة التي تمت ترجمتها من اللغة العربية مباشرة •

على كل حال نجد أن الطبعة الجديدةللقرآن في زغرب قد بدت في توزيع جديد ، فعلى سبيل المثال نجد أن الفهرس وتوضيحالكلمات العربية والمختصرات قد أصبحت في المقدمة ، بينما أصبحت التعليقات (ما هوالقرآن ، ترتيب السور ، الخ) في المؤخرة •

وفي الواقع لقد كان التوزيع في الطبعة الاولى أفضل مما جاء الآن على هذا الشكل • وفي الطبعة الجديدة نجد بعض التدخلات من الناحية اللغوية هنا وهناك بينما قدمت المعطيات التاريخية بترتيب زمني وبشكل مقولب كما في الطبعة الاولى •

وبعد مقدمة الناشر نجد الفهرس (ص VII - X) حيث وردت أسماء الآيات العربية بالحروف اللاتينية ، اي دون ترجمة • أما في الصفحات XI - XII فقد ورد بشكل مختصر وواضح « توضيح الكلمات العربية والمختصرات » ، مع ان الأمر كان يستدعي في بعض المواضع مزيدا من التوضيح كما في « الجزية »، « الجنب » ، « الاسلام » الخ • ففيما يتعلق بـ « الاسلام » مثلاً نجد أن المترجم يجعل هذا مجرد مرادف للايمان •

أما ترجمة القرآن مع التوضيحات القصيرة فتمتد عبر الصفحات (١ـ٨٣٤) وكما في الطبعة الأولى نجد هنا الاصل أيضاً ، النص العربي للقران مع الآيات المرقمة ، بينما تبدأ ترجمة كل آية من أول السطر وهو الشيء الذي لم يكن في الطبعة الأولى ، ولا شك أن هذا يزيد النص وضوحا •

ان الاخراج الفني للترجمة والتفسير ــ النص الأصلي ، الترجمة ثم التفسير ــ لدى تشاوشيفيتش يكاد يكون هو نفسه في الترجمة الانكليزية لمحمد علي وهذا يُثبت من جديد ان المترجمان بانجا و تشاوشيفيتش قد قاما بعملهما على غرار الترجمة التركية لعمر رضا، الذي ترجم القرآن بدوره على غرار الترجمة الانكليزية المذكورة • وفي هذه الطبعة أيضاً لم يتغير اسلوب الترجمة • فبعد المعطيات الاساسية عن كل سورة ، وبعد التوضيح الموجز للسورة تاتي الترجمة المتطابقة مع النص العربي • والنص العربي هنا يقدم بصفحاته كما هي واردة في القرآن ، بينما تبدو الترجمة هنا بشكل أفضل من الناحية الفنية بالمقارنة مع الطبعة الاولى • وفي بعض الأماكن نجد أن الترجمة تمتد للصفحة الثانية أو قد تسبق الأصل ، الا ان هذا لا يمثل أية عقبة طالما أن الآيات مرقمة(٣٠) •

وفي هذه الطبعة أيضاً نجد أن السور قد قسمت الى أجزاء حسب مضمونها وطولها ، بحيث يحمل كل جزء عنواناً خاصاً • فمثلاً نجد أن سورة « النازعات » قد قسمت الى جزأين مع (٤٦ آية) الجزء الأول يحمل عنوان « الزلزلة الكبيرة »، بينما يحمل الجزء الثاني عنوان « الكارثة الكبرى » • وتجدر الاشارة هنا الى أن بعض الآيات قسمت الى عشرة أجزاء وأكثر ، بينما لم يشمل التقسيم بعض الآيات الأخرى(٣١) •

لقد اثقل المترجمان بانجا و تشاوشيفيتش الترجمة بفتح الأقواس داخل الآيات لاقحام بعض المترادفات في اللغة الصربوكرواتية أو لوضع مفردات أخرى لغرض التوضيح(٣٢) • وعلى كل حال ان هذا الأسلوب في الترجمة يدفعنا للتساؤل عن السبب في ذلك : هل هو عدم معرفة اللغة الأم(*) أم لعدم الفهم الدقيق للنص الذي ترجماه ؟ ومن هنا نتفق في الرأي تماماً مع محمد هانجيتش الذي يطالب في معرض حديثه عن ترجمة القرآن أن يترجم

★ يريد لعدم فهمهما للغة العربية حق الفهم • (هيئة التحرير) •

القرآن بشكل علمي ويضع لذلك الشروط التالية : « معرفة المترجم للغتنا ثم معرفته للغة العربية وكل العلوم الدينية »(٣٣) .

اما فيما يتعلق بتفسير وملاحظات جمال الدين تشاوشيفتش ، فقد كان من الأفضل أن يكتب الملاحظات فقط لأنه لم يكن هناك لا المجال ولا الوقت لكي يقدم تفسيراً عن بعض الامور(٣٤) . وقد قدمت الملاحظات على شكل هوامش وهي لم تتعد بأرقامها السور الى سورة إخرى كما هو الأمر لدى محمد علي .

وفيما يتعلق بهذه الملاحظات فقد انتقد تشاو شيفيتش من قبل العلماء المسلمين الذين كانوا يلتفون حول مجلة « الهداية »(٣٥) . وقد اتهمه العلماء حينئذ بأنه يتعاطف مع الطريقة الأحمدية التي كانوا يقفون ضدها . ففي ذلك الوقت اعتبر هؤلاء العلماء أن هذه الطريقة تتبنى « التعاليم التي تخالف الأحكام الواضحة وروح منبع الاسلام » ، وهذا كان « في خدمة قوى معينة مشحونة بالعداء ضد الاسلام والمسلمين »(٣٦) . ولذلك فقد عبر العلماء المسلمون عن شكهم في موقف رئيس العلماء ج. تشاوشيفيتش : « اننا لا نعرف ما هي العلاقة بين رئيسنا السابق وزعيم الحركة الأحمدية في برلين »(٣٧) .

وفي الواقع ان ملاحظات العلماء المسلمين ليست في مكانها لأنه لا يوجد في التعليقات التي كتبها ج. تشاوشيفيتش أي شيء يتعارض مع تعاليم الاسلام(*) . وعلى كل حال فقد كان تشاوشيفيتش قد اختصر كثيراً تعليقات محمد علي .

٣ ـ الترجمة الثالثة للقرآن :

في سنة (١٩٣٧) وبعد عدة شهور فقط من صدور ترجمة بانجا وتشاوشيفيتش صدرت ترجمة أخرى للقرآن دون تفسير للحاج علي رضا كارابك(٣٨) . وقد صدرت هذه الطبعة حينئذ في خمسة آلاف نسخة(٣٩) . ومع أن المترجم قد ذكر بأنه قد ترجم القرآن من العربية الا أن هذه الترجمة تكاد تكون تقليداً لترجمة لوبيبراتيتش ، ولذلك فقد اعتبرت مجرد « تبديل سطحي لترجمة لوبيبراتيتش »(٤٠) .

في هذه الطبعة لدينا أولاً مقدمة (ص ١ ـ٦) حيث يتحدث المترجم عن الترقيم بشكل عام ، وخاصة عن المصاعب التي تعترض مترجم القرآن . وفي معرض حديثه عن هذه المشكلة يشير كارابك الى أن القرآن يمتد عمره الى اربعة عشر قرناً ولذلك فانه من الصعب اعادة صياغته في اللغة العربية الحالية ، فكيف بترجمته الى اللغات الأخرى : « لو أراد المرء أن يترجم القرآن الى اللغات الأخرى ، بل حتى الى الأسلوب الأدبي الحالي للغة العربية ، لتطلب الأمر الابتعاد عن بلاغة القرآن ، واذا أراد الاحتفاظ ببلاغة القرآن فعليه الابتعاد عن أسلوب الكتابة الحالية في اللغة العربية »(٤١) .

---

* كان الأجدر بالكاتب أو المترجم ايراد كلا الرأيين ليتاح للقراء المحايدين الحكم بصحة رأي أحد الطرفين ، أما أن يحكم الكاتب أو المترجم بصحة أو عدم صحة رأي أحد الطرفين دون بيانه فذلك ما ينافي قواعد النقد السليم (هيئة التحرير)

وبعد هذا يتعرض كارابك في مقدمته الى مضمون القرآن ثم الى محاولته بأن تكون الترجمة دقيقة الى أبعد حد ممكن ، أي أن لا تتجاهل أي شيء في النص الأصلي وألا تضيف أي شيء غير موجود في الأصل . ولاجل هذا يعترف بأنه استفاد من « أشهر تفسيرين للقرآن »(٤٢) . أما عن عدم تقديمه للنص الأصلي للقرآن فقد أورد ثلاثة أسباب :

١ ـ في هذه الحالة سيرتفع ثمن الترجمة بينما هدفي هو أن أطرحها في أقل ثمن ممكن لكي تنتشر بشكل أفضل بين المسلمين .

٢ ـ في ظروف كثيرة لن ينال هذا النص الاحترام كما يجب .

٣ ـ في هذا الشكل لن تقل قيمة الترجمة لأنني رقمت الآيات المترجمة كما هي مرقمة في المصحف ، التي تفصل النقاط فيما بين آياته . ومن ناحية أخرى أعتقد أن كل مسلم يحتفظ بقرآن في بيته »(٤٣) .

وطالما أن هذه الترجمة قد صدرت في الوقت الذي كانت قد وصلت للأيدي ترجمة بانجا وتشاوشيفيتش، فقد وجد كارابك من المناسب أن يقول شيئاً : « اذا كنا ، نحن المسلمون اليوغسلاف، لا نعرف البخل فعلاً ـ كما يقول الكثيرون في الحديث وفي الكتابة ـ فليس من الكثير أن تكون هناك ترجمات ، ترجمة السيد تشاوشيفيتش وترجمتي، لأقدس كتاب لدينا. فقد صدرت هاتان الترجمتان تقريباً في وقت واحد بعد أن مر وقت طويل لم تظهر فيه أية ترجمة الى لغتنا »(٤٤) .

وفي نهاية المقدمة ينبه كارابك القارىء الى أنه قد ترجم بعض الكلمات ك « رب » ، « رحمة » ، « نبي » ، « رسول » الخ بعدة أشكال أي أنه لم يعتمد دائماً على معنى واحد.

لقد سار كارابك في ترجمته على غرار لوبيبراتيتش . وقد اعترف كارابك نفسه بأنه قد استفاد من ترجمة لوبيبراتيتش ، الا أنه وجد نوعاً من الاهانة فيما قيل عن ترجمته بأنها مجرد « تبديل سطحي لترجمة لوبيبراتيتش » . ففي مقاله « رد على العرض المتعلق بترجمتي للقرآن » الذي نشر في مجلة « الهداية » يوضح كما يلي صلته بترجمة لوبيبراتيتش : « لقد أخذت بالفعل ترجمة لوبيبراتيتش واستفدت من تلك المقاطع التي أعجبتني والتي كانت مترجمة بشكل صحيح . انني لا أنفي أن وجود ترجمة لوبيبراتيتش قد ساعدني ، وقد كان في وسعي أن آخذ منهما ما هو جيد وجميل ، الا أن ما يجرحني هو ذلك الادعاء بأن هذا مجرد تبديل سطحي لترجمة لوبيبراتيتش »(٤٥) .

وفي الواقع ان تشابه هاتين الترجمتين هو مسألة خاصة في حد ذاتها . وعلى كل حال ان التشابه الى حد ما هو أمر طبيعي . ولكن يبقى على المختصين أن يُقرروا مدى الصلة بين هاتين الترجمتين وذلك بالمقارنة بينهما .

ان ترتيب السور عند كارابك مرقم بالأرقام الرومانية ، وهو يسمي السورة « رأساً » Glava كما عند لوبيبراتيتش ، الا أنه يختلف عنه بوضع التسمية العربية « سورة » Sura بين قوسين .

وكما يبدو من الأمثلة المختلفة فان كارابك يختلف عن لوبيبراتيتش في أنه يقدم أسماء السور في اصلها العربي ، مع أنه يستثني منذلك بعض الآيات • فسورة البقرة مثلاً لا يذكرها باسمها العربي ، بينما يتلافى ذلك ابتداء من السورة الثالثة « آل عمران » حيث يبدأ بتقديم التسمية الأصلية في العربية مع ترجمتها الى اللغة الصربوكرواتية • وفيما يتعلق أيضاً بترقيم الآيات فقد اختار طريقة يتميز بها عن لوبيبراتيتش ، اذ أنه لا يبدأ كل آية من أول السطر بل يميز بداية الآيات بالأرقام المطبوعة بشكل ملفت للنظر • وكما قلنا: ان هذه الترجمة تخلو من تفسير ، الا أن المترجم يعمد الى تقديم بعض التوضيحات هنا وهناك على شكل هوامش يصل عددها الى خمسة وتسعين • وفي نهاية هذه الطبعة لدينا جدول بالأخطاء المطبعية (ص ١ـ٤) وأخيراً الفهرس (ص I-IV) •

لقد تعرفت الأوساط العلمية لدينا على القرآن في نهاية القرن التاسع عشر ، حين صدرت ترجمة ميتشو لوبيبراتيتش سنة (١٨٩٥) • ومع أن هذه الترجمة لم تبق الوحيدة الا أنها دون شك الأولى من نوعها • وقد أنجزت حتى الآن عدة ترجمات للقرآن في اللغة الصربوكرواتية ، الا أن نصفها تقريباً لا يزال مخطوطاً •

ان القرآن الآن لم يعد الكتاب المقدس للمسلمين فقط ، كما كان الأمر حتى نهاية القرن التاسع عشر ، بل انه أصبح الآن هدفاً للدراسات العلمية في المجالات الاستشراقية والقانونية والتاريخية ، الخ •

* * *

الهوامش والاحالات :

* العنوان الأصلي للبحث « ترجمات القرآن في اللغة الصربوكرواتية » ، أي ان الأمر يتعلق بترجمات القرآن الى اللغة الاولى من حيث الانتشار في يوغسلافيا • ان هذا البحث في الأصل قسم من أطروحة لنيل درجة الماجستير ، وقد نشر هذا القسم لأول مرة في اللغة الصربوكرواتية :

Feti Mehdiu, Stpskohrvatski prevodi Kur'ana, Studia Humanistica III, Pristina 1980, s. 149-163.

1 — Dr. Muhamed Hadziahic, Bibliografske biljeske o prijevodima Kur'ana kod nas, Bibliotekartsvo, br. 3, Sarajevo 1967.

2 — Dr. Savo Ljubibratic-Todor Krusevac, Prilozi za proucavanje hercegovackih ustanaka 1857-1878. godine, Godisnjak Istorijskog drustva BiH, VIII, Sarajevo 1956, s. 185.

٣ ـ ان الترجمة الأخيرة للقرآن ، التي قام بها بسيم كركوت، هي الوحيدة التي يمكن اعتبارها ترجمة علمية •

٤ ـ في الأزمنة القديمة ، بل وحتى اليوم ، لا يتم التمييز بين « الدين الاسلامي » وبين « الدين التركي » ، الشيء الذي يعبر عن مغالطة كاملة • ويبدو لي أن هذا جاء نتيجة تحول الشعوب البلقانية من النصرانية الى الاسلام نتيجة للفتح العثماني •

٥ ـ محمد فريد وجدي • الادلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن الى اللغات الأجنبية ، مجلة الأزهر ، القاهرة (١٩٣٦) •

٦ ـ المصدر السابق ٠

٧ ـ المصدر السابق ٠

٨ ـ المصدر السابق ٠

٩ ـ المصدر السابق ٠

١٠ ـ ولد م٠ لوبيبراتيتش في لوبوف ، بالقرب من تريبينيا ، سنة (١٨٣٩) وكان من زعماء الانتفاضة في الهرسك سنة (١٨٧٥) عاش لاحقا في مملكة صربيا وتوفي في بلغـرادسنة (١٨٨٩) ٠

11 — Omladina i njena knjizevnost (1848-1871), Beograd 1906, s. 221.

12 — Hadziahic, Bibliografske biljeske, s. 41.

13 — Hikjmet, br. 9, Tuzla 6. IV. 1936, s. 267.

١٤ ـ المقطم ، القاهرة ١٩٣٦/٤/٢٢ ٠

١٥ ـ في مقالة المذكور (هامش ٥) يقدم محمد فريد وجدي ردا واسعا ومثبتا بالادلة ضد معارضيه من المحافظـين ٠

16 — Hadziahic, Bibliografske biljeske, s. 43.

١٧ ـ المصدر السابق ٠ يبدو أن الصليب لم يتم انتزاعـــه من جميع النسخ ٠ فالنسخة التي استفدت منها (نسخة مكتبة فرع الاستشراق في بلغراد) تحتفظ بالصليب ، بينما لا يوجد الصليب في نسخة مكتبة غازي خسرو بك في سراييفو٠ ومن المؤكد أن حاجي اهيتش قد استفاد من هذه النسخة٠

١٨ ـ في مقالة « ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغات الأوربية والشرقية » (منار الاسلام رقم ٢ ، ١٩٧٦) يذكر الشيخ طه الوالي أيضا ترجمات القرآن الى اللغة الصربوكرواتية ٠ فتحت الرقم المتسلسل ١٢ يذكر الشيخ الوالـي أن القرآن مترجم الى اللغة البوسنوية (اليوغسلافية) :مرتان بالحروف العربية ٠ و (٩) مرات بالحروف اللاتينية ، ومرتان بالحروف الروسية ٠ ويبدو هنا أن الأمر يتعلق بالحروف الكريلية ، اذ أن بقية المعطيـات أيضا لا يمكـن اعتبارها صحيحة ٠

١٩ ـ في هذه الترجمة لا يوجد الا (٥٦) هامشة ، وهـي لا ترد مرقمة بل يشار الى الواحد منها بنجمة ٠

٢٠ ـ في بعض الأماكن يزيد أو ينقص عدد الآيات ، أو تبدو بعض الآيات بأرقام تختلف عن الأصل العربي ٠ فعلى سبيل المثال نجد أن سورة النساء تتضمن (١٧٥) عوضا عن (١٧٦) بينما عمـد لوبيبراتيتش في سـورة المائـدة الى تقسيم الآية الواحدة أحيانا الى شطرين ٠

21 — Dr. Hasan Kalesi, Kur'an - remek delo arapske knjizevnosti, Izraz, br. 2, Sarajevo 1967, s. 183.

22 — Kur'an Casni, prevod i tumac, preveli i "sredeli" Hafiz Muhamed Pendza i Dzemaludin Causevic, Sarajevo 1937.

23 — Ibid. "Rijec izdavaca".

24 — Ibid.

25 — Ibid. s. V.

26 — Ibid.

٢٧ ـ هنا لدينا (١٤٨٠) توضيحا بينما لدينا في الترجمة الانكليزية (٢٨٢٢) توضيحا ٠ انظر :

The Hely Qur'an, containing the arabic text with english translation and comentary by Maulavi Muhammad Ali, second edition 1920, Lahore, Panjab, India.

28 — Kur'an Casni, preveli hafiz Muhamed Pandza i Dzemaludin Causevic, tumacenje i biljeske : Dzemaludin Causevic, Zagreb 1969.

بعد هذه الطبعة صدرت عدة طبعات لاحقة في (١٩٧٢ ،١٩٩٧٤، ١٩٧٨) •

٢٩ ـ المصدر السابق ، مقدمة الناشر •

٣٠ ـ في هذه الناحية يبقى من الأفضل ما فعله محمد علي ،أي تقديم الترجمة جانب الأصل •

٣١ ـ على سبيل المثال نجد ان سورة البقرة في الطبعة الاولى(١٩١٧) قد قسمت الى ٤٠ جزءا ، بينما قسمت في الطبعة الثانية (١٩٦٩) الى ٣٩ جزءا •

٣٢ ـ في الترجمة الانكليزية لمحمد علي لا يوجد هذا الشيء •

33 — El-Hidaje, br. 9, Sarajevo 1938, s. 142.

٣٤ ـ لقد تم انجاز هذه الترجمة في وقت قصير جدا • فقد بداالعمل في هذه الترجمة ، كما يذكر د• حاجي ـ اهيتش ، في (١٩٣٦) بينما نشرت خلال (١٩٣٧) •

٣٥ ـ بمناسبة صدور هذه الترجمة جرت نقاشات حادة بين‌ممثلي مجلة « الهداية » الناطقة باسم « الجمعية العلمية لمملكة يوغسلافيا » وبين المترجمين بانجا وتشاوشيفيتش •

36 — El-Hidaje, br. 11-12, Sarajevo 1938, s. 168.

37 — Hadziahié, Bibliogafske biljeske, s. 48.

38 — Kur'an, vreveo sa arapskog hadzi Ali Riza Karabeg, Mostar 1937, str. 6+423+4+IV.

39 — Hadziahic, Bibliografske biljeske, s. 48.

40 — Muhamed Pasic, Moje misljenje o prevodu Kur'ana od g. H. Riza ef. Karabega, El-Hidaje br. 11-12, Sarajevo 1938, s. 173.

٤١ ـ مقدمة المترجم ص ١ • ولد المترجم كارابك سنة (١٨٧٢) وقد تخرج من المدرسة الشرعية ، الا انـه لم يتول اي عمل في المنظمات الدينية للمسلمين • توفي في مدينــــةموستار خلال (١٩٤٤) •

٤٢ ـ المصدر السابق ص ٣ •

٤٣ ـ المصدر السابق •

٤٤ ـ المصدر السابق ص ٥ •

45 — H. Ali Riza Karabeg, Odgovor na prikaz moga prevoda Kur'ana, El-Hidaje br. 11-12, Sarajevo 1938, s. 171.

★ ★ ★

الفعـل
تعـريفه وأقسامه وأبوابه

صلاح الدين الزعبلاوي

تشعبت أقوال النحاة في تعريف الفعل ، وتباينت مذاهبهم في اعتماد الحد الذي يعقد عليه هذا التعريف ، كما اختلفت كلمتهم في تقسيمه بين البصرية والكوفية • ولا بد من بسط الكلام على هذا كله ، قبل المضي في البحث عن أبوابه •

تعريف الفعل

أقدم ما بلغنا في تعريف الفعل مقالةسيبويه (١٨٣ هـ) في الكتاب • قال سيبويه في (باب علم ما الكلم من العربية ـ ١/٢):« وأما الفعل فامثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولميقع ، وما هو كائن لم ينقطع » وأردف : « فأما بناء ما مضى فذهب وسمع ومكُث وحُمد ، وأما بناء ما لم يقع فانه قولك آمراً : اذهب واقتل واضرب ، ومخبراً :يقتل ويذهب ويضرب ويُقتل ويُضرب ، وكذلك بناء مالم ينقطع وهوكائن اذاأخبرت»وختم كلامه فقال : « فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، ولها أبنية كثيرة ،ستبين ان شاء الله » •

☐ تعريف الفعل بالمثال :

ونلحظ أن هذا التعريف انما عقد على حد (المثال) اذ قال : « وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء » • فالفعل ،كما جاء ، أمثلة اشتقت من لفظ أحداث الأسماء ، أي المصادر• قال سيبويه : «الأحداث نحو الضرب والقتل والحمد » ، فمن هذه

الأمثلة ما اشتق لما مضى ، وهو الفعل الماضي ، وما اشتق لما يكون ولم يقع ، وهو فعل الأمر ، وثالث اشتق لما هو كائن لم ينقطع ، وهو المضارع • وكل مثال من هذه الأمثلة قد صيغ لزمن من الأزمنة •

وممن جرى على منهاج سيبويه هذا في تعريف الفعل فاتخذ (المثال) حداً في التعريف كبير نحاة الأندلس أبو بكر محمد بن الحسن الزُبيدي الاشبيلي الأندلسي (٣٧٩ هـ) • وقد عُرف نحاة الأندلس بسلوك طرائق النحاة المشارقة في كثير مما كتبوه في اللغة والأدب ، وقد يستدركون عليهم شيئاً مما حققوه • فألّف الزبيدي مختصر كتاب العين للخليل بن أحمد، وطبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس ، وكتاب الواضح في العربية • وقد عكف على (الكتاب) مؤلف سيبويه فثقفه ومهره وأحصى مسائله واستقرى دقائقه ، لكنه استدرك عليه بعض ما جاء فيه ، في كتابه (الأبنية) • قال الزبيدي في كتاب الواضح: « اعلم أن جميع الكلم ينقسم على ثلاثة أقسام : اسم وفعل وحرف جاء لمعنى • فالاسم ••• والفعل قولك : ضرب وخرج وانطلق ، ويضرب ويخرج ، واضرب واسمع، وما أشبه هذا » ، فلم يزد في تعريف الفعل على أن جاء بأمثلة منه للماضي والمضارع والأمر •

☐ تعريف الفعل باحدى دلاليته الزمن وبدلاليته الحدث والزمن :

ومن النحاة من اتخذ في تعريف الفعل حد الزمن وحده • فالفعل ما اقترن بزمن والاسم ما لم يقترن به • ويُعترض على هذا بأن الزمن واحد من دِلالتي الفعل ، فقد وضع الفعل ليدل على معنى ، الزمن جزء منه ، كما وضع الاسم ليدل على معنى ، ليس الزمن جزءاً منه • وأقدم تعريف اتخذ مثل هذا الحد ، هو ما جاء به الكسائي أبو الحسن علي بن حمزة (١٨٩ هـ) • فقد روي عن الكسائي أنه قال : « الفعل ما دل على زمان » كما ذكره الدكتور الساقي في كتاب (أقسام الكلام العربي/٦٩) •

والكسائي امام الكوفيين في النحو واللغة وأحد القراء السبعة •

وقد حذا هذا الحذو أبو الحسن بن كيسان (٢٩٩ هـ) ، فقد حكي عنه قوله : « الفعل ما كان مذكوراً لأحد الزمانين : اما ماض أو مستقبل ، والحد بينهما » ، كما أشار اليه الدكتور الساقي في كتابه (أقسام الكلام العربي/٦٩) وابن كيسان أحد العلماء البغداديين الذين أخذوا النحو عن امام البصريين المبرّد أبي العباس محمد بن يزيد (٢٨٥ هـ) وامام الكوفيين ثعلب أبي العباس أحمد بن يحيى (٢٩١ هـ) ، فكان بصرياً كوفياً •

واذا كان الكسائي وابن كيسان قد عرّفا (الفعل) بالزمن فوصفاه باحد دلاليته ، فقد عمد النحاة بعدهما الى احكام تعريفه فوصفوه بدلاليته (الحدث والزمن). وأقدم ما جاء من ذلك في تعريف الفعل ، ما قاله أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (٣٣٧ هـ) ، في كتابه الايضاح : « الفعل على أوضاع النحويين ما دل على حدث وزمان ماض أو مستقبل نحو قام يقوم/٥٣ » وذكر ذلك في كتاب (الجمل/١٧)

أيضاً • والزجاجي ممن جمعوا علم الكوفة الى علم البصرة، وقد كان الى البصرية آميل، لكنه لم يتعصب لأحد المذهبين فيحاكي بغير دليل أو يتابع بغير حجة •

ونهج الفارسي أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (٣٧٧ هـ) نهج الزجاجي في التعريف فقال : « كل لفظة دلت على معنى مقترن بزمان محصل » • ولما وصف المعنى باقترانه بالزمان تحقق أنه الحدث ، وفي اشارته الى اقتران الحدث بزمان محصل زيادة في الاحكام • والفارسي كما هو معروف علم من أعلام البصرة والقياس• ومن مؤلفاته الايضاح والتكملة والتذكرة وسواها •

وجرى النحاة بعد الفارسي على هذه السنة في التعريف فقال جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ) في كتابه (المفصل/٢٤٣) : « الفعل ما دل على اقتران حدث بزمان » والزمخشري من أئمة القياس بعد الفارسي وابن جني ، وهو صاحب المفصل والكشاف •

وعلى ذلك كلام ابن الحاجب في الكافية (٦٤٦ هـ) ، اذ قال : « الفعل ما دل على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة ».وقد عقب على هذا شارح الكافية الامام عبد الرحمن محمد الجامي (٨٩٧ هـ)فقال : « ولما وصف ذلك المعنى باقترانه بالزمان تعين أن يكون المراد به الحدث » •وابن الحاجب هو أبو عمرو عثمان بن عمر • وقد صنف في النحو الكافية وشرحها ، وشرح (المفصل) بكتابه (الايضاح) ، كما صنف في الصرف كتابه (الشافية) •

وهكذا فعل الامام الرضي في شرحه لكافية ابن الحاجب ، اذ قال : « هذا اللفظ الدال على معنى مفرد أعني الكلمة ، اما أن يدل على معنى في نفسه أو على معنى لا في نفسه ، الثاني الحرف ••• والأول أي الكلمة الدالة على معنى في نفسها اما أن تقترن بأحد الأزمنة الثلاثة أو لا ، الثاني الاسم .. والأول الفعل أي الكلمة الدالة على معنى في نفسها مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة ••٧/ » •والرضي هو الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (٦٨٦ هـ) •

ولا ننس الامام ابن عقيل عبدالله بن عبد الرحمن بن عبد الله (٧٦٩ هـ) شارح ألفية ابن مالك ، محمد بن عبد الله بن مالك جمال الدين الطائي (٦٧٢ هـ) اذ قال : « الكلمة اما اسم واما فعل واما حرف ، لأنها ان دلت على معنى في نفسها غير مقترن بزمان فهي الاسم ، وان اقترن بزمان فهي الفعل ، وان لم تدل على معنى في نفسها بل في غيرها فهي الحرف » •

أما ابن مالك فقد عرّف الفعل في شرح التسهيل بدلالته الحدث والزمان المعين ، كما عرّفه في تسهيله وشرحه بشأنه في الاسناد ، بل عرّفه في ألفيته بعلاماته أيضاً ،كما سنراه•

ولم يخرج السيوطي الامام الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١ هـ) ، في كتابه (همع الهوامع/٤)عما جاء به ابن الحاجب في الكافية والجامي

والرضي في شرح الكافية ، وابن عقيل في شرحه للألفية • ومضى سائر المتأخرين من النحاة على هذا النهج حتى القرن الرابع عشر الهجري •

فقد ثبت بما تقدّم أن النحاة قد نحوا منذ القرن الرابع الهجري الى تعريف الفعل بدلاليته الحدث والزمان • وقد اهتدوا الى ذلك بطبيعة الحال باستقراء مواضع استعمال الفعل العربي في مختلف نصوصه شعراً ونثراً • ولا يعني هذا بالطبع أن أسلافهم قد قصدوا في تعريف الفعل الى اغفال هاتين الدلالتين، وكل ما في الأمر أن كل جماعة قد اتجه اهتمامها الى صفة أو أكثر من صفات الفعل، أو خاصة أو أكثر من خواصه ، أو استرعى نظرها شأن من شؤونه في بناء الجملة ، فابرزت ذلك في تعريفها له •

فقد قال سيبويه في تعريف الفعل مثلاً أنه أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى ولما يكون ، وما دام الفعل قد اشتق من لفظ الأحداث ، أي المصادر ، وبُني لما مضى ولما يكون فقد اقترن معناه هذا بالزمان فتعيّن بذلك أن يدل على الحدث والزمان جميعاً •

ولا ننس أن سيبويه قد أشار في تعريفه هذا الى مذهب **البصريين في اشتقاق الفعل من المصدر ، فالمصدر هو الأصل والفعل هو الفرع** ، خلافاً للكوفيين الذين اعتدوا **الفعل هو الأصل •** وقد استوفى أبو البقاء العكبري عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الامام محب الدين (٦١٦ هـ) شرح مذهب البصرية هذا • **قال السيوطي في (الأشباه والنظائر ـ ١/١٢٨)** : « قال أبو البقاء في التبيين : الدليل على أن الفعل مشتق من المصدر طرق ، منها : وجود حد الاشتقاق في الفعل ، وذلك أن الفعل يدل على حدث وزمان مخصوص فكان مشتقاً وفرعاً على المصدر •• وتحقيق هذه الطريقة أن الاشتقاق يُراد لتكثير المعاني ، وهذا المعنى لا يتحقق الا في الفرع الذي هو الفعل، وذلك أن المصدر له معنى واحد ، وهو دلالته على الحدث فقط ، ولا يدل على الزمان بلفظه ، والفعل يدل على الحدث والزمان المخصوص ، فهو بمنزلة اللفظ المركب فانه يدل على أكثر مما يدلّ عليه المفرد ، ولا تركيب الا بعد الافراد ، كما أنه لا دلالة على الحدث والزمان المخصوص الا بعد الدلالة على الحدث وحده •• » وأردف : « وطريقة أخرى وهي أن تقول : الفعل يشتمل لفظه على حروف زائدة على حروف المصدر ، تدل تلك الزيادة على معان زائدة على معنى المصدر ، فكان مشتقاً من المصدر •• ومعلوم مالا زيادة فيه أصل لما فيه الزيادة ••• » • والعكبري هو صاحب اللباب في علل البناء والاعراب ، ومؤلف الاعراب عن علل الاعراب ، والبيان في اعراب القران ، واعراب الحديث النبوي وسواها • وهو في مصنفاته النحوية محيط بآراء أئمة النحو • وقد أخذ بآراء البصرية عن بيّنة وساق أدلّتهم وحججهم وقام بشرح كثير من مصنفاتهم •

وممن عرّف **الفعل** بدلالتيه الحدث والزمان أبو حيان الأندلسي أبو عبد الله محمد ابن يوسف بن علي بن يوسف ، فقال : « انه ـ أي الفعل ـ يدل على الحدث بلفظه وعلى الزمان بصيغته » كما حكاه السيوطي في الاقتراح (ص/١٠) وقد أشار ابن جني

(٣٩٢ هـ) الى هذا في الخصائص (٩٨/٣) فقال : « ألا ترى الى ـ قام ـ ودلالة لفظه على مصدره ، ودلالة بنائه على زمانه ، ودلالة معناه على فاعله ، فهذه ثلاث دلائل من لفظه وصيغته ومعناه » . فأوحى كلامه هذا بأن تعريف الفعل بدلاليته أدنى الى علم الصرف الذي يبحث بنية الكلمة فيعنى بالمفردات من حيث صورها وهيأتها ، على حين جاء تعريف الفعل بشأنه في الاسناد ، كما سنرى ، أدنى الى علم النحو الذي يُعنى ببناء الكلام وتأليفه فيتناول الاسناد أي نسبة كل من عنصري الجملة اسمين كانا أو اسماً وفعلا أحدهما الى الآخر ، حقيقة وحكماً . أوليس الاسناد ضم كلمة أو ما يجري مجراها الى أخرى بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم احداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنه ؟ وقد قصد بما يجري مجرى الكلمة الجملة الواقعة خبراً عن مبتدأ . قال الشريف علي ابن محمد الجرجاني في تعريفاته : « الاسناد في عرف النحاة عبارة عن ضم احدى الكلمتين الى الأخرى على وجه الافادة التامة ، أي على وجه يحسن السكوت عليه ، وفي اللغة اضافة الشيء الى الشيء/١٤ » .

□ تعريف الفعل بشأنه في الاسناد :

نحا النحاة في القرن الرابع الهجري نهجاً آخر في تعريف الفعل فعرّفوه بملاحظة ما له من شأن في الاسناد . فالاسم في بناء الجملة ما يسند ويسند اليه، أي يخبر به ويخبر عنه، والفعل ما يسند ولا يسند اليه أي يخبر به ولا يخبر عنه ، أما الحرف فما لا يسند ولا يسند اليه .

وأقدم تعريف اعتمد هذا الحد في تعريف عناصر الجملة الثلاثة الاسم والفعل والحرف وتمييز أحدها من الآخر ، هو أبو بكر محمد بن السري المعروف بابن السرّاج (٣١٦ هـ) . فعلى حين نهج في كتابه (الخط) نهج سيبويه في التعريف فقال : « الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم مثل رجل وفرس أو الفعل مثل جلس يجلس ، والحرف نحو من وحتى والباء في قولك : مررت بزيد ، واللام في قولك : لزيد مال .. » فقد نهج في كتابه (الموجز) نهجاً طريفاً فقال : « والفعل ما كان خبراً ، ولا يجوز أن يخبر عنه » ، وأبو بكر هذا قد أخذ النحو واللغة عن المبرّد أبي العباس محمد بن يزيد ، واليه انتهت رسالة النحو بعد موت الزجاج أبي اسحاق (٣١١هـ) . ولأبي بكر عدة مؤلفات منها (الخط) و (الأصول) وموجزه ، وقد خالف فيها البصريين في مسائل كثيرة .

وحذا هذا الحذو في تعريف الفعل شيخ نحاة الأندلس أبو علي عمر بن محمد الاشبيلي المعروف بالشلوبين (٦٤٥ هـ) . فقد حكي عنه قوله : « وأيضاً فان الاسم يخبر به ويخبر عنه ، والفعل لايكون الا مخبراً به ، والحرف لا يخبر به ولا يخبر عنه » ، كما جاء في الأشباه والنظائر للسيوطي (١١٩/١) . وللشلوبين كتاب في التعليق على كتاب سيبويه، وآخر في النحو سمّاه التوطئة .

وقد شاع نحو من هذا التعريف عند كثير من علماء الأندلس الذين رحلوا الى الشرق ، ومنهم محمد بن عبدالله بن مالك جمال الدين الطائي (٦٧٢ هـ) ، وقد نسب الى (جيّان)

الأندلسية وهي تقع الى الشرق من قرطبة ٠ولد ابن مالك في هـذه البلدة وانتقـل الـى دمشق وتوفي فيها ٠ وقد صاغ في (النحو) آلفيته التي نظمها وسماها بالخلاصة ، وذاع صيتها وكثر شراحها ، ومن هؤلاء الشـراح ابن الناظم بدرالدين بن محمد بن عبدالله بن مالك (٦٨٦ هـ) ٠ وقد جاء في شرح التسهيل لابن مالك قوله : « الكلمة ان لم تكن ركـن الاسناد فهي الحرف ، وان كانت ركناً له فان قبلت الاسناد بطرفيه فهـي اسم ، والا فهـي فعـل » ٠

وقال الامام بدرالدين في شرحه للألفية : « الكلمة اما آن يصح أن تكون ركناً للاسناد أو لا ، الثاني : الحـرف ، والأول : اما أن يصح آن يسند اليـه أولا ، الثـاني الفعـل والأول الاسم » ٠

وجرى على ذلك شراح الألفية فقال علي بـن محمد بـن عيسى أبو الحسن الأشموني (نحو ٩٠٠ هـ) : « ان الكلمـة اما أن تصلح ركناً للاسناد أو لا ، الثاني الحرف ، والأول اما آن يقبل الاسناد بطرفيه أو بطرف ، الأول الاسم والثاني الفعل » ، ولا يخرج كلامه هذا عما جاء به ابن الناظم الامام بدر الدين ٠وقد أردف الشيخ الأشموني يقول : « والنحويون مجمعون على هذا ، الا من لا يعتد بخلافه ٠وقد أرشد بتعريفه الى كيفية تألف الكلام من الكلم بأنه ضم كلمة الى كلمة فأكثر على وجه تحصل منه الفائـدة ٠٠ » ٠

ولا شك أن تعريف الفعل بشأنه في الاسناد كان ثمرة البحث في الجملة المفيدة وما تنطوي عليه من مسند اليه أو مخبر عنه ، ومن مسند أو مخبر به ، ومن اسناد أو ارتباط للمسند بالمسند اليه ووقوع النسبة بينهما ٠ ولا ريب أن هـذا البحث في حقيقة أمره جزء لا ينفك عـن مادة النحو ، ولو غـدا تفصيل القول في أحوال الاسناد والمسند اليه والمسند ، مـن خصائص علم المعاني الذي عقد موضوعه على البحث في أحـوال التراكيب العربية ، ويعـد الشيخ عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) صاحب الرسالة الشافعية في الاعجاز ودلائل الاعجاز ، أول واضع لهذا العلم ٠

□ تعريف الفعـل بعلاماتـه :

وقد عمد بعض أئمة القرن الرابع الهجري الى تعريف الفعل بما يختص به مـن علامات يتميز بهـا من الاسم والحرف ٠ وأقدم مـن نحا هذا النحو الامام ابن جني أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ) ، وابن جني أعلم أهل عصره بالنحو والتصريف ، وقـد تلمـذ لأبي علي الفارسي خاصة ، وله في الصرف كتب كثيـرة ، منهـا اللمع في التصريف ، والمنصف في شرح تصريف المازني ، والتصريف الملوكي ، عدا ما جاء في كتابيـه النفيسين : سـر صناعـة الاعراب والخصائص ، مما يتصل بهذا العلم ٠ وقـد جاء في كتاب اللمع قوله : « والفعل ما حسن فيه قد ، أو كان أمراً ، فأما قد فنحو قولك :قـد قام وقـد قعد ، وقد يقوم وقد يقعد ، وكونه أمراً نحو قم واقعد » ٠ وكتاب اللمع كتاب مشهور عمد كثير من الأئمة الى شرحه ، ومن هؤلاء الثمانيني أبو القاسم عمر بن ثابت (٤٤٢ هـ) ، ومنهم ابن الشجري أبو السعادات هبة الله بن علي (٥٤٢ هـ) ، كما شرح كتاب (التصريف الملوكي) ٠ ومنهـم ابن الدهـان

أبو محمد سعيد بن المبارك البغدادي (٥٦٩ هـ)، وقد أسماه الغرة، ومنهم محب الدين أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري (٦١٦ هـ)، وقد أسماه (المتبع في شرح اللمع).

وقد حذا هذا الحذو في التعريف ابن مالك (٦٧٢ هـ) فقد عرف الكلام وما يتألف منه في متن (الفيته) فقال:

كلامُنا لفظ مفيد كاستقم ... واسم فعل ثم حرف الكلم

وميز الاسم من الفعل والحرف فقال:

بالجرّ والتنوين والندا وأل ... ومسند للاسم تمييز حصل

وميّز الفعل فقال:

بتا فعلتَ وأتتْ ويا افعلي ... ونون أقبلنَّ فعلٌ ينجلي

فذكر من علامات الفعل: تاء الفاعل وتاء التأنيث الساكنة وياء المخاطبة ونون التوكيد. ودرج ابن آجروم محمد بن داود الصنهاجي (٧٢٢ هـ) على هذا في مقدمته المشهورة المعروفة بالآجرومية، فقال: « والفعل يعرف بقد والسين وسوف وتاء التأنيث الساكنة ».

وهكذا فعل الامام أبو محمد جمال الدين بن يوسف .. ابن هشام الأنصاري المصري (٧٦١ هـ) في كتابه أوضح المسالك، فذكر من علامات الاسم الجر والتنوين والنداء و (أل) غير الموصولة، كما عدّ من علامات الفعل تاء الفاعل، وتاء التأنيث الساكنة، وياء المخاطبة ونون التوكيد، كما جاء في متن الألفية. وقد ذكر ابن هشام في كتابه (قطر الندى) نحواً من هذا، مقترناً بشيء من التفصيل اذ قال: « وأما الفعل فثلاثة أقسام ماض ويعرف بتاء التأنيث الساكنة، وبناؤه على الفتح كضرب، الا مع واو الجماعة فيضم كضربوا أو الضمير المرفوع المتحرك فيسكن كضربت .. وأمر ويعرف بدلالته على الطلب مع قبوله ياء المخاطبة ... ومضارع ويعرف بلم وافتتاحه بحرف من حروف أنيت، ويسكن مع نون النسوة ... ويفتح مع نون التوكيد ... ».

وقد قام الشيخ خالد الأزهري (٩٠٥ هـ) بشرح كتاب (أوضح المسالك)، وجرى عليه في متن (أزهريته) فقال: « وعلامة الفعل قد، نحو قد قام زيد وقد يقوم، والسين نحو سيقول، وتاء التأنيث الساكنة نحو قامت، وياء المخاطبة مع الطلب نحو قومي »، وقد أقرّ ذلك بالشرح الوافي الشيخ حسن بن محمد العطار الشافعي المصري الأزهري (١٢٥٠ هـ)، وله حاشية على الأزهرية، وعلى جمع الجوامع كتاب الامام السيوطي.

ولاشك أن من نهج في تعريف الفعل هذا النهج، فميزه من الاسم والحرف بعلامات فارقة، انما سلك في ذلك الطريقة التعليمية التي يأخذ بها المصنفون حيناً لترسيخ سمات الشيء في ذهن الدارس، وهي لا تعني أكثر من تعقب الفعل في مواضع استعماله المختلفة واستقراء ما يتصل به فيها من أداة سابقة له أو لاحقة.

أزمنة الفعل

مرّ بنا في تعريف سيبويه للفعل في (الكتاب ـ ١/٢) قوله : « وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ احداث الاسماء وبنيت لما مضى ،ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع »، وقد شرح قوله هذا فقال : « فاما بناء ما مضى فذهب ٠٠ » فقضى بأن أول أزمنة الفعل هو الماضي ٠ وأردف : « وأما بناء ما لم يقع فانه قولك امراً : اذهب واقتل ، ومخبراً : يقتل ويذهب » فانبنى على هذا أن ثاني الأزمنة عند سيبويه هو المستقبل أمرا كان أو مضارعاً ٠ ومضى يقول : « وكذلك بناء ما لم ينقطع وهو كائن اذا اخبرت » أي وكذلك يقتل أو يذهب اذا بني للحال فهو كائن لم ينقطع ،فأزمنة الفعل عند سيبويه اذاً ثلاثة : ماض ومستقبل يكون أمراً أو مضارعاً دالاً على الآتي ، ومضارع أي حال مستمر ٠ وقد جرى النحاة على هذا فالفعل عندهم ماض ومضارع للحال أو الاستقبال ، وأمر مخصص بالاستقبال ٠

□ **الرأي في قسمة الفعل الى ماض ومضارع وأمر :**

لا خلاف بين الائمة على جريان الفعل على الماضي والمضارع ٠ فالفعل الماضي ما دلّ على معنى مقترن بالزمان الماضي ، والمضارع ما دلّ على معنى مقترن بزمان يحتمل الحال والاستقبال ٠ اما جريان الفعل على (الأمر) ففيه نظر ٠

ذلك أن الفعل يدل على الحدث مقترناً بزمان ، فهل الأمر مقترن بزمان ؟

أقول (الأمر) صيغة يطلب بها الفعل من الفاعل ، فهو صيغة انشاء طلبي يراد بها طلب القيام بالفعل ٠ فالكلام اما خبر واما انشاء ٠ فالخبر قولك كتب زيد ويكتب عمرو ٠ ففي الجملة ها هنا اسناد خبري مقترن بزمان ٠ اما قولك أكتب فهو اسناد انشائي غير مقترن بزمان فأنت تطلب من المخاطب القيام بفعل الكتابة ولا تخبره بحدث الكتابة مقترناً بزمان ٠ فاذا استجاب المخاطب قامت استجابته فيما يستقبل من الزمان ٠

وان شئت التفصيل قلت ان معنى (الأمر) غير مقترن بزمان ، لأنه لا يخبر بحدث ، وانما المقترن بزمان هو تلفظك به ، أي قولك (أكتب) فهو يجري في الحاضر ، وكذلك الاستجابة للأمر اذا حدثت فانها تجري في المستقبل ٠

وطبيعي أن يكون المعوّل في الحكم على (الأمر) هو دلالته ، لا التلفظ به ، وكذلك فعل علماء الأصول ، اذ قضوا أن (الأمر) هو طلب الفعل أي طلب القيام به وليس الفعل ، أي وليس التلفظ به ، قال ابن العيني زين الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ، في شرح كتاب (المنار) لابن الملك : « ومنه أي من الخاص الأمر لأنه وضع لمعنى معلوم على انفراد ، وهو طلب الفعل » ويمضي في الشرح فيقول: « وخرج بالقول ، أي بتعريف ابن الملك ، الفعل » أي خرج بالتعريف أن يكون (الأمر) هو الفعل ، أي التلفظ به ، لأنه طلب الفعل ، أي طلب القيام به ٠

□ أزمنة الفعل عند ابن يعيش :

قال موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش الحلبي (٦٤٣ هـ) في شرح كتاب (المفصل) للزمخشري (ج ٢/ص ٧) : « لما كانت الأفعال مساوقة للزمان، والزمان من مقومات الأفعال، توجد عند وجوده ، وتنعدم عند عدمه ، انقسمت بانقسام الزمان • ولما كان الزمان ثلاثة : ماض وحاضر ومستقبل ، وذلك من قبل أن الأزمنة حركات الفلك ، فمنها حركة مضت ، ومنها حركة لم تات بعد ، ومنها حركة تفصل بين الماضية والآتية ، كانت الأفعال كذلك ماض ومستقبل وحاضر • فالماضي ما عدم بعد وجوده ، فيقع الاخبار عنه في زمان بعد زمان وجوده ، وهو المراد بقوله : الدال على اقتران حدث بزمان قبل زمانك ، أي قبل زمان اخبارك ، ويريد بالاقتران وقت وجود الحدث ، لا وقت الحديث عنه ، ولولا ذلك لكان الحد فاسداً •• والمستقبل ما لم يكن له وجود بعد ، بل يكون زمان الاخبار عنه قبل زمان وجوده • وأما الحاضر فهو الذي يصل اليه المستقبل ، ويسري منه الماضي ، فيكون الاخبار عنه هو زمان وجوده » •

فالذي اراده ابن يعيش أن الفعل ما دام مقترناً بزمان ، والأزمنة ثلاثة : ماض وحاضر ومستقبل ، فالفعل كذلك : ماض وحاضر ومستقبل • لكنه حين قسم الفعل اتبع فيه القسمة الشائعة المعروفة عند النحاة فقال : الفعل ماض ومضارع وأمر ، فاين (الأمر) من قسمة الأزمنة أو الأفعال هذه ؟

□ ما القول في فعل الأمر :

كلام ابن يعيش على أزمنة الفعل لا يدع للأمر مكاناً في قسمة الأزمنة بل الأفعال • فالماضي انما يقع الاخبار عنه بعد زمان وجوده ، والمستقبل انما يقع الاخبار عنه قبل زمان وجوده • أما الحاضر فيخبر عنه زمان وجوده • وهذا يعني أن الفعل الماضي يخبر به عن الحدث الفائت بعد زمان وجوده • ويخبر بالفعل الآتي قبل زمان الحدث الآتي • ويخبر بالفعل الحاضر زمن وقوع حدثه • فالفعل انما يخبر به عن الأحداث الجارية في هذه الأزمنة الثلاثة •

أما (الأمر) فليس مما يخبر به ، في الأصل ، لأنه صيغة انشاء ، لا اخبار ، فلا يصح فيه اذاً حد الفعل •

ومن ثم أشكل على النحاة مجيء خبر المبتدأ جملة انشائية ، لأن الانشاء لا يخبر به ، فذهب قوم الى صحة الاخبار بها على تأويل صفة ، فاذا قيل : زيد اضربه ، كان كأنه قيل : زيد مطلوب ضربه • والتزم ابن السراج تقدير قول محذوف قبلها ، أي زيد أقول لك اضربه • وذهب ابن الأنباري الى امتناع الاخبار به مطلقاً وتبعه قوم من النحاة •• أما الجملة الخبرية فالاخبار بها هو الأصل الشائع الكثير ، وهي اما اسمية نحو زيد أبوه قائم أو فعلية نحو زيد قام أبوه •

□ الزجاجي وقسمة الفعل بحسب أزمنته :

الزجاجي أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق (٣٣٧ هـ) من علماء بغداد الذين أخذوا من البصرية ومن الكوفية ، بما رجح لديهم ، فبدا بغدادي النزعة ، وان كان الى البصرية أميل منه الى الكوفية · فما الذي قاله في قسمة الفعل بحسب أزمنته ؟

قال الزجاجي في كتابه (الجمل) : «الفعل ما دل على حدث وزمان ماض أو مستقبل ، نحو قام يقوم وقعد يقعد ، وما اشبه ذلك/١٧ » · ولا يعني هذا أن الزجاجي قد أسقط من حسابه (الحال) ، فقد ذكر في موضع آخر من كتابه : « الأفعال ثلاثة : فعل ماض وفعل مستقبل » وأردف : « وفعل في الحال يسمى الدائم » ، فجعل (الحال) بين الماضي الذي فات حدثه قبل التلفظ به ، والمستقبل الذي ينتظر حدثه بعد التلفظ به · ولا شك أنه تابع في وصف (الحال) بالدائم امام الصناعة · قال سيبويه في (الكتاب) : « وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع » · فالفعل الذي هو كائن لم ينقطع اذا أخبرت به ، عند سيبويه ، هو الفعل الدائم أو المستمر عند الزجاجي ·

والزجاجي اذا كان ممن أعجب بسيبويه ، **فانه لم يشايعه في كل ما ذهب اليه · ومن ذلك أنه لم يجعل للأمر حيزاً في أقسام الفعل خلافا لسيبويه حين قال: «وأما بناء ما لم يقع فانه قولك آمراً : اذهب واقتل واضرب » ·**

وقد تعجب لم عوّل الزجاجي على (الماضي والمستقبل) ، حيناً دون (الحال) ، والشائع عند النحاة أن صيغة المضارع للحال والاستقبال ، وهي للحال أخص ، لأنها تستعمل في الحال بغير قرينة وفي الاستقبال بقرينة (السين وسوف) ؟ أقول عمد الزجاجي الى الاكتفاء حيناً بذكر (المستقبل) دون (الحال) لأنه اعتد (المستقبل) أسبق الأفعال، فقد قال في كتابه (الايضاح/٨٥) : « اعلم أن أسبق الأفعال في التقدم : الفعل المستقبل لأن الشيء لم يكن ثم كان ، والعدم سابق ·· ثم يصير في الحال ثم يصير ماضياً ·· فأسبق الأفعال في المرتبة : المستقبل ، ثم فعل الحال ، ثم فعل الماضي » · وهذا ما حمله أن يستغني حيناً بذكر الماضي والمستقبل ، لا سيما وأن (الحال) لا ينفرد ببناء خاص دون المستقبل·

على أن تذرع الزجاجي بالمنطق في تعليل الأحكام اللغوية وتحقيقها هاهنا ، ليس مما يعوّل عليه ، فلهذه الأحكام معايير أخرى · والزجاجي ، مع ذلك ، لا يوغل في التعليل الجدلي ايغال كثير من النحاة ، كابن الشجري هبه الله أبي السعادات (٥٤٢ هـ) وابن الانباري أبي البركات كمال الدين بن عبد الرحمن (٥٧٧ هـ) ·

□ الكوفيون وأزمنة الفعل :

اذا كان البصريون قد ذهبوا في قسمة الفعل بحسب أزمنته الى ماض ومضارع وأمر ، فقد نحا الكوفيون في ذلك منحى آخر قسموا به الفعل الى ماض ومضارع أو مستقبل ، ولم يجعلوا (الأمر) قسماً ثالثا ، وانما جعلوه فرعاً على المضارع ، وتصوروا أنه مقتطع منه ·

قالوا : قد دخلت على المضارع لام الأمر فقيل (لتفعلْ) ثم حذفت اللام وتاء المضارعة لكثرة الاستعمال ، فآل قولك (لتفعلْ) الى قولك (افعلْ) · ولا يخفى ما في تصور الكوفيين هذا من تكلّف واضح اعتدوا فيه الاحتمال بمنزلة الحقيقة الثابتة ، ولا يتساوى في المعنى قولك (افعل) وقولك (لتفعل) ، ولو كانا صيغتين للأمر ·

وقد تذرّع الكوفيون بمذهبهم هذا في (الأمر) ليعللوا بذلك الوجه في اعرابه ، خلافاً للبصريين الذين قالوا ببناء فعل الأمر على الأصل ، فالبناء عندهم أصل في الأفعال ما لم تضارع الأسماء ، والأمر لا يضارعها كما يضارع ما أسموه بفعل (المضارع) · ذلك أن النحاة قد قضوا باعراب الأسماء وعللوا ذلك باختلاف معانيها النحوية ، فان للمعاني التي يكتسبها الاسم في التركيب دلالات تكشف عنها مواقعه فيه ، فاعلة أو مفعولة أو مضافاً اليها ، وليس لصور هذه الأسماء أو أبنيتها علاقة بهذه المعاني · وقد جاءت حركات الاعراب لتكشف عن المعاني النحوية هذه ، ولو لم تنفرد في هذا الكشف اذ شاركتها فيه الأدوات الداخلة في التركيب ، ولذا سميت هذه الأدوات بحروف المعاني ·

وقد أغنى الاعراب أن يلتزموا في التركيب تقديم فاعل أو تأخير مفعول ، فاتسعوا في الكلام وتصرّفوا فيه بتقديم وتأخير ، فضمنوا بذلك حسن الأداء ودقة التعبير واستجابوا بهذا لضرورات الشعر والسجع ، ولو لم يطلقوا العنان لتصرّفهم هذا ، اذا لم يستجيزوا التقديم والتأخير في كل موضع · ونجم عن هذا ، على كل حال ، أنه لم يُغنهم في الكشف عن المعاني النحوية لزوم الرتبة بتقديم الفاعل وتأخير المفعول ، كما توجبه اللغات غير المعربة ·

وانفرد الكوفيون فأضافوا في تعليل اعراب الاسم الى اختلاف معانيه النحوية في التركيب ، اختلاف معانيه اللغوية في الأصل ، قبل التركيب ·

وهكذا قال النحاة باعراب المضارع مالم تتصل به نون التوكيد المباشرة أو نون النسوة ، وعللوا اعرابه باختلاف المعاني عليه ، كما اختلفت على الأسماء ، فثمة فارق في المعنى بين المضارع مرفوعاً ومجزوماً ومنصوباً · وقد استوجب اختلاف المعاني اختلاف الحركات واختلاف الأداة ، وهكذا أتت حركة الاعراب لتنبه على المعنى الذي حملته الأداة ·

وهكذا قسّم الكوفيون الفعل الى ماض ومستقبل ، ولم يجعلوا الأمر قسيماً لهما ، فهل جعلوا للماضي والمستقبل قسيماً آخر ؟ أقول ذكر الكوفيون (الفعل الدائم) وجعلوه هذا القسيم ، فما الذي عنوه بالفعل الدائم ؟ لم يعنِ الكوفيون بالفعل الدائم ما ذهب اليه الزجاجي من أنه الفعل الحاضر ، وانما عنوا بهذه التسمية (اسم الفاعل) · فكيف تصور الكوفيون اسم الفاعل فعلا ولم أسموه الفعل الدائم ؟

□ الكوفيون والفعل الدائم :

أقول قد أسمى الكوفيون (اسم الفاعل) فعلا لأنه يعمل عمل فعله ، وهذا معروف متفق عليه ، وهو عند جمهور النحاة شبه الفعل · وأسمى الكوفيون اسم الفاعل فعلا

دائماً ، لاشتمال دلالته على الحال والاستقبال حيناً ، والماضي حيناً آخر . ولكن متى يدل (اسم الفاعل) على الحال أو الاستقبال ، أو يدل على الماضي ؟ .

أراد الكوفيون باسم الفاعل هذا ، وقد أسموه (الفعل الدائم) أو المستمر ، اسم الفاعل المعدّ للعمل . وقد اشترط جمهور النحاة لاسم الفاعل المجرد من (أل) ليعمل فينصب مفعولا به ، أن يدل دلالة المضارع على الحال أو الاستقبال ، دون الماضي ، ويسبق بنفي أو استفهام ، أو يكون خبراً أو صلة أو وصفاً فتستحكم المشابهة بينه وبين الفعل . فإذا دل على الماضي ألغي عمله :

قال أبو البقاء الكفوي في (الكليات) :(اسم الفاعل اذا كان للاستمرار يصح اعماله نظراً الى اشتماله على الحال او الاستقبال ،والغاؤه نظراً الى اشتماله على الماضي ـ ٥/٣١٧ » .

وقد ذهب الكسائي أبو الحسن علي بن حمزة امام الكوفية (١٨٩ هـ) وشايعه جماعة الى أن (اسم الفاعل) يعمل ولو دل على الماضي . واستدل على ذلك بقوله تعالى : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ـ الكهف /١٨ » . فان زمن حصول الحدث للمخبر عنه سابق لزمن نزول الآية . لكنه أجيب بأن الآية قد أتت لحكاية الحال في الماضي ، بدليل قوله تعالى « وكلبهم باسط » والواو للحال ،والذي يحسن بعد واو الحال قولك (وكلبهم يبسط) لا (وكلبهم بسط) . وقد تقدّم هذا في الآية ، قوله تعالى : « ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال .. » فجاء (نقلّبهم) فعلا مضارعاً دالاً على الحال أو الاستقبال . وفي هذه الاجابة وجه متقبل سائغ .

لكن الكسائي احتج الى ذلك بآية أخرى ،هي قوله تعالى : « فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ـ الانعام/٩٦ » : فقد قرىء « وجاعل الليل سكناً » كما قرىء « فَلَقَ الاصباح » . وقد تقدم هذه الآية، قوله تعالى: « إن الله فالق الحب والنوى » ، فقدر في هذا معنى المضي ، كما قدّر فيه معنى الحال . قال أبو البقاء عبدالله العكبري في (إعراب القرآن) : « قوله تعالى فالق الحب يجوز أن يكون معرفة لأنه ماض ، وأن يكون نكرة على أنه حكاية » أي يجوز أن تكون اضافة (فالق) محضة تفيد التعريف فتفيد المضي فيلغى عمل اسم الفاعل ، كما يجوز أن تكون اضافته غير محضة فلا تفيد تعريفاً فتدل على الحال ويكون اسم الفاعل عاملاً . ويمضي العكبري فيقول: « وجاعل الليل مثل فالق الاصباح في الوجهين »أي في كون الاضافة محضة أو غير محضة ، وفي إعمال اسم الفاعل أو الغائه ، وافادة الحال ،أو الماضي . وبقي الخلاف في نصب (سكناً) من قوله تعالى : (وجاعل الليل سكناً) قال العكبري : « وسكناً مفعول جاعل اذا لم تعرفه، وإن عرفته كان منصوباً بفعل محذوف أي جعله سكناً » ، أي أن الاضافة اذا لم تكن محضة فاسم الفاعل عامل يفيد الحال و (سكناً) مفعول لاسم الفاعل . واذا كانت محضة فاسم الفاعل ملغى يفيد المضي و (سكناً) مفعول لفعل محذوف . وهنا محل الخلاف . فالكسائي قد ذهب الى أن نصب (سكناً) مع دلالة اسم الفاعل على المضي ، دليل على عمل اسم الفاعل ولو أفاد الماضي و (سكناً) مفعول لاسم الفاعل ، خلافاً للبصريين الذين اشترطوا لعمل

اسم الفاعل أن يدل على الحال أو الاستقبال،دون الماضي ، فاذا دل على المضي فقد ألغي عمله ، وهذا ما قادهم الى أن يقدروا فعلاً محذوفاً ينصبون بـه (سكناً) على المفعولية ، بعد أن ألغوا اسم الفاعل حين قدروا فيه معنى المضي . وقد أخذ العكبري في (اعراب القرآن) عامة بمذهب البصرية .

ولا يعني ما تقدم من قول العكبري أن لنا أن نقدر في كل (اسم فاعل مضاف) أن تكون اضافته غير محضة فيكون عاملاً ويدل على الحال ولا يفيد التعريف ، أو تكون اضافته محضة فيكون ملغى ويدل على الماضي ويفيد التعريف ، فان مرد ذلك الى القرينة . فقد جاء قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » باضافة (ذائقة) الى الموت اضافة غير محضة ، وليس ثمة ما يتسع هنا لاضافة (ذائقة) الى الموت اضافة محضة . قال العكبري في إعراب القرآن : (واضافة ذائقة غير محضة لأنها نكرة يُحكى بها الحال ، وقرىء شاذاً ذائقة الموت بالتنوين والاعمال » .

□ الفراء واسم الفاعل :

نهج الفراء يحيى بن زياد (٢٠٧ هـ) ، وهو علَم من أعلام الكوفية ، نهج الكسائي في اتخاذ أصول الكوفية ، وتجلّى ذلك في كتابه الأول (معاني القرآن) . وقد عمد فيه (٤٥/١) الى تمييز اسم الفاعل العامل فأسماه (فعلاً دائماً) ، من اسم الفاعل غير العامل ، وقد أبقاه على الأصل (اسماً) .

قال الفراء في تفسير قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت ـ الأنبياء/٣٥ » باضافة (ذائقة) الى الموت ، قال في كتابه (معاني القرآن) : « ولو نونت ذائقة ونصبت كان صواباً » . وهذا يعني أن (ذائقة الموت) بتنوين الأول ونصب الثاني ، على إعمال اسم الفاعل ، جائز جواز (ذائقة الموت) بالاضافة غير المحضة، فكلاهما يفيد الحال أو الاستقبال. وأردف : « وأكثر ما تختار العرب التنوين والنصب في المستقبل » ، ومؤدى ذلك أن العرب قد تعني المضي في اسم الفاعل العامل ، ولو أن الكثير الغالب أن تعني المستقبل . ويمضي الفراء قائلاً : « فاذا كان معناه ماضياً لم يكادوا يقولون الا بالاضافة » ، وفحوى ذلك أن المضي انما يعبر عنه غالباً بالاضافة ، ولكن قد يعبر عنه باعمال اسم الفاعل أيضاً ، وهذا رأي الكوفية خلافاً للبصرية التي لا ترى في الاعمال الا دلالة الحال والاستقبال ، لكنها ترى في الاضافة دلالة الحال اذا لم تكن محضة ، والمضي اذا كانت محضة .

□ البصريون واسم الفاعل :

ذهب البصريون الى أن اسم الفاعل اما أن يفيد الماضي ، ولا يتأتى ذلك الا باضافته اضافة محضة تفيد التعريف ، واما أن تفيد الحال أو الاستقبال ، ولا يكون هذا الا باعمال اسم الفاعل وتنوينه ، أو باضافته اضافة غير محضة لا تفيد تعريفاً .

وقد بسط القول في ذلك القرطبي أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري في تفسير قوله تعالى: « كل نفس ذائقة الموت ـ آل عمران/ ١٨٥ » . قال القرطبي: « ذائقة الموت بالاضافة، وقرأ الأعمش ويحيى وابن أبي إسحاق ذائقة الموت بالتنوين ونصب الموت، قالوا لأنها لم تذق بعد » ، وأردف: « ذلك أن اسم الفاعل على ضربين: أحدهما أن يكون بمعنى المضي، والثاني بمعنى الاستقبال . فان أردت الأول لم يكن فيه الا الاضافة الى ما بعده، كذلك قولك: هذا ضارب زيد أمس .. لأنه يجري مجرى الاسم الجامد وهو العلم .. » ، أي أن الاضافة فيه محضة . وتابع يقول: « وان أردت الثاني جاز الجر والنصب والتنوين، فيما هذا سبيله هو الأصل، لأنه يجري مجرى الفعل المضارع . فان كان غير متعد لم يتعد نحو قائم زيد . وان كان متعدياً عديته ونصبت به فتقول: زيد ضارب عمرواً بمعنى يضرب عمرواً . ويجوز حذف التنوين والاضافة تخفيفاً » ، ومعنى هذا أن تنوين اسم الفاعل ونصبه المفعول به، كحذف تنوينه مع اضافته، في افادة الحال، ما دامت الاضافة غير محضة .

☐ اسم الفاعل والاستمرار :

اذا قيل ان دلالة اسم الفاعل هي (الاستمرار) فسر ذلك على أحد وجهين: الأول أن يعني الاستمرار اشتمال هذه الدلالة على الحال أو الاستقبال حيناً وعلى الماضي حيناً آخر . وهذا ما حمل الكوفيين على أن يسموا اسم الفاعل بالفعل الدائم . وقد جاء في الكليات لأبي البقاء: « اسم الفاعل اذا كان للاستمرار يصح إعماله نظراً الى اشتماله على الحال أو الاستقبال، والغاؤه نظراً الى اشتماله على الماضي ـ ٥/ ٣١٧ » ، كما ذكرنا ذلك قبل . ولا تنس أن الكوفيين قد اعتقدوا اشتماله على الماضي أيضاً، ولو كان عاملاً .

الثاني أن يعني الاستمرار الثبوت في الأزمنة المختلفة . وقد أشار صاحب الكليات الى هذا حين قال: « معنى الاستمرار هو الثبوت من غير أن يعتبر معه الحدث في أحد الأزمنة ـ ٥/ ٣٢٣ » ، وهو الأصل فيه، اذ قال: « اسم الفاعل يستفاد منه مجرد الثبوت صريحاً بأصل وضعه ـ ٥/ ١٧٣ » .

ولكن متى يدل اسم الفاعل على الثبوت أي الاستمرار في الأزمنة المختلفة ؟

أقول يدل اسم الفاعل على الثبوت أو الدوام أو الاستمرار في الأزمنة المختلفة، اذا أضفته اضافة محضة، أي اضافة معنوية أو حقيقية، فجرى مجرى الاسم الجامد، وقد يدل في هذه الحال أيضاً على الماضي، والقرينة تفصل بين الدلالتين .

قال الامام البيضاوي في تفسير قوله تعالى: « فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ـ الأنعام/ ٩٦ »: وقرىء « فالق الاصباح بالنصب على المدح وجاعل الليل سكناً ونصبه بفعل دل عليه جاعل لا به، فانه في معنى الماضي ويدل عليه قراءة الكوفيين وجعل الليل »، أي وقرىء (جاعل الليل ساكناً) وقد نصب (سكناً) بفعل محذوف لدلالة جاعل على الماضي، لأن عمل اسم الفاعل ونصبه للمفعول مشروط بدلالته على الحال أو الاستقبال، دون الماضي، خلافاً للكسائي وابن هشام وابن مضاء . ومضى

الامام البيضاوي يقول : « ... وبه على أن المراد منه جعل مستمر في الأزمنة المختلفة » ، أي وقرىء (وجاعل الليل سكناً) على أن المرادجعل الخالق الليل كذلك مستمراً على الدوام. فثبت بهذا أن اضافة اسم الفاعل الاضافةالمحضة أو المعنوية الحقيقية قد تنطوي على دلالته على الماضي ، كما تنطوي على دلالتهعلى الاستمرار ، والقرينة تميز احداهما من الأخرى .

وانظر الى ما جاء في شرح الامام عبدالرحمن بن محمد الجامي لكافية ابن الحاجب. قال ابن الحاجب : « فان كان للماضي وجبالاضافة معنى، خلافاً للكسائي » فقالالجامي: « فان كان اسم الفاعل المتعدّي للزمان الماضيبالاستقلال ، أو في ضمن الاستمرار ، وأريد ذكر مفعوله وجبت الاضافة ، أي اضافةاسم الفاعل الى مفعوله معنى أي اضافة معنوية لفوات شرط الاضافة اللفظية مثل زيدضارب عمرو أمس ، خلافاً للكسائي فانه ذهب الى عدم وجوب اضافته ، لأنه يعمل عندهسواء كان بمعنىالماضي أو الحال أو الاستقبال فيجوز أن يكون منصوباً على المفعولية وعلىتقدير اضافتهليست اضافتهمعنويةلأنها عنده من قبيل اضافة الصفة الى معمولها ... » .أي أنه لا بد لاعمال اسم الفاعل المتعدّي ونصبه مفعولاً ، من أن يدل على الحال أوالاستقبال دون الماضي ، فينون أو يضاف اضافة لفظية ، لا معنوية . وقد جاء ذلك فيقوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » فقرىء (دائقة) بالاضافة وبالتنوين .

فاذا أريد دلالة اسم الفاعل على الماضيأو على الاستمرار فلا بد من اضافته . واضافته ها هنا معنوية كقولك زيد ضاربعمرو أمس ، خلافاً للكسائي الذي أجاز إعمال اسم الفاعل ، ولو دلّ على الماضي ، فلم ير ضرورة اضافته في هذه الحال الاضافة المعنوية المحضة التي أوجبها البصريون .

وهكذا اذا قصد تعريف الصفة المضافة الىمعمولها كاسم الفاعل تعرّفت بدلالة الوصف على الاستمرار في الأزمنة المختلفة ، وكانتاضافتها محضة معنوية ، فوصفت بها المعرفة. قال الامام السيوطي في همع الهوامع : « فانقصد تعريفها ، أي الصفة المضافة الى معمولها بأن قصد الوصف بها من غير اختصاص بزماندون زمان تعرّفت ، ولذا وصفت بها المعرفة، في قوله تعالى ... غافر الذنب ـ ٢/٤٨ » .

قال تعالى : « حم . تنزيل الكتاب من اللهالعزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو اليهالمصير ـ غافر/٣ » ، فقال أبو البقاء العكبري في (إعرابالقرآن) : « غافر الذنب قابل التوبكلتاهما صفة لما قبله والاضافة محضة » أي صفة لله ، وأردف : « وأما شديد العقابمنكرة لأن التقدير شديد عقابه فيكون بدلاً . ويجوز أن يكون شديد بمعنى مشدّد..فتكون الاضافة محضة فيتعرف ويكون وصفاً أيضاً . أما ـ ذي الطول فصفة أيضاً » .

وقال تعالى : « فالق الاصباح وجعلالليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ـ الأنعام/٩٦ » ، فجاءفي اعراب القرآن للعكبري أن دلالة (فالق الاصباح) قد تكون الماضي والاضافة محضةتفيد التعريف ، وقد تكون الحال والاضافة

غير محضة تفيد التنكير ، فهل ثمة وجه تكون الدلالة الزمنية فيه ، هي الاستمرار والاضافة محضة ؟

أقول جاء في تفسير القرطبي قوله : « فالق الاصباح نعت لاسم الله تعالى ، أي ذلكم الله ربكم فالق الاصباح » فثبت بهذا أن اضافته محضة تفيد التعريف لأن النعت يتبع المنعوت في تعريفه وتنكيره • وقد قال القرطبي في دلالته الزمنية : « وقيل المعنى أن الله فالق الاصباح ، والصبح والصباح أول النهار وكذلك الاصباح ، أي فالق الصبح كل يوم ، والاصباح مصدر أصبح » وأردف : « وقال الضحاك فالق الاصباح خالق النهار **وهو معرفة لا يجوز فيه** التنوين عند أحد من النحويين » فثبت بقوله (فالق الصبح كل يوم) أنه دال على الاستمرار •

وقد جاء في اعراب (الفاتحة) للامام خالد الأزهري في كتابه (الأزهرية في علم النحو) : « الحمد مبتدأ ، لله جار ومجرور ••• رب نعت أول لله وهو مضاف ، العالمين مضاف اليه ، الرحمن نعت ثان لله ، الرحيم نعت ثالث لله ، مالك نعت رابع لله وصح ذلك لدلالته على الدوام والاستمرار لكونه من صفات الباري تعالى وهو مضاف اضافة محضة / ١٨٦ » • **فقد** رأيت كيف جعل اسم الفاعل المضاف اضافة محضة وهو (**مالك**) نعتاً لمعرفة ، ذلك لدلالته على الدوام **الاستمرار** •

□ المخزومي والسامرائي ودلالة اسم الفاعل على الاستمرار :

أشرنا فيما تقدم الى أن وصف اسم الفاعل بالمستمر أو الدائم يعني أحد أمرين:

الأول دلالة هذه الصيغة على الماضي حيناً والمضارع والمستقبل حيناً آخر ، **وهذا** ما عناه الكوفيون بوصفهم اسم الفاعل بأنه (الفعل الدائم) • **ويطابق ذلك ما أراده الباحث (بول كراوس) في (محاضراته عام ١٩٤٣)** ، وقد تحدث عنها الدكتور اسرائيل ولفنسون في كتابه (تاريخ اللغات السامية/١٦) **حين أشار أن اللغات السامية قد عرفت** عهداً غابراً ، **لم يكن لها** فيه صيغة للماضي وأخرى للمضارع أو المستقبل ، **وانما كانت** هناك صيغة تستعمل في التعبير عن الأزمنة **جميعاً** • **وهذا ماذكره الدكتور مهدي المخزومي في كتابه (في النحو العربي / ١١١)** اذ قال : « **يرى بعض فقهاء اللغة المحدثين من** المستشرقين والمعنيين بالدراسات المقارنة أن الزمان ليس شيئاً أصيلا ، وأن اقتران الفعل العربي به حديث النشأة ، بعد أن وجدت صيغة ـ فَعَل ـ المتطورة عن صيغة ـ فَعِل ـ **وهي الصيغة التي** يسمونها : برمانسيف أو الفعل الدائم في تعبير الكوفيين ، والتي يعدونها أقدم وجوداً من الفعل الماضي » •

أقول ان التعبير بصيغة واحدة عن **أزمنة مختلفة لا ينفي البتة اقتران الفعل بدلالته الزمنية • قال الدكتور ولفنسون«كذلك يعتقد العلماء أن صيغة المضارع كانت في مدى قرون كثيرة تدل على جميع الأزمنة ،كما هو الحال في اللغة الصينية وفي اللغة الأندرو جرمانية الأصلية/١٦ »** •

وهكذا فان اسم الفاعل صيغة واحدة تدل على الماضي حيناً كما تدل على الحال والاستقبال حيناً آخر . وهذا ما حمل الكوفيين على تسميته بالفعل الدائم .

الثاني : دلالة اسم الفاعل على الاستمرار في مختلف الأزمنة ، دون زمن معين . قال المخزومي في كتابه (في النحو العربي/١٣٩) : « وأما مثال فاعل فهو أحد أقسام الفعل ، وهو الفعل الدائم الذي لا دلالة له على زمان معين اذا لم يوصل بصلة من مضاف اليه أو مفعول » . وفي كلام المخزومي هذا نظر من ناحيتين :

الأولى : ان الكوفيين لم يعنوا بالفعل الدائم الفعل الذي لا دلالة له على زمان معين ، وانما عنوا به الفعل الذي يدل على الماضي تارة وعلى المضارع أو المستقبل تارة أخرى .

الثانية : ان قول المخزومي : « الذي لا دلالة له على زمان معين » يعني الاشارة الى صفة الاستمرار في اسم الفاعل ، ودلالة اسم الفاعل على الاستمرار ليست مرهونة بعدم اضافته ، فقد يدل اسم الفاعل على الاستمرار ويكون مضافاً . وقد مثلنا لذلك بقوله تعالى « غافر الذنب ـ غافر/٣ » ، كما مثلنا له بقوله تعالى « فالق الاصباح الأنعام/٩٦ » .

وقد بحث هذا الدكتور ابراهيم السامرائي في كتابه (الفعل زمانه وابنيته) وانتهى منه الى القول : « والقول بدلالة فاعل على الاستمرار مما انفرد به المخزومي ، فقد اقتصر السابقون على دلالة فاعل على المستقبل ، وهو اسم الفاعل المنون العامل نحو أنا صائم يوم الخميس أي سأصوم ، وعلى المضي وهو اسم الفاعل المضاف نحو هو قاتل أخيه ، أي قتل ـ ٤٣ » . قال السامرائي هذا وقد ثبت بما لا وجه فيه لشك أو ارتياب، دلالة اسم الفاعل على الاستمرار ، كما رأيت .

ولا ننس قول أبي البقاء الحسيني الكفوي في (كلياته) : « اسم الفاعل يستفاد منه مجرد الثبوت صريحاً بأصل وضعه ، وقد يستفاد منه غيره بقرينة ، وكذا حكم اسم المفعول . وأما الصفة المشبهة فلا يقصد بها الا مجرد الثبوت وضعاً أو الدوام باقتضاء المقام ـ ١٧٣/٥ ـ ١٧٤ » وقد أبان عن معنى الاستمرار فقال : « معنى الاستمرار هو الثبوت من غير أن يعتبر معه الحدث في أحد الأزمنة ـ ٣٢٣/٥ » . وقد دل على ذلك الحجج الملزمة والبنيات المسلمة .

أبـــواب الفعـــل

للفعل الثلاثي المجرد ستة أوزان أسموها بالأبواب . فهو اما أن تتفق حركة عينه بين الماضي والمضارع فيكون مفتوح العين فيهما كفتح يفتح وظهر يظهر ، وهو الباب الثالث. أو يكون مضموم العين فيهما كشرف يشرف ،وهو الباب الخامس الذي لا يكون فعله الا لازماً ، دون سائر الأبواب . أو يكون مكسور العين فيهما كحسب يحسب ووثق يثق ، وهو الباب السادس الذي لا يأتي عليه الفعل الا نادراً ، لأن أكثر ما جاء على فعل بالكسر جاء مضارعه بالفتح .

واما أن تختلف حركة عينه بين الماضي والمضارع فتفتح في الماضي وتضم في المضارع كنصر ينصر وقعد يقعد ، وهو الباب الأول ،أو تفتح في الماضي وتكسر في المضارع ككسر يكسر ونزل ينزل ، وهو الباب الثاني • أوتكسر في الماضي وتفتح في المضارع ، وهو الباب الرابع كفهم يفهم وفرح يفرح • وتعدهذه الأبواب التي تختلف فيها حركة العين بين الماضي والمضارع دعائم الأبواب ، لأنها تضم أكثر الأفعال ، ومن ثم كان الأصل في الفعل أن تختلف حركة العين بين ماضيه ومضارعه •وقد رتب النحاة أبواب الثلاثي المجرد ، بملاحظة حركة عين ماضيه فعين مضارعه ، فقالوا : فتحٌ ضمٍ ، فتحٌ كسرٍ ، فتحتان : كسر فتحٍ ، ضم ضمٍ ، كسرتان •

القياس في بعض أبواب الثلاثي

□ قول من قال باطلاق القياس في بعض أبواب الثلاثي :

قال كثيرون باطلاق القياس في بعض أبواب الثلاثي لازمة ومتعدية • فقد ذهب أبو العباس بن محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥ هـ)وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢٩١ هـ) الى جواز الكسر والضم في مستقبل (فَعَل) المفتوح العين ، في جميع الباب ، كما جاء في المخصص لابن سيده (١٢٤/١٤) •

وقال ابن درستويه (٣٤٧ هـ) في شرح الفصيح : « كل ما كان ماضيه على فَعَلت بفتح العين ، ولم يكن ثانية ولا ثالثة من حروف اللين ولا الحلق ، فانه يجوز في مستقبله يفعُل بضم العين ويفعِل بكسرها ، كضرب يضرب وشكر يشكر ، وليس أحدهما أولى به من الآخر ، ولا فيه عند العرب الا الاستحسان والاستخفاف » كما جاء في المزهر للسيوطي (١٢٥/٦ ــ ط/ ١٣٢٥ هـ) •

ونحا أبو علي الفارسي هذا النحو (٣٧٧ هـ) فقد جاء في المخصص لابن سيده (١٢٣/١٤) : **« قال أبو علي هذان المثالان، يفعل بالكسر ويفعل بالضم ، جاريان على السواء في الغلبة والكثرة ، قال أبو الحسن يفعل بالكسر أغلب من يفعل بالضم • قال أبو علي : وذلك ظن ، انما توهم ذلك من أجل الخفة فحكم أن يفعل بالكسر أكثر من يفعل بالضم ، ولا سبيل الى حصر ذلك فيعلم أيهما أكثر وأغلب • غير أنا كلما استقرينا باب فعل المفتوح العين الذي يعتقب عليه المثالان يفعل بالكسر ويفعل بالضم ، وجدنا الكسر** فيه أفصح وذلك للخفة كقولنا : خفق الفؤاد يخفق بالكسر ويخفق بالضم ، وحجل الغراب يحجل ويحجل ، وبرد الماء يبرد ويبرد ، وسمط الجدي يسمطه ويسمطه ، وأشباه ذلك **مما تقصَّاه متقنو اللغة كالأصمعي وأبي زيد وأبي عبيد وابن السكيت وأحمد بن** يحيى ، فهذا مذهب أبي علي في يفعل بالكسر ويفعل بالضم ••• » وقال ابن سيده : « وحكي عن محمد بن يزيد وأحمد بن يحيى أنه يجوز الوجهان في مستقبل فَعَل في جميع الباب » •

وجاز ابن جني (٣٩٢ هـ) مجاز هؤلاء، لكنه اعتد (يفعل) بالكسر هو الأصل ، و (يفعل) بالضم فرعاً عليه • قال ابن جني في الخصائص (٨٦/٣) : « ومن ذلك ما

يبيحه القياس في نحو يضرب ويجلس ويدخل ويخرج من اعتقاب الكسر والضم على كل واحدة من هذه العيون ، وأن يقال يخرج بالضم ويخرج بالكسر ، ويدخل بالضم ويدخل بالكسر ، قياساً على ما اعتقب عليه الحركتان معاً ، نحو يعرش بالكسر ويعرش بالضم، ويشنق ويشنق ويخلق ويخلق بالضم والكسر في كل منها، وان كان الكسر في عين مضارع فَعَل بالفتح أولى من يفعل بالضم ، لما قدذكرنا ، في شرح تصريف أبي عثمان ، فانهما على كل حال مسموعان أكثر السماع في عين مضارع فَعَل ، فاعرف ذلك ونحوه مذهباً للعرب ، فمهما ورد منه فتلقه عليه » .

وقد علل ابن جني رجحان الكسر في مضارع (فَعَل) المفتوح العين في المنصف فقال (١/ ١٨٥) « أرادوا أن تخالف حركة العين في المضارع حركتها في الماضي ، لأن كل واحد منهما بناء على حيال ، غير أنهم ألزموا فعل المضموم العين أن تكون العين في مضارعه مضمومة أيضاً كالماضي ، لأن هذا بناء على حدته لا يكون متعدياً أبداً ، انما يكون للهيئة التي يكون الشيء عليها . أما البناءان الآخران : فَعَل المفتوح العين وفعل المكسور العين فيكونان متعديين ، فلزموا أن تخالف حركة العين في مضارع كل منهما حركتها في الماضي . وقد استبد فعِل المكسور العين بـ ـ يفعل ـ بفتحها ، فكان القياس أن يستبد فَعَل المفتوح العين بـ ـ يفعِل ـ بكسرها . ومن هنا كان يفعل بالضم فيه داخلاً على يفعِل بالكسر » فجعل الأصل في مضارع (فَعَل) المفتوح العين يفعِل بكسرها .

□ قول من لم يطلق القياس فقصره على مالم يسمع أو يعرف :

ومن الأئمة من قصر القياس في ذلك على ما لم يعرف أو يسمع ، والا فالسماع هو الأصل ، فما سمع بالكسر أو بالضم أو بهما معاً أخذ بسماعه . وما لم يعرف أو يسمع أخذ فيه بالقياس فجاز فيه الوجهان ، الكسر والضم ، وقد يؤثر الكسر لخفته . فقد جاء في المخصص لابن سيده (١٤/ ١٢٣) : « وقال بعض النحويين اذا علم الماضي على فَعَل المفتوح العين ، ولم يعلم المستقبل على أي بناء هو ، فالوجه أن يجعل يفعِل بالكسر ، وهذا أيضاً لما قدّمنا من أن الكسرة أخف من الفتحة ، وقيل هما يستعملان فيما لا يعرف». وقد جاء نحو من هذا في شرح المفصل لابن يعيش (٧/ ١٥٢) : « وقال بعضهم اذا عرف أن الماضي على فَعَل بفتح العين ولم يعرف المستقبل ، فالوجه أن يكون يفعِل بالكسر لأنه أكثر ، والكسر أخف من الضم ، وقيل هما سواء فيما لا يعرف » .

وكان ابن عصفور (٦٦٣ هـ) قد أطلق القياس ، فردّ قوله أبو حيان الأندلسي (٧٤٥ هـ) ورد الأمر الى السماع ما عرف السماع . فقد جاء في المزهر للسيوطي (٢/ ٢٥) : « وقال ابن عصفور يجوز الأمران ان سمعا أو لم يسمعا . قال أبو حيان والذي يختار ان سمع وقف مع السماع ، وان لم يسمع فأشكل جاز يفعل بالكسر ويفعل بالضم .. » . وحكى الفيومي في المصباح نحواً من هذا فقال : « وان لم يسمع في المضارع بناء فان شئت ضممت وان شئت كسرت » وأردف « الا الحلقي العين أو اللام فالفتح للتخفيف ، والحاقاً بالأغلب » . وقد علل ابن جني فتح العين في مضارع (فَعَل)

المفتوح العين ، اذا كان حلقي العين أو اللام، في كتابه (التصريف/٦٨) فقال : « ومن ذلك أيضاً قولهم فَعَل يفعَل بفتح العين فيهما ، فيما عينه أو لامه حرف حلقي نحو سأل يسأل وقرأ يقرأ وسعر يسعر وقرع يقرع وسحل يسحل وسنح يسنح ، وذلك لأنهم ضارعوا بفتحة العين في المضارع جنس حرف الحلق ، لما كان موضعاً منه مخرج الألف التي منها الفتحة » .

☐ قول من قصر القياس على ما لم يشتهر وهو أبو زيد :

توسط جماعة بين من أطلق القياس في مضارع فعل المفتوح العين فأجاز فيه كسر العين وضمها ، ومن قصر القياس في ذلك على ما لم يسمع ، فقالوا بقياس ما لم يشتهر سمع أم لم يسمع ، وأول هؤلاء أبو زيد سعيد بن أوس الانصاري (٢١٥ هـ) .

فقد جاء في المزهر للسيوطي (٢/٦٢ ـ ط ١٣٢٥ هـ) : « والثلاثي الصحيح ثلاثة أضرب فَعَل بالفتح وفعُل بالضم وفعِل بالكسر ، فما كان على فَعَل بالفتح من مشهور الكلام مثل ضرب ودخل فالمستقبل فيه على ما أتت به الرواية وجرى على الآلسنة نحو يضرب بالكسر ويدخل بالضم ، واذا جاوزت المشهور فأنت بالخيار ، ان شئت قلت يفعِل بالكسر وان شئت قلت يفعُل بالضم ، هذا قول أبي زيد ، الا ما كان عين الفعل أو لامه أحد حروف الحلق فانه يأتي على يفعَل بالفتح ، الا أفعال يسيرة جاءت بالفتح والضم مثل جنح ودبغ ، وأفعال بالكسر مثل هنأ يهنيء ونزع ينزع » . ولم يذهب أبو زيد الى ما ذهب اليه حتى طاف في القبائل يتعرف ما يجري على ألسنتها في مستقبل (فَعَل) المفتوح العين . قال أبو زيد : « طفت في علياء تميم مدة طويلة أسأل عن هذا الباب صغيرهم وكبيرهم لأعرف ما كان منه بالضم أولى ، وماكان بالكسر أولى ، فلم أجد لذلك قياساً ، وانما يتكلم به كل امرىء منهم على ما يستحسن ويستخف لا على غير ذلك » ، وأردف : « وقد يلتزمون أحد الوجهين للفرق بين المعاني في بعض ما يجوز فيه الوجهان ـ المزهر ـ ١/١٢٥ ـ ط/١٣٢٥ هـ » .

وقد أشار ابن سيده الى مذهب أبي زيد هذا في المخصص حين حكى ما انتحاه قوم من النحويين في هذا الصدد فقال : « ان ما كثر استعماله على يفعِل بالكسر وشهر لم يجز فيه ما استعمل على غير ذلك نحو ضرب يضرب بالكسر وقتل يقتُل بالضم ، وما لم يكن من المشهور جاز فيه الوجهان ـ ١٢٤/١٤ » .

☐ الامام الرضي ومذهب أبي زيد :

وقد بحث الرضي في شرح الشافية مضارع (فَعَل) المفتوح العين ، فقال (١١٧/١) : « قياس مضارع فَعَل المفتوح عينه اما بالضم أو الكسر » ، ويعني هذا أن الرضي قد قال بالسماع فمضارع فَعَل المفتوح العين اما بالضم أو الكسر ، والحكم في ذلك للرواية . ثم ذكر مذهب أبي زيد فقال: « وتعدى بعض النحاة وهو أبو زيد وقال : كلاهما قياس

وليس أحدهما أولى به من الآخر ، الا أنـهربما يكثر أحدهما في عادة ألفاظ الناس حتى يطـرح الآخر ويقبـح استعماله ، فان عرف الاستعمال فذاك والا استعملا معـاً ، وليس على المستعمل شيء » ٠ فـدل هـذا على انأبا زيد قد تعدى السماع الى القياس فاجاز الكسر والضم في مضارع فعَل المفتوح العين ،لكنه استدرك فاستثنى مـن القياس ما ليس معروفاً ولا يعرف الاستعمال الا بالاشتهار ،فان عرف الاستعمال فلا قياس وان لم يعرف أي يشتهر كنت في الخيار بين الوجهين ، ولكنما ضابط الشهرة هذه في الرواية ٠

☐ ضابط الشهرة في مذهب أبي زيـد :

أقول كان التعويل على الشهرة محل رعايةيوم بدىء بتدوين اللغة بظهور المعاجم ٠ فقد عاش أبو زيد في أواخر القرن الثاني للهجرة،وتوفي في أوائل القرن الثالث (ـ ٢١٥ هـ) ، وبدأ الرواد بوضع معاجمهم منذ أواخر القرن الثاني وحتى أواخر القرن الرابع ٠ فقد وضع معجم العين للخليل (ت ١٧٠ هـ) ، ويعـدالخليل رائداً في وضع المعاجم العربية ، وتلا (العين) معاجم في المعاني والموضوعات وأخرى في الالفاظ والمفردات ٠ ومما ألف في الألفاظ والمفردات الجمهرة لابن دريـد (ـ ٣٢١ هـ)وديوان الأدب للفارابي (ـ ٣٥٠ هـ) والبارع لابي علي القالي (ـ ٣٥٦ هـ) والأفعال لابن القوطية (ـ ٣٦٧ هـ) والتهـذيب للأزهري (ـ ٣٧٠ هـ) ثم الصحاح للجوهري (ـ٣٩٣هـ)والمقاييس والمجمل لابن فارس (ـ ٣٩٥ هـ) ٠ واذا كان الاوائل من هؤلاء قـد عولوا غالباًعلى التمييز بـين المشهور وغير المشهور مـن اللغات المسموعة عامـة ، وأشاروا الى غـير الثابت غالبـاً ولم يشيروا اليه حينـاً ، فقد عوّل الجوهري مـن المسموع على الصحيـح الثابت مشهوراً كان أو غير مشهور ، وأسمى معجمه (الصحاح) ٠ قال السيوطي في المزهر(١/ ٦٠ ـ ط = ١٣٢٥ هـ) : « وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح ، بلجمعوا فيها ما صحّ وغـيره ، وينبهون على ما لم يثبت غالبا ، وأول مـن التزم الصحيح مقتصراً عليه الامام أبونصر اسماعيل بن حماد الجوهري ، ولهذا سمّى كتابه : الصحاح » ٠وهكـذا اصبح الصحيح الثابت لديـه ، هو المسموع المعول عليه ٠ وقد فعل ابن فارس في مجمله ما فعل الجوهري في صحاحه ٠

واذا كان ابن القوطية قد أخذ بمقالة أبي زيـد حين قال في مقدمة كتابه (الأفعـال) : « فما كان منه على فَعَل من مشهور الكلام مثل ضرب ودخل ، فالمستقبل منه على ما أتت فيـه الرواية وجرى على الألسنة : يضـرب بالكسر ويدخل بالضم ، واذا جاوزت المشهور فأنت بالخيار ، ان شئت قلت يفعِل بالكسرويفعُل بالضم ، هذا قول أبي زيد ٠٠٠ » فقد اهتم الأئمة بعد بما ثبت وصحّ من المسموع فعرف ، قـال ابن يعيش في شـرح المفصـل (٧/ ١٥٢) : « وقـال بعضهـم اذا عرف أن الماضي على فَعَل بفتـح العـين ولم يعرف المستقبل ، فالوجه أن يكون يفعِل بالكسر لأنه أكثر ، والكسر أخف مـن الضم ، وقيل هما سواء فيما لا يُعرف » ٠ وقال ابن عصفور :« يجوز الأمران ان سمعا أو لم يسمعا » فقال أبو حيان الأندلسي : « والذي يختار ان سمع وقف على السماع ، وان لم يسمع فأشكل جاز يفعل بالكسر ويفعل بالضم » وكـذلك فعـل الفيومي في المصباح اذ قال : « وان لم يسمع في المضارع بناء فان شئت ضممت وان شئت كسرت ٠٠ » ، وقد تقدم ذكر ذلك ٠

« يتبـع »

صنعة الكتابة عند العرب

د. وليد سرّاج*

الكتابة في اللغة مصدر كتب يكتب كتْباً وكتاباً وكتابةً ومكْتبَة وكتبة فهو كاتب ومعناها الجمع ، ومنه قيل لجماعة الَخيل كتيبة ، ومن ثَمَّ سمّي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها الى بعض. قال ابن الأعرابي: وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالى في سورة الطور/٤١: [أم عندَهمُ الغيْبُ فهُم يكتُبون] أي يعلمون • وعلى حدِّ ذلك قوله (ﷺ) في كتابه لأهل اليمن حين بعث اليهم معاذاً وغيره « اني بعثتُ اليكم كاتباً » • قال ابن الأثير في غريب الحديث : « أراد عالماً سُمّي بذلك لأن الغالب على مَنْ كان يعلم الكتابة أن عنده علماً ومعرفة، وكان الكاتبُ عندهم قليلاً وفيهم عزيزاً»(١) •

☐ فضل الكتابة :

أعظم شاهد لجليل قدْرها وأقوى دليل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها الى نفسه ، واعتدَّه من وافر كرمه وإفضاله فقال في سورة العلق/٤ : [إقْرأ وربُّكَ الأكرَمْ الّذي علَّمَ بالقَلَمْ علَّمَ الانسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ] ، مع ما يروى أن هذه الآية والتي قبلها مفتتح الوحي في قول معظم المفسرين ، وأول التنزيل على أشرف نبيّ وأكرم مرسل (ﷺ) ، وفيه دعوة الى القراءة والكتابة والعلم • روى سعيد عن قتادة قال : « القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش• فدلَّ على كمال كرمه سبحانه بأنه علَّم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل الى نور العلم ، ونبَّه على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها الا هو »(٢) • وفي ذلك من الاهتمام بشأنها ورفعة شأوها ما لا خفاء فيه • ولذلك نقل صاحب البيان والتبيين : « القلم أحد اللسانين ، كما قالوا : القلم أبقى أثراً واللسان أكثرُ هذراً »(٣) •

★ خبير الاعلام العربي لدى المركز الدولي للبحوث الزراعية في المناطق الجافة (ايكاردا) •

وقد بيَّن الله شرفها بأن وصف بها الحَفَظَة الكرام من ملائكته فقال جلَّت قدرته في سورة الانفطار/٥ : [وإنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كاتِبِين] • ولا أعلى رتبةً وأبذخ شرفاً مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حَفَظَتَه ، ثم زاد ذلك تأكيداً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة وما يُسطَّرُ به فقال تقدَّست أسماؤه في سورة القلم/١ : [ن• والْقَلَمِ وما يَسْطُرونَ • ما أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ]• والاقسام لا يقع منه سبحانه إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما اخترع: كالشمس والقمر والنجوم ونحوها ، الى غير ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها • قال سعيد ابن العاص : « من لم يكتب فيمينه يُسْرى »، وقال معن بن زائدة : « اذا لم تكتب اليد فهي رِجْل » • وبالغ مكحول فقال : « لا دِيَة ليدلا تكتب•••» وقال ابن المقفع: « الملوك أحوج الى الكتاب من الكتَّاب الى الملوك »(٤) •

وأورد القلقشندي(٥) رسائل في المفاخرة بين السيف والقلم ، إشارة الى أن بهما قِوامَ الملك وترتيب السلطنة ، بل ربما فضل القلم على السيف ورجَح عليه بضروب من وجوه الترجيح • كما قال أبو الفتح البستي مفضلاً للقلم بقسم الله تعالى به :

إن افتخر الأبطالُ يوماً بسيفهم ... وعدُّوه مما يكسِبُ المجدَ والكرم
كفى قلم الكتاب عِزاً ورفعةً ... مدى الدهر أنَّ الله أقسم بالقلم

وكما قال النوبختي :

كذا قال اللهُ للأقلام مُذْ بُرِيَتْ ... أنَّ السيوفَ لها مُذْ أرهِفَتْ خَدَمُ

وعلى النقيض الآخر أورد الحصري(٦) ما قاله أيضاً بعض أنصار السيف ؛ كقول أبي تمَّام :

السَّيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ ... في حَدِّه الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللعبِ

والمتنبي :

حتى رَجَعْتُ وأقلامي قوائلُ لي ... المجدُ للسَّيف ليسَ المجدُ للقَلَمِ

☐ ما قاله السَّلف عن أميَّة الرسول :

قد يسأل سائل : اذا كان الأمر كذلك فَلِمَ كان الرسول الأعظم أمياً ؟ وفي الجواب أشار الأقدمون الى أن الكتابة حُرِّمت على النبي ردّاً على الملحدين حيث نسبوه الى الاقتباس من كتب المتقدمين ، كما أخبر تعالى بقوله في سورة الفرقان/٥ : [وقالُوا أساطِيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأصيلاً] • وأكد ذلك بقوله في سورة العنكبوت/٤٨ : [وَما كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ولا

تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارتابَ المُبْطِلون] . قال العتبي : « الأمّيّة في رسول الله (ﷺ) فضيلة ، وفي غيره نقيصة » (٧) . وهي المعجزة الخالدة له لأن الله لم يعلّمه الكتابة لتمكّن الانسان بها من الحيلة في تأليف الكلام ، واستنباط المعاني ، فيتوسل الكفّار الى أن يقولوا اقتدر بها على ما جاء به . وفي الحديث الشريف : « أوتيتُ جوامع الكَلِم واختُصِرَ لِيَ الكلام اختصارا » (٨) .

☐ فضل العربية :

قال العرب والمنصفون من الأعاجم ان العربية تامة الحروف ، كاملة الألفاظ ، اذ لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشينَها نُقصانُه ، ولم يزد فيها شيء فيعيبها زيادته . وقد خَبَرْتُ هذا عن تجربة ؛ فترى العرب قادرين على اخراج مختلف الأصوات والنبرات الأعجمية ، وما ذلك الا بسبب احتواء العربية على جميع مخارج الحروف . ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الايجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات ؛ فمن الايجاز الواقع فيها أنَّ للضَّرب كلمة واحدة فتوسعوا فيها ؛ فقالوا للضرب في الوجه لَطْم ، وفي القفا صَفْع ، وفي الرأس اذا أدمى شَجّ ، فكان قولُهم لُطِم أوجز من ضُرِب على وجهه ، وكذلك اسم محمد بالعربية مثلاً فانه يتألف من أربعة حروف ، بينما هو في الانكليزية وسائر اللغات المتفرعة عن اللاتينية يتألف من ثمانية احرف MUHAMMAD ، ذلك أن الحروف الصوتية والمضاعفة في العربية مشكولة وهناك مكتوبة .

ونقل ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٩) عن ابن شُبْرُمة قوله : « اذا سرَّك أن تعظم في عين من كنت في عينيه صغيراً ، ويصغُر في عينيك من كان في عينيك عظيماً فتعلَّم العربية ، فانها تجريك على المنطق ، وتدنيك من السلطان » .

☐ ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته من الأمور الكُلِّيَّة :

قال النويري (١٠) ان أول ما يبدأ به من ذلك حفظ كتاب الله تعالى ، وملازمة درسه ، وتدبر معانيه ، ويتلو ذلك الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية ، وخصوصاً في السِّيَر والمغازي والأحكام ، ثم قراءة ما يتفق من كتب النحو ، وما يتهيأ من مختصرات اللغة ، ويتصل بذلك حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم ، ومخاطباتهم ومحاوراتهم ومراجعاتهم ومكاتباتهم . وأيضاً النظر في أيام العرب ووقائعهم وحروبهم ، ثم النظر في التواريخ ومعرفة أخبار الدول ، وحفظ أشعار العرب ومطالعة شروحها واستكشاف غوامضها ، والتوفر على ما اختاره العلماء بها منها . وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المحدَثين ، والنظر في رسائل المتقدمين ، وكتب الأمثال ، والأحكام السلطانية . وأما الأمور الخاصة التي تزيد معرفتها قدرَه ، ويزين العلم بها نظمَه ونثرَه فانها من المكملات لهذا الفن . ومن ذلك علم المعاني والبيان والبديع ، ومنها ذِكْر الفصاحة والبلاغة والحقيقة والمجاز .

☐ ذكر ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور اللغوية :

لا مرية في أن اللغة هي « رأس مال الكاتب ، وأس كلامه ، وكنز انفاقه ؛ من حيث ان الالفاظ قوالب للمعاني التي يقع التصرف فيها بالكتابة . وحينئذ يحتاج الى طول الباع فيها ، وسعة الخطو ، ومعرفة بسائطها ؛ من الأسماء والأفعال والحروف ، والتصرف في وجوه دلالتها الظاهرة والخفية ، ليقتدر بذلك على استعمالها في محالّها ووضعها في مواضعها اللائقة بها ، ويجد السبيل الى التوسع في العبارة عن الصور القائمة في نفسه فيتسع عليه نطاق النطق ، وينفسح له المجال في العبارة ، وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج الى وصفه ، وتدعو الضرورة الى نعته ؛ فيستظهر على ما ينشيه ، ويحيط علماً بما يذره ويأتيه »(١١) .

ولا يخفى أن الكاتب يحتاج في كماله الى معرفة لغة الكتب التي يطالعها في مجال تخصصه ، وهذا قد يعني الالمام بلغة أو أكثر من اللغات الأعجمية . وقد روى محمد بن عمر المدائني في « كتاب القلم والدواة » بسنده الى زيد بن ثابت (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) : « انه يرد عليَّ أشياء من كلام السريانية لا أحسنُها فتعلَّمْ كلامَ السريانية فتعلَّمتُها في ستة عشر يوماً »(١٢) . من هنا اهتم العرب بتعلم اللغات الأعجمية ، ووضعوا شرائط للترجمان كالتي أوردها الجاحظ : « وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم ، وأجدر أن يخطيء فيه . ولن تجد البتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء »(١٣) .

☐ ذكر ما يحتاج اليه الكاتب من المعرفة بالنحو :

أجمع العرب على أن النحو هو قانونُ العربية ، وميزانُ تقويمها ، وهو لها ــ كما قيل ــ كالملح في الطعام ، ونقل القلقشندي عن صاحب « المثل السائر » : « وهو أولُ ما ينبغي اثبات معرفته ؛ على أنه ليس مختصاً بهذا العلم خاصة بل بكل علم ؛ لا بل ينبغي معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معرّة اللحن . ومن كلام مالك بن أنس : « الاعراب حَلْيُ اللسان فلا تمنعوا ألسنتَكم حُلِيَّها » . ولله درُّ أبي سعيد البصري حيث يقول :

النَّحْوُ يبسُطُ من لِسانِ الألْكَنِ ... والمرءُ تُكْرِمُـهُ اذا لم يَلْحَـنِ
وإذا طلَبْتَ مـن العُلومِ أجَلَّهـا ... فأجَلُّهـا عنـدي مُقيـمُ الألسُنِ

وقد روي أن أعرابياً قرأ الآية ٢٨ من سورة فاطر هكذا : [إنَّما يَخْشَى اللهُ من عبادهِ العُلَماء] برفع الأول ونصب الثاني، فوقع في الكفر بنقل فتحة الى ضمَّة وضمَّة

الى فتحة ، فقيل له : يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحداً ! فتنبه لذلك وتفطن له »(١٤) ٠ ولذا قال مَسْلَمَةُ بن عبدالملك : « اللحن في الكلام أقْبَحُ من الجدري في الوجه(١٥) ٠ قال القلقشندي : « واعلم أن اللحن قد فشا في الناس ، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالاعراب عيباً ، والنطق بالكلام الفصيح عِيّاً ٠٠ وقف بعض الخلفاء على كتاب لبعض عماله فيه لَحْنٌ في لفظه ، فكتب الى عامله: قَنِّعْ كاتبَك هذا سوطاً معاقبةً على لحنه ٠ قال أحمد بن يحيى : كان هذا مقدارَ أهلِ العلم، وبحسبه كانت الرغبةُ في طلبه والحذرِ من الزلل ٠٠ فكيف لو أبصر بعضَ كُتَّابِ زماننا هذا ؟ قد قال ذلك في زمانه هو وفي الناس بعض الرمق ، والعلم ظاهر وأهلُه مكرَمون ، والا فلو عمّرَ الى زماننا نحن [بل فما بالك بزماننا نحن !] لقال [تلكَ أمّةٌ قد خلَتْ] »(١٦) ولكان لسان حاله كما قال الشاعر :

تَعس الزمانُ ! فقد أتى بعُجابِ ومَحا فنُون الفضلِ والآدابِ
وأتى بِكُتّابٍ لو انبسطتْ يَدي فيهم رددتُهُمُ الى الكُتّابِ

ذكر ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العلمية :

لعل أحسن ما قيل في هذا الباب ما أورده ابن قتيبة عن كتابه النفيس « أدب الكاتب»(١٧) من أنه ليس لمن لم يتعلق من الانسانية الا بالجسم ، ولا من الكتابة الا بالاسم ، ولم يتقدم من الأداة الا بالقلم والدواة ، ولكنه لمن شَدا شيئاً من الاعراب فعرف الصَّدْرَ والمصدر ، والحال والظرف ،وشيئاً من التصاريف والأبنية ، وانقلابَ الياء عن الواو ، والألف عن الياء ، وأشباه ذلك ٠ولا بد له من النظر في الأشكال لِمساحة الأرضين ، حتى يعرفَ المثلث القائم الزاوية ،والمثلث الحادَّ ، والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار ، والمربعات المختلفات ، والقِسِيِّ والمدوَّرات ، والعمودَيْن ، ويمتَحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر ، فانَّ المُخبَرعنه ليس كالمُعاين » ٠ وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً بإجراء المياه ، وحفر فُرَضِ المشارب ورَدْمِ المَهاوي ومجاري الأيام في الزيادة والنقص ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ، وحال القمر في استهلاكه واتصاله ، ووزن الموازين ، وذَرْعِ المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصْبِ القناطر ، والجسور ، والدَّوالي ، والنواعير على المياه ،وحال أدوات الصنَّاع ، ودقائق الحساب ، كان ناقصاً في حال كتابته ٠ ولا بدَّ له من النظر في جمل الفقه ومعرفة أصوله ٠٠ والحديث ٠٠ ودراسة أخبار الناس ، وتحفُظ عيون الحديث ليُدْخِلَها في تضاعيف سطوره متمثلاً بها اذا كَتَبَ ويصل بها كلامه اذا حاور » ٠ ثم خفَّف على الكُتَّاب بعد ذلك قائلاً : « ومدار الأمر على القُطْب ، وهو العقل وجودة القريحة ،فان القليل معهما باذن الله تعالى كافٍ ، والكثير مع غيرهما مقصِّر » ٠ وختم ذلك بالقول : « ونستحبُّ له أن يُنَزِّلَ ألفاظَه

في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب اليه ، وآلا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس خسيس الكلام » .

وتابعه الوزير ضياء الدين بن الأثير في « المثل السائر »، وأبو هلال العسكري في بعض ذلك . قال الأخير في بعض أبواب كتابه : « الصناعتين »(١٨) : « ينبغي أن تعلم أن الكتابة تحتاج الى آلات كثيرة ، وأدوات جمّة : من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ واصابة المعنى ؛ والى الحساب وعلم المساحة والمعرفة بالازمنة والشهور والأهلّة وغير ذلك مما ليس هذا موضع ذكره وشرحه » . وخالف أبو جعفر النحاس في كثير من ذلك فذكر في أول كتابه « صناعة الكتابة » في المرتبة الثانية منه بعدما يتعلق بالخط: ان من أدوات الكتابة البلاغة، ومعرفة الاضداد مما يقع في الكسب والرسائل والعلم بترتيب مما يقع بترتيب أعمال الدواوين ، والخبرة بمجاري العمال ، والدربة بوجوه استخراج الاموال مما يجب ويمتنع . ثم قال فهذه الالات ليس لواحد منها بذاته ، ولا انفراد باسم يخصه ، وانما هو جزء من الكتابة واصل من اركانها . أما الفقه والفرائض والعلم بالنحو واللغة وصناعة الحساب والمساحة والنجوم ، والمعرفة باجراء المياه ، والعلم بالأنساب فكل واحد منها منفرد على حدته ، وان كان الكاتب يحتاج الى أشياء منها نحو ما يُكتب بالالف والياء ، والى شيء من المقصور والممدود » . وزاد القلقشندي على ذلك : « والتحقيق ان ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوعها ؛ فكل نوع من أنواعها يحتاج الى معرفة فن او فنون تختص به ... فليس احتياجه الى ذلك على حد واحد : بل منها ما يحتاج اليه بطريق الذات ، وهي مواد الانشاء التي يستمد منها ويقتبس من مقاصدها ... ومنها ما يحتاج اليه بطريق العرض كالطب والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم ... لينظم ذلك في خلال كلامه فيما يكتب به من متعلّقات كل فن من هذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب ، ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به لمنجِّم، ونحوه من الهندسة فيما يكتب به لمهندس »(١٩) .

☐ المنهج العلمي في الكتابة عند العرب وما قالوه في البلاغة والفصاحة والايجاز :

تكلم رجل عند النبي (ﷺ) فقال له النبي (ﷺ) : « كم دون لسانك من حجاب ؟ » . قال : شفتاي وأسناني . فقال له : « إن الله يكره الانبعاق في الكلام [الاندفاع فيه بلا توقف] ، فنضّر الله وجه رجل أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته » . وسُئل النبي (ﷺ) : فيم الجمال ؟ فقال : « في اللسان » يريد البيان . وقال أيضاً : « انّ من البيان لسحرا »(٢٠) .

قال العاملي في « أسرار البلاغة »(٢١) : « البلاغة تختص بالمعاني ، والفصاحة تختص بالألفاظ ، والايجاز يختص بهما . قال عبد الحميد الكاتب ، وكان وزير مروان بن محمد

آخر خلفاء بني أمية ، وبه يضرب المثل في الكتابة والبلاغة : البلاغة ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة ... وقيل لابن المقفع :ما البلاغة ؟ فقال : التي اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها . وسميت بلاغة لأن المتكلم يبلغ بها الكثير من الغرض في القليل من المعاني . والفصاحة : حدها التخلص من التعقيد والتنافر وضعف التأليف ، لانه يقال: لفظ فصيح ، ومعنى بليغ . والايجاز : هو تقليل اللفظ ، وتكثير المعنى . وهو على قسمين: ايجاز قصر ، وايجاز حذف . فايجاز القصر : هو التعبير عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، كقوله تعالى في سورة الحجر/٩٤ مخاطباً لنبيه محمد (ﷺ) : [فاصدع بما تؤمر] ، فهذه ثلاث كلمات إشتملت على جميع معاني الرسالة ... وايجاز الحذف : هو الاستغناء بالمذكور عما لم يذكر ، مثل قوله تعالى في سورة يوسف/٨٢ : [واسأل القرية التي كنا فيها] والمراد أهل القرية » .

أقول ويصعب الاحاطة بما قاله العرب في هذا الباب ، وانما أسوق فيما يلي غيضاً من فيض . قال صاحب « العقد الفريد »(٢٢): « أشرف الكلام كله حسناً ، وأرفعه قدراً ، وأعظمه من القلوب موقعاً ، وأقله على اللسان عملاً ، ما دل بعضه على كله ، وكفى قليله عن كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك أن تقل حروفه ، وتكثر معانيه . ومنه قولهم : رب اشارة أبلغ من لفظ » . وقيل في تعريف البلاغة أيضاً أن يبلغ الرجل بعبارته كنه ما في نفسه . ولا يسمى البليغ بليغاً الا اذا جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وهو المسمى ايجازاً ... ولا يسمى الفصيح فصيحاً حتى تخلص لغته عن اللكنة الأعجمية » . وقال الجاحظ في « البيان والتبيين »(٢٣) : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ... فاذا كان صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة » . وزاد في مكان آخر : « اياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة ، فان ذلك هو العي الأكبر » .

ونقل صاحب « العمدة »(٢٤) عن ابن المقفع قوله في البلاغة أيضاً أنها « اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ؛ فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون جواباً ... فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة . فانظر كيف جعل ابن المقفع من السكوت بلاغة ، رغبة في الايجاز » . ومثل ذلك ما قاله المبرد في « الكامل »(٢٥) : خير الكلام ما أغنى اختصاره عن اكثاره » .

أما أصحاب « دائرة المعارف الاسلامية » فقالوا ان البلاغة هي « جودة الكلام ... فنقول بلاغة الكلمة وبلاغة الكلام ، كما نستطيع أن نقول بلاغة الألفاظ وبلاغة المعاني ، أي جودة كل ذلك »(٢٦) .

ذكر ما يحتاج اليه الكاتب من التواضع :

استحب ابن قتيبة للكاتب « أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذّب أخلاقه قبل أن يهذّب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة وصناعته عن شَين الكذب » . كما استهجن العرب استخدام ضمائر المتكلم ،وخاصة في صيغة الجمع وما شابهها ، ونوّهوا بضرورة أن يخلو أسلوب الكاتب من مظاهر الفخر والمبالغة والاعتداد بالنفس ، لأن « نحن لا يكتب بها عن نفسه الا آمرٌ وناه ، لأنها من كلام الملوك والعظماء . قال تعالى في سورة الحجر/٩ : [انّا نحنُ نزّلنا الذِّكرَ] .وقال أيضاً في سورة القمر/٤٩ : [انّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدَر] . وعلى هذا الابتداءخوطبوا في الجواب ؛ فقال تعالى في سورة المؤمنون/٩٩ حكاية عمّن حضره الموت: [ربِّ ارجعُونِ لعلّي أعمَلُ صالحاً] ، ولم يقل : ربِّ ارجعي(٢٧) » . أقول ولا يدخل في ذلك ضمير المتكلم في حالة المفرد ، « اذا أراد الرجل أن يعرّف بنفسه ، أو أن يمدح نفسه بالحق اذا جُهل أمره، وكان في ذلك فائدة »(٢٨)، كما فعل سيدنا يوسف (عليه السلام) أمام الملك كما أخبر القرآن في سورة يوسف/٥٥ : [قال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم] . كما أن حقيقة قصور علم الانسان وحواسه المحدودة تملي على الكاتب أن يتأدب كما قال تعالى في سورة الاسراء/٨٥ : [وما أوتيتم من العلم الا قليلا] ، وأن يتواضع كما في الحديث الشريف « من قال اني عالم فهو جاهل »(٢٩) ، وأن يتحلى بمكارم الأخلاق كما قال الشاعر :

مَلأى السنابل تنحني بتواضعٍ والفارغاتُ رؤوسهنّ شوامخ

او كما قال عبدالله بن المعتز : « متواضع العلماء أكثرهم علماً ، كما أن المكان المنخفض أكثر الأماكن ماء»(٣٠). لذا فقد اتبع المؤلفون العرب في كتاباتهم منذ القرن الثالث الهجري مبدأ الاعتذار ، حتى غدا قاعدة يرتكز عليها الكتّاب مهما عظم مقامهم، ورقيت بحوثهم. فانظر الى تواضع ابن الأثير مثلاً وهو يقول في مقدمة كتابه « المثل السائر » : « ولا أدعي فيما ألّفته من ذلك فضيلة الاحسان ، ولا السلامة من سبق اللسان . فان الفاضل من تعدّ سقطاته ، وتُحصى غلطاته » . وهذا العمري يدل على تواضع ذلك العالم النّحرير أكثر مما يشير الى وجود أغاليط في كتابه .

خاتمة :

ونختم الحديث بضرورة أن يقوم الكاتب بمراجعة ما خطّه يراعه ، من وقت الى آخر ، لتنقيح ما سوّد ، وتهذيب ما كتب . تأمّل مقدار الدقة والحذر الذي وصله الجاحظ عندما قال: « وينبغي لمن كتب كتاباً ألاّ يكتبه الا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له ... فاذا سكنت الطبيعة، وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه .فيتوقف عند فصوله توقف من يكون طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب »(٣١).

الحواشـي :

١ ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا للقلقشندي ، أحمد (٨٢١ ـ ١٤١٨ هـ) • نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ١ : ٥١ •
٢ ـ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي • دار الفكر• بيروت ، لبنان ٢٠ ـ ١٢٠ •
٣ ـ البيان والتبيين للجاحظ ، عمرو (١٥٠ ـ ٢٥٥ هـ)حققه عبد السلام محمد هارون • دار الجيل ودار الفكر ، بيروت ، لبنان ١ : ٧٩ •
٤ ـ صبح الأعشى ١ : ٣٧ ـ ٤٣ •
٥ ـ المرجع السابق ١ : ٤٥ •

٦ ـ زهر الآداب وثمر الألباب للحصري ، ابراهيم (؟ ـ ٤٥٣ هـ) • حققه وشرحه د• زكي مبارك • دار الجيل • بيروت ، لبنان ٢ : ٤٨٠ ـ ٤٨١ •
٧ ـ صبح الأعشى ١ : ٤٤ •

٨ ـ أسرار البلاغة للعاملي ، بهاء الدين (٩٥٣ ـ ١٠٣١ هـ)• مطبوع على هامش المخلاة • دار المعرفة • بيروت ، لبنان : ٣١٦ •

٩ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ، عبدالله (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ) •نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ٢ : ١٥٧ •

١٠ـ نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، شهاب الدين أحمد(٦٧٧ ـ ٧٣٣) • نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ٧ : ٢٧ـ٣٥ •
١١ـ صبح الأعشى ١ : ١٥٠ •
١٢ـ المرجع السابق ١ : ١٦٥ •

١٣ـ الحيوان للجاحظ • طبعة دار إحياء التراث العربي المصورة عن الطبعة المصرية التي حققها عبد السلام محمد هارون ١ : ٧٧ •
١٤ـ صبح الأعشى ١ : ١٧٠ ـ ١٧٣ •
١٥ـ عيون الأخبار ٢ : ١٥٨ •
١٦ـ صبح الأعشى ١ : ١٧٠ •
١٧ـ أدب الكاتب لابن قتيبة • حققه محمد الدالي • مؤسسة الرسالة : ١٢ ـ ١٨ •
١٨ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري • طبع الأستانة : ٧ •
١٩ـ صبح الأعشى ١ : ١٤١ ـ ١٤٦ •
٢٠ـ العمدة لابن رشيق ، ١ : ٤١٧ • ٤٢٩ •
٢١ـ أسرار البلاغة : ٣١٦ •

٢٢ـ العقد الفريد للأندلسي ، أحمد بن محمد بن عبد ربه٤ : ١٥٥ •
٢٣ـ البيان والتبيين ١ : ٨٣ •
٢٤ـ العمدة لابن رشيق ١ : ٤٢٠ •

٢٥ـ الكامل للمبرد ، محمد بن يزيد • (٢١٠ ـ ٢٨٥) • مؤسسة الرسالة • بيروت ، لبنان ٢ : ٨٨٤ •
٢٦ـ دائرة المعارف الاسلامية • طبع كتاب الشعب ٧ : ٥٢٩ مادة (بلاغة) •
٢٧ـ أدب الكاتب : ١٤ •
٢٨ـ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ، محمد بن أحمد(؟ ـ ٢٩٢ هـ) • دار الفكر • بيروت ، لبنان ١ : ١٢٢ •
٢٩ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول لناصيف ،منصور علي • دار الكتب العلمية • بيروت ، لبنان ١ : ٧٤ •
٣٠ـ نهاية الأرب ٣ : ٢٤٥ •
٣١ـ الحيوان ١ : ٨٨ •

المؤتمر العلمي الأول
حول الكتابة العلميّة باللغة العربيّة
واقع وتطلعات

التوصيات المقترحة :

ايماناً بثراء اللغة العربية التي شرّفها المولى عز وجل وأنزل بها القرآن الكريم الذي يحوي ويفوق كل علم ٠

واقراراً بأن الأمة العربية في تطلعها للمستقبل وفي سعيها للتقدم والمعاصرة ، غير منقطعة الصلة بتراث عظيم من العطاء العلمي الخلاّق كرّم به تاريخها وهي حريصة على هذا التراث ، حفيّة به كما انها حريصة على لغتها العظيمة وعلى تنميتها واغنائها وتوسيع حصيلتها من المصطلحات والرموز لتستوعب كافة العلوم الطبيعية والتقنية التي تتزايد حصيلتها اللغوية يوماً بعد يوم ٠

وادراكاً بقدرة الأمة العربية التي تملك امكانات بشرية ومادية كبيرة ، وبأن التعريب ضرورة حيوية وتربوية وثقافية لتحقيق النهضة العلمية الحضارية في الوطن العربي ٠

ونظراً لأن الفكر الأصيل لا يخلق في الأمة الا اذا كانت تعلّم بلغتها ، وان موضوع التعريب والتعليم والتدريس والنشر باللغة العربية كان محوراً لكثير من الندوات والمؤتمرات لسنين طويلة ، انعقدت في عدة أقطار عربية وانبثق عنها كثير من التوصيات، تعثّر معظمها ولم تر طريقها الى التنفيذ ٠

نظم مركز دراسات الطب العربي بجامعة العرب الطبية في بنغازي ـ ومعهد الانماء العربي ومكتب اليونسكو الاقليمي للعلوم والتكنولوجيا للدول العربية « روستاس » ، المؤتمر العلمي الأول حول « الكتابة العلمية باللغة العربية ـ واقع وتطلعات » ، في الفترة من ١٠ الى ١٣ مارس (آذار) ١٩٩٠ م بمدينة بنغازي ، بالجماهيرية العظمى ،

وذلك لدراسة عدد من القضايا المتعلقة بالكتابة العلمية باللغة العربية ، ودراسة المشكلات التي تعترض تعريب العلوم ونشر المعرفة العلمية بالعربية واستعراض وتبادل الخبرة المكتسبة في الأقطار العربية وبمجامعها اللغوية ، ومن المنظمات العربية والدولية في مجال التعريب .

وقد انبثق عن المؤتمر التوصيات الآتية :

١ ــ تشجيع حركة التعريب والتأليف والترجمة الى العربية ونشر الكتب والمجلات العلمية باللغة العربية .

٢ ــ مناشدة الأقطار العربية لتقديم الحوافز ومنح الجوائز لما هو متميز من الكتابة العلمية باللغة العربية .

٣ ــ استلهام التراث العلمي العربي للاستفادة مما دوّنه الأقدمون في مختلف العلوم والمعارف .

٤ ــ تعميم منهجية وضع المصطلحات على المعنيين بالتعريب والكتابة العلمية .

٥ ــ العمل على مواصلة البحوث المعجمية ونشر معاجم المصطلحات العلمية والتقنية وتيسير الحصول عليها .

٦ ــ دعم الشبكة العربية للاعلام المصطلحي ARABTERM التي أنشئت في آذار/ مارس ١٩٨٩ م والتي يتوخى منها توحيد المصطلح العربي والتوعية بالمصطلحية وتشجيع التعاون من المختصين بهذا الميدان ومتابعة تطوره .

٧ ــ التنسيق بين الجهات العربية المعنية بالمصطلحات وتخزينها ، توحيداً للجهود المبذولة وتفادياً للتكرار وتحقيقاً للاسراع في مواكبة ما يستجد من مصطلحات .

٨ ــ الاستعانة بتقنيات الحاسوب فيما يتعلق بالمصطلح والاستفادة من أحدث التطورات في ميادين علم الترجمة واللسانيات والمصطلحية .

٩ ــ وضع سياسات عربية للاعلام العلمي والتقني والعناية بنشر دوريات علمية مبسطة على مختلف المستويات .

١٠ــ الاستفادة من وسائل الاعلام في نشر المصطلحات العلمية العربية الجديدة والتعريف باستمرار بالمنجزات في هذا المضمار .

١١ــ العمل على تعريب التعليم بجميع مراحله وتنفيذ القرارات المتخذة بشأنه .

١٢ــ توفير الكتاب العلمي العربي في شتى المجالات العلمية لجميع الأقطار العربية وزيادة تبادل الخبرات المكتسبة في التدريس والترجمة والتأليف .

١٣ــ اعلان سنة للتعريب تستهدف التركيز على استخدام اللغة العربية في المؤسسات العلمية والجامعات ووسائل الاعلام للتوعية الجماهيرية بأهمية هذا الموضوع .

١٤ـ توحيد أشكال الحروف التي ترسم بهـا الحروف الأجنبيـة غير الموجـودة في أصـوات الحروف العربيـة ٠

١٥ـ توفير ما سبق من توصيات صدرت في مؤتمرات مماثلة وما نفـّـذ منهـا وجعلهـا في متناول الباحثين للاستناد اليها في أعداددراساتهم وبحوثهم تجنباً للتكرار والازدواجية.

١٦ـ عقد هذا المؤتمر كل ثلاث سنوات لمتابعة الانجازات المتحققة ٠

هذا ، وقد أعرب المشاركون عن فائق تقديرهم لمركز دراسـات الطب العربي بجامعـة العرب الطبية على كرم الضيافـة وحسن الاستقبال ٠

وقرر المشاركون ارسال برقية تقدير واعتـزاز للأخ قـائد ثورة الفاتـح من سبتمبر العظيمة لدوره الرائد في سبيل نصرة قضايـاالأمة العربية ٠

بنغازي ١٣ آذار ١٩٩٠

★ ★ ★

حاشية : شارك في أعمال المؤتمر نحـومئة باحث ينتمون الى هيئات علمية عربيـة مثل مجامع اللغة العربية والجامعات ومراكـز البحوث وغيرها قدموا ما يزيد على أربعين بحثاً في سبع جلسات جرى توزيعها على محـاور المؤتمر الأربعـة وهي البعـد الحضاري للكتابة العلمية باللغة العربية ونشر العلوم بها ، ودور المصطلح في الكتابة العلمية العربية ، وتقنيات وضع المصطلح ومنهجيات وضع المعاجم ، وتجارب الكتابة باللغـة العربية ٠ وتلتهـا ندوة مصغرة خصصت لتجارب التعريب في الأقطـار العربية ٠ وقد شارك رئيس تحرير « التراث العربي في أعمال المؤتمر وفي الندوة ٠ والأمل معقود عـلى تحقيـق الغايـات المرجـوة في استشراف آفاق الكتابة العلمية بالعربية وفي انجاز تلك التوصيـات وفي التغلب على كـل عقبـة معترضـة ٠٠

ع.ك.ي

★ ★ ★

نظرية الموهبة المصقولة وعدالة الناقد عند القاضي عبد العزيز الجرجاني

د. مصطفى العلواني

آ ـ من هو عبد العزيز الجرجاني

يعد عبدالعزيز الجرجاني من أهم النقاد العرب في القرن الرابع الهجري لما انماز به من نظرة صائبة وحس مرهف وذوق رفيـع ودراية كبيرةودربة قلما تأتت لغيره من النقاد، فضلا عما كان يتمتع به من دماثة في خلقـه وعدالة في محاكمته جعلتاه يحتل مكانة بارزة بين أقرانه من النقاد العرب ٠

والأمر البارز عند هذا الناقد أنه استطاع أن يؤطـر آراء النقـاد الذين أتوا قبلـه وعاصروه وأن يهذبها ويطبعها بطابعه ويصبهافي نظرية حسية من خلال كتاب الوساطه ٠

وقد كان لدماثة خلقه ومكانته في القضاء واعتناقه للاعتزال أثر واضح في لمساتــه النقدية عندما قرن بين الشعر والديـن والأخلاق ٠

ب ـ خلفية النظرية :

قبل البحث في نظرية الجرجاني النقديةلا بد مـن الاشـارة الى الآراء والمقولات أو المبادىء النقدية التي كانت معروفة فيعصرهوالتي أفاد منها واستطاع أن يصوغ نظريته منها ٠ فمن المبادىء النقدية العامة التي كانت سائدة في زمانههي أن الأدبطبع وأن على الشاعر أن يراعي مقتضى الحال ويبتعد عنالتعقيد كما ورد في صحيفـة بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) فضلا عـن تعدد أغراض الشعروأثر البيئة في تكوين الأديب وانتاجه وقيمة الناقـد المتخصص وصلاحيته عمن سواه كما جاء عند ابن سـلام وقد يكون ابن قتيبـة (٢٧٦ هـ) في كتابه الشعر والشعراء قـدرسخ مفهوم عدم اقتصار البلاغةعلى قومدون

قوم أو عصر دون عصر كما بين موقفه مـن سرقات الشعراء وقوله بجوازها اذا زادت على المعنى السابق كما أكد على أهمية الروايـة وضرورتها لكل من الناقد والشاعر ولايخفى ما لآراء ابن المعتز (٢٩٦ هـ) من أثر سواء في موضوع البديـع وموضوع فصـل الدين والأخلاق عن الشعر ٠

وما ان انقضى القرن الثالث الهجري حتى ظهر نقـاد بارعون أمثـال ابن طباطبا الذي أكد في كتابه : « عيار الشعر » علـى كراهية الجوازات الشعريـة « فليس يقتدى بالمسيء وانما يقتدى بالمحسن » وأوصى بمراعاة الكلام لمقتضى الحال وألح على وحـدة القصيدة وحسن الخروج فيها من غرض الى غرض ٠

وقد تحدث أبو بكر الصولي (٣٣٥ هـ) عن تطور الألفاظ نحو التسهيل والتسامح بالسرقات ٠ غير أن ابن قتيبة رأى أن جودة الأدب في قوة التأثير في النفس ثم تبعه الآمدي (٣٧١ هـ) الذي قال بالطبع وطالب بالحكم على مجمل انتاج الشاعر، ولا يرى السرقة الا بالمعنى المخترع الذي اختص به صاحبه صورة وتعبيراً كما استنبط طريقة أسماها عمـود الشعر ورآها تتساوق مع الطبع وأن ماعداها من بديع واغراب يقع في حيز التكلف ٠

وقد استطـاع الجرجاني أن يستوعب جميع هذه الآراء ويتمثلها ويصبها في اطـار متميز هو ما يمكن أن ندعوه بنظرية الموهبة المصقولة وعدالة الناقد فما هي هذه النظرية.

جـ ــ نظرية الموهبة المصقولة وعدالة الناقد :

قد نسمح لأنفسنا بناء على المعطيات العامـة بالقول ان منطوق نظريـة الجرجاني تتعين بأن على الأديب أن يكون ذا موهبة مصقولـة وأن على الناقـد أن يكـون عدلا ومنصفاً وله بصر ودربة بالشعر » ٠ تقوم هذه النظرية على مبدأين هامين ٠

١ ــ الموهبة المصقولة :

ويعني أن تتوفر لدى الأديب موهبة فطرية فالناس في طبيعتهم متفاضلون ، ولكن هذه الموهبة تحتاج الى صقل عن طريق الروايـة والتمرس بالأساليب الفصيحة والدربة وما يفضي به ذلك من اختيار للألفاظ الرشيقـة والمعاني السليمـة وامتلاك مقومـات الشعر (لغة ــ نحو ــ وزن ٠٠٠٠)

٢ ــ عدالة الناقـد :

وأهم ما يمتاز به الناقد عند الجرجاني هو العدالة والتخصص فضـلا عـن الدربـة والرواية ، فالأدب نسب والعلوم أرحام تصل بين المشتغلين ٠٠٠ والنصرة لأهل الأدب لاتعني التعصب ، بل يجب أن لا تتجـاوز حـدود الانصاف ٠

هذان هما المبدآن الهامان اللذان تقـوم عليهما نظرية الجرجاني في النقد أو قل هما الفرضان اللذان يشكلان عماد النظرية عنده ويقوم الجرجاني باختبارهما من خلال رحلته الطويلة في كتاب الوساطة ٠

الموهبـــة المصقولـــة

أولا ـ الطبع والشاعر المطبوع :

عرف الجرجاني الشعر بأنه : « علم من علـوم العرب يشترك فيـه الطبع والروايـة والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو الحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان » ٠

وقبل أن نبسط القول في هذا التعريف نرى من الأجدر أن نعرض الى تعريف الحاتمي في هذا المجال حتى نتبين مدى رسوخ قدم الجرجاني وعلو شأنه ونفاذه في طبائـع الأمور ٠ فقد أبان الحاتمي في الرسالة الموضحة أن »حدود الشعر أربعة وهي اللفظ والمعنى والوزن والتقفية ، ويجب أن تكون ألفاظه عذبـة ومعانيه لطيفة واستعاراته واقعة وتشبيهاتـه سليمة وأن يكون سهل العروض رشيق الوزن متميز القافية رائع الابتداء بديع الانتهاء» ٠

ومن التعريفين أعلاه يتضح أن الحاتمي أطلق حكماً عاماً في الشعر في حين أن الجرجاني عرف الشعر من خلال الشاعر فالشعر علـم ولكنه لا يتأتى لأي كان من البشر وبقوله هذا أراد ما تواضع عليه الناس في هذا العصر من حدود له ولكنه خصص فيما بعد اذ بين أن عماد هذا العلم هو الموهبة والذكاء والدربة وبقدر نصيب الانسان من أركان هذا العلم بقدر ما يكون علو شأنه ونباهة ذكره وابداعه فيه ٠

ومن الملاحظ أن الجرجاني يستخدم الطبع بمعنى الموهبة والطبع يلهم الشاعر سلامة اللفظ وسلامة الأسلوب وهو الذي يرسم حدود مـا بين الشعر الجيد والرديء ومـا بين الشعر المطبوع والشعـر المصنوع المتكلف ٠ والطبع عند الجرجاني هو الذي صقله الأدب وشحذته الرواية وجلتـه الفطنة وتمت لـه ملكة الفصـل بين الرديء والجيد ٠ يقـول الجرجاني « وملاك الأمر في هذا الباب ترك التكلف ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليـه والعنف بـه ـ ولست أعني بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي صقله الأدب وشحذته الرواية وجلته الفطنة وألهم الفصل بين الرديء والجيـد وتصور أمثلـة الحسن والقبح » ٠

ويبين الجرجاني أن الشعر المطبوع يؤثر في المتلقـي فور سماعـه بعكس المتكلـف والمصنوع تمجه النفس ويعافـه القلب رغم احكامه وصنعته ٠٠ فيقول « وتأمل كيف تجد نفسك عند انشاده وتفقد ما يتداخلك مـن الارتياح ويستخفك مـن الطرب اذا سمعتـه وتذكر صبوة اذا كانت لـك تراهـا ممثلـة لضميرك ومصورة تلقاء ناظريك ٠

وكذلك فالجرجاني ينفي المعنى المبتذل واللفظ المستعمل من الشعر المطبوع لأن الطبع يحمل اللفظ الرشيق ويستبعد الصنعة مثلما يستبعد المعاني الفلسفية (التدقيق) والمعاني البعيدة (الاغراب) ويجعل تأثير الشعر يظهر في سورة الطرب وتذكر الصبوة واستحضـار الصورة ٠ ويقول الجرجانـي (فمن عيوب المعاني التدقيق وهو الخروج عن رسم الشعر الى طريق الفلسفة) ٠

ثانياً ـ صقل الموهبة :

لا تتأتى الملكة الشعرية لشاعر من الشعراء ولا تنمو الموهبة وتصقل الا بالدربة والرواية والتمرس بالأساليب الفصيحة ومعرفة القواعد والضوابط للمقومات الشعرية ومدى الترخص وحدود الالتزام وتتجلى الموهبة المصقولة في المناحي التالية :

١ ـ سلامة اللغة : يجب على الشاعرأن تكون لغته سليمة ولكنه اذا لحن عُدّ لحنه عيباً في شعره وليس مطعناً في شاعريته ٠

٢ ـ صحة المعاني : والأصل في الشاعرأن تكون معانيه صحيحة واذا أخطأ في بعض معانيه عد خطؤه عيباً حيث ورد دون أن يكون ذلك سبباً لاسقاطه من عداد الشعراء ٠

٣ ـ تجنب التفاوت : والتفاوت هو اختلاف مستوى الانتاج الشعري عند الشاعر الواحد بين قصيدة وأخرى وبين أبيات القصيدة الواحدة وكذلك فان هذه الصفة تعيب شعر الشاعر ولكنها لا تسقطه من عداد الشعراء٠

٤ ـ صحة الوزن العروضي : ان صحة الوزن العروضي ضروري لكن لا يفيض الجرجاني في مناقشته لكونه عاملا معروفا والعامي يستطيع أن يميز الوزن بسهولة وما يعتريه من كسر وزحافات وعلل ٠

٥ ـ قوة الاسلوب : لما كانت قوة الشعر تظهر من خلال اسلوبه فان الجرجاني يتناول الاسلوب من ناحيتين ٠

أ ـ يتناوله من زاوية داخلية فردية تتعلق بالعوامل الفطرية والنفسية التي تؤدي الى قوة الاسلوب ورقته (دماثة الكلام بقدردماثة الخلقة وسلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع) ٠

ب ـ زاوية تاريخية بيئية تتحدث عن عوامل نشوء الاسلوب وعوامل التطور والخروج عن هذا التطور (لين الحضارة وسهولة الطباع والأخلاق) ٠

٦ ـ عدم التكلف : التكلف عند الجرجاني عيب فادح لأنه يضر بالنسيج الشعري (ألفاظا واستعارات) وبالمعاني (صحة المعنى ومناسبته ووضوحه) والتكلف عنده نوعان فردي يكون عندما يحمل المرء على طبعه ماليس فيه وتاريخي عندما تخاطب عصراً وبيئة بألفاظ وأسلوب لايخصان العصر ولايتناسبان مع البيئة ويعتبر الجرجاني شعر أبي تمام نموذجاً لخيانة عصره ٠

وتنعكس عيوب التكلف على النسيج الشعري وعلى المضمون ٠

آ ــ عيوب النسيج الشعري :

١ ــ الاغراب في انتقاء الألفاظ ونبوها عن مواضعها في السياق ·

٢ ــ الالحاف في طلب البديع وغيره من علوم البيان وما ورد منه عفو الخاطر فهو جميل ومقبول ·

ب ــ عيوب المضمون :

١ ــ عدم مناسبة الكلام لمقتضى الحال·

٢ ــ التعمق في المعاني يبعد القارىء عن أغراض الشعر ويجعل الجرجاني التعقيد في الشعر على قسمين الأول بسبب خفاء معاني الشعر حيث بعض الألفاظ تموت فيغيب معناها عن الأجيال اللاحقة · والثاني يؤدي سوء النظم فيه الى خفاء المعنى واتساعه لتأويلات عديدة كما ينتج عن التكلف تفاوت في النسيج الشعري وينغص على المتلقي نشوته عند سماع الشعر ·

٧ ــ السرقة وأنواعها : يسهب الجرجاني في موضوع السرقات ويبين أنواعها ويظهر ما هو مباح وما هو محظور ·

ثالثاً ــ عمود الشعر :

لا شك أن الحديث عن الموهبة وطرق صقلها لم تمنع الجرجاني من البحث في الشعر المثالي · فالشعر حسب ما يرى يمثل كياناً قائماً بذاته وهو في معزل عن البديع والفكر. ويرى قوامه يتحدد بعمود الشعر · وهو عند الجرجاني يتحدد بعناصر تكوينية وعناصر جمالية وعناصر انتاجية ·

آ ــ العناصر التكوينية :

١ ــ شرف المعنى : أي سمو المعنى ومناسبته لمقتضى الحال ·

٢ ــ صحة المعنى : أي اشتماله على الصحة المنطقية وتمشيه مع مبدأ الجودة المثالية · أي تحويل الموصوف الى مثل أعلى في جنسه ·

٣ ــ جزالة اللفظ : وهي صفة تغلب على الاسلوب الذي لا هو بالضعيف الركيك ولا الغريب المعقد وهو ما أسماه الجرجاني (بالنمط الأوسط) وهو ما ارتفع عن الساقط السوقي وانحط عن الوحشي ·

٤ ــ استقامة اللفظ: وتعني دقة اللفظ في اداء المعنى وايحاءه وسهولته وألفته على الاسماع فلا يكون غريباً أو بعيداً عنها ·

ب ـ العناصر الجمالية :

١ ـ الاصابة في الوصف : والوصف فيعرف النقاد محاكاة وتمثيل لفظي للشيء الموصوف وهو اما وصف مادي أو وصفللمشاعر والأحاسيس ٠

٢ ـ المقاربة في التشبيه : والتشبيه لمحصلة بين أمرين حسيين أو متخيلينوالجرجاني يقرن الوصف بالتشبيه ٠

ج ـ العناصر الانتاجية :

ان استخدام تعبير العناصر الانتاجيةمنقبل الدارس يجافي الطبع ويجنف عن دقة الأمور ويغلظ على الذوق النقدي لذلك لابدمن استبدال هذا التعبير بتعبير ملائموأقترح عوضاً عنه قوة الطبع وتدفق القريحة كما يحلو للجرجاني ويتفق مع رهافة حسه وهي عادة توحي بالقدرة على الارتجال لما يتداعىالى الذهن من العبارة المأثورة وسرعة ردالفعل تجاه مختلف المؤثرات الخارجية ٠

د ـ بنية القصيدة عند الجرجاني :

ولقد رأيت أن لا نبحث هذا الموضوعتحت بند مستقل لأنه يشكل في رأيي تتمة وتكملة لعمود الشعر ويركز الجرجاني في هذاالصدد على مفاصل القصيدة ـ الاستهلال ـ الابتداء ـ التخلص ـ الختام ـ فالشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وتجميل الخاتمة وهي المواقف التيتستعطفأسماع الناس وتستميل قلوبهم الى الاصغاء وينضوي تحت هذا البند ما أسماهالجرجانيمفهوم وحدة القصيدة كما فعل عندما عرض قصيدة جرير ، والوحدة الفنية أو الشخصية الفنية حين نفى الأشعار المنسوبة الى الأقيشر لأنها لا تحمل ملامحه الأسلوبية لذلك قال بتقويم مجمل لانتاج الشاعر للحكم عليه ٠

الناقـــــد

حدد الجرجاني مهمة الناقد بالكشف عن الحقيقة الأدبية حول قيمة من القيم أو أديب من الأدباء ٠ والطبع عنده ميزانالنقدفالطبع السليم يلهم الناقد الحكم السليم٠كما أكد الجرجاني على الناقد المتخصص ذي الموهبة واشترط وجود الموهبة والدربةوالرواية والمعرفة بمقومات الشعر والتمرسبأساليبه.

ووضع قاعدة عامة في النقد وهي الحكمعلى مجمل العمل الأدبي عند الشاعر وليس من خلال قصيدة أو بيت فقال يخاطب الناقدالذي خرج عن الحدود النقدية (لم تزد على أحرف تلتقطها وألفاظ تتحملها ادعيت فيبعضها الغلط واللحن ووصفت بعضهابالتعسف والغثاثة ٠٠ ثم نفذت بهذه السمة الى جملةشعره فأسقطت القصيدة من أجل البيت

وعممت الحكم قبل استيفاء الحجة) كما عد أخطاء اللغة والنحو والوزن والبيان عيوباً في الشعر وليس عيباً في الموهبة انما هذه الجوانب تقل عند الشاعر الموهوب الذي يتعهد نفسه بالصقل والدربة الى الحدود الدنيا . وندر بل استحال من هو معصوم عن الخطأ .

وفي رأيه أن النحاة وعلماء اللغة والمعاني والفلاسفة لا يصلحون لأن يكونوا نقدة نزيهين بسبب تغليب جانب على جانب فقد تجد القصيدة محكمة الصنع والسبك وخالية من العيوب الظاهرية لكنها تنقصها الروح والرونق والنضارة .

والنزاهة في الحكم أهم صفة من صفات الناقد المتخصص والنزاهة صفة ذاتية تمثل شخص الناقد وتحدد موقعه كما أن التحامل والغفلة والعصبة تسقط الناقد .

ومن أهم القواعد التي أتى بها الجرجاني هي فصله بين الخلفية الدينية والأخلاقية والشعر، فلكل ميزان خاص به، وقواعد تضبطه فربما من يسقط في ميزان الأخلاق يرجح في ميزان الشعر ، ومن يرجح في ميزان الفكر والفلسفة يسقط في ميزان الشعر . كما وضع ميزان الوحدة العضوية والوحدة الفنية لبيان سلامة النسيج الشعري والمقدرة الفنية .

ويحبذ الجرجاني أن يسلك الناقد المنهج الاعتذاري لما ينطوي عليه هذا المنهج من خلق كريم وطبيعة سمحة وتهذيب محبب . وتلمح من خلال معالجاته أنه يلتمس العذر للشاعر ويطالب بالرفق بالحكم عليه قياساً على التسامح الذي قوبل به أسلافه السابقون وحين يسلم الجرجاني برداءة بعض الأبيات يتمحل لها الأعذار فيقول (لو وفيَ فيها التهذيب حقه ... لانقطعت عنه ألسن العيب) هو يعطي رأياً نقدياً ولكن بأسلوب فيه رقة الموادع ولطافة المحب .. وتمشياً مع مبدئه المهذب في المعالجة نراه يتحرج في الحكم على السرقة واذا تأكد من ذلك يقول لقد سبق الشاعر فلاناً الى هذا القول . ومن الملاحظ أن الجرجاني يطالب بافساح المجال أمام المحدثين والتماس العذر لهم ولا سيما وانهم سبقوا الى الألفاظ والمعاني . وفي النهاية لا بد من القول ان الجرجاني انسان خلوق وناقد بارع اتسم بالعدل والنزاهة وقدم نظرية متكاملة في النقد ما زال أريجها يفوح ويعبق .

★ ★ ★

تعقيب

للدكتور يحيى المصري استاذ النحو والصرف بكليّة الآداب من جامعة حلب

على موضوع : (النحاة ومصادر الأفعال)

للاستاذ صلاح الدين الزعبلاوي

وقد نشر في العدد (٣٣) من المجلة في تشرين الأول من عام ١٩٨٨ . قال الدكتور المصري :

١ ـ اننا نطالع في ص ٣٤ كتاب ابن القيم: بدائع **الفنون** ، وكذلك في ص ٣٥ ، ولا يخفى عليكم تسميته ، فهو « بدائع الفوائد » وليس بدائع الفنون .

٢ ـ نرى في منتصف الصفحة ٥٥ ما يلي : « ... وفي مقدمة **هؤلاء أبو البركات ابن الأنباري** (ت ٥٧٧ هـ) ... » .

يقوى في نفسي حذف لفظة (ابن) ، فتكون العبارة كما يلي : « وفي مقدمة هؤلاء أبو البركات الأنباري » ؛ لأن ابن الأنباري ـ كما هو معلوم ـ من رجال القرن الثالث الهجري (ت ٣٢٨ هـ) .

٣ ـ فرّق الأخ صلاح بين المصدر واسم المصدر من جهة **اللفظ فقط** ، وذلك في الصفحة ٣٥ تحت عنوان : خصوص اسم المصدر ؛ لأنّ ثمة فرقاً بينهما من جهة المعنى ، وقد افترق العلماء في ذلك على ستة مذاهب ، كان ذكَرَها المرحوم العلامة محمد الخضر حسين سنة ١٩٥٠ تحت عنوان : اسم المصدر في المعاجم . ونُشر البحث في الجزء الثامن من مجلة مجمع اللغة العربية ...

٤ ـ نرى في الصفحة ٣٦ تحت فقرة : الأسماء المصدرية . نرى الأخ قد ذكر خمسة ألفاظ فقط : (وضوء ، طهور ، ولوع ، قبول ، وقود) كان سيبويه ذكرها في الكتاب ٢/٢٢٨ بولاق ، ومِثلَه المبرد في المقتضب ٢/١٢٨ ، وابن عصفور ، كما في البحر ١/١٠٢ .

وأقول للفائدة : زاد الكسائي : الوزوع . قال أبو حيان : وينبغي أن يضاف الى ذلك : لغوب ، فتصير سبعة (البحر ٨/١٢٩) .

ثم رأيت الصاغاني في العباب ، مادة (لغب) يذكر : الدّحور ، فيكون العدد ثمانية ...

٥ ـ في ص ٣٨ تحت عنوان : جمع المصادر · لا بد من الاشارة الى أن تثنية المصدر وجمعه عند بعض النحويين جائزة قياساً ، وهو ظاهر كلام ابن جني في (اللّمَع ص ١٣٥) ، واليه ذهب ابن مالك ،كما في(المساعد على تسهيل الفوائد١/٤٦٦). قال أبو حيان في الهمع ٣/٧ « والتثنية أصلح من الجمع قليلا ، تقول : قمت قيامين ، وقعدت قعودين ، والأحسن أن يقال : نوعين من القيام ، ونوعين من القعود » ·

والقول بعدم قياس تثنية المصدر النوع هو ظاهر كلام سيبويه ، واختاره الشلوبين ، وابن أبي الربيع كما في كتابه (الملخص في ضبط قوانين العربية صفحة ٣٥٦) ·

هذا ، وقد عبّر الفارسي في (المسائل المنثورة ص ٣) عن سبب عدم تثنية المصدر أو جمعه « بأنه اسم يؤدي غرضاً من الجنس ، فاذا كان عبارة عن الجنس لم يجز أن تثنيه وتجمعه ؛ لأنه يستغرق به جميع ما تريد أن تذكره ، فاستغنيت عن ذلك » ·

٦ ـ في ص ٤١ تحت عنوان : القياس في جمع المصدر · أذكر ما يلي للفائدة :

أ ـ ذكر الفراء في موضعين من كتابه (معاني القرآن) أن المصدر يثنى ويجمع في ج ٢/٥٤ و ٤٢٤ · وفي موضعين أن المصدر لا يثنى ولا يجمع في ج ٢ ص ٢٦٣ ، وفي ج ٣/١٧٢ ·

ب ـ ان المصدر اذا اختلفت أنواعه لا يجمع بقياس واطّراد عند سيبويه وجمهور البصرة ·· وأجاز القياس فيه الفراء (معاني القرآن ٢/٤٢٤) · قال استاذي العلامة المرحوم محمد عبد الخالق عضيمة : « جاء جمع المصدر كثيراً في القرآن مما يرجّح مذهب الفراء » ثم ذكر الشيخ هذه الآيات :

ـ « ولي فيها مآرب أخرى » ٢٠ : ١١
ـ « والى الله ترجع الأمور » ٢ : ٢١٠
ـ « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » ٥٢ : ٣٣
ـ « فالوا أضغاث أحلام » ١٢ : ٤٤
ـ « وجعلناها رجوماً للشياطين » ٦٧ : ٥
ـ « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا » ٣٤ : ١٩
ـ « ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » ٣١ : ١٩
ـ « تبخلوا ويخرج أضغانكم » ٤٧ : ٣٧
ـ « وتظنون بالله الظنونا » ٣٣ : ١٠
ـ « أوفوا بالعقود » ٥ : ١
ـ « فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » : ٢٤٥

(كلام الشيخ عضيمة والاستشهاد من كتابه دراسات لأسلوب القرآن الكريم) ·

٧ ـ في ص ٤٤ تحت عنوان : اعمال المصدر

أقول : لم يتعرض الأخ صلاح الى ناصب اسم المصدر ، ففي نحو قوله تعالى :

« وتبتّل اليه تبتيلا » ، « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » نرى ـ مثلاً ـ أن حديث المبرد كان مجملاً في المقتضب ، الجزء الأول ، ولكنه في ج ١٨٤/٣ كان صريحاً في أن الناصب هو الفعل المحذوف ، وسيبويه مع المبرد . (الكتاب ٢٤٤/٢ بولاق) .

وقد نسب اليه ابن يعيش ١١٢/١ ، والرضي ١٠٤/١ أن الناصب هو الفعل المذكور .

أما السيوطي فقد نسب الى المبرد أن الناصب هو الفعل المحذوف . (الهمع ١٨٧/١) .

٨ ـ في ص ٤٥ تحت فقرة : السماع والقياس في مصادر الثلاثي .

ذكر صاحب البحث ما جاء في (المطلوب شرح المقصود /١ ـ ٢١ و ٢٢) أن « مصادر الثلاثي سماعية عند سيبويه ... » .

وأقول : ان سيبويه يقول في الكتاب ٢١٥/٢ بولاق = ٧/٤ هارون :

« وبعض العرب يقول : كَتْباً على القياس »

وقال في ٤/٤ هارون : « وقد قالوا على القياس : أتياناً »

وقال في ج ٢١٦/٢ = ٩/٤ هارون : « ضربها الفحل ضِراباً ، كالنكاح .

والقياس : ضَرْباً ، ولا يقولونه ، كما لا يقولون : نكحاً ، وهو القياس » .

ينظر (سيبويه ٢١٨/٢ ب = ١٥/٤ هارون ، و ٢٢٩/٢ بولاق = ٤٥/٤ط. هارون ، والمقتضب ١٢٧/٢ ، والخصائص ٦١/١ ، والمخصص ١٥٩/١٤ ، وشرح عمدة الحافظ لابن مالك ص ٧١٤) .

٩ ـ انه اذا وُصِف بالمصدر فلا يثنى ، أو يجمع ، أو يؤنث . تقول : رجل عزب ، وامرأة عزب ، ورجل خصم ، وامرأة خصم . (الأشباه والنظائر ٢٠٨/٤) .

★ ★ ★

ايضـــاح
حـول تعقيب الدكتور يحيى المصـري على موضوع
النحــاة ومصادر الأفعال
للأستاذ صلاح الدين الزعبـلاوي

قال الأستاذ الزعبلاوي :

اطّلعت على كلمة الدكتور يحيى المصري ، أستاذ النحو والصرف بكلية الآداب بحلب، وقـد علّـق بهـا على فصل (النحاة ومصادر الأفعـال) الذي نشـر لي ، في العـدد الثالث والثلاثين من مجلة التراث العربي ، كتب اللّهلهـا النمو والارتقاء ، وقـد صدر في تشرين الأول من عام ١٩٨٨ • وهذا ما بـدا لي أن أوضح به الرأي في هـذا التعقيب :

باشـر الأستاذ المصري كلمتـه بتقسيم(ملاحظاته) على تسع فقرات ، معـدداً بهـا ما ارتآه من اضافة وتصحيح • وكنت أرجو أن يستنّ بسنّة العلماء فيستفتح كلمته بتحيّة يسديهـا الى صاحب الفصـل • كما اعتـادالباحثـون أن يفعلوه ، كلمـا اتفق لهـم أن يتواصلوا في بحثمسألة من مسائل اختصاصهم• وقـد عرف الأستاذ المصري ، ولا شـك ، أني لا أقعـد عـن السعي في خدمة العربية كتابةوتأليفاً ، منذ أكثر من نصف قرن •

وهاك جوابي عما جاء في فقرات هـذا التعقيب :

١ ــ ذكر الأستاذ المصري في فقرته الأولى أن كتاب ابن القيّم هو (بدائع الفوائد) لا (بدائع الفنون) ، كما جاء في الفصل ، وقدأصاب في تنبيهه هـذا • على أني عـدت الى الأصل الأول الذي كتب بـه الفصل فوجـدتاسم الكتابقد جاء فيه على وجه الصحة (بدائع الفوائـد) • ولست أدري كيف حُرّف الاسمبعدئـذ ، فآل الى ما آل اليه ، واني لأعتـذر من هذا السهو على كل حال • ولكن ما الرأيفي الفقرات الأخرى ؟

٢ ــ ذكر الأستاذ المصري أنـه جـاء فيالفصل ، « وفي مقـدمة هؤلاء أبو البركـات ابن الأنباري » فقال: « ويقوى في نفسي حذفلفظة ــ ابن ــ فتكون العبارة : أبو البركات الأنباري » ، وأردف : « لأن ابن الأنباري كماهو معلوم مـن رجال القرن الثالث الهجري ، ت ٣٢٨ هـ » •

وهكذا ذهب الأستاذ الى أن صحة الاسمهو : أبو البركات الأنباري ، بحذف (ابن) ، ولم يذكر لماذا قوي هذا في نفسه • ونحن نرىأنه لم يوفّق في اعتراضه هذا ، ففي ما لدينا مـن المصادر القديمة والحديثة ما يثبت صحةما جئنا بـه • فهذا مثلاً ابن خلكان في كتابه المشهور (وفيات الأعيان) يقول : «ابن الأنباريالنحوي أبو البركات عبدالرحمن ــ ٣/١٣٩ » فيثبت لفظة (ابن) قبل الأنباري ولا يحذفها • بـل هـذا الامام السيوطي يقول في مواضع مختلفة من كتابه (المزهر) : « قال الكمال بنالأنباري في لمع الأدلة ــ ١/١٢٥ و ١/١٣٨ »،

ويقول أيضاً : « ألّف في الأضداد جماعة من أئمة اللغة منهم قطرب والتوّزي وأبو بكر بن الأنباري وأبو البركات بن الأنباري ـ ٣٩٧/١ » ، كما يقول: « الكمال أبو البركات ابن الأنباري عبدالرحمن ـ ٤٢١/٢ » فيثبت لفظة ـ ابن ـ كلما ذكر الاسم ، كما أثبتها ابن خلكان ، خلافاً لما قوي في نفس الأستاذ المصري.

أقول وهكذا فعل المؤلفون حديثاً كالدكتور مازن المبارك في كتابه (النحو العربي ـ ص/١٣٢) والدكتور محمد علي سلطاني في كتابه (فصول في النحو ـ ص/١٩) والدكتور عبدالعزيز عتيق في كتابه (المدخل الى علم النحو والصرف ـ ص/١٦١) والدكتور رمضان عبدالتواب في مقدمة كتاب (البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث) وهو لأبي البركات ابن الأنباري هذا ، وقد قام الأستاذ عبدالتواب بتحقيقه ، فما رأي القارىء ؟

أما قول الأستاذ المصري : « لأن ابن الأنباري من رجال القرن الثالث الهجري » ففيه نظر أيضاً . فالأستاذ لم يعرّف (ابن الأنباري) هذا الذي ذكره ولم يكشف عن اسمه ، فاذا كان هو أبا بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار ، وهو الغالب ، لأنه علم الكوفية المشهور ، فانه توفي عام (٣٢٧ هـ) على ما في معجم الأدباء لياقوت (ص/٣٠٦ـ٣١٣) أو عام (٣٢٨ هـ) كما في معجم المؤلفين (١٤٣/١١) وسواء ، لا عام (٢٢٨ هـ) كما حسب المصري !

٣ ـ ذكر الأستاذ المصري أني فرّقت بين المصدر واسمه من حيث اللفظ فقط ، ولم أفرق بينهما من جهة المعنى ، فما رأي القارىء اذا عاد الى الأصل فتحقق أني اجتزأت من الكلام على الفرق بينهما من حيث اللفظ ببضعة أسطر ، وبسطت القول في الفرق بينهما من حيث المعنى في أكثر من صفحتين كاملتين من صفحات الفصل ، ولو لم أجمل ما بسطت القول فيه تحت هذا العنوان .

٤ ـ لم يتبين الأستاذ المصري في هذه الفقرة ما عنيت بما جئت به من الألفاظ على زنة (فعول) وهي : الوضوء والطهور والوقود والقبول والولوع ، على وضوح ما عنيت . فقد تخيرت بهذا ألفاظاً من (فعول) ، جاء كل منها بفتح الفاء وضمها ، فكان أحد هذين الوجهين دالاً على المصدر والآخر دالاً على الاسم ، وهكذا فعلت فيما أوردته على زنة (فَعْل) بسكون العين كالغسل بالفتح وهو المصدر ، والغسل بالضم وهو الاسم ، فلا يكون الفارق في اللفظ بين المصدر واسمه في جميع الأمثلة غير حركة الفاء ، فحسب الأستاذ المصري أني أردت استقصاء ما جاء من مصادر (فَعول) بالفتح ، فاضاف ثلاثة ألفاظ ، لا يصح فيها ما صح في الألفاظ الخمسة التي أوردت ، وهي (اللغوب والوزوع والدحور) فماذا يكون الأستاذ قد فعل ؟

وهو لو استطاع باضافته هذه أن يستقصي حقاً ما جاء من (فعول) من المصادر بفتح الفاء ، مما لا يتصل بغرضنا من قريب أو بعيد ، لهان الأمر أيضاً ، لكنه لم يبلغ مآربه من ذلك ، وإلا فما باله لم يذكر من المصادر (الهويّ) مثلاً بتشديد الياء ، من قولك هَوَى الشيء يهوي هوياً اذا سقط من علو ، فقد جاء مصدراً بفتح الهاء وضمها ، وهو على (فعول) كما لا يخفى . فانظر الى ما جاء في المصباح : « ... ولا يوجد مصدر على فعول بالفتح الا ما شذ نحو الهوي من قولهم هوى الحجر هوياً والقبول والولوع والوزوع .. » وقد جاء مصدر الهويّ هذا بفتح الهاء وضمها في المصباح واللسان والتاج .. وان شاء

الأستاذ دللناه على مصادر بحثه هذا ومنها القاموس وشرحه وشوارد اللغة للصاغاني (ص/١٥) والمحتسب لابن جني (١/٤٨ و٢/٣٥١) وخاتمة المصباح ، ومزهر السيوطي وسواها ٠٠

٥ ـ حاول الأستاذ المصري هنا أن يضيف أيضاً ما حسب أنه جديد علينا فقال : « لا بد من الاشارة الى أن تثنية المصدر وجمعه عند بعض النحاة جائزة قياساً ٠٠ » وكلامه هذا يوهم بأننا لم نشر الى ذلك ، فجاء هو ينبه عليه ، واذا عاد القارىء الى الفصل تحقق بما لا ريب فيه ولا خفاء أننا ذكرنا ذلك صراحة وآكدناه واستشهدنا بقول صاحب الهمع (١/١٨٦) : « أما النوع ففيه قولان أحدهما أنه يثنى ويجمع وعليه ابن مالك ، قياساً على ما سمع منه كالعقول والألباب والعلوم ٠٠ » وقد جئنا على ذلك بكثير من الأمثلة ، وليعد الأستاذ ثانية الى ما بسطنا القول فيه تحت عنوان (القياس في جمع المصدر ، ما جمعه ابن جني من مصادر الفعل الثلاثي وما جمعه الزمخشري ، جمع البيان والبلاغ والعذاب ، جمع ما انتهى بالتاء من المصادر ٠٠) ليتبيّن ألا ّ وجه لاضافته !

وقد أضاف الأستاذ الى هذا فذكر ما قاله الفارسي في مسائله المنشورة من أن سبب عدم تثنية المصدر وجمعه هو استغراق الجنس ٠ واذا عدنا الى كتاب أبي علي الفارسي هذا وجدنا أنه ذكر ما ذكر تعليقاً على قول القائل(وحده) اذ قال : « انما نصبوا وحده في كل وجه لأنه جُعل في مواضع المصدر كأنه أراد :أفردته إفراداً » وهكذا شبه الفارسي قولك (وحده)وهو المصدر المنصوب، بالمصدر المؤكد، والمصدر المؤكد لا يثنى ولا يجمع لدلالته على الجنس ٠ وهذا ما ذكرنا في فصلنا بالحرف الواحد حين قلنا : « فالمصدر في قولك قمت قياماً وجلست جلوساً قد ماثل فعله من حيث دلالته على الحدث وجنسه دون تحديد فهو باق على مصدريته » فما الجديد الذي أتى به صاحبنا المصري في كل هذا ، وقد عالجنا الأمر فيه ، وفصّلنا القول تفصيلاً لا يكاد يكون فوقه زيادة لمستزيد ، ولم نقف فيما قلناه عند النصوص ، بل ذهبنا وراء ذلك ما وسعنا ، بكثير من التبصّر والتدبّر ٠

٦ ـ ذكر الأستاذ المصري أن الفراء أشار في موضع من كتابه (معاني القرآن) الى أن المصدر يثنى ويجمع (٢/٥٤ و ٢/٤٢٤)وفي موضعين آخرين أن المصدر لا يثنى ولا يجمع (٢/٢٣٦ و ٣/١٧٢) ، ولم يكشف عن سر ذلك ، وكأن شأن الأستاذ أن يدل على النص ولايعنيه بعد ذلك أن يستشف ما وراءه، أفاتخذ الفراء شرطاً لتثنية المصدر وجمعه فاذا تحقق الشرط امكن أن يثنى ويجمع ، والاامتنع ؟ أم نقض ما كان أثبته من القول فاستلزم الأمر ألا يؤخذ برأيه ، وهو حكم لا يصدق في إمام كالفراء ؟

ثم ذكر أن سيبويه وجمهور البصرة لم يأخذوا بقياس جمع المصدر ولو اختلفت أنواعه، خلافاً للفراء في كتاب (معاني القرآن-٢/٤٢٤) وأن أستاذه العلامة محمد عبدالخالق عضيمة ، رحمه الله ، قد رجح القول برأي الفراء لكثرة ما ورد في التنزيل من المصادر المجموعة،وقد أتى منها بأحد عشر مصدراً ٠٠أقول كل ما ذكره الأستاذ المصري لا يُغني عن معرفة متى يمكن جمع المصدر ، وهو ما لم يتعرّض له من قريب أو بعيد ، وقد ألحنا على ذلك بنصوص أثبتناها من الهمع وشرح الكافية والمفصّل والكليات والمصباح ٠٠ أما ما عدده أستاذه من المصادر المجموعة في التنزيل ، فقد عددنا منه الكثير مما جاء في التنزيل وعلى لسان العرب والأئمة الفحول ،وكنت أرجو أن يأتي الأستاذ المصري بنص

واحد يجمع فيه بين ذكر المصادر المجموعة والسر في امكان جمعها للأخذ بقياس الجمع هنا ، كلما توفر شرطه ، لكنه لم يفعل ! فأين الجديد في ما أضاف ؟٠

٧ ـ ذكر الاستاذ المصري أنني لم أتعرض لناصب اسم المصدر ٠ وفي الجواب عن ذلك أقول : ما حاجتي الى أن أتعرض لهذا ، وكل ما أنا بسبيل بحثه هو الكلام على إعمال المصدر ، وقد قلت : شرط إعمال المصدرعمل فعله متعدياً ولازماً بقاؤه على مصدريته بدلالته على حدثه وجنسه ، ذلك ليستقيم له أن ينوب عن فعله أو يحل محل الفعل المصحوب بأن أو ما المصدريتين محله ٠ وكان المعترض لم يتبين ما قصدته هنا أيضاً ، وقد دفعه حب الاضافة الى أن يضيف سواء اتصل ذلك بما نحن بسبيله من البحث أم لم يتصل !٠

٨ ـ علق الأستاذ المصري على ما جئنا به في باب (السماع والقياس في مصادر الثلاثي) فاسترعى نظره ما جاء في كتاب المطلوب شرح المقصود (ص/٢١ـ٢٢) من أن سيبويه قد قال بالسماع في هذه المصادر خلافاً للزمخشري القائل بالقياس ٠ فعمد الى نصوص من كتاب سيبويه يحاول بها أن يثبت أن سيبويه قد قال بالقياس في هذه المصادر ، خلافاً لما جاء في كتاب المطلوب ٠

وفي الجواب عن ذلك أقول : لو عاد المعترض الى كتاب (المطلوب شرح المقصود) ، وكان يحسن أن يعود اليه ، لـوَجَـدَ أن صاحب المقصود قد قسم مصادر الأفعال الى ثلاثية (أي مجردة) وغير ثلاثية فنسب السماع الى الأولى في مقابلة نسبة القياس الى الأخرى ، كما قسم مصادر الثلاثي الى غير ميمية وميمية فوسم الأولى بالسماعية والأخرى بالقياسية ، وهذا واضح لا خفاء به ٠

ثم جاء صاحب المطلوب يشرح هذا فيقول : « ان كل مصدر لم يثبت بالقياس على مصدر سُمع من العرب فهو سماعي ، وهذا انما يتصور في مصدر الثلاثي المجرد » ٠ وهذا واضح أيضاً معناه أن القياس لا يثبت ولا يعمل به ازاء المسموع من مصادر الثلاثي ، وهذا مذهب سيبويه حقاً ٠ ومضى صاحب المطلوب يعلل نسبة السماع الى مصدر الثلاثي فيقول : « لتعذر ضبطه حتى قيل ان مصدر الثلاثي لا يمكن تعداده لأنه يرتقي ، على ما ذكر سيبويه ، الى اثنين وثلاثين باباً٠ » ٠ ويردف : « فما تعذر ضبطه لكثرته أبقي على ما سُمع من العرب ، هذا مذهب سيبويه ٠ وأما مذهب الزمخشري فان مصدره قياس » ٠ وكلامه هذا لا لبس فيه ٠ فاذا قيل ان سيبويه قد أخذ بالسماع في مصدر الثلاثي فذلك يعني أن السماع لديه ها هنا يبطل القياس ، وأنه لا يعمل بالقياس حتى يُفقد السماع ، خلافاً للفراء والزمخشري فانهما يقولان بالقياس اذا لم يعرف السماع فاذا عرف أضافا اليه القياس أيضاً ٠

وقد جاء المعترض نفسه بنصوص من كتاب سيبويه تؤيد هذا الذي قلناه ، دون الذي أراده ٠ قال سيبويه : « وقالوا ضربها الفحل ضراباً كالنكاح ، والقياس ضرباً ، ولا يقولونه، كما لا يقولون نكحاً، وهو القياس » ٠ومعنى ذلك أن القياس أن تقول: ضربها الفحل ضرباً لا ضراباً ، لكن العرب قالت ضراباً ، ولم تقل في ذلك ضرباً ، فيؤخذ بالسماع ، أي بما قالت العرب ، دون القياس ٠

وهذا كلام الأشموني في المصدر الثلاثي (١٩٢/٢) ، قال : « والمراد بالقياس هنا أنه اذا ورد شيء ولم يعلم كيف تكلموا بمصدره فانك تقيس على هذا ، لا أنك تقيس مع

وجود السماع ، قال ذلك سيبويه والأخفش »٠وقال الصبّان في تعليقه على هـذا : « وذهب الفراء الى أنـه يجـوز القياس عليـه ، وان سمع غـيره »

وقصارى ما هناك أن سيبويه لم يأخـذ بمذهب القائلين بالقياس اذا وجـد السماع، فهو لذلك قائل بالسماع كلما خالفه القياس،لان السماع عنده يبطل القياس، وهذا ما أراده صاحب المطلوب، وعليه كلام سيبويه في الكتاب٠ على أن سيبويه لم يأخـذ بمذهب المنكرين للقياس اذا فقد السماع ، فهو قائل بالقياس مـن هذه الجهة وحـدها ، أي حـين يُفقـد السماع ٠ وقد نهج هذا النهج أبو علي الفارسي وابن جنـّي ، كمـا جـاء في كتـاب : (تصريف أبي عثمان المازني) ٠

وبعـد فاننا لم نـذكر ما ذكرناه هنـا لنوضح نصـاً اوردناه في مقالتنـا ٠ فالنص المعني واضح لكل متأمل ٠ وقـد جاء فيه أن الزمخشري يخالف سيبويه فيرى الأخذ بالقياس الى جانب السـماع ، اذا خالفـه السماع ،فسيبويه ، على هذا ، لا يرى الأخذ بالقياس حـين مخالفة السماع ٠ وانما ذكرنا في ردنا ما ذكرنا لنؤكد أن المعترض لم يتبـين النص المذكور ، في هذه الفقرة أيضاً ، فجاء اعتراضه بلا دليل ٠

٩ ــ وأخيراً حاول الأستاذ المصري ، على عادته ، أن يضيف الى ما قلناه شيئاً فذكر ما جاء في الأشباه والنظائر (٤/٢٠٨) : « واذا وصف بالمصدر لا يثنى أو يجمع أو يؤنث ٠٠» فنبه بذلك على وجوب الاشارة اليه ٠

أقول قد خلا فصلنا فعلاً مما ذُكر لأمر راعيناه بالتدبر ٠ ذلك أن بحثنا قـد تناول جمع المصدر مفرداً ، لا جزءاً مـن تركيب ،كما هو حال المصدر اذا وصف به ٠ فالوصف بالمصدر باب قائم برأسه ، لا بـد في معالجته مـن احصاء مسائله واستقراء دقائقه ، خلافاً لما يوهمه ظاهر النص الذي أتى بـه الأستاذ المصري ٠ وقـد مرَّ به الأئمة على عجل حيناً لكنهم بسطوا القول فيه بمباحث جزيلة مشبعة الفصول حيناً آخر ، وتباينت وجهاتهم في جواز جمـع المصادر اذا وصف بهـا ٠ وممن جـاء بتفصيل الكلام فيه الامام المرتضى في أماليـه (١٠٥/١) وابن جني في خصائصه (٢/٢٠٢ــ٢٠٨) والبغـدادي على شـرح بانت سـعاد (٣٦٧/١ : الاختلاف في جواز جمـع المصادران وصف بها) فضلاً عما جاء في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٧١ ٠

وبعد فقد صحَّ بما قدمنا أن لكل باحث أن يفصح عما بـدا له مـن القول في مباحث الآخرين ، على أن يكون طويل النـَّفـَس حسن التثبت فيما يتخذ مـن رأي ٠ ونحـن نشكر للأستاذ المصري ، على كل حال ، مسعاه هذا ،فقـد حملنا بتعقيبه على جـلاء جوانب مـن البحث اللغوي، ولو لم تتصل بموضوعنا الأول في كل حين ٠ ونود أن ننبه على أن الاستكثار من نصوص الأئمة لا يجدي فتيلاً ، ما لم نعمد فيه الى معارضة النص بالنص ، وبسط الموجز من هذه النصوص وحل مشكلها والكشف عن أغراضها ومقاصدها ٠ وعلينا الا نكتفي بعد ذلك بحفظ ما أثر عـن النحـّاة لنشير برأي أسلافنا ونتكلم بكلامهم في كل حين ، فانه لا بد مـن انعام النظر فيما انتهوا اليه من حكم ،وتصريف الفكر فيما استنّوا من قياس ، فلا يكون اقبالنـا على التراث إقبـال محاكـاة واحتذاء ، بل إقبال معالجة واصطفاء ٠ وبهذا وحده يمكن أن ننهج في تأسيس معاصرة لغوية على أسس قويمة من الأصالة ودعائم محكمة من التراث ، والله من وراء القصد ٠